دار المسجد

رواية

@ketab_n
Follow Me
ketab.me
Best Books
25.11.2012

قادر عبد الله

ترجمة: د. المبروك المنصوري

دار المسجد

قادر عبد اللّه

ترجمة: د. المبروك المنصوري
مراجعة: د. أبو يعرب المرزوقي

ketab.me
Best Books

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

دار المسجد
قادر عبد اللّه

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

PT5881.1.B36 H8512 2009
Abdolah, Kader, 1945-
[Het huis van de moskee]

دار المسجد/ تأليف قادر عبد اللّه؛ ترجمة د. المبروك المنصوري؛ مراجعة أبو يعرب المرزوقي.
- ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
347 ص؛ 24x17 سم.
تدمك: 978-9948-01-503-1
1 - القصص الهولندية- الترجمة إلى العربية.
2 - ايران - تاريخ.
أ - المنصوري، المبروك. ب- المرزوقي، أبو يعرب.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Kader Abdolah, Het huis van de moskee
© 2005 Copyright by Uitgeverij De Geus BV, Amsterdam
© Copyright der deutschsprachigen Ausgabe:
2007 Ullstein Buchverlage GmbH, Berlin

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 300 6215 2 971+ ، فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

النّمل	11	ليزار	176
دار المسجد	15	الأفيون	184
النّوروز	24	سنوات هادئة	195
جلجل	31	التّلفاز	201
العرس	44	الجراد	205
الأسماك	52	الوقت	211
العباءة	58	باريس	220
العائلة	64	طهران	228
الخُطبة	76	القاضي	237
السّينما	83	الحمار	246
الطّيور	103	البقرة	256
جانشين	109	الحرب	268
زينات	115	الجبال	286
الكعبة	124	الحكيم	294
اقرأ	133	المجاهدون	298
غرفة الكنوز	140	الطيّارة	305
الخيال	148	المصوّر	310
الحجّ	152	السّابقون السّابقون	318
العودة	160	جنّات النّعيم	326
حرب العصابات	165	نُورٌ عَلَى نُورٍ	343

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إلى أغاجان

ليسافر بسلام

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾

سورة القلم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

النّمل

ألف، لام، ميم. كانت في قديم الزّمان دار، دار قديمة تُسمّى «دار المسجد». كانت الدّار كبيرة تحوي خمسا وثلاثين غرفة، سكنتها عائلات متصاهرة لقرون، وخدمت المسجد. وكانت لكلّ غرفة من الغرف وظيفة محدّدة واسم مناسب لهذه الوظيفة. فنجد مثلا غرفة القبّة، وغرفة التّدخين، وصالون الدّردشة، والقاعة ذات الزّرابي، وغرفة التّمريض، وغرفة الجدّة، والمكتبة، وغرفة طائر الزّاغ.

تستند الدّار إلى الجانب الخلفيّ من المسجد. وفي إحدى زوايا الباحة الدّاخليّة تعلو دُرَجٌ حجريّة تؤدّي إلى السّطح، ومنه يلج سكّان الدّار إلى المسجد مباشرة. ويتوسّط الباحة حوضٌ مُخَمَّسٌ يتوضّأ منه سكّان الدّار للصّلاة.

في الفترة الّتي نتحدّث عنها كانت الدّار تُؤوي ثلاث عائلاتِ أبناءِ عمومة: عائلة أغاجان، التّاجر الّذي يدير البازار التّقليديّ للمدينة، وعائلةِ الصّابري، إمام الدّار ووليّ الجامع، وعائلةِ أغاشوجا، مؤذّن المسجد.

كان الوقت صباح جمعة في مطلع الرّبيع. الشّمس رائقة والحديقة تُصدر رائحة أرضيّة عطرة، والأشجار قد اكتست أوراقا يانعة. وازدانت النّباتات ببراعمها الأولى. وكانت العصافير تطير من غصن إلى آخر مزقزقة للحديقة. والجدّتان تقتلعان نباتات الشّتاء الميّتة. والأطفال يطاردون بعضهم بعضا ويختبئون خلف الأشجار الضّخمة.

كان جيش من النّمل قد خرج من تحت جدار هرم وغطّى الرّصيف المحاذي لشجرة الأرزّ العتيقة كأنّه بساط رماديّ متموّج. تدافع ذَرُّ النّمل ليرى الشّمس ويحسّ حرارتها على ظهوره لأوّل مرّة. وكانت قطط الدّار مستلقية قرب الحوض تراقب من بعيد هذا العدد الهائل من النّمل في اندهاش. وكفّ الأطفال عن اللّعب ونظروا إلى هذه الأعجوبة المتنقّلة على الرّصيف. وتوقّفت العصافير عن الزّقزقة وحطّت على أغصان شجرة الرّمّان ومدّت أعناقها متابعة حركة النّمل.

Twitter: @ketab_n

وتصايح الأطفال «جدّتاي تعاليا وانظرا».

كانت الجدّتان مشغولتين في الجهة الأخرى من الدّار فلم تستجيبا لهم. فصرخت إحدى الفتيات الصّغيرات «تعاليا وانظرا، هناك ملايين من النّمل». فجاءت الجدّتان.

- لم أرَ أبدا شيئا كهذا! قالت إحداهما.

- لم أسمع أبدا عن شيء كهذا! ردّت الأخرى.

ووضعت الجدّتان يديهما على فِيهَيْهِمَا انْدِهَاشًا. وكانت كتلة النّمل تتوسّع وتتوسّع مغطّيةً الرّصيفَ حتّى تعذّر عبوره للوصول إلى الباب الرّئيسيّ. وتسارع الأطفال إلى مكتب أغاجان في الجهة الأخرى من الباحة قائلين: «أغاجان! تعالَ! ساعدنا! النّمل!».

أبعد أغاجان السّتار ونظر إلى الخارج قائلا: «ماذا هناك؟».

- تعالَ رجاء! بعد قليل لن نستطيع الخروج! النّمل! ملايين من النّمل تتّجه نحو الدّار!

- أنا قادم.

ألقى عباءته على كتفيه، ووضع قبّعته على رأسه وتبع الأطفالَ. شاهد أغاجان عجائب كثيرة في هذه الدّار، ولكنّه لم يرَ شيئا مماثلا أبدا. وقال للأطفال:

- هذا يذكّرني بالنّبيّ سليمان! خروج النّمل جُموعا بهذا الشّكل علامة على حدوث أمر جَلَلٍ. إذا أنصتنا جيّدا يمكن أن نستمع إلى حديث النّمل. نحن لا نفهم لغة النّمل. كان النّبيّ سليمان يُعرف لغة النّمل، أمّا أنا فلا أعرف. أظنّ أنّ النّمل يقوم بشيء ما، ربّما يحتفل أو ربّما طرأ تغيير على مسكنه؛ تغيير سببه فصل الرّبيع.

- افعل شيئا ما، قالت جُليبة، الجدّة الصّغرى، أعِدِ النّمل إلى مسكنه وإلّا دخل الدّار.

ثمّ تدخّلت جُلبانو، الجدّة الكبرى، بدورها قائلة:

- اقرأ آية سليمان[1] مكلّم النّملِ؛ النّملِ الّذي غطّى كامل الوادي، حتّى إنّ سليمان

---

1 المترجم: في الأصل «سورة سليمان»، وقد كانت تسمى سورةُ النّمل سورةَ سليمان أيضا، ولكن بما أنّ سورة النمل قد ذُكرت لاحقا في كلام الجدّة فالأصوب ما أثبتناه في المتن.

Twitter: @ketab_n

وجيشه لم يستطيعوا العبور، أو اقرأ سورة النّمل؛ السّورة الّتي كلّم فيها النّبيّ الهدهد حين حمل إليه رسالة حبّ من ملكة سبأ.

انتظر الأطفال جواب أغاجان يغمرهم الفضول.

- اقرأ سورة النّمل قبل أن يفوت الأوان، وادعوا الله ليعود النّمل إلى مسكنه.

ونظر الأطفال إلى أغاجان.

- اقرأ رسالة الحبّ وإلّا غزا النّمل الدّار.

وخيّم الصّمت على المكان.

- اذهب واتني بقرآن، قال أغاجان.

ركض الطّفل شهبل نحو الحوض وغسل يديه ومسحهما بخرقة معلّقة على حبل الغسيل، وسارع الخطى إلى مكتب أغاجان، وعاد بنسخة قديمة من القرآن وقدّمها إلى أغاجان. تصفّح أغاجان المصحف باحثا عن سورة النّمل، وتوقّف عند الصّفحة السّابعة والسّبعين بعد الثّلاثمائة. وانحنى وبدأ يرتّل:

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ [16] وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [17] حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [18] [سورة النمل]

نظر الجميع صامتين منتظرين ليروا كيف سيتصرّف النّمل.

واصل أغاجان ترتيله وذهبت الجدّتان لجلب مبخرتين، ووضعتا بعضا من بخور الإصفند على الجمرات الباهتة فأحدثتا سحابتين من الدّخان العطر. وجثتا على ركبتيهما بالقرب من أغاجان ونفختا الدّخان نحو النّمل وهما تهمهمان «سليمان، سليمان، سليمان، النّمل، النّمل، الوادي، الهدهد، الهدهد، ملكة سبأ، سبأ، سبأ، سبأ، سليمان، سليمان، سليمان، هدهد، نمل، نمل، نمل، نمل».

صمت الأطفال منتظرين ما عسى النّمل يفعل. وفجأة توقّفت الدّواب الصّغيرة عن الحركة وكأنّها كانت تسمع، وكأنّها تريد أن تعرف مَن كان يرتّل ومن كان ينفخ عليها هذا الدّخان العطر. وقالت جلبانو: «والآن، هيّا أيّها الأطفال فالنّمل يعود من حيث أتى، اتركوه بسلام».

Twitter: @ketab_n

صعد الأطفال إلى الطّابق العلويّ وكمنوا وراء الزّجاج ناظرين هل إنّ النّمل سيعود فعلا من حيث أتى.

وبعد عدّة سنوات، عندما غادر شهبل البلاد وعاش في المهجر روى هذه الحادثة لأصدقائه. أخبرهم عمّا رآه بأمّ عينيه، بعد قراءة السّورة: انسحب النّمل مثل شرائط رماديّة طويلة واختفى داخل فتحات الجدران القديمة.

دار المسجد

ألف، لام، راء. ولّت سِنون. ولم نعد نرى النّمل يخرج بذلك العدد الهائل من تحت الجدران الهرمة. وصار الحدث ذكرى. تتابعت الحياة في هذه الدّار التّقليديّة. وكانت الجدّتان، كما في كلّ الأمسيات، منهمكتين في المطبخ. سيعود الصّابري؛ إمام الجامع، قريبا إلى الدّار وعليهما أن تعدّاه لصلاة العشاء.

طار الزّاغ العجوز وهو ينعب فوق السّطوح. توقّفت عربة الخيل أمام الدّار. ففتحت جلبانو الباب للإمام الصّابري. سلّم الحوذيّ العجوز على الجدّة وغادر لأنّ البلديّة كانت قد منعت وجود الخيول في المدينة. يمكن للحوذيّين أن يمتلكوا سيّارات أجرة بإعانة ماليّة من البلديّة إذا كانت لهم رُخص قيادة. ولكنّ هذا الحوذيّ العجوز لم يستطع الحصول على رخصة. تدخّلت هيئة الجامع لدى العمدة ليسمح له بأن يكون حوذيّ المسجد لأنّ الصّابري كان يعتبر سيّارات الأجرة غير رائقة ولا يليق بإمام أن يتنقّل في سيّارة أجرة مثله مثل أيّ علمانيّ.

كان الصّابري يتعمّم بعمامة سوداء دليلا على صلة نسبه بالرّسول محمّد، ويرتدي عباءة بُنّيّة طويلة خاصّة برجال الدّين. شارك في حفل زفاف إحدى عائلات الأعيان وبارك الزّواج. كان الأطفال يدركون أنّه لا يجوز لهم الاقتراب كثيرا من إمام المسجد. وفي كلّ ليلة كان يَؤُمّ مئات الأشخاص في الصّلاة. ولا يجوز لأيّ شخص أن يلمسه قبل أداء الصّلاة.

«السّلام عليكم»، قال الأطفال

- وعليكم السّلام، ردّ الإمام باسما.

فيما مضى، عندما كان يُحضر الحلوى للأطفال، كان يعطي الكيس إلى إحدى الفتيات الصّغيرات، فيختفي الأطفال راكضين ويتابع طريقه إلى المكتبة. ولكن الآن، وقد كبروا، لم يعودوا يهرولون للقائه. فكان يعطي الكيس إلى الجدّتين لتوزّعا عليهم محتواه.

وما إن يدخل الإمام الدّار حتّى تغسل الجدّتان يديهما وتجفّفانهما وتذهبان إلى المكتبة

Twitter: @ketab_n

لتقودا الإمام إلى بيت الاستحمام. ويحدث كلّ هذا في صمت. فتنزع عنه إحدى الجدّتين عمامته بلطف وتضعها على الطّاولة، وتساعدها الأخرى في نزع ثوب الصّلاة وتعلّقه على مشجب. ولم يكن الإمام يفعل شيئا، فلم يكن يلمس ثيابه. وهذا ما كانت الجدّتان تتذمّران منه إلى أغاجان: «لا يمكن لهذا أن يستمرّ. إنّ ما يقوم به، ما يفرضه، ليس عاديّا، وغير صائب. لم تعرف هذا الدّار إماما مثل هذا. جيّد أن يرغب في النّظافة، ولكنّه يبالغ كثيرا. فهو لا يلمس حتّى أطفاله أنفسهم، ولا يأكل إلّا بملعقة يحملها دائما في جيبه. لا يمكن لهذا أن يستمرّ».

وكانت الجدّتان تنقلان إلى أغاجان كلّ ما يحدث في الدّار، حتّى الأسرار الّتي لا يجوز لأحد أن يعرفها تنقلانها.

في الحقيقة، لم تكن الجدّتان جدّتين فعليّا. لقد كانتا خادمتين للدّار حيث كانتا تعيشان لأكثر من ستّين عاما. كانتا شابّتين حينما أحضرهما والد أغاجان، ولم تغادرا الدّار منذ ذلك اليوم. لا أحد يعرف من أين جاءتا، فهما لا تتحدّثان مطلقا عن ماضيهما. ولم تتزوّجا قطّ. ولكنّ كلّ سكّان الدّار كانوا يعرفون أنّ لكلتيهما علاقات سريّة مع عمّ أغاجان. فعندما كان يأتي إلى الدّار كان يختلي بهما.

كانت الجدّتان جزءا رئيسيّا من الدّار، فهما مثل طائر الزّاغ وشجرة الأرزّ والأقبية. ربّت إحداهما الإمام وربّت الأخرى أغاجان. وكانتا مؤتمنتي أغاجان وحافظتي عادات الدّار.

كان أغاجان تاجر زَارَبٍ ويمتلك أقدم مغازة في مدينة سِنْجَانْ، ويوظّف أكثر من مائة عامل. وكان لديه عدا عن ذلك فريق من مزخرفيّ الزّرابي يضمّ سبعة رسّامين. يوجد البازار داخل المدينة ويمكن دخوله من عدّة أبواب. وتتشابك أنهج ضيّقة مغطّاة بأسقف مقبّبة. مئات من الدّكاكين الصّغيرة تلاصق إحداها الأخرى. وبمرور الزّمن صارت البازارات أهمّ المراكز الماليّة للبلاد. ويوجد في المغازات آلاف التّجّار الّذين يتاجرون أساسا في القماش والذّهب والحبوب والزّرابي والمعادن المصقولة.

لقد لعب تجّار الزّرابي على مرّ الأزمان دورا مهمّا في تاريخ البلاد. وكان أغاجان يحتلّ مكانة مرموقة بينهم لأنّه كان في الوقت نفسه كبير المسجد وأمين البازار.

تتميّز زاربي مغازة أغاجان بزخارفها البديعة وألوانها المدهشة. وتساوي الزّرابي الّتي تحمل شعاره ذهبا، فهي زرابي الأعيان. وكان تجّار محدّدون يحجزونها مسبقا بفترة طويلة لزبائن مخصوصين في أوروبا وأمريكا.

Twitter: @ketab_n

كانت زخارف الزّرابي فريدة من نوعها. ولا أحد يعرف مصدر هذه الرّسوم غير القابلة للمحاكاة، ولا كيف كانت تُمزج هذه الألوان البديعة. كان هذا سرّ الدّار وسبب علوّ شأن المغازة.

لم يكن لكلّ دار في ذلك العهد حمّامها الخاصّ بَعْدُ. كان النّاس يرتادون أحد الحمّامات العموميّة الثّلاثة الكبرى. ويرتاد الرّجال عادة أقدم هذه الحمّامات، وهو يحوي مكانا مخصّصا لإمام المسجد. ولكنّ الإمام الصّابري كان لا يرغب في الخوض في هذا الموضوع. كان يرفض أن تطأ قدماه حمّاما عموميّا يغتسل فيه عشرات الرّجال. وفكرة أن يتجوّل عاريا وسط بقيّة المغتسلين تُشعره بالمرض. ولهذا طلب أغاجان من بنّاء أن يبني للإمام حمّاما في الدّار ذاتها. ولم يكن البنّاؤون قد شيّدوا غير الحمّامات العموميّة. فحفروا حفرة داخل غرفة متّصلة بالمكتبة وبنوا للإمام بيت استحمام متميّز.

جلس الصّابري اليوم كعادته على الصّخرة مرتديا سرواله الأبيض الطّويل وصبّت إحدى الجدّتين إبريق ماء ساخن على رأسه.

«باردا!، صرخ الإمام، ماءً باردا».

لم تحرّك الجدّتان ساكنا. وطلت جُليبه ظهره بالصّابون وسكبت جلبانو الماء على كتفيه بتأنّ حتّى لا تلطّخه. وبعد أن نَسَكَتَاهُ، ساعدتاه في الدّخول إلى المغطس. ولم يكن المغطس عميقا. فتمدّد وغاص تحت الماء لفترة طويلة. وعندما طفا كان وجهه داكنا. فساعدته الجدّتان على الوقوف. ووضعتا بسرعة منشفة إسفنجيّة كبيرة على ظهره وأخرى حول وسطه ورافقتاه إلى المدفئة. نزع عنه سرواله المبتلّ على مضض وأسرع في ارتداء سروالٍ آخر نظيف. وجفّفت الجدّتان شعره وألبستاه قميصا مدخلتين يديه في الأكمام. ثمّ أرجعتاه إلى المكتبة.

أجلستاه إلى مقعد وتفقّدتا أظافره على ضوء قنديل. وقلّمت إحدى الجدّتين طرف ظفر سبّابته. ثمّ أكملت الجدّتان إلْبَاسَهُ ووضعتا عمامته على رأسه ونظّاراته على عينيه ومسحتا حذاءه بخرقة قماش.

صار الإمام جاهزا الآن للذّهاب إلى المسجد. فاتّجهت جلبانو إلى شجرة الأرزّ، وقد كان معلّقا عليها جرس قديم وحرّكته. كان صوت الجرس موجّها إلى حارس المسجد؛ وما إن سمعه حتّى ظهر على السّطح ونزل الدّرج وذهب إلى المكتبة متّبعا الرّصيف المحاذي للصّالون.

Twitter: @ketab_n

لم يكن يرى الجدّتين قطّ. فعندما يدخل كانتا تختبئان وراء رفوف الكتب، ومع ذلك كان يحيّيهما دائما وكانتا تردّان التّحيّة من وراء الرّفوف. ويأخذ الحارس الكتب الّتي وضعها الإمام على الطّاولة ويرافقه إلى المسجد.

كان الحارس يتقدّم الإمام حتّى لا يهاجمه أحد الكلاب، وكان الإمام يثق فيه. فهو، بالإضافة إلى الجدّتين، الوحيد الّذي يحقّ له أن يلمسه، أن يناوله شيئا ما أو يأخذ شيئا من بين يديه. وكان الحارس نظيفا نظافة الإمام؛ فهو أيضا لا يذهب إلى الحمّام العموميّ للمدينة، فقد كانت زوجته تُحَمِّمُهُ في دَنّ كبير في البيت.

كان جَمْعٌ من الرّجال ينتظرون الإمام أمام المسجد ليرافقوه إلى المُصلّى. وقد اعتاد أعيان المدينة أن يصلّوا وراء الإمام في الصّفّ الأوّل. وما إن يروا الإمام حتّى يردّدوا «الصلاة على محمد رسول الله».

قام مئات المصلّين وأفسحوا له المجال ليمُرّ. فذهب الإمام ليجلس في مكانه المعتاد ووضع له الحارس كتبه على طاولة منخفضة إلى جانبه. ولم يبق إلّا أن يذهب المؤذّن ليقف على المَرْقَاة العليا للمنبر القديم للمسجد ويقيم الصّلاة قائلا: «الله أكبر حيّ على الصّلاة، الله أكبر، حيّ على الصّلاة». وكان المصلّون يعلمون أنّ الصّلاة تبدأ حينما يضع قدمه على مرقاة المنبر نازلا.

كان المؤذّن يدعى أغاشوجا، وهو ابن عمّ لأغاجان. وكان أعمى وكان صوته جميلا. يصعد إلى إحدى صومعات الجامع ثلاث مرّات في اليوم وينادي «حيّ على الصّلاة». كان ينادي للصّلاة في الفجر والثّانية عند الظّهر والثّالثة عند المغرب. لا أحد يناديه باسمه الحقيقيّ، فقد سمّوه المؤذّن تشريفا. وصار ذاك لقبه حتّى في بيته.

صاح المؤذّن «الله أكبر». فقام المصلّون واستداروا نحو مكّة. كان يصعب على أعمى أن يكون مؤذّنا لأنّه على المؤذّن أن يرى الإمام حين يركع ويسجد وعندما يستوي واقفا من جديد. ولكنّ ذلك لم يكن ضروريّا بالنّسبة إلى أغاشوجا إذ كان الإمام يرفع صوته قليلا حين يركع أو يسجد.

للمؤذّن ابن عمره أربع عشرة سنة يسمى شهبل، وبنت متزوّجة تسمى شاهين. ماتت زوجته بسبب مرض عضال ولم يرغب في الزّواج مرّة أخرى، غير أنّه كان يقابل أحيانا نساء في الجبال. كان من وقت لآخر يرتدي أفضل ثيابه، ويضع قبّعته ويأخذ عكّازه ويختفي لبعض

Twitter: @ketab_n

الوقت. وأثناء غيابه يصير ابنه شهبل مؤذّن المسجد. فكان يصعد إلى الصّومعة ويؤذّن.

وبعد الصّلاة كان رجال البازار يرافقون الإمام الصّابري إلى منزله، بينما يبقى أغاجان في المسجد إلى وقت متأخّر يحادث المصلّين، وكان آخر من يعود إلى المنزل عادة. والليلةَ تحدّث قليلا مع الحارس في ترميم القبّة. وفي طريق العودة ناداه شهبلُ ابنُ أخيه قائلا:

«أغاجان هل يمكنني التّحدّث إليك؟

- طبعا يا ولدي.

- هل ترافقني في نزهة قصيرة إلى النّهر.

- إلى النّهر؟ ولكنّهم ينتظروننا الآن، إنّه وقت العشاء.

- أعلم، ولكنّ الأمر مهمّ».

وترافقا نحو نهر سفجاني المنساب بهدوء بُعيد مسافة من هنا.

في الحقيقة لا أعرف كيف أشرح لك الأمر، فلا تستعجل حتّى تسمع كامل القصّة.

- تحدّث يا بني.

- إنّ الأمر يتعلّق بالقمر.

- القمر؟

- كلّا ليس بالقمر، ولكن بالتّلفاز، الإمام.

- التّلفاز؟ القمر؟ ماذا تريد أن تقول؟

- نحن، أريد أن أقول إن الإمام يجب عليه أن يعرف كلّ شيء. عليه أن يطّلع على كلّ ما يدور حوله، والصّابري لا يقرأ إلّا الكتب الموجودة في مكتبته، وكلّها كتب قديمة تعود إلى قرون خلت. إنّه لا يقرأ الجرائد. إنّه لا يعرف شيئا عن... عن القمر مثلا.

- أَفْصِحْ. ما الّذي على الصّابري أن يعلمه عن القمر؟

- كلّ النّاس يتحدّثون اليوم عن القمر. في المدرسة، في البازار، في الشّارع، ولكن في دارنا لا يحقّ لنا الحديث عن مثل هذه المواضيع. هل تعلم ما سيحدث بعد هُنيهة؟

Twitter: @ketab_n

- ما الّذي سيحدث؟

- سيحطّ الإنسان هذه الليّلة على سطح القمر وأنتم لا تعلمون شيئا. قد يكون الأمر غير مهمّ عندك وعند الصّابري أيضا، ولكن الأمريكيّين يريدون أن يغرسوا علمهم على سطح القمر وإمام المدينة لا يعلم عن الأمر شيئا. لا يذكر هذا الأمر في خُطَبه. كان عليه أن يتحدّث عن هذا الأمر قليلا هذا المساء ولكنّه لا يعرف عن هذا الأمر شيئا، وهذا ليس جيّدا لمسجدنا. علينا أن نتحدّث في المسجد عمّا يعيشه النّاس. (توقف أغاجان برهة، بينما تابع شهبل) المشكل أنّني سبق وأن تحدّثت في الأمر مع الصّابري ولكنّه رفض الاستماع إليّ لأنّه لا يؤمن بهذه الأشياء ومثيلاتها.

- ماذا عسانا فاعلين حسب رأيك؟

- هذه الليلة نستطيع أن نتابع هبوط الإنسان على سطح القمر في التّلفاز. أريدك أن تكون أنت والصّابري شاهدين على هذا الحدث التّاريخي.

- أين؟

- في التّلفاز

- هل علينا أن نشاهد التّلفاز، قال أغاجان متعجّبا. هل على إمام المدينة أن يشاهد التّلفاز؟ هل تعي ما تقول يا بُنيّ؟ عند بداية انتشار التّلفاز حذّرنا المصلّين من أعلى المنبر ونصحناهم بعدم مشاهدة صور الشّاه، هذا الحاكم الفاسد، وصور الأمريكيّين. والآن تريدنا أن ننظر بتمعّن في علم الأمريكيّين. أنت تعلم أنّنا نعارض الشّاه ونعارض الأمريكيّين الّذين أعادوا تنصيبه على العرش. ماذا نفعل برأس الشّاه وبعلم الأمريكيّين في بيتنا؟ لماذا تريد أن تُجلسنا أمام التّلفاز؟ إنّ التّلفاز وسيلة قمع أمريكيّة؛ فهم يحاربون ثقافتنا وديننا بهذه الأجهزة. لقد سمعت تفاهات كثيرة في التّلفاز؛ برامج بذيئة تفسد الرّوح.

- ما تقوله ليس صحيحا، ليس صحيحا كلّه. توجد أيضا برامج مهمّة مثل برنامج الليّلة. حريّ بك أن تشاهد ذلك. ولأنّنا نعارض الشّاه ونعارض الأمريكيّين يتوجّب علينا أن نشاهد تلفازهم. هذه الليّلة سيذهب الأمريكيّون إلى القمر. أنت الرّجل الأهمّ في المدينة وعليك أن ترى ذلك. سأضع ملتقط إرسال على السّطح.

- أتريد أن تضع ملتقط إرسال فوق دارنا. غدا سيستهزئ بنا أهلُ المدينة جميعُهم قائلين: «هل رأيتم الملتقط فوق دارهم».

Twitter: @ketab_n

- سأضعه في مكان لن يلمحه منه أحد.

فوجئ أغاجان بالتماس شهبل هذا الالتماس. كان الولد يعرف جيّدا موقف سكّان الدّار من هذه القضيّة ولكنّه جرؤ على الدّفاع عن أرائه. وكانت تلك من الصّفات المميّزة لشهبل، أدركها أغاجان فيه منذ صباه وكان معجبا بابن أخيه إعجابا كبيرا.

كان لأغاجان بنتان وولد. وكان ولده أصغرَ من شهبل بسنوات خمس. ولكنّ أغاجان يرى في شهبل الرّجل الأقدر على خلافته في البازار مستقبلا. فكان يعمل على إشراكه في أمور الدّار المهمّة، ويحبُّه حُبَّه لابنه، وربّاه على ما يمكنه به أن يحُلّ محلّه في آجل الأيّام. بعد المدرسة كان شهبل يتوجّه مباشرة إلى مغازة أغاجان فيطلعه أغاجان على سير أمور البازار. وكان يحدّثه عمّا اتّخذه من قرارات وعن تلك الّتي ينوي أن يتّخذها ويطلب رأيه في ذلك.

والآن يتحدّث شهبل عن التّلفاز والقمر. شكّ أغاجان في أن تكون الفكرةُ فكرةَ نُصْرَتْ؛ أخيه الأوسطِ السّاكنِ طهرانَ.

وعندما عاد أغاجان إلى الدّار قال للجدّتين «سأتعشّى مع الإمام في المكتبة. لي ما أخبره به، فلا يقاطعنا أحد». وذهب إلى المكتبة حيث كان الإمام جالسا على بساطه يقرأ كتابا. فقال الإمام مبتسما: «كتاب عن خديجة زوجة الرّسول. لقد كانت تملك ثلاثة آلاف جمل في أيّامها؛ أي لنقل ما يساوي ثلاثة آلاف شاحنة صغيرة. ثروة طائلة! الآن فهمت. كان محمّد شابا وفقيرا وكانت خديجة كبيرة وغنيّة. وكان محمد بحاجة إلى إبلها وقوافلها ليباشر مهمته».

فردّ عليه أغاجان: لا يحق لك أن تُؤَوّل الأشياء بهذه الطّريقة.

- ولِمَ لا؟ كلّ النّساء أردن الزّواج بمحمّد، فلماذا اختار الأرملة المسنّة خديجة؟ لقد كانت تكبره بعشرين سنة تقريبا.

ودخلت الجدّتان بطبقين مستديرين وضعتاهما أمامهما على الأرض وغادرتا. وأثناء الطّعام، قال أغاجان «لقد حدثني شهبل عن القمر... يظنّ أنّه عليك أن تشاهد...

- أشاهد القمر؟ قال الإمام.

- يقول إنّ على إمام المدينة أن يكون مطّلعا على المستجدّات الطّارئة في بلده، في العالم. وهو يستهجن كونك لا تقرأ الصّحف، لا تقرأ إلّا الكتب القديمة الموجودة في مكتبتك».

Twitter: @ketab_n

نزع الإمام نظّاراته عنه، ومسح بلّورها بطرف قميصه الأبيض الطّويل دون اكتراث وقال: «لقد قال لي شهبل تلك الأشياء سابقا».

– اسمع، إنّ انتقاداته لا تخصّك وحدك، بل تخصّني أنا أيضا. في هذه المدّة الأخيرة لم نهتمّ بغير الدّين. يجب على المسجد أن يثير قضايا أخرى، عن الرّجال الّذين سيمشون اللّيلة على القمر، مثلا.

– أنا لا أصدّق شيئا من ذلك، قال الإمام.

– يظنّ بأنّه عليك أن تشاهدهم، يريد أن يُحضر تلفازا إلى المكتبة.

– هل جُننت يا أغاجان!

– شهبل ذكيّ وأنا أثق به. أنت تعرف بأنّه طفل جِدّيّ. سيظلّ الأمر بيننا، ولن يدوم طويلا. وبعد ذلك سيعيد الجهاز.

– ولكن إذا علم آيات الله بأنّنا أدخلنا تلفازا إلى دارنا، فإنّهم...

– لن يعلم أحد. سيظلّ الأمر بيننا. وهذه مدينتنا، ولنا الحقّ في ترتيب أمورنا وفق ما نراه نحن صالحا. الولد محقّ. يقول إنّ أغلب من يرتادون الجامع قد اشتروا أجهزة تلفاز. أعلم أيضا أنّ التّلفاز غير مسموح به في دارنا. ولكن علينا أن لا نسجن أنفسنا في غرف هذه الدّار ونغمض أعيننا عمّا يحدث في العالم».

كانت الجدّتان مختبئتين وراء ستارة المطبخ، ورأتا شهبل وهو يدخل إلى المكتبة حاملا صندوقا. وعندما دخل سلّم على الإمام وعلى أغاجان ثمّ تجاهلهما وأخرج الجهاز من صندوقه ووضعه على الطّاولة قرب الجدار. وأخرج خيطا طويلا من الصّندوق وأدخل طرفيه في الجهاز ثمّ خرج مُمسكا بالطّرف الآخر. صعد على سلّم إلى السّطح حيث كان قد ثبّت ملتقطا بدائيّا تثبيتا وقتيّا ووصل الخيط بالملتقط وخبّأه بعناية ونزل.

أقفل باب المكتبة بالمفتاح ووضع كرسيّين أمام التّلفاز وقال: «اجلسا هنا لو سمحتما». فأخذ كلّ من الإمام وأغاجان مكانه. فشغّل شهبل التّلفاز وأطفأ النّور. وبعد أن خفّض من صوت الجهاز قدّم الأمر تقديما مقتضبا قائلا: «ما سنشاهده الآن يحدث في هذه اللّحظة في الفضاء. أبولو الثّاني سيقترب من القمر ويحطّ هناك، ها هو، آه، يا إلهي». انحنى الإمام وأغاجان وشاهدا أبولو وهو يحاول الهبوط. وخيّم صمت رهيب على المكان.

Twitter: @ketab_n

قالت جلبانو «شيء ما يحدث في المكتبة، شيء مهمّ لا يحق حتّى لكلتينا أن تعرفه».

- تسلّق الصّبيّ السّلّم. وذهب إلى السّطح فخبّأ هناك شيئا ما وأسرع نازلا ثمّ أطفأوا نور المكتبة. ما الّذي يدبّرونه هناك يا ترى؟

- سنذهب لنرى.

توجّهتا إلى المكتبة في صمت والظّلام مخيّم. «انظري، خيط يأتي من السّطح ويدخل إلى المكتبة».

- خيط؟.

مشتا على أطراف أصابعهما حتّى وصلتا إلى النّافذة. ولكنّ السّتائر كانت متدلّية. تسلّلتا بمحاذاة النّافذة وتوقّفتا أمام الباب فأبصرتا ضوءا فضيّا غريبا يخترق فجواته. وضعتا أذنيهما على خشب الباب.

«مستحيل»، قال الإمام.

«مستحيل»، قال أغاجان.

نظرت الجدّتان عبر ثقب القفل فلم تريا غير الضّوء الغريب وقد ملأ المكتبة. وعندما خاب مسعاهما انسحبتا واختفتا في ظلمة الباحة.

Twitter: @ketab_n

النّوروز

مع الرّبيع تحلّ السّنة الفارسيّة الجديدة: النّوروز. والنّوروز في أصله عيد ملكيّ باذخ يقام في قصور ملوك الفرس الأوائل مع حلول الرّبيع.

قبل أسبوعين من العيد تبدأ حملة تنظيف شاملة للدّار. وللاحتفال بحلول الرّبيع يغرس النّاس حبوبا في صحن فتنبت عشبة تسمى صابزه. ويلبس الأطفال ملابس وأحذية جديدة لزيارة الأقارب، الأجداد خاصّة. وتهتمّ النّساء بتحضير كل ما يلزم، ولا يهتممن بأنفسهنّ إلّا عند الانتهاء من كلّ التّحضيرات.

وفي الدّار كانت الجدّتان تهتمّان بأمر التّنظيف الشّامل بمساعدة خادمات في انتظار النّوروز. وجاءت الحلّاقة العجوز لتهتمّ بزينة حريم الدّار. فكانت تهذّب شعور النّساء وتنتف حواجبهنّ وتزيل الزغب عن وجوههنّ، وهذه هي مهمّتها منذ أكثر من خمسين عاما. عندما جاءت أوّل مرّة كان عمرها عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة وكانت ترافق أمّها. ولمّا تُوفّيت أمّها حلّت مكانها واعتادت على المكان. ويوم تأتي كان الرّجال يُمنعون من دخول جزء من الدّار. وترتفع ضحكات النّساء طول النّهار. وكنّ يتجوّلن في باحة الدّار عاريات السّيقان، دون حجاب. وكانت الجدّتان تدلّلنهنّ بأن تُحضران لهنّ النّارجيلة وشراب اللّيمون وحلويّات أخرى.

كانت الحلّاقة تنقل إليهنّ كلّ ما يشاع في المدينة؛ إذ إنّها كانت تزور نساء العائلات الغنيّة باستمرار، فكانت تعلم أخبارا كثيرة عمّا يدور بينهنّ. وكانت تنتقل دائما حاملة حقيبة قديمة تحوي عطورات وماسكات شعر، ومساحيق تجميل ومقصّات صغيرة ودبابيس شعر، محاوِلة بيع هذه الأغراض لحريفاتها. كانت بضاعتها جميلة ومختلفة عمّا يوجد في البازار. فابنها عامل مهاجر في الكويت وكان في كلّ مرّة يعود فيها إلى الوطن يجلب معه حقيبة مليئة بمواد الزّينة ومواد أصليّة أخرى تبيعها أمّه.

لقد جاءت اليوم خصّيصا لفجري سادات، زوجة أغاجان. كانت فجري سادات ذات اعتبار كبير عند نساء المدينة الثّريّات. كانت تساعد الجدّتين في المطبخ أحيانا وتخيط ملابس

Twitter: @ketab_n

الأطفال، وتعلّمهم القراءة في صباهم. كانت مطالعة الكتب من اهتماماتها الرّئيسيّة، خاصّة الكتب والمجلّات الّتي كان يحملها إليها نُصْرَتْ أخو زوجها من طهران. وعندما يكون الطّقس رائقا، كانت تصطاد العصافير. فتذهب إلى القبو باحثة عن الفخّ تساعدُها الجدّتان. والفخّ هو سلّة كبيرة مصنوعة من صفصاف تموز (آخر الصّيف) تُثبّت بحبل إلى عمود طويل ثمّ تنثر فجري سادات الحبوب في باحة الدّار وتجلس في مقعدها قرب الحوض منتظرة قدوم العصافير. وخلال وقت قصير تكون العصافير قد عبرت الجبال ونزلت في الباحة. وما إن تدخل العصافير تحت السّلّة باحثة عن الحبّ حتّى تشدّ فجري سادات الحبل فتُغلق السّلّة وتقع العصافير في الفخّ.

كانت فجري سادات تحتفظ بالعصافير لأيّام في قفص وتطعمها وتتحدّث إليها وتدقّق في ريشها وترسم زخارفه ثمّ تطلق سراحها. وعندما كانت تهتمّ بالعصافير كان كلّ سكّان الدّار يمشون بخطى هادئة ويتحادثون بصوت خافت.

انتهت الحلّاقة من إزالة شعر ساقي فجري سادات عندما حطّ طائر الزّاغ على حافّة السّقف المسطّح. كان ينعب عاليا معلنا قدومه. لا أحد يعرف عمره ولكن من الأكيد أنّه قد جاوز القرن لأنّ أغاجان كان قد قرأ قصّة تتحدّث عنه في الأرشيف القديم للمسجد. وكان طائر الزّاغ جزءا من الدّار. كان جزءا من القبّة، من الصومعات، من السّطوح، من الشّجرة الهرمة، ومن الحوض حيث كان يحطّ ليشرب.

قامت فجري وقالت «السّلام عليك يا طائر الزّاغ، هل من أخبار سارّة؟ من في طريقه إلينا؟ من آت لزيارتنا؟».

عند المساء خرج الحارس من المسجد وتبعه الإمام الصّابري مرتديا ثوب الاحتفال. من عادتهما أن يدخلا من الباب الرّئيسيّ، ولكنّهما اليوم صعدا درج المسجد وعبرا السّقف المسطّح ذاهبيْن إلى الدّار. قد يكون ذلك بسبب الرّبيع. كانت السّطوح، وقد بُنيت من طين خاصّ مجلوب من الصّحراء وخليط من الأعشاب البريّة، تفوح برائحة عطرة في الرّبيع.

وقال الصّابري للجدّتين عندما وصل إلى الباحة: «هل يكفيني الوقت لأغفو قليلا؟ فأنا أحسّ بتعب». فردّت جلبانو: «نعم، لديك نصف ساعة. سننتظر أغاجان. وعندما سيحضر سنذهب جميعنا للطّعام في صالون الاحتفال الكبير. وعند منتصف هذه اللّيلة سنجتمع في الباحة لنتلو دعاء رأس السّنة الجديدة. سنفرش بعض الزّرابي بعد قليل. وسأوقظك في الموعد».

Twitter: @ketab_n

توقّفت سيّارة أجرة أمام الباب فتسارع الأطفال إلى الخارج وصاحوا «جاء العمّ نُصرت». فتحت فجري سادات نافذة غرفتها في الطّابق الثّاني ولاحظت أنّ نصرت لم يكن لوحده، بل كان مُرَافَقا بامرأة شابّة. وضعت تشادورها ونزلت. وعندما دخل نصرت والمرأة خيّم الصّمت على المكان. لم تكن المرأة الشّابة تضع تشادورا. ولم يكن على رأسها سوى وشاح لم يغطّ كامل شعرها. لم تصدّق الجدّتان عينيهما. وقالت جلبانو:

«كيف يجرؤ هذا الوغد على القدوم إلى الدّار صحبة امرأة ترتدي ملابس كهذه؟»

- من تكون؟ سألت جُليبه.

انضمّت زينات خانم، زوجة الإمام، إلى الآخرين مع ابنتها صادقة. وكان شهبل متّكئا على النّافذة ناظرا إلى المرأة. واعتبر تجرّؤ عمّه على القدوم مع امرأة ترتدي مثل هذه الثّياب شجاعة منه. كان شهبل معجبا به لأنّه لا يقيم وزنا للعادات ويتمرّد على الأعراف القديمة للدّار باستمرار.

على ما يتذكرون، هذه هي المرّة الأولى الّتي تدخل فيها امرأة الدّار من دون تشادور أو حجاب كامل. كان الجميع ينظرون إليها ويتساءلون: هل عليهم أن يرحبوا بها أم لا؟ وما الّذي سيقوله أغاجان؟

ورغم أنّ اللّيل قد حلّ فقد تمكّنت الجدّتان من أن تريا على ضوء الفانوس أنّ المرأة كانت تلبس جوربين شفّافين من النّايلون يظهران ساقيها.

قبّلت نسرين وإنسي، ابنتا أغاجان، العمّ نصرت بابتهاج. وقال نصرت «أقدّم إليكم خطيبتي شادية». ابتسمت شادية وحيّت الفتاتين.

«آه، رائع»، قالت نسرين كبرى بنتي أغاجان «متى خطبتها يا عمّي؟ لمَ لمْ تُعلمنا بذلك؟ ».

«خطيبته؟ كيف ذلك؟ خطيبته» قالت جلبانو لجليبه وهي تنزل السّتائر «إنّه يكذب، لا نيّة له في الزّواج، أحضر مومسا من طهران ليستمتع. أين أغاجان؟ عليه أن يضع حدّا لهذه المهزلة».

قبّلت فجري سادات المرأة الطّهرانيّة وقالت «جميل اسم شادية، مرحبا بك في دارنا».

Twitter: @ketab_n

- أين أغاجان؟ أين المؤذّن؟ أين الإمام؟ وأين شهبل؟

- لم يعد أغاجان بعد، أمّا الصّابري فلا بدّ أنّه في المكتبة، قالت زوجة الإمام.

- سأفاجئه، قال نصرت وهو يتّجه نحو المكتبة.

رافقت فجري سادات شادية إلى الصّالون وتبعتها الفتيات. كانت الجدّتان تنتظران أغاجان في المطبخ وتراقبان الباب الرّئيسيّ. وما إن ظهر حتّى صاحتا «لقد جاء نصرت».

- عظيم، قال أغاجان. في ليلة رأس السّنة. لم ينسني أخي الصّغير بعد. سيكون احتفالنا أكثر دفئا بوجوده.

- ولكن هناك شيء آخر، قالت جلبانو، باهتمام.

- وما ذلك؟

- لقد جاء مع امرأة

- ويقول إنّها خطيبته، أضافت جليبه.

- هذا خبر جيّد، لقد صار رصينا أخيرا.

- لا تبتهج قبل الأوان، قالت جلبانو.

- لا تضع المرأة تشادورا. إنّها لا تضع سوى وشاح صغير.

- والنّايلون، أضافت جليبه بصوت منخفض

- وما هذا؟

- النّايلون جوارب طويلة شفّافة حتّى لكأنّ من ترتديها لا تلبس شيئا. هذا هو نوع النّساء الّذي أحضره إلى الدّار. رُحْماك ربيّ. من حسن الحظّ أنّ اللّيل قد حلّ عندما وصلا. تخيّل لو أنّهما مرّا أمام المسجد في وضح النّهار؛ غدا سيقول كلّ أهل المدينة: في دار المسجد الآن امرأة ترتدي النّايلون.

- هذا يكفي، قال أغاجان بهدوء، سأتحدّث إليه، وأريدكما أن تستقبلاها بحفاوة. أعطياها جوربين عاديّين. وأعطياها تشادورا إذا رغبت في الذّهاب إلى المدينة غدا. لديكما كثير من التّشادورات الجميلة، أليس كذلك؟ أهديا إليها واحدا.

Twitter: @ketab_n

– حسب رأيي هي ليست خطيبته، لقد جلب إلينا امرأة ما، قالت جلبانو.

– نحن لا نعرف حقيقتها، قال أغاجان، ونتمنى أن تكون خطيبته. أين هو الآن؟

– أظنّ أنّه في المكتبة أو في غرفة المؤذّن.

كان أغاجان يعرف أنّ أخاه لا يصلّي وأنّه يعارض الدّين وأعراف الدّار. ولكنّه يتمنّى أن يلتزم نصرت بالعادات الآن بما أنّه برفقة امرأة. وقال وهو يتّجه نحو غرفة المؤذّن: «سنسوّي كلّ شيء».

«إلى المائدة» نادت جلبانو

– هلمّ إلى المائدة يا أولاد ويا بنات، قالت جليبه. فتوجّه الجميع إلى صالون المناسبات الكبرى.

دخل الرّجال مرتدين ثياب احتفال بينما كانت النّساء قد جلسن في الجهة اليمنى من ركن قاعة الطّعام. وقدّمت فجري سادات المرأة الآتية من طهران إلى أغاجان وإلى الإمام والمؤذّن. فقال لها أغاجان «مرحبا بك يا ابنتي، لم نكن نعرف بأنّ نصرت سيكون مرافقا بخطيبته، وإلّا لأقمنا لكما حفلة. ولكن لا بأس، وجودك بيننا احتفال في حدّ ذاته». حيّاها الصّابري من بعيد. وعندما قدّمت المرأةَ للمؤذّن قالت ضاحكة «معي امرأة من طهران. هي ليست كنساء المدينة، ومن المؤكّد أنّها ليست كالنّساء اللّواتي تخالطونهن في الجبال. اسمها شادية. جمالها رائع فهي حوراءُ العينين رماديّةُ الشّعر بيضاءُ الأسنان جميلةُ المبسم. وهي ترتدي تشادورا أبيض جميلا تزيّنه زهيرات خضراء من إهداء الجدّتين. هل من شيء آخر ترغب في معرفته؟».

– هي جميلة إذا، قال المؤذّن باسما، لا يُنتظَر من نصرت غير هذا.

دخلت الجدّتان بمبخرة صغيرة يشتعل فيها الفحم ووضعتا بعض الإصفند على الجمر فانتشرت في القاعة سحابة من البخور العطر. وذهبت الفتيات لجلب الأطباق من المطبخ. فتساءل الإمام:

«ألن ننتظر أحمد؟».

«اعذرني، قال أغاجان، لقد أنساني قدوم نصرت أن أقول لك إنّ أحمد قد هاتفني في البازار قائلا إنّه لن يأتي لأنّ لهم احتفالا خاصّا في قم». أحمد هو ابن الصّابري. وعمره

Twitter: @ketab_n

الآن سبع عشرة سنة وهو يدرس الإمامة عند آية الله العظمى غُلْبَجِغَاني في قم.

كانت الجدّتان قد أعدّتا طعاما رائعا لرأس السّنة سيشدّ الجميع إلى المائدة لوقت طويل. وبعد الطّعام يأتي دور الحلويّات، وقد صُنعت خصّيصا لاحتفال رأس السّنة.

أحاطت النّساء بشادية ورحن يسألنها عن طهران ونساء طهران. وقد أحضرت شادية لهنّ بعض الهدايا منها طلاء أظافر ومزيّن الشّفاه وجوارب من النّايلون وصدريّات جميلة. أحسّ الرّجال أنّ الوقت قد حان لتغيير مكان جلوسهم فانسحبوا إلى صالون آخر. وكان الوقت قد قارب منتصف اللّيل عندما قالت إحدى الجدّتين «سيّداتي، عليكنّ الاستعداد لصلاة رأس السّنة».

انحنى نصرت إلى شادية فقالت له «إلى أين سنذهب نحن؟».

- بعد قليل سيقوم الجميع للصّلاة ولكنّ هذا الأمر لا يهمّني ولن التحق بهم. وهمس في أذنها: سآخذك إلى مكتبة الدّار.

- لماذا؟ ماذا سنفعل هناك؟

- ستعرفين ذلك في الوقت المناسب، قال وهو يمسك بيدها.

أمسك نصرت بذراع شادية والتفّ حول شجرة الأرزّ على أطراف أصابعه ذاهبًا إلى المكتبة. وفتح الباب بحذر.

«لماذا لا تنير الغرفة؟».

- لا تتكلّمي بصوت مرتفع فالجدّتان تريان وتسمعان كلّ شيء. إذا لاحظتا وجودنا هنا فستفاجئاننا مثل شبحين. قال ذلك وهو يفكّ أزرار صدارها.

- لا، ليس هنا، هذا المكان خانق.

- إنّه ليس خانقا بل هو خافق. إنّ الرّوح القديمة للدّار تختبئ وراء رفوف الكتب. طيلة سبعمائة عام استعدّ الأئمّة هنا للصّلاة، إنّه مكان مقدّس، لقد حدثت فيه أشياء كثيرة، ولكن هذا، لم يحدث بعد، وأنا أريد أن أفعله معك. أريد أن أضيف شيئا جميلا إلى تاريخ هذه الغرفة. فتنهّدت قائلة «آه، نصرت». وأشعل شمعة كانت موجودة على مكتب الإمام.

«أين أنتم، جميعكم، صاحت جلبانو في الباحة، أسرعوا، الإمام جاهز».

Twitter: @ketab_n

بُسطت سجّادتان كبيرتان على أرضيّة الباحة للصّلاة. ولم يغب غير نصرت والمرأة الطّهرانيّة. «لقد قلت لك، إنّه لئيم. لا يفوّت فرصة دون أن يسخر من المسجد. ولكنّي لن أسمح له بذلك، عليه أن يأتي للصّلاة» قالت جلبانو.

- أين يمكن أن يكونا؟

واتّجهت أنظارهما نحو المكتبة. فاتّجهتا إليها على أطراف أقدامهما. كانت نوافذ المكتبة تتحرّك. هل هما مخطئتان؟ كلا فالسّتار يتحرّك أيضا. اقتربت الجدّتان من الباب ولكنّهما لم تجرؤآ على فتحه. جثتا على ركبتيهما بحذر أمام النّافذة. ونظرتا إلى الدّاخل عبر فتحة في السّتار ورأتا أنّ الشّمعة القديمة الّتي لم تشعلاها قطّ، تحترق الآن. وتمكّنتا من الرّؤية بشكل أوضح حينما ظلّلتا بصرهما بيديهما. كانت الكتب تتحرّك في النّور. فُزعتا ممّا أبصرتا ونهضت كلتاهما في اللحظة ذاتها. ما العمل؟ إخبار أغاجان؟ كلّا، هذا ليس منطقيّا في ليلة كهذه. ما عساهما تفعلان لتوقفا هذه الكبيرة الّتي كان نصرت يرتكبها في المكتبة؟ أن تصمتا، قالت نظراتُهُما.

كان عليهما أن تصمتا، كما صمتت أحيانا كلّ الجدّات الأخريات قبلهما. كان عليهما أن تمتلكا صدرا رحبا لكتم كلّ الأسرار الّتي لا يمكن تقاسُمُها. لم تسمعا شيئا ولم تريا شيئا إذا.

كان الإمام قد باشر الصّلاة. اصطفّ الجميع خلفه متّجهين نحو مكّة. وانضمّت الجدّتان باحتشام إلى بقيّة النّساء. وغرقت الدّار في الصّمت، ليس إلّا ترتيلُ الإمام مصلّيا:

﴿اللّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾

Twitter: @ketab_n

جلجل

كبرت الآن الفتيات اللّواتي كنّ صغيرات في الدّار، وصارت بعضهنّ في سنّ الزّواج. ولكن كيف لهنّ أن يتزوّجن ولم يطرق بابهنّ أحد ليطلب أيديهنّ؟

في مدينة سنجان لا يستطيع غريب أن يطرق باب دار طالبا يد فتاة، فتلك كانت مهمّة الدّايات، وهنّ مجموعة من النّساء يتوسّطن بين الخاطب وعائلة الفتاة. وكانت هذه الوساطات تتمّ عادة خلال أمسيات ليالي الشّتاء الباردة.

قد تستغني بعض العائلات عن الدّايات: فترتدي نساء الدّار تشادورات ويضع الرّجال قبّعاتهم ويذهبون جميعا طارقين باب العائلة ذات الفتاة في سنّ الزّواج. وكان والدا الفتيات اللّواتي هن في سّن الزّواج يحسبان حساب هذه الزّيارات غير المتوقّعة دائما. ولهذا لا يُعاتب الزّائرون على عدم إبلاغ العائلة مسبقا.

خلال تلك الأمسيات يتحادث الأهل مطوّلا في الذّهب والزّرابي الّتي على الزّوجة أن تحضرها معها، وفي المنزل والأرض أو كميّة المال الّتي ستعطى مهرا للعروس. وعندما يتّفق الرّجال يأتي دور النّساء لمتابعة النّقاش في كسوة العروس والحليّ الّذي سيهدى لها خلال الاحتفال.

كانت ساعات السّوار قد ظهرت في سوق سنجان فكانت كلّ العرائس ترغبن في الحصول على هذه الموضة. وفي تلك الأمسيات عندما يظلّ النّور مضاء وراء السّتائر لفترة طويلة كنّا نعلم أنّ مفاوضات زواج كانت تجري. كانت الغرف في تلك الدّور دافئة وكان زجاج النّوافذ مغشّى بدخان النّارجيلات. ولكنّ ليالي الشّتاء الطّويلة كانت تقلق عائلات كثيرة إحدى بناتها في سنّ الزّواج وهي تعرف أن لا نيّة لأحد في أن يطرق بابها.

وفي دار المسجد، كانت صادقة، ابنة الإمام في سنّ الزّواج. وكان أهلها ينتظرون في صمت؛ فمن يدري؟ قد يطرق شخص ما بابَهم، أو قد يرنّ هاتفهم. ولكنّ الشّتاء قد شارف على نهايته ولمّا يتقدّم أحد.

Twitter: @ketab_n

كان يصعب على فتيات الدّار أن يجدن زوجا يناسب مكانتهنّ. ولم يكن متيسّرا لكلّ الشّبّان أن يطلبوا أيديهنّ. أمّا بنات المدينة المنحدرات من أوساط شعبيّة فيجدن شبابا كثرا؛ نجّارا شابّا أو بنّاء أو خبّازا أو موظّف بلديّة أو معلّم مدرسة أو موظّفا جديدا في سكّة الحديد مثلا. ولكنّ هؤلاء الشّباب غير لائقين بالنّسبة إلى بنات دار المسجد.

وبما أنّ نظام الشّاه كان فاسدا فإنّ الموظّف الحكوميّ لا يستطيع أبدا أن يطلب يد إحدى هؤلاء البنات. أستاذ، ربّما؟ فهذا لن يكون مستحيلا. وفي الحقيقة فإنّ أبناء التّجّار الأكابر وحدهم يناسبون هؤلاء الفتيات من جميع النواحي.

مرّ فصل الشّتاء وكانت الشّابّات اللّواتي لم يتقدّم أحد لخطبتهنّ تعرفن أنّه عليهن أن ينتظرن عاما آخر. ومن حسن الحظّ أنّ الحياة لا تلتزم دائما بالأعراف وتنحو أحيانا منحى خاصّا. وهكذا ففي إحدى اللّيالي طُرق باب دار المسجد.

«من الطّارق؟» قال شهبل ابن المؤذّن.

- أنا، أجاب رجل بنبرة واثقة.

فتح شهبل الباب ورأى على نور الفانوس الأصفر إماما شابّا متعمّما بعمامة سوداء بديعة. كانت العمامة مائلة قليلا وتفوح منه رائحة الورد. وكان يرتدي عباءةَ إمامٍ طويلة، داكنًا لونُها، نظيفةً، كأنّه يرتديها لأوّل مرّة.

«عمت مساء»، قال الإمام الشّاب.

- عمت مساء، ردّ شهبل.

- أنا محمّد جلجل، قال الإمام.

- تشرّفت، كيف لي أن أساعدك؟

- أريد محادثة الإمام الصّابري، إن أمكن ذلك

- أنا آسف، فالوقت متأخّر، وهو لا يستقبل أحدا في هذه السّاعة، تستطيع مقابلته غدا في المسجد.

- ولكنّي أريد محادثته الآن.

- هل لي أن أعلم الموضوع، فربّما استطعت مساعدتك.

Twitter: @ketab_n

- جئت من أجل ابنته صادقة، أريد أن أكلّمه في شأنها.

وبعد تردّده برهة، أجاب شهبل بتأنّ «لأمر كهذا، عليك أن تقابل أغاجان. سأعلمه بقدومك».

- سأنتظرك هنا، قال الإمام.

ترك شهبل الباب مواربا وتوجّه إلى مكتب أغاجان فوجده يكتب. قال شهبل «هناك إمام شابّ أمام الباب، قال إنه جاء من أجل ابنة الصّابري».

- هل هو أمام الباب؟

- أجل، قال إنّه يريد أن يكلّم الإمام الصّابري.

- هل أعرفه؟

- لا، على حدّ علمي، هو إمام غريب. على كلّ حال هو ليس من مدينتنا. وتفوح منه رائحة الورد.

- أدخله، قال أغاجان وهو يلملم أوراقه ويقف.

- مرحبا بك، قال شهبل للإمام، تفضّل، ورافقه إلى مكتب أغاجان.

- أنا محمد جلجل، عمت مساء، آمل أنّي لا أزعجك. قال الإمام.

- كلّا، أبدا، مرحبا بك، تفضّل بالجلوس، قال أغاجان مصافحا الإمام بحرارة. لاحظ أغاجان أنّه كان شخصيّة غير عاديّة فعلا. ورَاقَهُ أنّ الإمام يتعمّم بعمامة سوداء مثل إمام المسجد، وهذا يعني أنّه من آل الرّسول.

شجرة نسب أغاجان أعرق شجرة نسب في العائلة. كانت محبّرة على رقّ وتتّصل أسماء الرّجال والنّساء فيها بالرّسولِ محمّدٍ. وقد حُفظت شجرةُ النّسب وخاتمُ سيّدنا عليّ في علبة حليّ في الغرفة القديمة الّتي تحوي كنوز المسجد. قال أغاجان للإمام «هل لك في كأس من الشّاي؟». وبعد برهة ظهرت جلبانو تحمل شايا وتمرا في طبق سلّمته إلى شهبل. فوضع شهبل كأس شاي وصحن تمر أمام جلجل. وهَمّ بالخروج لو لا أن خاطبه أغاجان قائلا «تستطيع البقاء». فذهب ليجلس على كرسيّ في ركن الغرفة.

وضع جلجل تمرة في فِيه واحتسى بعضا من الشّاي. ثمّ تنحنح بهدوء وقال دون

Twitter: @ketab_n

مقدّمات: «جئت طالبا يد ابنة الإمام الصّابري». فوضع أغاجان كأسه ونظر إلى شهبل وقد همّ أن يرتشف بعضا من الشّاي. لم يتوقّع منه أن يستهلّ هذا الاستهلال المباشر، ثمّ إنّ الرّجل لا يأتي لوحده خاطبا يد فتاة من العائلة عادة، إذ يقتضي التّقليد أن يستهلّ والد الخاطب الحديث. ولكنّ أغاجان كان خبيرا في مثل هذه الأمور. فقال بهدوء «حللت أهلا، ولكن هل لي أن أعرف مسكنك وعملك؟».

- أسكن بقمّ، وقد أنهيت لتوّي علوم الإمامة.

- عند أيّ من آيات الله درست؟

- عند آية الله العظمى المكّي.

- المكّي؟ قال أغاجان متفاجئا! لقد كان لي شرف لقائه شخصيّا.

عندما سمع أغاجان اسم المكيّ فهم مباشرة أنّ الإمام ينتمي إلى الحركة الثّوريّة على الشّاه. فقد كان اسم المكّي يرادف عمليّا حركة دينيّة سريّة تقاوم الشّاه. كثير من الأئمّة الشّبّان الّذين تابعوا دروس المكيّ لا يهتمّون بالسّياسة غير أنّ مجرّد كونه أحد تلامذته يجعله مثار شكّ. كان أغاجان يشكّ في أنّ الإمام الشّاب، وقد أمال عمامته وتعطّر بماء الورد، لم يكن محايدا. ولكنّه لم يُثِرِ الموضوعَ.

- وماذا تفعل الآن؟ هل تؤمّ مسجدا ما؟

- ليس بعد، ولكنّي إمام معوّض في مساجد كثيرة في بعض المدن. عندما يمرض إمام ما أو يسافر يُطلب منّي أن أنوبه.

- أفهم ذلك، فنحن نقوم بالأمر ذاته، ولكنّ لنا معوّضا ثابتا، وهو إمام يسكن في قرية جِيرجه. إنّه رجل ثقة يأتي فور حاجتنا إليه.

رغب أغاجان في سؤاله عن مسكن والديه وعن سبب عدم قدومه مرافَقا بأحد أفراد عائلته بما أنّه قد جاء من أجل ابنة الصّابري. ولكنّه صمت. كان يعرف بأنّ الشّابّ سيجيبه «أنا راشد ويحقّ لي الزّواج بمن أرغب. اسمي محمد جلجل. واسم إمامي المكّي. فماذا تريد أن تعرف أكثر؟».

- ما الّذي دفعك إلى التّفكير في ابنتنا؟ هل رأيتها؟ سأل أغاجان.

- كلّا ولكنّ أختي قابلتها. ثمّ إنّ آية الله المكّي قد نصحني بالزّواج منها. وقد سلّمني

Twitter: @ketab_n

رسالة لك». وأخرج ظرفا من جيبه الدّاخليّ ومدّه إلى أغاجان.

إذا كان يحمل رسالة من آية الله المكّي فلن يبقى لأغاجان ما يقوله. إذا وافق المكّي فلم يعد مجال للنّقاش. لقد سُوّي الأمر. فتح أغاجان الظّرف بلطف، وهذا ما كتب آية الله:

بسم الله

لقد جاء محمد جلجل لمقابلتكم.

وأغتنم هذه الفرصة لأحيّيكم.

والسّلام عليكم

المكّي.

يوجد شيء ما يثير الفضول في هذه الرّسالة. لم تكن تزكية ولم تكن منعا. كانت ملاحظة عاديّة. لم يثر فيه الشّاب انطباعا جيّدا وإلّا فلن يغفل آية الله عن الإشادة بذلك. ولكنّ الإمام الشّابّ يحمل رسالة من المكّي على كلّ حال، وما ذلك بِخلْوٍ من الأهميّة. وضع أغاجان الرّسالة في درجه قائلا:

- عليّ أن أفكّر قليلا فيما عليّ فعله. واقترح عليك الآتي: سأتحدّث في الأمر مع الإمام الصّابري، ومع ابنته. ثمّ نتواعد لنقابل عائلتَك، أباك. اتّفقنا؟

- حسنا، أجاب جلجل.

ورافق شهبل جلجلا إلى الباب ثمّ رجع وسأل أغاجان: «ما رأيك؟».

- تصّرفه فريد وكلامه حاسم. يعجبني ذلك.

- أنت على حقّ، وهذا بيّن حتّى من طريقة جلوسه على مقعده. لا يشترك في أيّة سمة مع أئمّة الرّيف. ولكن لي تحفّظات.

- أيّ نوع من التّحفّظات؟

- هو طموح جدّا. ولم يقل آية الله أيّة كلمة عنه في الرّسالة. لقد زكّاه دون أن يذكر كلمة عنه. وأنا أجد تردّدا بين السّطور. من المؤكّد أنّ جلجل ليس شخصا سيّئا ولكنّه يمثّل خطرا. هل هو الشّخص المناسب لمسجدنا؟ الصّابري رجلٌ ليّن وأنا أجد في هذا الإمام الشّاب غلظة.

- ماذا تقصد؟

Twitter: @ketab_n

- أما يزال الصّابري مستيقظا؟ (أبعد شهبل السّتار لينظر إلى الخارج) وقال:

- يوجد ضوء في المكتبة.

- فليبقَ هذا الموضوع سرّا بيننا. يجب أن لا تعلم النّساءُ شيئا، قال أغاجان وهو يغادر الغرفة ذاهبا إلى المكتبة. وطرق الباب ودخل. وكان الصّابري جالسا على بساطه يقرأ كتابا.

- كيف كان يومك؟ قال أغاجان

- عاديّا، أجاب الصّابري.

- ماذا تقرأ؟

- كتابا عن النّشاطات السّياسيّة لآيات الله منذ سبع سنوات. حسب هذا الكتاب، لم يعودوا سلبيّين، لقد كانوا دائما يجدون شيئا ليثوروا عليه. ووجدوا دائما سبيلا للاستحواذ على السّلطة. هذا الكتاب عبارة عن مرآة أنظر فيها إلى ذاتي. لا شيء لديّ ضدّ السّياسة ولكنّي لم أستطع أن أمارسها أبدا. أجد نفسي غير قادر على نشاطات مثل هذه. وهذا يشعرني بالذّنب.

كان الصّابري لَسِنَا على غير عادته. وأحسّ أغاجان أنّه قد فاجأه في لحظة مهمّة.

- أعرف أنّ قم غير راضية عنّي. أخاف أن يبادر النّاس إلى مساجد أخرى وأن يصير مسجدنا خاويا من المصلّين إذا واصلت الصّمت.

- لا تقلق من هذا الجانب، قال أغاجان. ورأيي أنّ المصلّين سيتكاثرون عندما يلاحظون أنّنا لا نهتم بالسّياسة. ومن يتوافد على مسجدنا من مصلّين هم أناس عاديّون. المسجد دارهم، وهم يتردّدون عليه حياتَهم كلَّها، ولن يغيبوا قريبا. هم يعرفونك جيّدا فيما يخصّ هذا الأمر ويحترمونك كثيرا.

- ولكن البازار، قال الإمام، لقد كان البازار دائما منغمسا في السّياسة. وقد أشار هذا الكتاب إلى ذلك. لقد لعبت الأسواق منذ مائتي سنة دورا حاسما وقد كان الأئمّة دائما سلاحا بين أيديهم. وعندما يقفل التّجّار البازار فهذا دليل على حدوث أمر جَلَل، أمر مهمّ. أعرف أنّ البازار غير راض عنّي.

كان أغاجان يدرك جيّدا عمّا يتحدّث الإمام. هو أيضا لم يكن راضيا عن الصّابري ولكنّه لا يستطيع عزله لضعف شخصيّته. كان الصّابري إماما للمسجد وسيظلّ كذلك حتّى

Twitter: @ketab_n

وفاته. كان يعرف أنّ رجال البازار يتذمّرون منه، وأنّ التّجّار ينتظرون من المسجد موقفا أكثر حسما. ولكن ما الّذي يستطيع فعله حيال عدم كفاءة الصّابري. لقد استدعى آيات الله أغاجان إلى قمّ مؤخّرا ونصّصوا بوضوح على وجوب تغيير المسجد لموقفه. كانوا يريدون أن يسمعوا موقفا واضحا ضدّ الشّاه وضدّ أمريكا خاصّة. وقد وعد أغاجان بأن يغيّر موقف المسجد ولكنّ الصّابري لم يكن قادرا على ذلك.

لقد كانت قم مركز العالم الشّيعي، فيها يسكن آيات الله العظمى ومنها يديرون كلّ المساجد. وكان مسجد سنجان من أهمّ مساجد البلاد؛ ولذا كان آيات الله ينتظرون منه مبادرات أكبر. طرحت قم أسئلة واشترطت اشتراطات ولكن بوجود الصّابري لم يكن أغاجان قادرا على إحداث أيّ تغيير في المسجد. وربّما لهذا السّبب بعث إليهم المكّي بإمام شابّ.

غيّر أغاجان موضوع الحديث قائلا:

عندي لك مفاجأة تتّصل بالكتاب الّذي تقرؤه.

- أيّ نوع من المفاجآت؟

- لقد طلب شخص ما يد ابنتك

- من هو؟

- إمام شابّ من قم، تلميذ لآية الله المكّي.

- المكّي؟، قال الإمام متعجّبا وهو يضع كتابه على البساط.

- إمام لا يخشى السّياسة، أنيق، واثق من نفسه، متعمّم بعمامة مائلة قليلا، قال أغاجان مبتسما.

- ما الّذي جاء به إلينا؟ أقصد إلى ابنتي؟

- كلّ أهل المدينة يعرفون بأنّ لك ابنة، وكلّهم يستطيع طلب يدها، ولكن لا أظنّ أنّ هذا الإمام الشّابّ قد جاء من أجل ابنتك فقط، بل من أجل مسجدك ومنبرك.

- ماذا؟!

- أنت تعرف أنّ المكّي إذا تدخّل فهذا يعني أنّ في الأمر سياسة.

- علينا أن نفكّر مليّا قبل أن نجيبه. علينا أن نعرف إن كان قد جاء من أجل ابنتنا أو من أجل مسجدنا.

Twitter: @ketab_n

- هذا ما سنفعله. وأنا لا أخاف التّغييرات ولا استهين بالأمور الّتي تعترض سبيلي، ولا أؤمن بالصّدف. ولم يطرق جلجل بابنا دونما سبب. ولن يضرّ الدّار. لقد عرف مسجدنا في الماضي أئمّة شغوفين. سأذهب إلى قمّ لأتحدّث في الأمر مع المكّي ذاته. إذا زكّاه رجلا وزوجا سأقبل. وسأكلّم ابنك أحمد. ليس مرسّما في مدرسة جلجل ولكن من المؤكّد أنّه يعرفه.

- افعل ما تشاء. ولكن انتبه. احرص على أن لا يكون هذا الزّواج زواجا دينيّا سياسيّا. لن أزوّج ابنتي لأيّ إمام كان. علينا أن نتأكّد من أنّه سيكون زوجا صالحا. أتمنّى لها زواجا سعيدا. ولا أريد أن أعطيها إلى آيات الله.

- لا تقلق، قال أغاجان

- لست بخير هذه الأيّام. يغمر الحزن قلبي دائما. وأصبحت متوجّسا أخشى كلّ شيء، خاصّة المسجد. أحيانا لا أعرف ما عليّ قوله وأنا على المنبر في خطب الجمعة.

- أنت متعب. اذهب وقضّ أيّاما في جيرجه. خذ معك الجدّتين، واسترح هناك أسبوعا، وهذا سيمتعهنّ أيضا. لقد مرّ وقت طويل لم تخرجا فيه. وأنت تعذّب نفسك بهذه الهواجس. لا أحد يغتسل مثلك. أنت تعيش في عزلة. لن تصمد طويلا بهذه الطّريقة. اذهب إلى جيرجه فربّما تحصل قريبا على صهر نشط تستطيع أن تعتمد عليه من حين لآخر.
وغادر أغاجان المكتبة والابتسامة تعلو محيّاه.

وفي اليوم الموالي اتّصل أغاجان بأحمد في قمّ وسأله:

- هل تعرف محمد جلجل؟

- أين تعرّفت عليه؟

- لقد طلب يد أختك.

- صحيح هذا! قال متعجّبا.

- أجل صحيح. أيّ نوع من الرّجال هو؟

- هو مشهور جدّا هنا. لا أعرفه شخصيّا. له حديث ورأي في كلّ موضوع. إنّه يختلف كليّا عن باقي الأئمّة. وما عدا ذلك فلا أعرف عنه شيئا.

- ما رأيك فيه؟ هل تظنّه زوجا صالحا لأختك؟

Twitter: @ketab_n

- ماذا عسى أن أقول؟ هذا صعب. على حدّ علمي، هو صعب المراس. لم تعرف أختي من الأئمّة غير أبي. وقد تظنّ أنّ جميعهم يشبهه.

- المهمّ عندي أن تكون أختك سعيدة معه، قال أغاجان.

- لقد أسلفت القول إنّه شابّ جيّد وذكيّ، ولكن ما إذا سيكون زوجا صالحا لأختي أو لا، فأنا لا استطيع تأكيد ذلك.

- لقد عرفت ما يكفي يا أحمد.

ثمّ هاتف مقرّ إقامة آية الله المكّي ليحصل على موعد لمقابلته. وفجر الخميس جاء سائقه إلى الدّار واصطحبه إلى المحطّة.

خرج أغاجان من السّيّارة وهو يرتدي معطفا طويلا ويضع قبّعة ودخل إلى البهو الأثريّ للمحطّة. وعندما رآه رئيس المحطّة أطفأ سيجارته وهرول أمامه وقال له بأدب «نهارك سعيد، رحلة ممتعة».

- إن شاء الله. ردّ أغاجان.

وصل القطار البنّيّ الطّويل الّذي سيسافر فيه أغاجان قبل موعده بنصف ساعة من الخليج العربي في أقصى جنوب البلاد متّجها إلى الشّرق إلى حدود أفغانستان. ويتوقّف في عشرات المحطّات. وتدوم رحلة أغاجان ثلاث ساعات.

كان بهو المحطّة مكتظّا بالمسافرين وبعدد لا يحصى من المنتظرين. مئات الرّجال يضعون قبّعات ونساء يرتدين معاطف طويلة وعدد مهمّ من النّساء لا يضعن تشادورا.

لقد تغيّرت البلاد كثيرا، وهذا ما كان يلاحظه عندما كان يسافر بالقطار. كان للقادمين من الجنوب هيئة أكثر تحرّرا وكانوا مختلفين عن سكان سنجان. يمكن أن نرى في القطار نساء غير متحجّبات عاريات الأذرع، ونساء يحملن حقائب يدويّة، ونساء يضحكن ويدخّنّ. وكان أغاجان يعلم أنّ الشّاه، غلام الأمريكيّين، وراء كلّ هذه التّغيّرات. كانت أمريكا تفجّر دين البلاد، ولا أحد يستطيع أن يهدّئ الأمر.

دعا رئيس المحطّة أغاجان إلى مكتبه، وقدّم له كأس شاي ساخنة وعندما حان الوقت لركوب القطار رافقه إلى مقصورة مخصّصة لركّاب الدّرجة الأولى.

Twitter: @ketab_n

وبعد ثلاث ساعات لاحت في الفضاء قبّة مقام فاطمة الزّهراء. ووصل القطار إلى محطّة قم. عندما يخرج المرء من المحطّة يحسّ بأنّه قد دخل عالما آخر؛ نساء سود الأحجبة ورجال ملتحون، وحيثما نظرنا فثمّة أئمّة.

خرج أغاجان من المقصورة. كان المرتّلون يقرؤون القرآن في مكبّرات الصّوت فوق أسطح المساجد. لا وجود لصور الشّاه. وانتصبت في كلّ مكان لافتات كتبت عليها آيات من القرآن. كان الشّاه يتحاشى زيارة هذه المدينة ولا يتجرّأ أيّ دبلوماسيّ أمريكيّ على المرور بها سواء في القطار أو في السّيّارة.

كانت مدينة قم عند الشّيعة مثل الفاتيكان عند الكاثوليك، أقدس مدن البلاد، فيها دُفنت فاطمة الزّهراء. وكانت القبّة الذّهبيّة لمقامها تلمع مثل قطعة حليّ وسط المدينة.

استقلّ أغاجان سيّارة أجرة ليذهب إلى مسجد آية الله المكّي. وعندما توقّفت السّيّارة أمام المسجد كانت السّاعة تشير إلى منتصف النّهار.

ظهر آية الله مع تلامذته الأئمّة الشّباب في بيت الصّلاة. خشع أغاجان عندما رأى المكّي. ومدّ آية الله يده فصافحه أغاجان وتبعه إلى المصلّى ووقف في الصّفّ الأوّل.

وعند انتهاء الصّلاة جثا أغاجان على ركبتيه قرب آية الله.

«مرحبا بك. ما الّذي جاء بك؟»، سأل آية الله.

– رغبت في رؤية وجهكم المبارك، ثمّ وددت في سؤالكم عن محمد جلجل.

– هو أفضل تلامذتي، وقد باركته، قال آية الله.

– هذا يكفيني قال أغاجان، وقبّل كتف آية الله وقام.

– ولكن... قال آية الله (جثا أغاجان على ركبتيه) إنّه صعب المراس.

– ما الذي يريد آية الله أن يقوله؟ سأل أغاجان.

– بكلّ بساطة إنّه لا يتّبع الآخرين دون تفكير.

– أفهم ذلك، قال أغاجان.

– أتمنى لكم زواجا سعيدا، وعودة طيّبة. قال آية الله ومدّ يده لأغاجان مصافحا.

Twitter: @ketab_n

كان كلام آية الله قد كفى أغاجان، فقد أعطى آية الله موافقته. ولكنّ قلقا غامرا ظلّ يخامره.

وما إن وصل إلى الدّار حتّى استدعى شهبل إلى مكتبه.

«شهبل هلّا ذهبت باحثا عن صادقة». وعندما علمت صادقة بأنّ أغاجان يريد محادثتها أدركت بأنّ شيئا مهمّا يلوح في الأفق.

«اجلسي. هل كلّ شيء بخير؟» سألها أغاجان

- نعم، الحمد لله.

- اسمعي يا ابنتي، هناك من طلب يدك (احمرّ وجه صادقة، وحنت رأسها). إنّه إمام.

ونظرت إلى شهبل فقال لها باسما «إمام شابّ، وذكيّ». فابتسمت صادقة.

«لقد ذهبت إلى قمّ وتحدّثت مع آية الله الّذي يدرّسه. وقد مدحه لي. وأخوك أيضا يجده مناسبا لك. فما رأيك؟ هل ترغبين في الزّواج بإمام؟» قال أغاجان. فظلّت صادقة صامتة.

«الصّمت ممنوع عند تلقي طلب زواج»، قال أغاجان. أجيبيني.

- هو إمام وسيم، قال شهبل، يلبس ثياب إمام عصريّة، وحذاء بنيّا متقنا تلميعه. لا شيء في مظهره يُتكلّم فيه، قال شهبل باسما.

تظاهر أغاجان بأنّه لم يسمع ملاحظات شهبل، ولكنّ صادقة سمعتها وابتسمت من جديد.

- ما رأيكِ؟ هل نستطيع أن نباشر التّفاوض مع عائلته؟

- نعم، افعل ذلك، قالت بصوت هامس بعد صمت طويل.

- يجب أن أعلمك بشيء آخر، قال أغاجان. إنّه لا يشبه أباك في شيء. هو تلميذ آية الله المكّي. هل يوحي لك هذا الاسم بشيء ما.

نظرت صادقة إلى شهبل، فقال «إنّه ليس إماما من القرية».

Twitter: @ketab_n

- ستكون حياتك متقلّبة، وصعبة في بعض الأحيان، قال أغاجان. فهل أنت قادرة على العيش بهذه الطّريقة؟

وبعد أن فكّرت قليلا قالت: «وماذا تظنّ أنت؟».

- إنّه لشرف أن تحيَيْ حياة كتلك، ولكنّ حياتك يمكن أن تصير جحيما إذا لم تشاطريه أفكاره، قال أغاجان.

- هل أستطيع أن أتحدّث إليه؟

- بكلّ تأكيد، قال أغاجان.

وبعد أسبوع رافق شهبلٌ الإمامَ جلجلا إلى الصّالون، وقد وُضعت فيه سلّة من الفواكه وشايا سخنا. ثمّ أحضر صادقة وعرّفها على جلجل. فحيّته ووقفت قرب المرآة الحائطيّة فسألها الجلوس. حلّت عقدة تشادورها ليتمكّن من رؤية وجهها بشكل أفضل. وتركهما شهبل لوحدهما وأغلق الباب بلطف.

وقفت الجدّتان قرب الحوض لتراقبا ما يحدث. لمحت فجري سادات، زوجة أغاجان، جلجلا من الطّابق الثّاني حيث كانت تقف خلف نافذتها. وكانت زينات خانمِ، زوجة الصّابري، تصلّي في غرفتها داعية أن تنعم ابنتها بزواج سعيد. ولم تكن تستطيع أن تفعل غير هذا لأنّ أحدا لم يسألها رأيها قطّ. ولا اعتبار لما تقول. ففجري سادات هي من تقرّر في الدّار.

اختبأت ابنتا أغاجان وراء السّتائر حتّى تتمكّنان من رؤية جلجل حين يخرج من الصّالون.

دام لقاء جلجل والعروس المستقبليّة للدّار ساعة من الزّمن ثمّ فُتِح باب الصّالون وخرجت صادقة. بدت سعيدة، نظرت إلى الجدّتين وصعدت إلى الطّابق العلوي.

وعرّف شهبل جلجلا على أفراد العائلة وفق ما تقتضيه أصول الدّار في الباحة الدّاخليّة: «هاتان جدّتا الدّار». ونزلت فجري سادات فقال شهبل مبتسما «هذه زوجة أغاجان، ملكة الدّار». حيّاها جلجل دون أن ينظر إليها. وسلّمت الفتاتان على جلجل تِباعا. وبعد أن قابل جميع من في البيت، رافقه شهبل إلى البازار حتّى يفصّل أغاجان الحديث معه.

وبعد أيّام قليلة استقبل أغاجان جلجلا ووالده، وكان الصّابري حاضرا أيضا. لم يتحدّثوا حديث الزّواج العاديّ؛ لم يذكروا الذّهب أو المال. ستهدي العروس لزوجها مصحفا

Twitter: @ketab_n

مذهّبًا غلافُه وستغادر بيت والدها حاملة معها تشادورا أبيض وجزءا من قصائد الحافظ، شاعر القرون الوسطى. ولكنّ الجميع كانوا يعرفون بأنّ عائلات المدينة الثّريّة لا تترك بناتها يغادرن فارغات اليدين. ستعطيها العائلة، ولا شكّ، كلّ ما ستحتاجه. ثمّ تحدّثوا عن المسجد، عن المكتبة، عن الكتب، عن الأقبية القديمة، عن المؤذّن الأعمى، وطبعا عن شجرة الأرزّ الهرمة في الدّار. وأنهوا حديثهم محدّدين موعد الزّواج.

«مبارك إن شاء الله» قال الرّجال وتصافحوا. وبعد انتهاء المحادثات دخلت صادقة حاملة طبقا فضيّا عليه خمس كؤوس شاي فضيّة.

سيقام العرس في ذكرى مولد فاطمة الزّهراء، وهو أجمل أيّام السّنة، حرارته معتدلة ويحمل النّسيم الّذي يهبّ من الجبال رائحة عليلة. وهذا الطّقس يذكي في المرء رغبة في أن يحمل عروسه بين ذراعيه ويستلقي تحت رداء صيفيّ خفيف. في هذا الوقت من السّنة ينام أغلب النّاس فوق سطوح منازلهم. فنرى كثيرا من الخيام اللّيليّة الشّفّافة. وهي الخيام الّتي ينام فيها العرسان الجدد.

سيقام حفل يليق بسكّان الدّار وستُستدعى إليه العائلات المهمّة في المدينة وفي البازار. لم تكن الفتاة الّتي ستتزوّج فتاة عاديّة، بل هي ابنة الإمام الصّابري. وليس العريس أستاذا أو موظّفا عاديّا، ولم يكن تاجرا أيضا بل هو إمامٌ داكنُ العمامةِ، قميٌّ.

Twitter: @ketab_n

العرس

حلّ يوم الزّفاف.

استدعت زينات خانم ابنتها إليها، وأغلقت الباب وقبّلتها وسألتها:

- هل أنتِ سعيدة بزواجك بجلجل؟

- لا أعرف...

- عليك أن تعرفي، إنّه رجل ذكيّ ويقول أبوك إنّه طموح جدّا.

- هذا ما يخيفني تحديدا.

- أنا أيضا خفت عندما تزوّجت أباك، كلّ الصّبايا يرتعدن من فكرة الرّحيل فجأة مع غريب. ولكن ما أن تصيران مع بعضكما بعضا حتّى يتبدّد الخوف. وكلّ الفتيات يزوّجن في النّهاية ويغادرن السّقف العائلي.

وكانت زينات خانم تهدّئ من روع ابنتها بعبارات مطمئنة، ولكن في عمق فؤادها كانت الشّكوك تغمرها هي أيضا دون أن تعرف السّبب. وقد استرجعت ذاكرتها فجأة كلّ ذكريات الماضي الأليمة. ولكنّها لم تترك شيئا يبدو عليها.

«لا أستطيع دائما أن أصدّق»، قالت لابنتها.

- ما الّذي لا تستطيعين تصديقه؟

- فقط أنّك قد كبرت، وأنّك ستتزوّجين، وستغادريننا قريبا.

- لِمَ تبدين حزينة هكذا؟ (كانت عينا زينات تفيضان دمعا).

«سعادةً بك» قالت لابنتها وهي تقبّلها.

خشيت زينات من فقدان ابنتها منذ أن ولدتها؛ كانت تخشى أن تجدها ميّتة في

Twitter: @ketab_n

سريرها، أو في الحديقة، أو قرب الحوض. وكانت طفولة صادقة فترة سوداء في حياة زينات. ولم يفارقها القلق في تلك الفترة قطّ. وكانت لا تجرؤ على الذّهاب إلى النّوم ليلا خوفا من أن تعود إليها الكوابيس.

كانت زينات خانم ابنة عمّ للإمام الصّابري؛ ولم يزد عمرها عن ستّ عشرة سنة عندما تزوّجت. وأنجبت ابنتها الأولى أزرا، وكانت تكبر صادقة بخمس سنوات، وتزوّجت في سنّ الثّامنة عشرة من أحد أفراد عائلة زينات. وقد أنجبت أزرا الآن ثلاثة أولاد وهي تعيش مع زوجها في كاشان.

ثمّ أنجبت زينات طفلا سمّته عبّاس. وقد اُعتُبر الطّفل منذ ولادته أمل العائلة خليفة أبيه في إمامة المسجد. ولكن في أحد أيّام الصّيف الحارّة وقع حادث فظيع عندما كانت في المنزل لوحدها مع ابنها.

كان الطّفل قد بدأ بالمشي وكان يترنّح مَرِحا ويتّبع قطط المنزل. صعدت زينات مرّة إلى غرفتها ونسيت الطّفل كليّا؛ غير أنّ الصّمت المخيّم على المكان حملها على التّطلّع من النّافذة فلم ترَ أيّ أثر لعبّاس. نزلت الدّرج مسرعة ورأت القطط ممدّدة حول الحوض. وكان جسد ابنها يطفو فوق الماء. حاولت إخراجه وهي تصرخ.

ظهر بعض الرّجال الّذين سمعوا صراخها على سطح الجامع وهبّوا لنجدتها. وحاولوا إمساك الطّفل من بطنه دون جدوى بينما كانت زينات تولول. ثمّ حاولوا أن يمسكوه من رجليه ويحرّكوه دون أن ينجحوا أيضا. وصرخت زينات.

أوقدوا نارا وحاولوا تدفئة الطّفل. ولكن كان الوقت قد فات. وصرخت زينات. فطرح الرّجال الصّبيّ أرضا ودثّروه بتشادور أمّه. لقد مات عبّاس، أمل العائلة.

لم يبق أحد لم يعاتب زينات على ما حدث. غير أنّها انسحبت إلى غرفتها مغمومة.

ذهب إليها أغاجان وقال لها:

«زينات، هذا قدر الله، وعلينا أن نمتثل له».

ولم يعد أحد في المنزل يتحدّث عن عبّاس. وظلّت زينات تنتحب في صمت لأشهر، ولا تتكلّم. واعتبرت زينات صمتها عقابا صارما لها.

وبعد سنة حملت بصادقة. فغادرت غرفتها وبدأت تساعد الجدّتين في شؤون المطبخ.

Twitter: @ketab_n

ولم تنتصب قامتها من جديد وتعود إلى حياتها الطّبيعيّة إلّا بعد سنتين حينما أنجبت أحمد.

وسواء أكانت زينات سبب الحادث أو لم تكن فإنّها لم تستعد مكانتها في المنزل. فقد كانت تعيش في ظلّ فجري سادات. وكانت تحسّ أنّها امرأة من الدّرجة الثّانية. لو أصاب فجري سادات مكروه كهذا فإنّ أغاجان سيظل إلى جانبها وسيفعل كلّ شيء ليخفّف من ألمها.

ولكنّ الصّابري كان ضعيفا، ولم يعاتب زينات قطّ، ولكنّه لم يساندها مطلقا في تلك السّنيّ العصيبة. ولم يحضنها أو يغازلها قطّ.. وإذا أهمل زوج ما امرأته فإنّ الآخرين لن يستنكفوا عن معاملتها بمثل ما يعاملها به زوجها. وإذا تجاهل زوج ما امرأته فإنّ الآخرين سيتجاهلونها أيضا. والدّليل أنّ ابنتها ستتزوّج ولم يطلب منها أيّ واحد رضاها عن ذلك.

«هذا ليس مهمّا، قالت زينات وهي تخاطب مرآتها عندما كانت تكفّف دمعها، سيأتي وقتي».

عمّت الحركة الدّار في هذا اليوم. ونُصب ستار طويل جدّا في الباحة؛ وهو السّتار المستعمل في فصل النّساء عن الرّجال أثناء الصّلاة في الجامع.

وفُرشت زرابيّ فخمة، وغطّى رجال المسجد حيطان الدّار بزرابي حائطيّة نُقشت عليها آيات قرآنيّة مبهجة.

وعُلّقت على أغصان الأشجار خرق سندسيّة خضراء طُبعت عليها قصائد لفحول الشّعراء. واستدعي أشهر مرتّل للقرآن من قم، كانت السّور القرآنيّة المسجوعة الّتي يرتّلها تترك أثرا لا يمحى في مستمعيها.

ارتدى أغاجان بدلته الجديدة وذهب إلى الحلّاق. إنّه يعشق الملابس الجديدة والنّظيفة، وبفضل فجري سادات فقد كان أحد تجّار الجملة القلائل في البازار الّذين يهتمّون بمظهرهم الخارجيّ. وكان أمينه في البازار يحرص على أن تكون أحذيته ملمّعة بشكل جيّد دائما، وكانت الجدّتان تكويان قمصانه. وتمازحه فجري سادات أحيانا قائلة له «أنت أجمل رجال المدينة. عندما تحلق ذقنك وتضع قبّعتك. لا أحد يهجس بأنّك تحفظ القرآن كاملا».

لا يزال الإمام في المكتبة. بعد حين عندما يحضر كلّ المدعوّين سيذهب لرؤيتهم لبرهة ثمّ يعود إلى كتبه.

انطلقت الحفلة. بدأت العائلات ووجهاء المدينة يتوافدون جماعات جماعات. يتّجه

الرّجال إلى يمين الباحة حيث شجرة الأرزّ الهرمة، ويجلسون في المقاعد الفارهة قرب الحوض. وتذهب النّساء أبعد حيث يغبن وراء السّتار الطّويل ويذهبن للجلوس حول الأرضيّة الزّهراء الجميلة العطرة الّتي يسهر عليها العم رمضان، حدائقيّ الدّار. وخلافا للعادة، لم يصطحب أحد من المدعوّين أبناءه. في العادة، يكون الأطفال أوّل الضّيوف ولكن ليس في هذا الحدث الجلل. قُدّم الشّاي وألذّ الحلويّات إلى الضّيوف. ورُشّ عطر الورد على أيدي الرّجال والنّساء أيضا.

وكان كلّ المدعوّين يتطلّعون إلى رؤية جلجل، خاصّة النّساء.

توقّفت سيّارة أمام الباب ونزل العمدة منها. فرحّب به أغاجان ووقف الرّجال عندما دخل وجلس إلى مقعده قرب الحوض. وتوقّفت سيّارة أخرى أمام الباب وعرف كلّ المدعوّين أنّه العريس. فاستقبل أغاجان جلجل ورافقه إلى مقعده قرب العمدة. فقام العمدة وحيّا جلجل ولكنّ الإمام الشّاب مرّ وكأنه لم يره أو لم يعرفه. فهو يعتبره تابعا للشّاه ولا نيّة له بأن يجلس إلى جانبه، بَلَهَ أن يصافحه. جلس العمدة ومرّ الأمر بصمت لأنّ أغاجان كان يحادث أحد المدعوّين ولم ير شيئا.

بعد حوالى ثلاث ساعات جاء عون الحالة المدنيّة ومساعداه الملتحيان يحمل كلّ منهما دفترا كبيرا في يده وذهبوا ليجلسوا إلى الطّاولة الّتي سيُمضى عليها عقد الزّواج.

فتحا دفتريهما مباشرة وانطلق الاحتفال رسميّا. وفي هذه اللّحظة حدثت جلبة في الجانب الآخر من السّتار وصدحت النّساء «السّلام على فاطمة، السّلام على فاطمة».

وأدرك الجميع أنّ العروس حضرت وأنّها قد جلست إلى مقعدها، إلى الطّاولة حيث كان أعوان الحالة المدنيّة يكتبون العقد.

بدت العروس أجمل من أيّ وقت مضى. كانت ترتدي فستانا أبيض صافيا وتضع تشادورا أخضر نيّرا موشّى بأزهار ورديّة صغيرة. ووضعت بعض الماسكارا على رموشها. وبدا وكأنّ صفّا من شعر حاجبيها كان قد نُتف. فصار مظهرها يوحي بأنّها امرأة شابّة أكثر من كونها صبيّة.

طلب عون الحالة المدنيّة شهادة ميلاد العروس. فأخرج أغاجان بعض الأوراق من الجيب الدّاخليّ لسترته وقدّمها له. فنقل العون كلّ المعلومات إلى دفتره الكبير بكلّ دقّة ثمّ طلب شهادة ميلاد العريس.

Twitter: @ketab_n

بحث جلجل في جيوبه، ولكنّه لم يخرج شيئا، فهمس بكلمات في أذن أبيه. فبحث الأب في محفظته، وكان الحضور ناظرين منتظرين الأوراق، ولكن لا وجود لها.

«لقد نسيتها» قال جلجل.

وسُمعت ردّة فعل حادّة من الجانب الآخر من السّتار، من جهة النّساء.

كان وضعا غير معتاد.

وفكّر عون الحالة المدنيّة برهة ثمّ قال «هل تحمل معك أيّة وثيقة هويّة أخرى؟».

وفتّش جلجل في جيوبه من جديد، وهمس ببعض كلمات في أذن أبيه من جديد. لم يكن معه أيّة وثيقة هويّة.

وارتفعت همهمات من جديد من جهتي السّتار. نظر أغاجان إلى العمدة ورأى في عينيه ارتيابا. ونظر إلى بعض أعيان البازار، وبدا أن لا أحدَ منهم قَبِلَ قصّة نسيان الأوراق. كيف يمكن أن يحدث أنّ جلجل يقبل على الزّواج وينسى أن يحضر الأوراق الضّروريّة لكتابة العقد؟

كان الجميع ينتظرون ردّة فعل أغاجان. وخشي أغاجان من أن يكون جلجل قد فعلها عمدا. ربّما أراد بهذا أن يحاصر العائلة في ركن ويتزوّج ابنتهم دون عقد رسميّ. قد يحدث هذا في الرّيف، فيقرأ إمام القرية الفاتحة وترضى العروس ويرضى العريس، فيشقّ بذلك طريقه إلى فراش زوجته. وفي هذا النّوع من الزّيجات يمكن للرّجال أن يتزوّجوا أخريات أيضا. إلّا أنّ هذا النّوع من الزّواج غير معمول به في المدينة، ومن المؤكّد أنّه لن يحدث في عائلة أعيان مثل عائلة أغاجان.

«ربّما قد نسيت الأوراق عند أبيك»، قال أغاجان لجلجل.

– لا، لا أظنّ ذلك، لقد نسيتها في قم.

ذهب أغاجان ليجلس إلى جانب العمدة حتّى يكلّمه.

«أنت مُحقّ، قال العمدة، ما كان عليه أن يفعل هذا».

ثمّ ذهب أغاجان باحثا عن الصّابري، وكان خارجا من المكتبة ووقف قرب شجرة الأرزّ مع حارس المسجد.

«لا يمكن للزّواج أن يتمّ الآن، قال أغاجان، يجب أن يذهب ليجد أوراقه».

Twitter: @ketab_n

- هذا يعني أنّه يجب أن يذهب إلى قم وأنّه لن يعود قبل منتصف اللّيل. ربّما من الأجدر أن نقرأ الفاتحة الآن. ثمّ يذهب بهدوء إلى قمّ ليبحث عن أوراقه.

- لا، لأنّنا إذا قرأنا الفاتحة فإنّ الحفل سينتهي؛ عندها سيأخذ ابنتنا ولن يكون لنا شيء لنفعله. وإذا أخذها فسنبقى فارغي الأيدي. وأنت تفهم هذا أفضل منّي.

- أنت محقّ. ليذهب ويجلب أوراقه، ردّ الصّابري وعاد إلى مكتبته.

ذهب أغاجان إلى عون الحال المدنيّة وقال:

«دون أوراق رسميّة لا زواج».

وشرع النّاس يتكلّمون جميعهم في نفس الوقت.

واستدار أغاجان إلى العريس وقال له بهدوء

«سأنتظر، سننتظر. تستطيع أن تعود بهدوء إلى قمّ لتبحث عن أوراقك».

لم يكن جلجل ينتظر هذا الرّدّ.

- ولكنّ هذا غير ممكن. لا يوجد قطار إلى قمّ الآن. وأنا أخشى الحافلات.

- سأهتم بأمر رحلتك» قال أغاجان.

وذهب من جديد إلى العمدة وقال له بعض كلمات. فهزّ العمدة رأسه مرّات كثيرة دليل موافقة.

«أُنجز، قال أغاجان، ستُقلّك سيّارة جيب. سيرافقك سائق العمدة. أنا صبور ولكن يجب أن نستعجلك».

لم يجد جلجل ما يقوله. نهض، وذهب هائجا، ووقف أمام الباب منتظرا السّيّارة. وفي ظرف لحظة، ظنّ أغاجان أنه رأى بارقة سوء نيّة في عينيه، وكأنّ قناعه قد سقط فجأة ولاح وجهه الحقيقيّ.

لم يكن من العادة أن ينتظر المدعوّون العشاء. ولكنّ أغاجان خاطب الحضور قائلا «اعذروني، فهذه الحوادث يمكن أن تقع. تفضّلوا إلى العشاء». وبعث شهبل فورا إلى المطبخ الموجود قبالة الجامع ليحضر الطّعام.

Twitter: @ketab_n

ونادت فجري سادات أغاجان إلى غرفتها تريد محادثته.

«ألا تظنّ أنّك تصرّفت بكثير من الصّرامة».

- ربّما كان عليّ أن لا أفعل ذلك، ولكن أنا لا أثق فيه.

- من الآن؟

- هذا ليس أيّ إمام، إنّه إمام حادّ، ولم أتوقّع أن يأتي دون أوراق. إنّه يخطّط لشيء ما ولكنّي لا أعرف ما هو.

- أنتم الرّجال تتحدّثون دائما عن مخطّط، ماذا يمكن أن يكون؟

- لقد سُوّي الأمر الآن وهو في طريقه إلى قمّ. علينا أن نصبر.

- نفس المعزوفة دوما: الرّجال يقرّرون والنّساء يجب أن ينتظرن.

- هذا ليس صحيحا. لن أزوّج فتاة من عائلتنا كما اتّفق. أظنّ أنّك تفهمينني.

- أنا أفهمك، ولكن ماذا سأقول للنّساء؟. قالت ذلك دون أن تنظر إليه.

- تعلمين جيّدا ما عليك أن تقوليه للنّساء. استقبليهنّ وتعشّيْ معهنّ، وأبدي البسمة، أظهري لهنّ أنّك أعلى من هذه الحادثة، وحافظي على هدوئك.

عند السّاعة الحادية عشرة، لم تظهر أيّة علامة من جلجل. أنهى المدعوّون عشاءهم. ووزّع الخدم الشّاي للمرّة الألف. وتُبودِلت النّارجيلات من يد إلى أخرى. وعاد العمدة بعد أن غادر لبضع ساعات. وبعد العشاء ذهب رجال البازار يتجوّلون على طول النهر. أكّدوا لأغاجان تفهّمهم للوضع: فقد كانوا سيتصرّفون التّصرّف ذاته.

وقف شهبل على سطح المسجد مترصّدا. وعندما رأى السّيّارة أخيرا أشار إلى أغاجان.

وبعد قليل توقّفت السيّارة أمام الباب.

نزل جلجل وذهب مباشرة إلى عون الحالة المدنيّة وبسط أوراقه أمامه.

وصاح أحدهم «الصّلاة على محمّد»

وكرّر الجميع «الصّلاة على محمّد».

Twitter: @ketab_n

ابتسم أغاجان. وعاد رجال البازار من جولتهم. ورتّل المرتّل بصوت جهوريّ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا [1] وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا [2] وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا [3] وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا [4] وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا [5] وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا [6] وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [7]، [سورة الشّمس].

Twitter: @ketab_n

الأسماك

حمل جلجل عروسه إلى قمّ، ولكن لا أحد يعرف عنوانهما. لم تنتظر العائلة تصرّفا مثل هذا ولكنّها لم تنتقد الأمر.

«ليس مهمّا، قال أغاجان، سيظلّ بابنا مفتوحا لهما».

أنهى جلجل دراسته إماما ولكن لم يُعيّن له مسجد بعد. يستطيع إمام مسجد ما أن يعيش حياة مستقلّة، ومن لا مسجد له فإنّه يتلقّى إعانة ضعيفة يمنحها له آية الله الّذي يتبعه.

كان أغاجان سيساعده ماديّا طوعيّا، ولكنّ جلجل رفض كلّ مساعدة. ورغم ذلك فقد ساعده أغاجان بأن طلب من معارفه الكثر التّدخّل لصالحه ليجدوا له مسجدا يكون الإمام المعوّض فيه.

وكانت صادقة تزور المنزل من حين لآخر، ولكنّ جلجل منعها من أن تُخبرهم بعنوانهما. وكانت تتذمّر أحيانا قرب أمّها من منزلها الجديد؛ أنّها كانت صغيرة جدّا؛ وأنّ الجوّ كان باردا نوعا ما؛ وأنّها لم تنجح أبدا في إنشاء صلات مع جيرانها.

– إنّ الحياة مختلفة جدّا في قم، قالت لأمّها، كلّ واحد يعيش في داره الخاصّة مع عائلته فقط، الأبواب مغلقة والسّتائر دائما متدلّية.

– وماذا تريدين: هذا جزء من حياة جديدة، خاصّة حينما نذهب لنعيش في مدينة غريبة، بالإضافة إلى أنّها مدينة مقدّسة وهامّة جدّا مثل قم. جلجل ما زال صغيرا، لقد أنهى دراسته لتوّه ولا مسجد خاصّا به إلى الآن.

– أنا أفهم ذلك، ولكنّ جلجل مختلف كليّا عن كلّ الرّجال الآخرين الّذين عرفتهم، يختلف عن أبي ويختلف عن أغاجان ويختلف عن العمّ نُصرت. لا أعرف كيف أصفه. من الصّعب أن أحادثه محادثة جادّة. غالبا ما يسود الصّمت المنزل حالما يدخل، وهذا يغيظني؛ فهو لا يقول شيئا وأنا لا أعرف ماذا أقول.

Twitter: @ketab_n

- لا تقارني حياتنا هنا بحياتك في منزلك الجديد. هذه الدّار عتيقة وقد أنشأت إيقاعها عبر القرون. أمّا منزلك فهو منزل إمام شابّ بلا تاريخ. عليك أن تصنعي منزلك وتبعثي فيه الدّفء، وتبحثي عن عقد صلات مع جيرانك وتظهري الحبّ والاهتمام بزوجك.

- يسهل قول هذا يا أمّي، أستطيع أن أمنحه الحبّ ولكنّ السّؤال هو هل يريد هذا الحبّ حقّا.

- ولم لا يريده؟

- لا أعرف.

عندما كانت صادقة تأتي إلى الدّار كانت تُستقبل دائما بحرارة. يشتري كلّ أهل الدّار ملابس وأحذية لها، ويمنحونها مالا ويعيدونها إلى قمّ محمّلة بحقائب ملأى هدايا.

وعندما استُدعي جلجل ليكون إماما معوّضا في مدينة أخرى كان يبعث صادقة إلى دار والديها وفي طريق العودة كان يمرّ عليها ويصطحبها معه. كانا يغادران أحيانا في اليوم نفسه، ولكنّهما كانا يبقيان لأسبوع في بعض الأحيان. وفي هذه الحالة، كانا ينامان في غرفة القبّة.

ويوجد في هذه الغرفة شرفة صغيرة مقفلة بحاجز من القضبان الخشبيّة يمكن أن نستمتع من بينها بظلّ القبّة مرتسما على الحائط المقابل. ومن تحت هذا الحائط كان النّمل الكثير قد خرج فيما مضى.

قبل ثمانمائة سنة، عندما شُيّدت الدّار، صمّم المهندس هذه الغرفة خصّيصا لإمام المسجد. فكانت الشّمس تتلاعب بالظّلال برونق إلى غاية الغسق. تعكس أوّلا ظلّ القبّة فقط، ثمّ تضاف ظلال الصومعات، ويضاف لاحقا ظلّ القبّة وهي تختفي ولا تبقى غير ظلال الصومعات. ومن حين لآخر يظهر في ضوء المساء المتعدّدة ألوانه ظلّ حمامة، أو الزّاغ العجوز أو القطط. وعند المساء تأتي قطط المسجد لتقرصع في الشّرفة وتترصّد الخفافيش الّتي تصدر ضجّة فوق الحوض.

وعندما يكون الطّقس جميلا نستطيع أن نبسط زربيّة في الشّرفة، ونضع فوقها بعض مخدّات الاتّكاء ونجلس عليها لنقرأ أو نشرب الشّاي. والضّيف الّذي يسكن غرفة القبّة

Twitter: @ketab_n

يستطيع أن يتمتّع بكامل حرّيته. لقد كان إذن، بالنّسبة إلى جلجل، المكان المثاليّ عندما يأتي ليبيت في الدّار. فيقضّي كامل اليوم داخل الغرفة، وتحمل له الجدّتان وجباته ولا يقلقه أحد في أيّ شيء.

ليس لجلجل صلات جيّدة إلّا بشهبل، وهو يطلب منه غالبا أن يشاركه طعامه. لقد وجده شهبل مهمّا منذ البداية. لقد قابل أئمّة كُثرا، ولكنّه وجد في جلجل شيئا ما لم يجده في غيره. فلجلجل أفكار جديدة. وهو يتحدّث عن مواضيع مثيرة للاهتمام. وقد كان شهبل يستمع إليه مستمتعا ويتناقش معه.

لقد كان جلجل مستعجلا في كلّ شيء. عندما يسمعه يتحدّث عن أمريكا يخيّل إليه أنّه يعرف هذه البلاد كما يعرف ما بجيبه: فهو يشرح له كيف استولى الأمريكان على وطنه وكيف يوجّهون دفّة البلد في الكواليس. وقد حكى له كيف دخل الأمريكان البلاد: «هكذا حدث ذلك: لقد كانت أمريكا في طور التّحوّل إلى قوّة عظمى وأرادت أن تُنشئ في بلدنا قاعدة حربيّة مضادّة للاتّحاد السّوفياتي. ولكنّ مصدّق، الوزير الأوّل المنتخب، كان رجلا ليبراليّا، ورئيسا وطنيّا فرفض أن يفتح الفضاء للأمريكيّين. ولم يكن الأمريكيّون قادرين على الانتظار كثيرا. فقد ظنّوا أنّ الاتّحاد السّوفياتي لم يستدع مصدّق إلى موسكو إلّا ليدعم توجّهه المضادّ للأمريكيّين. ولهذا سعت وكالة الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة إلى أن تدبّر انقلابا، وبارك الشّاه ذلك. فقرّروا أن يغتالوا مصدّقا. ولكنّ الاتّحاد السّوفياتي اشتمّ رائحة هذه المكيدة وحذّر مصدّق فورا. فأوقف مصدّق الفرقة العسكريّة المساندة للأمريكيّين، الّتي كانت تدبّر للانقلاب واحتلّ قصر الشّاه. وقد تمكّن أعوان وكالة الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة في النّهاية من إخراج الشّاه من القصر بواسطة طائرة مروحيّة. وهرب إلى أمريكا في طائرة مقاتلة».

- هذا مثير، لم أكن أعرف شيئا عن هذا مطلقا، قال شهبل.

- إنّهم لا يكتبون هذا النّوع من الأخبار في الكتب المدرسيّة. فهم يعلّمونكم تاريخا محرّفا.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- كانت أمريكا محتاجة إلى إيران لتصبح قوّة عالميّة. فإيران تحتلّ موقعا إستراتيجيّا في الشّرق الأوسط ولها حدود مع الاتّحاد السّوفياتي تمتدّ لأكثر من ألفي كيلومتر. لذلك

Twitter: @ketab_n

دبّروا انقلابا آخر. واتّصلت وكالة الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة بضبّاط في الجيش الإيراني. وبعد يومين، حين كان كلّ النّاس يظنّون أن الأمر قد انتهى، أُوقف مصدّق. وانتشرت عربات مدرّعة أمريكيّة في كلّ مفترقات طرق طهران واحتُلّ مبنى البرلمان. ثمّ أطلقوا مئات اللّصوص والمجرمين والعاهرات في الشّوارع وهم يضعون صور الشّاه فوق رؤوسهم. وفي الغد رافق فريق من أعوان وكالة الاستخبارات الأمريكيّة الشّاه إلى قصره. إنّ الشّاه ليس سوى دمية ويجب أن يرحل هو والأمريكيّين».

واقشعرّ جلد شهبل لهذا الكلام القوي الرّنّان.

وفي المرّة الأخيرة الّتي اجتمعا فيها على الأكل في الشّرفة، حدّثه جلجل عن المقاومة العنيفة لآيات الله للنّظام والثّورة التّاريخيّة لآية الله الخميني وقد أجبرته دناءات الشّاه والأمريكيّين على حمل السّلاح. وفي ذلك اليوم قُتل كثير من الأئمّة الشّباب وأوقف عدد أكبر لاحقا. وأجبر الخميني على اختيار المنفى.

كان شهبل يسمع كثيرا اسم الخميني في الدّار ولكنّه لا يكاد يعرف شيئا عنه. وسيعلم ذلك بعد سبع أو ثماني سنوات حينما ستقع كلّ هذه الأحداث. وقد وعده جلجل أن يجلب له في مقدمه المقبل كتابا سريّا يصف بتفصيل تاريخ التّحرّك الأخير لآيات الله.

وفي هذا المساء تحدّث جلجل عن حالة لم ير شهبل مثيلا لها في حياته. «لم يعد أحد يخشى السّجن، لقد صار مثل الجامعة، خاصّة بالنّسبة إلى النّشطاء الشّباب».

إنّها مقاربة جديدة كليّا؛ إذ كان شهبل يظنّ السّجن مكانا لحبس المجرمين.

«إنّ المساجين السّياسيّين يختلفون كليّا عن مساجين الحقّ العام، قال جلجل، إنّهم الرّجال الّذين يناضلون ضدّ النّظام، الرّجال الّذين يأسفون لوجود الاستخبارات الأمريكيّة في بلدنا. إنّهم الأذكى، أولئك الّذين يريدون أن يمسكوا بأيديهم مصير بلدهم، أولئك الّذين يريدون أن يغيّروا النّظام السّياسيّ تغييرا جذريّا. وهذا هو السّبب الّذي جعل النّظام يوقفهم ويعزلهم في زنزانات. ولكنّ المساجين يتواصلون بعضهم ببعض. ربّما يكونون عشرة أو عشرين في الزّنزانة نفسها. وفي السّجن نجد كلّ أصناف النّاس: طلبة وفنّانين وأئمّة وسياسيّين وزعماء ومعلّمين ونجد أيضا رجالا ذوي أفكار جديدة يتحاورون ويتناقشون فيما بينهم، حتّى لتتحوّل الزّنزانة إلى جامعة يمكن أن نتعلّم فيها أشياء كثيرة. هل تعلم ماذا يحدث عندما نضع، فجأة، كثيرا من الرّجال الأذكياء في الزّنزانة نفسها؟ سيتحدّثون

Twitter: @ketab_n

عن تجاربهم ويتبادلون الإصغاء ويتعاونون لا محالة. بعض النّاس يدخلون السّجن خرفانا ويخرجون منه أسودا. لي معارف كثر في السّجن من أصدقاء وأئمّة شبّان وأعضاء في حركات سريّة من اليسار إلى اليمين. هل سمعت النّاس يتحدّثون عنهم؟».

- لا

- وماذا تفعل هنا؟

- ماذا تقصد؟

- أقصد في هذه الدّار، في هذه المدينة؟

- لا شيء تخصيصا. أنا أرتاد المدرسة والجامع.

هزّ جلجل رأسه قائلا «أشكّ في ذلك. من المؤكّد أنّ هذه المدينة لن تفلح في شيء إنّها مدينة ضعيفة. تكسب الثّورة على الشّاه أرضا جديدة في كلّ المناطق ولكنّ سنجان تنام بسلام. ما المُنتظر من مدينة إمام الجمعة فيها ضعيف جدّا؟ ما الّذي يفعله هذا الصّابري كامل اليوم في مكتبته؟ لا شيء! إنّه يجعل الجدّتين تغسلان خصيتيه. هذا كلّ ما يفعله! وا أسفاه على هذا المسجد التّاريخيّ العتيق! للمسجد تاريخ مشرق، وآن أوان خطيب ملهَم ليخطب فيه. هل تعي ما أريد قوله؟».

ابتلع شهبل كلمات جلجل. لقد وجده كبيرا، وأحسّ أنّه صغير أمامه. أراد أن يطرح عليه أسئلة ولكنّه لم يجرؤ، مخافة أن يتفوّه بصبيانيّات.

في هذه اللّيلة ظلّ صامتا الوقت كلّه، وحين همّ بأن يعود إلى غرفته قال فجأة «أريد أن أطلعك على شيء ما».

- ما هو؟

- قصصي. ما كتبت، قال بتردّد.

- هذا هامّ جدّا! أرني. هل هي معك؟ اقرأ عليّ بعضا منها.

- لا أعرف إن كانت لها أيّة قيمة.

- لا أستطيع أن أحكم عليها، ولكن من جيّد أن تكتب. اذهب وجئني بعملك!

خرج شهبل وعاد بسرعة حاملا ثلاث كرّاسات ومدّها إلى جلجل بتواضع.

Twitter: @ketab_n

«أرى أنّك قد كتبت كثيرا، قال جلجل وهو يتصفّحها مذهولا. منذ لقائنا الأوّل أدركت أنّك صبي ذكي. اختر إحدى قصصك واقرأها لي.

– لم يسبق أن أريتها لأيّ شخص، قال شهبل وهو يبحث عمّا سيقرأ. (وعندما وجد الصّفحة قال «أنا لا أجرؤ، ولكنّي سأبذل قصارى جهدي»

وبدأ يقرأ:

«في الصّباح الباكر عند ذهابي إلى الحوض قصد الوضوء للصّلاة رأيت لأوّل مرّة في حياتي أنّ النّور لم يكن مضاء في غرفة أبي. إنّه يستيقظ قبلي دائما، ويسبقني إلى الحوض، ولكن في هذا اليوم، كلّ شيء كان مختلفا.

الأسماك الّتي كانت، عادة، تمرح مشكّلة دائرة عندما تراني، همدت الآن دون حراك، وذيولها متّجهة إليّ. بعض قشر الأسماك تطفو فوق الماء. ويوجد دم على صخرة من صخور الحوض. وأدركت فورا أنّ خطبا ما قد وقع، فأسرعت نحو غرفة أبي، ودفعت الباب وأشعلت الضّوء...»

«ممتاز، لست في حاجة إلى أن تواصل القراءة، سأفعل ذلك بنفسي. أنت موهوب. اترك كرّاساتك هنا، فأنا أريد أن أقرأها»، قال جلجل وهو يهمّ بالقيام.

وذهب إلى الباحة نحو الحوض، ورأى الأسماك ترقد في الماء على ضوء مصباح الشّارع. وارتسم ظلّ الإمام على السّتار. فتح الباب الرّئيسيّ بهدوء وذهب ليتنزّه في الخارج، في اتّجاه النهر.

Twitter: @ketab_n

العباءة

كانت السّاعة تشير إلى الخامسة مساء، واللّيل يغشى ببطء السّاحة المغطّاة بالثّلج الّذي تذروه ريح باردة. حملت الجدّتان كعادتهما المناشف وثياب الصّابري النّظيفة إلى بيت الاستحمام لمساعدته على الاغتسال قبل الصّلاة. ورغم أنّهما أشعلتا المدفأة منذ ساعات الصّباح الأولى إلّا أنّ بيت الاستحمام لا يزال باردا.

«لا يمكن لهذا الأمر أن يستمرّ هكذا، قالت جلبانو معترضة، هذا تصرّف غير مسؤول، عليه أن يذهب إلى الحمّامات العموميّة وإلّا فإنّه سيمرض».

كانت اللّيلةُ ليلةً خاصّة فيها يُحتفل بذكرى وفاة الإمام عليّ؛ الخليفة الرّابع في الإسلام. في مثل هذه اللّيلة المشؤومة كان عليّ واقفا يصلّي في المسجد وخلفه اصطفّ مئات المصلّين. جاء ابن ملجم ووقف في الصّفّ الأوّل، فصلّى مع عليّ منتظرا إيّاه أن يفرغ من صلاته. وعندما فرغ استلّ ابن ملجم سيفه وضربه بكلّ قوّته على رأسه. سقط عليّ. وانقسم المسلمون من يومها إلى سنّة وشيعة.

استخلف الشّيعة الحسن؛ الابن الأكبر لعليّ، واستخلف السّنّة رجلا آخر، وقاوم الشّيعةُ السّنّةَ لقرون طويلة. مات عليّ ولكنّه صار الإمام المقدّس عند الشّيعة. وحتى بعد أربعة عشر قرنا ظلّ الشّيعة يبكونه كيوم مماته.

سيزدحم المسجد مساء. استعدّ الصّابري جيّدا. كان يريد أن يخطب عن عليّ، وفكّر في أن يقول شيئا جديدا. كان يريد أن يدعو إلى مصالحة بين الشّيعة والسّنّة، وقد فرّقهما أربعة عشر قرنا من الكره. «فلنكفّ عن التّكاره، نحن إخوة، قال أمام مرآته، أنا أمدّ يدي إليكم وأصافحكم بحرارة من أجل وحدة الإسلام». لم يكن قد تكلّم مع أغاجان عن خطابه، كان يريد أن يفاجئه. كان يدرك أنّه إذا حدّثه عن خطابه فسيقول أغاجان «لا معنى لخطابك هذا، فلا يوجد سنّيّون في مدينتنا». وسواء وُجد سنّيون في المدينة أو لم يوجدوا، وسواء سمعه سنّيون أو لم يسمعوه فهو يريد أن يقول شيئا جديدا، شيئا لم يسبق لأيّ إمام أن قاله قبله.

Twitter: @ketab_n

وضعت الجدّتان قدور ماء كبيرة على نار هادئة وانتظرتا الصّابري. كان الإمام يجسّ حرارة الماء بيده وهو غارق في أفكاره، قبل أن يغطس فيه بحذر شديد. اختفى تحت الماء وهو ممسك بطرفي المغطس. وعندما طفا فوق الماء صاح «أيّها السّنّيون، أنا أصافحكم، نحن إخوة، إخوة، بارد، بررر، يا له من برد».

سكبت إحدى الجدّتين الماء فوق رأسه بينما ابتدأت الأخرى تطليه بالصّابون. وخلال هذا الوقت كان الصّابري يرتعش ويردّد خطبته «الإسلام في خطر! علينا أن ننسى نزاعاتنا القديمة ونقاوم معا عدوّنا المشترك، بردا».

لا يزال متردّدا في ما إذا كان عليه أن يغيّر الكلمات الأخيرة في خطبته «ضدّ العدوّ المشترك». كانت عبارة مبهمة؛ فإلآم تُلمح عبارة «العدوّ المشترك»؟ إلى الشّاه؟ إلى الأمريكيّين؟ إذا تجرّأ على ذلك فستكون الخطبة الأكثر حماسة من بين كلّ خطبه، ولكنّه لا يزال متردّدا. «لقد انتهينا» قالت إحدى الجدّتين.

نهض ووضع رجله اليمنى فوق منشفة كانت مفروشة على الأرضيّة. وبما أنّه لم يكن ممسكا بحافّة المغطس فقد انزلق وسقط أرضا بينما رجله اليسرى مازالت في المغطس.

«تبّا» صاح فَزِعا.

ساعدته الجدّتان المذعورتان على الوقوف فورا وحاولتا إرجاعه إلى المغطس لأنّه بعد أن وقع أرضا لم يعد طاهرا للصّلاة. وفي هذه اللّحظة ظهر قطّ من قطط الدّار فجأة، وقد كان مختبئا وراء المدفئة، أرعبه الصّراخ الحادّ للصّابري، فقفز في المغطس، ولمس ساق الإمام العارية، ثمّ نطّ خارجا من الماء وفرّ هاربا. قطّ لمس ساق الإمام العارية المبتلّة! صورة لا تطاق! ربّما يوجد فئران في مكان ما. ارتعد جسم الصّابري لهذه الفكرة. غرفة الاستحمام غير طاهرة، والماء غير طاهر، والمنشفات غير طاهرة، والجدّتان غير طاهرتين، ويحدث كلّ هذا في ليلة مقتل الإمام عليّ؛ اللّيلة الّتي كان ينوي فيها أن يلقي خطبة غير مألوفة. ما العمل؟ أين يمكنه أن يتطهّر للصّلاة وقد أوشكت، والمصلّون ينتظرونه في المسجد؟

«يا اللّه»، صرخ وحنجرته مشدودة، وخرج مسرعا نحو الحوض، وهو عارٍ.

«لا، لا تفعل هذا، صرخت جلبانو، لقد تساقط الثّلج في الخارج، لا تفعل ذلك».

قفز إلى الماء قفزة واحدة، واختفى تحته. قفزت السّمكات الحمراء تحت ضوء

Twitter: @ketab_n

الفانوس في الجهة الأخرى من الحوض، ونعب زاغ المسجد نعبا حادّا، وأسرعت الجدّتان نحو القبو وأحضرتا مناشف جديدة نظيفة.

«هذا يكفي الآن». قالت جليبه.

- اخرج أرجوك» قالت جلبانو.

خرج الصّابري من الماء ولكنّه وقع فيه من جديد.

«اخرج حالا»

نجح الصّابري في الوقوف من جديد. وكاد أن يفقد توازنه ولكنّه استدرك الأمر في الوقت المناسب، وتوجّه نحو الجدّتين فغطّتاه بالمناشف. ودخلت جلبانو إلى المكتبة أوّلا وأشعلت المدفأة. اختفت جليبه في القبو لتحضر مناشف أخرى. كانت المدفأة مشتعلة والمنشفات دافئة، ولكن أين الصّابري؟

«ربّما يكون في غرفته.

- يا صابري، نادت جلبانو

- احمه يا رب، أين ذهب؟ يا صابري».

كانت السّمكات الحمراء تغفو في الحوض متلاصقة الواحدة بالأخرى، ولم يكفّ الزّاغ عن النّعيب. جاءت قطط الدّار وقرفصت على حافّة الشّرفة. ذهبت الجدّتان للبحث قرب الحوض. كان الصّابري واقعا أرضا على الثّلج ونور الفانوس الأصفر يضيء وجهه. عيناه مغلقتان وابتسامة متجمّدة على شفتيه. «صابري» صرخت الجدّتان.

لا أحد بالبيت. كان الجميع في المسجد. هرولت الجدّتان نحو الدّرج الّتي تؤدّي إلى سقف المسجد. قفزت القطط واختفت. وصاحتا بأعلى صوتيهما في الصومعة اليسرى حيث كان المؤذّن يعتاد الوقوف «مات الصّابري».

سمع الرّجال صوتيهما في المسجد، ووصل المؤذّن إلى السّطح يتبعه بعض رجال البازار. نزلوا الدّرج بسرعة وذهبوا إلى الحوض. وما إن رأى الحارس الصّابري على الأرض حتّى صاح «إنّا لله».

فهم الجميع بأنّ الصّابري قد مات فعلا. فحمله الرّجال إلى المكتبة وكفّت الجدّتان

Twitter: @ketab_n

عن البكاء لأنّهما كانتا تدركان أنّ عليهما أن تنضبطا في أوقات العزاء. كانتا تعرفان واجبهما فاختفتا وراء رفوف الكتب، ومن هناك أخذتا من خزنة قديمة رداء أبيض وأعطتاه إلى الحارس. هذا الكفن قد أحضره الإمام لنفسه من مكّة يوما. فتحه الحارس وغطّى به الجثّة وهو يردّد دعاء.

ثمّ جاء أغاجان. «إنّا لله» قال الرّجال بصوت واحد.

- إنّا لله، قال أغاجان برصانة. وجثا على ركبتيه أمام الجثّة، رفع الكفن بحذر ونظر إلى وجه الصّابري، ثمّ قبّله على جبينه وأعاد الكفن إلى مكانه.

وظهرت زينات على عتبة الباب بوجه مكتئب، ووقعت باكية قرب جثّة زوجها دون أن تنزع تشادورها. ساعدتها الجدّتان على النّهوض وحملتاها. وارتفعت أصوات رجال المسجد في الباحة. غادر أغاجان المكتبة وتوجّه إلى الباحة وكان الخبر قد انتشر في المدينة. ووقف رجال يحملون تابوتا قرب الحوض واستعدّوا لوضع الجثّة فيه وحملها إلى المسجد.

صعد سبعة رجال إلى السّطح ونادوا مجتمعين «حيّ على الصّلاة».

عرف كلّ من سمعهم بأنّ الإمام قد مات. أغلق جميع تجّار المدينة، ما عدا الخبّازين والصّيدلانيّين، أبواب دكاكينهم وتوجّهوا إلى المسجد. ظهر رتل طويل من سيّارات الشّرطة وتوقّفت سيّارة العمدة أمام المسجد. قال أحد الحاضرين: هذا موت مبارك فالصّابري قد مات في يوم موت سيّدنا عليّ.

في المساء عند حوالى السّاعة التّاسعة وُضع التّابوت فوق مصطبة قرب حوض المسجد. قرّروا ترك التّابوت هناك حتّى الغد ليتسنّى للمصلّين توديعه وليجد أفراد العائلة الّذين يسكنون بعيدا ما يكفيهم من الوقت ليأتوا.

عاد أغاجان إلى البيت. يجب عليه أن يجد إماما قبل يوم الغد، إماما يؤمّ صلاة الجنازة. في الواقع كان على أحمد ابن الصّابري وخليفته المستقبليّ أن يقوم بهذه المهمّة، ولكنّه لم يتمّ دراسته بعد. والإمام الآخر المفترض أن يقوم بهذه المهمّة هو جلجل، صهر الصّابري، ولكن لم يكن لدى أغاجان لا رقم هاتفه ولا عنوانه، ولم يكن متأكّدا من أنّه قادر على المجيء في الوقت المحدّد.

«نحن بحاجة إليه قبل ساعات الصّباح الأولى»، قال أغاجان لشهبل

Twitter: @ketab_n

– وعلينا أيضا أن نجد صادقة، يجب أن تعلم أنّ أباها قد توفي، قال شهبل.

– سأفعل كلّ ما في وسعي، سأتصل بآية الله المكّي في قمّ. إنّها المناسبة الوحيدة لجلجل حتّى يظهر الجانب الإيجابي من شخصيّته. كلّ سكّان المدينة سيحضرون وسيرغبون في التّعرّف إليه. سأتصل بكلّ الّذين أعرفهم في قم.

في صباح الغد ذهب أغاجان إلى المسجد ليسوّي الإجراءات الأخيرة. سيصل آلاف من المصلّين من القرى المجاورة وهو بحاجة إلى إمام نابغة. وتجنّبا لأيّ طارئ فقد بعث برسالة إلى إمام جيرجه طالبا منه الاستعداد لأمّ الصّلاة، فقد كان المعوّض المعتاد للصّابري.

كان يتحدّث مع الحارس عندما توقّفت سيّارة أجرة أمام المسجد. ميّز في الحال عمامة جلجل السّوداء، ورأى صادقة.

خرج جلجل من سيّارة الأجرة وتوجّه نحو أغاجان، فعزّاه وانحنى قليلا أمام أغاجان. فرأى أغاجان في ذلك رغبة في التّصالح وقبولا لموالاة أغاجان في المسجد. فمنذ أن جاء جلجل إلى العرس دون وثائق هويّته وأعاده أغاجان إلى قمّ لإحضارها لم يكلّم جلجل أغاجان عن طيب خاطر. انحنى الآن قليلا، ولاحظ أغاجان ذلك وردّ عليه ردّا مناسبا «أنا فخور بك، وأرغب في أن تكون إمام المسجد إلى اليوم الّذي يستطيع فيه أحمد أن يخلف والده، اتّفقنا؟».

– اتّفقنا. قال جلجل.

قبّل أغاجان عمامته فقبّله جلجل بدوره على كتفه وقال له «اذهب إلى البيت واسترح قليلا، وسيناديك رجال البازار بعد قليل، سيعلمك شهبل عندما يحين الوقت».

غصّت الدّار بالنّاس، ووصل مدعوّون كُثُر. كانت الجدّتان مشغولتين جدّا. وحثّتا خطاهما نحو المطبخ عندما رأتا جلجل. ذهبتا باحثتين عن جمر وتفّاح أحمر ومرآة ترحيبا بالإمام الجديد.

عند الظّهر فُرشت زرابي في الشّارع أمام المسجد للصّلاة عليها. حُمل نعش الصّابري إلى الدّاخل ووُضع على زربيّة من حرير. انتظر آلاف المصلّين جلجل. رافقه جمع من أعيان

Twitter: @ketab_n

البازار إلى حيث النّعش، مكان الصّلاة.

ونادى المؤذّن الأعمى من على سطح المسجد «الله أكبر». فاصطفّ الجميع وراء جلجل. حلّ جلجل طرف عمامته وتركه يتدلّى على صدره دليلا على الحداد واتّجه نحو مكّة ورتّل:

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ [1] (1)

قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا [2]

نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا [3]

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ... [4] [سورة المزمل]

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى [1] [سورة الليل]

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ

كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا [15] [سورة المزمل]

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1]

قُمْ فَأَنْذِرْ [2] [سورة المدثر]

وَالْقَمَرِ... [2]

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا [3] [سورة الشّمس].

1 المعرّب: ليلاحظ القارئ هنا تداخلا بين السّور والآيات، وقد تكرّر ذلك في فصول كثيرة في الرّواية. ولذلك فقد أضفنا أرقام الآيات وأسماء السّور حتّى نميز بعضها عن بعض.

Twitter: @ketab_n

العائلة

دام عزاء الصّابري أربعين يوما كما تنص على ذلك التّقاليد. وجاء الآن كلّ أفراد العائلة الّذين يسكنون مدنا بعيدة، ولم يحضروا الجنازة، واستقرّ جميعهم في الدّار لمدّة أسبوع. فكان اجتماعا خارقا للعادة.

كانوا يأكلون مجتمعين ويتسامرون إلى منتصف اللّيل جماعات جماعات في غرف مختلفة.

ومن بين الضّيوف كان كاظم خان، العمّ الأكبر لأغاجان: لقد كان نسطور العائلة، يعامله جميع أفرادها بحبّ واحترام.

لم يكن يأتي لوحده، بل كان يرافقه بعض القرويّين دائما. وهو لا يستقلّ الحافلات المحليّة أو سيّارات الأجرة أبدا. فيما مضى كان يأتي راكبا حصانه مع زمرة من الفرسان. وعندما كبر صاروا يرافقونه في سيّارة الجيب.

كان كاظم خان ينزل من سيّارته أمام المسجد، ويدخل وهو ينفض الغبار عن ثيابه في صحن المسجد، ثمّ يغسل يديه ووجهه. ثمّ يصعد الدّرج إلى السّطح. وعندما يصل إلى الأعلى كان يتوقّف برهة، يرفع عمامته ويحيّي طيور اللّقلق وهي في أعشاشها المنصوبة في إحدى صومعات الجامع. وكان يحيّي أيضا الزّاغ العجوز قائلا «سلام أيّها الزّاغ». ثمّ يضع عمامته وينزل الدّرج الّتي تؤدّي إلى الباحة الدّاخليّة للدّار.

وعندما يراه الرّجال فوق السّطح، يندفعون إلى استقباله عند أسفل الدّرج. ثمّ يتّجه كاظم خان بمهابة إلى غرفة التّدخين حيث أُعدّت له لوازم تدخين الأفيون وأشعِلت له نارٌ وهو محاط بحاشيته.

كان كاظم خان يدلّل النّساء والأطفال. فيحمل في جيبه دوما شعرا للنّساء ونقودا للأطفال. لقد كان شاعر المدينة المشهور، رجل بسيط يعيش في الجبال. كان قد تزوّج ولكنّ زوجته ماتت في شبابها. ومن حينها صار يعيش وحيدا ولكنّه لم يعدم نساء يستقبلنه بحبّ.

Twitter: @ketab_n

كان قليل الأكل، جيّد الصّحّة، مستمتعا بالحياة. وقد خبر الحياة، وتنوّعت تجاربه وعرف آلاما كثيرة ولكنّ أشياء ثلاثة لم تتغيّر في حياته: حبّه للشّعر وحبّه للأفيون وحبّه للنّساء.

وكان منذ يظهر تترك الجدّتان كلّ ما في أيديهما وتستعدّان لتدليله. وهما تشعران بمقدمه في غالب الأحيان. وكان همّهما الأوّل أن تفتحا باب غرفة التّدخين ونوافذها لتهوئتها.

وكانتا تحضران إبريق شاي وكأسا لتقدّما له شايا ساخنا. وما إن يدخل حتّى تضعان غليونه الشّخصيّ في الرّماد السّاخن. وكانتا تقطّعان الأفيون إلى قطع صغيرة وتضعانه في صحن صغير قرب الموقد حيث تبعث جمرات أغصان شجر الكرز المتوهّجة لهبا أزرق.

وعندما يزور كاظم خان الدّار كانت الجدّتان تلبسان أحسن ثيابهما وتتعطّران. ويعرف الجميع أنّهما تفعلان ذلك له خصّيصا. وكان يناديهما بلقب الشّرف الفارسيّ المخصّص للسّيّدات: خانم.

وعندما يناديهما «خانم» تذهب الجدّتان إلى غرفته واحدة بعد الأخرى. وعندما تكون جلبانو في الدّاخل تقف جليبه تحرس الباب في الخارج. ثمّ تتبادلان الأدوار.

وكانت الأشياء تمرّ دائما هكذا. فهما تعرفان كاظم خان منذ بداية شبابهما، عندما جيء بهما من الجبال لتخدما في الدّار. ومن البداية امتلكهما كاظم خان، لأنّه ما من شابّة كانت تستطيع تجاهله في تلك الفترة.

ومنذ اللّقاء الأوّل عندما دخل الدّار مرافقا بالفرسان وضع يده على الشّابّتين واستقبلهما في اللّيل في فراشه الواحدة تلو الأخرى.

وكانت فترة كاظم خان أسعد الفترات في حياة الجدّتين. عندما كانتا شابّتين، كانتا تشعّان عندما يحضر إلى الدّار: كانتا تجريان في باحة الدّار وتغنّيان وهما منهمكتان في المطبخ.

والآن وقد صارتا عجوزين، فلم نعد نسمع ضحكاتهما المختنقة ولكن إذا دقّقنا النّظر إليهما فيمكن أن نرى ابتسامة تضيء وجهيهما وتشذو الدّار بعطرهما الورديّ الطّيب الرّائحة.

Twitter: @ketab_n

وبعد أن يرتاح كاظم خان قليلا ويأكل ويكتفي من الأفيون، يقوم ويذهب إلى الباحة ليحيّي بقيّة سكّان الدّار. يتّجه أوّلا إلى شجرة الأرزّ الهرمة، وينقر على جذعها الهرم بعكّازه، ويتفقّد أغصانها، ويجسّ أوراقها ثمّ يذهب إلى الحوض ليقرأ عليه قصيدته الأخيرة:

تذرف السّحب دمع المعشوق
والحديقة مثل عاشقة باسمة
صوت الرّعد يدوّي مثل الأنين
الّذي أدفعه في هذه السّاعة الأولى من النّهار.

وعندما يراه الأطفال واقفا قرب الحوض يتراكضون نحوه. فيداعب شعورهم ويقرأ قصيدة جديدة كان قد كتبها لهم:

قال الأطرش:

يكفيني الوقت لأنام
قبل مرور القافلة
جاءت القافلة، ومرّت مثل سحابة
ولكنّه لم يلاحظ ذلك.

ولكي يفهم الأطفال معنى قصيدته أضاف توضيحا قصيرا: «الأطرش كناية عن أولئك الّذين لا يعطون أيّة أهميّة للوقت. والقافلة كناية عن الوقت الّذي ينساب بسرعة».

وبعد سماع القصيدة أعطى لكلّ صبيّ منهم ورقة نقديّة.

وكان يهتمّ أكثر بالفتيات الصّغيرات في الدّار. كان يأذن لهنّ في تقبيله وكان يكافئهنّ بورقة نقديّة حمراء إضافيّة.

ثمّ يحين دور النّساء، ومن الطّبيعي أن تتمتّع فجري سادات زوجة أغاجان بأكبر اعتبار. وكان يحمل لها دائما قصيدة، فهي الجمال الصّارخ في الدّار. فكان يضع القصيدة في يد فجري سادات فتخبّئها في ثيابها مبتسمة.

سياط عينيها تجلدان الروح.
بريئتان مثل تفّاحة خضراء
رموشك خطفت فؤادي

عيناك بريئتان، ولكنّ رموشك سارقة
وأنت الآن تشترطين مكافأة على ما سرقته
عجبا. أأنا المسروق هو من يجب أن يضمّد الجروح؟

كان أفيون كاظم خان يستثير قطط الجامع فتصطفّ دائما على حافّة سقف المسجد مترصّدة. وما أن يذهب كاظم خان إلى غرفة التّدخين حتّى تقفز القطط من السّور وتقرفص أمام الباب. وكان كاظم خان يدخّن ويلفظ الدّخان في اتّجاهها فتنتشي القطط برائحة الأفيون الأخّاذة.

وبعد الظّهر، إثر القيلولة، اعتاد كاظم خان على زيارة المؤذّن في قبوه للخِزافة، فيشرب معه الشّاي ويمازحه.

«السّلام عليكم أيّها المؤذّن» قال كاظم خان بنبرة شاعريّة وهو يدخل المخزف. قام المؤذّن، ولكن بما أنّ يديه كانتا ملطختين بالطّين إلى كوعيه فقد ظلّ خلف آلته.

- كيف حالك؟

- الحمد لله

- وابنك شهبل؟

- بخير هو أيضا

- وابنتك؟

- الحمد لله، لقد تزوّجت الآن».

وُهب المؤذّن سمعا مرهفا وحاسّة شمّ دقيقة جدّا، فكان يدرك كلّ شيء تقريبا. يقول النّاس إنّه ليس أعمى، وإنّه يرى كلّ شيء بعدستي عينيه الدّاكنتين، غير أنّه وُلد أعمى. وهو يضع دائما نظّارات سوداء جلبها إليه نُصرت من طهران، وعمامة، ويمشي مستقيما، وعصا في يده.

«وساعتك؟» سأل كاظم خان، هل تعمل بانتظام؟

- أجل، لحسن الحظّ. أجاب المؤذّن وهو يبتسم.

للمؤذّن موهبة فريدة، فهو يعرف دائما الوقت بالضّبط. وكانت السّاعة موهبته. فهو

Twitter: @ketab_n

يمتلك في رأسه ساعة مضبوطة. وكلّ سكّان المدينة يعرفون هذا.

«كم السّاعة الآن أيّها المؤذّن؟» يسأله كلّ من كان يلتقي بهم.

فيُعلمهم الوقت بالضّبط. وكان أبناء المدينة وبناتها يلاعبونه سائلين إيّاه عن الوقت عندما يرونه.

«هل تعرف كم السّاعة الآن يا سيدي المؤذّن؟».

ويضحكون بعمق عندما يُعلمهم السّاعة تدقيقا.

يرى المؤذّن أنّ من واجبه أن يشارك الآخرين هذه الهبة الإلهيّة.

هو المؤذّن الرّسميّ للجامع. ولكنه كان يمارس الخزافة في القبو في وقت فراغه. ولم تكن تلك مهنة أو هواية متقنة، بل كانت كلّ حياته. فلم يكن ليحيا لولا الطّين.

وفي أوقات مضبوطة كان ابنه شهبل يحمل ما يصنعه إلى تاجر في البازار ليبيعه له.

إنّه صانع الفخّار التّقليديّ الوحيد في تلك الجهة. ولعلّ هذا هو السّبب في أنّ الأواني والمزهريّات والكؤوس الّتي يصنعها تباع بسرعة.

والأواني الخزفيّة الّتي وُضعت فيها الزّهور لتزيين الجامع من صنعه أيضا، وكذلك المزهريّة الكبيرة الموجودة في حديقة البازار، وهي تمتلئ في الرّبيع بصنف من الأعشاب عَطِرٍ.

الخزافة سلاحه الّذي يقاوم به الرّتابة، وهو يمتلك شيئا آخر يُكسب حياته معنى؛ إنّه مذياع صغير يضعه في جيبه الدّاخليّ.

كانت أجهزة المذياع ممنوعة في الدّار، فهي تُعتبر مدنسة، ولا يحقّ للمؤمن أن يستمع إلى المذياع، لأنّ هذا الجهاز كان النّاطق الرّسميّ باسم الشّاه. وذلك أمر غير مرغوب فيه في دار المسجد، ولكنّ المؤذّن قد أخفى جهازه في ثيابه إلى درجة أن صار جزءا من جسده.

ونُصَرَتْ هو من أعطاه هذا المذياع.

نصرت شخص مميّز، ولا أحد يعلم أيّ شيء عن عمله في طهران. يقول بعض النّاس إنّه يشتغل في السّينما، وهو أمر محرّم في الدّار، ويقول آخرون إنّه يكسب رزقه من التّصوير

Twitter: @ketab_n

الفوتوغرافي. ولكنّ جميعهم يحبّه. وكان لنصرت دوما قصّة جديدة ليحكيها، ويحمل أشياء جديدة للدّار ويفاجئ الجميع بأسلوبه غير العاديّ في الحياة، فيُوري سكّان الدّار وجها آخر للحياة.

في يوم ربيع، وكان قد جاء إلى الدّار، تفاجأ بالمؤذّن فجرا وهو متّجه إلى النهر. فتساءل عمّا كان ينوي فعله. وتبعه من بعيد حتّى لا يسمع المؤذّن خطاه.

وسلك المؤذّن الجسر ليدرك الجهة الأخرى من النهر، وحاذى كروم العنب وحقول القمح. لا يزال اللّيل مخيّما ولكنّ النّور يمكن أن ينبجس في أيّة لحظة. وتابع طريقه نحو أشجار اللّوز وقد كانت أغصانها تلتوي تحت الأزهار. اختفى عن بصر نصرت لحين.

فخاتل نصرت مخاتلة الذّئب بين الأشجار دون أن يعثر عليه. ووقف قرب شجرة، وكان الكون غارقا في صمت مطبق، ولكنّ النّور انتشر فجأة وطفقت العصافير تزقزق مجتمعة. كانت لحظة مؤثّرة. وفجأة أبصر المؤذّنَ هامدا بين أشجار اللّوز، مطرق الرّأس مصغيا إلى العصافير.

كان الجوّ عبقا بعطر الأزهار وبزقزقة العصافير وهي تنشد تراتيل الفجر. وكان المؤذّن يصغي متّكئا على عصاه مثل تمثال حجريّ وسط الأشجار.

وما أن تبلغ أشعّة النّور أشجار اللّوز حتّى تشرع العصافير في الطّيران نحو الجبال أسرابا أسرابا.

وحين تغادر العصافير يعود المؤذّن إلى الدّار.

في المساء زار نصرت المؤذّنَ في غرفته.

«أيّها المؤذّن، هل لديك وقت؟

- تفضّل، لديّ دائما وقت لك أنت.

- أريد أن أريك، أسمعك شيئا».

أخرج مذياعا من محفظته ووصله بالكهرباء. فبرقت نقطة ضوء أخضر، وراح نصرت يبحث عن برنامج موسيقي مديرا إبرة الموجات. وفجأة انسابت موسيقى في الغرفة. فأغلق نصرت الباب وقال للمؤذّن «أنصِت جيّدا»

Twitter: @ketab_n

أنصت المؤذّن بانتباه، وقد أرهف أذنه نحو النّغم. وعندما انتهت المعزوفة الموسيقيّة تنهّد بعمق وقال «ما كانت هذه؟»

- هذه سيمفونية. وما استمعت إليه هذا الفجر بين أشجار اللّوز كان سيمفونية أيضا؛ سيمفونية العصافير. وما كنت تستمع إليه هو سيمفونية من تلحين البشر. لقد رأيتك هذا الفجر بين الأشجار تستمع إلى العصافير. وأظنّ أنّك تحتاج إلى هذه الموسيقى.

وفي زيارة نصرت التّالية حمل للمؤذّن مذياع جيب صغير. وفي آخر اللّيل وضع المذياع بين يديه.

من هنا فصاعدا تستطيع أن تستمع إلى الموسيقى ليل نهار، ولكن أيضا الأخبار وأشياء أخرى.

- مذياع في الدّار؟ ماذا سأقول لأغاجان؟

- أنت رجل راشد. ضع هذا الجهاز في جيب معطفك وكفى، ولا تهتمّ لأيّ شخص. عندي لك شيء آخر أيضا، شيء لم يره قبلك أيّ شخص في مدينة سنجان، قال ذلك وهو يضع خيطين بين يديه. هاتان سمّاعتان ضعهما في أذنيك وستستمع إلى المذياع. قم وسأريك كيف تفعل ذلك».

تردّد المؤذّن. ولكنّ نصرت وضع المذياع في جيب معطفه الدّاخليّ، ومرّر الواصلتين تحت قميصه ووضعهما في أذنيه وشغّل المذياع.

« هل تستمع؟

- أجل، أنا استمع.

- حسنا، أنصت إليّ جيّدا: إذا سألك أيّ شخص فلا تجبه».

ومن ذلك اليوم، صار المؤذّن يتجوّل في كلّ مكان واضعا السّمّاعتين في أذنيه، وإذا سأله شخص ما عنهما فإنّه لا يجيب. وبعد حين اعتاد النّاس على الأمر وظنّوه خيطين يتبعان نظّارته السّوداء.

اقترب موعد تأبين الصّابري، فاجتمع كلّ رجال العائلة في غرفة التّدخين حول لوازم أفيون كاظم خان وشرعوا يدخّنون معه.

Twitter: @ketab_n

وأخرجت الجدّتان سبعة غلايين من الخزانة الموجودة في القبو ووضعتاها في الرّماد الدّافئ.

دخّن الرّجال الأفيون، وترشّفوا الشّاي ووضعوا قطعا من سكر القند في أفواههم واسترجعوا ذكرياتهم مع الصّابري بينما كان دخان الأفيون الّذي يلفظونه يتدفّق من النّافذة المواربة.

وكانت النّساء جالسات مستمتعات في غرفة الأكل يدخّنّ النّارجيلة. زينات كانت الوحيدة الغائبة. فمنذ وفاة الصّابري صارت تجلس بانتظام في مكتبة الجامع تطالع لساعات متأخّرة. علم أغاجان بذلك وتركها تفعل. وعند حلول اللّيل خرج الرّجال يتجوّلون على طول النهر، ثمّ ذهبوا إلى المسجد ليستمعوا إلى جلجل.

وفي هذه الأسابيع الأخيرة صار جلجل يخطب كلّ جمعة. كانت خطبه عاديّة. اختار طوعا مواضيع محايدة، منتظرا اللّحظة المناسبة بعزم ليوري أهل البازار وجهه الحقيقيّ وأنّه قادر، إذا لزم الأمر، على تحويل منبره إلى مدفع. ولكنّ الوقت لم يحن بعد، ويجب أن يعتدل في كلامه إلى أن تتبدّد ظلال موت الصّابري ويكسب ثقة المصلّين شيئا فشيئا. وهو ينوي اللّيلة أن يتحدّث عن الصّابري وخاصّة عن التّاريخ العريق للمسجد. وقد وفّر له أغاجان الوثائق اللازمة لهذا الغرض ودرسها بتمعّن.

بعد الجولة، توضّأ الرّجال من الحوض وذهبوا إلى المسجد ليكونوا في الوقت المحدّد، إذ تقتضي التّقاليد أن يقف رجال المسجد في الباب ليستقبلوا الضّيوف.

ورغم التّنبيهات المتكرّرة للجدّتين لتكون النّساء في الوقت في المسجد، فقد تأخّرت النّسوة في قاعة الطّعام حيث كُنّ تشربن الشّاي وتأكلن الغلال وتدخّنّ النّارجيلة. وعندما سمعت الجدّتان النّداء الأخير لأغاجان تجوّلتا في الغرفة وهما تناديان ساخطتين: حانت الصّلاة أيّتها السّيّدات، حانت الصّلاة، مئات النّساء ينتظرنكنّ في المسجد وأنتنّ لا تزلن هنا تدخّنّ النارجيلة. هيّا أسرعن، وإلّا جاء أغاجان ليبحث عنكنّ.

التفّت فجري سادات في تشادورها الأسود. وتبعتها كلّ النّساء إلى المسجد. وخرجت زينات من المكتبة والتحقت بالنّساء.

ولم يغب غيرُ نصرت.

Twitter: @ketab_n

كان نصرت يأتي دائما دون سابق إعلام. فهو لا يتّصل بالهاتف أبدا، ولا يطرق الباب بل يقف فجأة وسط الباحة قرب الحوض، أو يدخل كلّ غرف الدّار متسلّحا بكاميراته ليصوّر كلّ فرد من أفراد العائلة في لحظة لم يكن يتوقّعها.

لم يحضر نصرت جنازة الصّابري، لم يتمكّنوا من الاتّصال به بالهاتف ولم تبلغه البرقيّة في الوقت اللازم. ولكنّه قد أعلم أغاجان بأنّه سيحضر اللّيلة في الوقت المحدّد.

وعندما دخل الجميع المسجد وغرقت الدّار في الصّمت غسلت الجدّتان وجهيهما ويديهما وجلستا قرب الحوض على المقعد الّذي ينيره مصباح الشّارع.

- لا رغبة لديّ في الذّهاب إلى المسجد، قالت جلبانو

- لنرتح قليلا هنا قبل أن يعود الجميع، ردّت جليبه.

منذ موت الصّابري لم يعد لهما ما تفعلانه في المكتبة، ولم تتعمّق علاقتهما بجلجل بعد، فلم تجرؤا على دخول المكتبة أثناء وجوده فيها.

في زمن الصّابري كانت هذه الغرفة ملكا خاصّا لهما، ولكنّ جلجل منعهما من دخولها. وهذا هو سبب عدم حبّهما لجلجل وانتظارهما بفارغ الصّبر اليوم الّذي ينهي فيه ابن الصّابري دراسته للإمامة ويصير الإمام الرّسميّ للجامع.

«لقد كان الصّابري جوهرة وقعت في أيدينا، قالت جلبانو، جلجل متعجرف، إنّه يجوب الدّار بهيئة سلطان، ويتحفّظ في تعاملاته مع كلّ النّاس ولا يتنازل حتّى ليجلس مع الرّجال. لم نر في هذه الدّار أبدا إماما مغترّا بنفسه إلى هذه الدّرجة. وهو يجلس في المكتبة وينتظر حتّى من كاظم خان نفسه أن يزوره. لقد فهمه أغاجان منذ اليوم الأوّل، وكان تصرّفا ذكيّا منه أن بعثه إلى قم ليجلب أوراقه».

لقد كانت الجدّتان مجروحتين جرحا عميقا، وبعد وفاة الصّابري صارتا تدركان بعمق أنّ ساعتيهما قد اقتربتا أيضا. لقد سار الأمر في هذه الأيّام الأخيرة وكانت أعباء موت الصّابري تشغلهما لكامل النّهار، ولكن ماذا ستفعلان عندما يغادر كلّ الضّيوف؟

منذ أن دخل جلجل المكتبة صارتا مجبرتين على البقاء في المطبخ لوحدهما كامل النّهار وفي اللّيل أيضا ولم تحبّا ذلك. فهما لا تحتملان أن تظلّا محبوستين في المطبخ: دون المكتبة كانت الدّار ميّتة بالنّسبة إليهما.

Twitter: @ketab_n

عزمتا مرّات كثيرة على أن تذهبا لتفرغا قلبيهما عند أغاجان، ولكنّهما كانتا تعرفان أنّ هذا لن يغيّر شيئا، وأنّ موت الإمام يعني بالنّسبة إليهما نهاية عهد.

وفي بعض الأحيان كانتا تذهبان إلى غرفة استحمام الإمام، وهي فارغة، وتنخرطان في بكاء صامت.

ولم يبق من أمل لهما في الدّار غير كاظم خان، ولكنّه قد شاخ هو أيضا وصار الموت يترصّده كذلك. فإذا توفي خبا النّور بالنّسبة إليهما نهائيّا.

ظلّت الجدّتان جالستين على المقعد في صمت لوقت طويل. كان الجوّ صافيا والنّجوم تتلألأ واحدة إثر أخرى، وكانتا تستمعان إلى تصويت الخفافيش. فإذا أطلّ أحد ما على الحوض من سطح الجامع فإنّه سيظنّ، ولا شكّ، أنّ الجدّتين حجران منصوبان لتزيين الحوض.

وكانتا ستغفوان لو أنّ الصّمت المخيّم لم يتعكّر. فقد سمعت جُليبه ضجيجا قادما من الظّلمة، خلف الأشجار.

«هل تسمعين ما أسمع؟». قالت جلبانو بصوت خافت. ظنّتا أنّ كاظم خان يمكن أن يكون قد بقي في غرفته ولم يذهب إلى المسجد.

فاتّجهتا بحذر نحو غرفة التّدخين ولكنّ الباب كان مقفلا. سمعتا ضحكات مكتومة لامرأة في الباحة الدّاخليّة.

«ما هذا؟»

وقفتا خلف شجرة الأرزّ الهرمة وأرهفتا السّمع إلى مصدر الضّجّة في اللّيل. ضحكت المرأة من جديد بصوت مختنق وفُتح باب أحد الصّالونات.

- هذا نصرت، قالت جليبه.

- يا إلهي

ثمّ استطاعتا أن تميّزا خيالا على ضوء الغرفة وأدركتا ظلّ نصرت.

«متى وصل؟ كيف يحدث أنّنا لم نره؟ ومن هذه المرأة؟» قالت جليبه.

كانت امرأة ترتدي تشادورا أسود، ظهرت لبرهة في الضّوء الأخضر الّذي تبثّه صومعات المسجد، ثمّ غابت في الظّلام.

Twitter: @ketab_n

«هل يمكن أن تكون المرأة الطّهرانيّة؟

كلّا، فهذا الوغد لا يطيل معاشرته لامرأة واحدة. لقد كانت المرأة الطّهرانيّة صغيرة، ولكنّ هذه كبيرة وترتدي تشادورا. هذه امرأة أخرى.

- ماذا سيفعلان؟

- لا أعرف».

اتّجه نصرت مرافقا بالمرأة نحو الدّرج الّتي تؤدّي إلى سطح المسجد.

«اتبعيني يا عزيزتي، قال للمرأة.

- كلّا، لن أتبعك، أنا لا أجرؤ على ذلك، قالت المرأة وهي تضحك ضحكا خافتا.

- لا شيء يُخشى، لن يرانا أحد، كلّهم يصلّون والدّار فارغة، قال نصرت.

- كلّا لن أتبعك، السّطح عال جدّا، قالت المرأة.

- لمَ يريد أن يصطحبها إلى السّطح؟ قالت جلبانو.

- الشّيطان نفسه يجهل ما يدور في رأس هذا الرّجل، أجابت جليبه.

خيّم الصّمت، وبعد حين ظهرا على السّطح. واتّجهت الجدّتان نحو الدّرج بخطى هادئة، وتسلّقتا بحذر إلى السّطح، حبتا نحو القبّة واختبأتا خلفها.

فتح نصرت فُتحة إحدى الصومعات، وكانت خلفها دُرَج تؤدّي إلى قمّة الصومعة.

«لا أجرؤ قالت المرأة.

- لا تخشي شيئا، ستكون تجربة رائعة. لقد وعدتني أن تأتي معي. تعالي، سأصطحبك إلى قمّة الصومعة، أريد أن أقبّلك في الأعلى. وعندما نصل إلى هناك أريد أن أحملك في الضّوء الأخضر المقدّس، قال نصرت بصوت خافت.

- لا أريد، قد يروننا.

- لا تخشي شيئا، إذا صرنا في الأعلى فلن يرانا أحد».

ساعدها في عبور الفتحة وهي تتمتم: لن أفعل ذلك، لا أجرؤ، لا أريد».

وعندما صارت على الدّرجة الأولى، تسلّل هو أيضا داخل الصومعة وأغلق الفتحة من الدّاخل.

Twitter: @ketab_n

وتبادلت الجدّتان نظرات اندهاش، وهما مختبئتان خلف القبّة.

«يا إلهي، يا ربّي، استغفر الله»، تمتمت الجدّتان.

وظهر نصرت والمرأة في أعلى الصومعة في الضّوء الأخضر. وارتسم ظلّهما على الحائط المقابل.

تلاعب الرّيح بتشادور المرأة مثل علم أسود يرفرف في قمّة الصومعة.

«كلّا»، هتفت المرأة. وبما أنّها في قمّة الصومعة فقد تردّد صوتها وتضخّم في أسفل الجامع.

تحرّك ظلّ نصرت بإيقاع على الحائط. وارتعدت كلّ أوصال الجدّتين وهما مشدوهتان لهذا المشهد، ويداهما على فيهيهما. ثمّ دفع المرأة على جدار الصومعة وهي تصرخ بعصبيّة: «لا تفعل هذا، سأقع».

وتردّد صوتها في المسجد، ولكنّه تبدّد في صدى مكبّرات الصّوت وهي تبثّ خطبة جلجل. وتنهّدت المرأة من جديد. ثمّ خيّم صمت مفاجئ على المكان وغاب الظّلّان.

واندفعت الجدّتان بصمت نحو الدّرج ونزلتا. وعندما وصلتا إلى غرفتهما بسطتا سجّادتيهما وتدثّرتا بتشادورين واستدارتا نحو مكّة.

Twitter: @ketab_n

الخُطبة

ظلّ جلجل هادئا خلال الأشهر الأولى. كان يعرف بأنّ مخبرين سرّيين سيأتون لسماع خطبته وسبر مقاصده.

لم يكن في حياته اليوميّة قادرا على عقد صلات مع النّاس وكان يعطي انطباعا بأنّه إمام متعجرف وقاس. ولكن ما إن يعتلي المنبر حتّى يصبح شخصا آخر؛ شخصا لطيفا، يبتسم غالبا، وكان مرحا يطيب الاستماع إليه.

تناول في خطبه الأولى مواضيع محايدة، فكان يختار غالبا سورة من القرآن وينير الجوانب التّاريخيّة والسّرديّة للنّص. وفي بعض الأحيان يذهب إلى أبعد من ذلك فيتحدّث عن طاقات اللغة وعن جماليّة نظم السّور ويقدّم أمثلة ويقرأ آيات مسجوعة بصوته الجميل الرّنّان.

ويستمع الحضور إلى تفسيراته بانشراح، فأغلب الّذين يتردّدون على المسجد لا يستطيعون قراءة القرآن فكيف لهم أن يفهموه. القرآن عربيّ أمّا لغة البلاد فهي الفارسيّة. ثمّ إنّ القرآن قد كُتب بعربيّة قديمة تعود إلى ألف وأربعمائة سنة وكانت السّور مشحونة بإيحاءات تاريخيّة يصعب فهمها دون تفسير كفء.

وكان جلجل يعرف محتوى السّور معرفة جيّدة ويعرف كيف يبسّط النّصّ تبسيطا مذهلا يجعله في متناول فهم الرّجل العاديّ. ووجده المخبرون السّرّيون رجلا روحانيّا فسُرّوا به وبعثوا بتقارير إيجابيّة عن خُطبه إلى مكتبهم.

وكان رجال البازار أيضا راضين عنه، فمدحوا معرفته التّاريخيّة وكفاءته في ترجمة النّصوص القديمة. ولكنّ بعضا منهم كان ينتظر منه أكثر من ذلك. فكانوا يلمحون إلى ذلك في أحاديثهم مع أغاجان، فيردّ عليهم «هو ليس سوى بديل. لا استطيع أن أطلب منه الكثير. في عام أو عامين عندما يُنهي ابن الصّابري دراسته سيكون لنا إمامنا الرّسميّ وسنعرف ما نقوم به».

Twitter: @ketab_n

تذمّر رجال البازار دون طائل، فقد عرف جلجل كيف يكسب قلوب المصلّين بواسطة الجِدّة المذهلة للمواضيع الّتي كان يثيرها في خطبه، ويروي أحيانا أشياء لم يسمع عنها رجال البازار قطّ.

كان قد تحدّث مؤخّرا عن الطّيور المهاجرة، وهو موضوع لا يُطرح عادة في المسجد. وشرح لهم أنّ الطّيور المهاجرة تجد دائما طريق العودة إلى موطنها أو عشّها القديم، وأنّه حتّى الطّيور الّتي خرجت حديثا من بيضها قادرة على العودة إلى أعشاشها، مهما كان طريق الطّيران الّذي تسلكه غريبا. واستمع إليه المصلّون بإعجاب كبير عندما تحدّث عن تراتبيّة السّلطة في عالم النّمل وعن دقّة عملهم المشترك، وبيّن لهم أثر عظمة قدرة الله.

وكان أغاجان معجبا به من أجل النّظرة الجديدة الّتي يقارب بها الأشياء وسرّه أنّ حداثة مواضيعه قد جلبت شبابا كثرا إلى المسجد وقد لاحظ بأنّ عددا مهمّا من الشّباب ذكورا وإناثا صاروا يأتون إلى صلاة الجمعة ليستمعوا إلى مواضيعه.

تعلّم جلجل بعضا من اللّغة الأنقليزيّة، ورغم أنّه كان غير قادر على التّحدّث بها بطلاقة فإنّه كان يفهم النّصوص المكتوبة بهذه اللّغة. اشترى مجلّة علميّة أنقليزيّة وقضّى ساعات طويلة محاولا فهم مقال مكتوب فيها مستعينا بمعجم. ثمّ جعل منه خطبة مسبوكة بعد أن أضاف إليه أفكاره الخاصّة.

وتحدّث في خطبة أخرى عن الطّائرات وعن تاريخ الطّيران وامتدح شجاعة الأخوين الأمريكيّين ويلبور Wilbur وأورفيل رايت Orville Right، وقد حاولا الطّيران مثل العصافير، ولكنّه أضاف بعد قليل أنّ الفُرْس وليس الأمريكيّين هم أوّل من هجس بالفكرة. وقال بنبرة مازحة إنّ الأمريكيّين يريدون أن يحدث أوّل اختراع في بلادهم دائما.

«طار الأمريكيّون لأوّل مرّة منذ خمسين، أو ستّين سنة، ولكن الطّيران له جذور عميقة في بلدنا. منذ زمن بعيد، قرّر نمرود أحد ملوك الفرس القدماء أن يطير. كان جبّارا إلى درجة أنّه ظنّ أنّه سيصل إلى أهدافه، وأنّ سيصير ندّا لله. ولهذا قرّر أن يصعد إلى السّماء ليتحدّى الله في صراع معه. فأمر علماء عصره أن يصنعوا له جهازا يستطيع أن يطير به. فرسموا شيئا معتبرا: مجسّم طائرة، نموذجا من عربة مخصوصة. وربطوا أربعة صقور بواسطة حبال قويّة إلى كرسيّ ملكيّ مصنوع من الخيزران. سلّ نمرود سيفه وجلس على كرسيّه وعلّقوا أربع قطع من اللّحم الطّازج فوق مسافة قليلة من رؤوس الكواسر. ففتحت

Twitter: @ketab_n

الصّقور أجنحتها محاولة إمساك قطع اللّحم. فرفعت العربة في الهواء، وهكذا وُلدت أوّل طائرة».

وتحدّث جلجل مرّة عن أينشتاين وعن نظريّة سرعة الضّوء، ولم يكن أحد من الحضور قد سمع اسم أينشتاين من قبل، وأكثر من ذلك، لم يكن أحد يعرف بأنّ للضّوء سرعة وبأنّه يُبحر بسرعة ثلاثمائة وأربعين ألف كيلومتر في الثّانية.

وليؤثّر في مستمعيه، وهو يعرف جهلهم، بدأ خطبته باقتباس أنقليزيّ، وربّما كان أوّل إمام في البلاد قد ضمّن عبارات أنقليزيّة في خطبته. قال: «قال أينشتاين: شيء واحد تعلّمته في حياتي الطّويلة: وهو أنّ كلّ علومنا إذا ما قورنت بقوانين الطّبيعة بدت معرفة بدائيّة وصبيانيّات، ورغم ذلك فعلومنا هي أثمن شيء نمتلكه».

لم يشرح معنى هذه المقولة ولكنّه تكلّم كما لو كان يفهم هو ذاته نظريّة الضّوء فقال «لنفترض مثلا طائرة تطير بسرعة ثلاثمائة وأربعين ألف كيلومتر في الثّانية، ولنفترض أيضا أنّ هذه الطّائرة توجد فوق سطح مسجدنا في هذه اللّحظة مستعدّة للإقلاع، وتحمل على متنها مجموعة من المسافرين، ولنفترض أنّنا اخترنا مجموعتين من الأطفال، مجموعة من الأولاد ومجموعة من البنات تتراوح أعمارهم بين اثنتي عشرة سنة وخمس عشرة سنة، ونحتفظ بمجموعة البنات هنا في المسجد ونرسل مجموعة الأولاد إلى سطح المسجد ليستقلّوا الطّائرة. وشغّل الطّيّار الطّائرة وحمل الأطفال إلى الفضاء، ولا تنسوا بأنّ الطّائرة تسير بسرعة الضّوء. والآن انتبهوا: بعد أن تكون الطّائرة قد طارت ثلاث ساعات، يحطّ الأولاد من جديد على سطح المسجد، وقد طاروا لثلاث ساعات حسب ما تشير إليه ساعاتهم. يخرج الأطفال من الطّائرة وينزلون الدّرج ويدخلون قاعة الصّلاة، وعندما يزيحون السّتارة لن يصدّقوا ما تراه أعينهم: لقد صارت كلّ الفتيات عجائز مسنّات فقدن أسنانهنّ».

نظر المستمعون بعضهم إلى بعض، لم يفهموا مقصد الإمام. كيف يمكن أن تبلغ الفتيات هذا العمر إذا لم يكن الأطفال قد غابوا إلّا ثلاث ساعات؟

«الضّوء، سرعة الضّوء، إنّ المنطق الّذي يحكم سرعة الضّوء يختلف كليّا عن المنطق الّذي يحكمنا. وهذا هو معنى المقولة: كلّ شيء قد سطّره الله، قدرته تفوق كلّ قدرة، ونوره يتجاوز كلّ نور» قال جلجل.

حاز جلجل بمرور الوقت شهرة واسعة في المدينة وكان صيته يذيع في أوساط الشّباب،

Twitter: @ketab_n

واهتمّت به النّساء كثيرا. ورغم أنّه كان متزوّجا فقد كانت كثير من الشّابّات المحجّبات تحطن به في ممرّات المسجد المظلمة. وتسرّبن له رسائل هيام لم يكن ينظر إليها ولكنّه كان يخفيها في ثيابه.

«أنت إمام وسيم» قالت له إحدى النّساء عندما اختلت به للحظة في الممرّ. وهمست أخرى في أذنه وهي تمرّ قريبا منه «أريد أن أطير معك في الفضاء على متن طائرة أينشتاين». وسألته امرأة شابّة في الظّلمة دون أن تكشف عن وجهها «تفوح منك رائحة عطرة، من أين تبتاع عطرك؟». وهمست له امرأة أخرى «تصير وسيما عندما تُميل عمامتك».

كانت النّساء منفصلات عن الرّجال بستارة تقسم بيت الصّلاة بشكل منحرف. وينتصب المنبر على مصطبة في طرف فضاء الرّجال والنّساء. وكانت النّساء الشّابّات يجلسن عادة في الصّفّ الأوّل حتّى يتمكّنّ من رؤية جلجل بوضوح عندما يتكلّم.

واستمتع جلجل باهتمام المصلّين به، وانتظر بفارغ الصّبر حلول المولد النّبويّ الشّريف: يستطيع في هذا اليوم أن يكشف عن وجهه الحقيقيّ لأنّه قد جرت العادة أن تُتناول مواضيع مهمّة في هذا اليوم. وليس من الصّدف أن تقع أهمّ الأحداث التّاريخيّة في هذه الفترة في مدينة قمّ المقدّسة. فكان كلّ النّاس يتساءلون عمّا سيتحدّث عنه جلجل في ذلك اليوم.

في يوم الاحتفال بالمولد النّبويّ دخل جلجل إلى قاعة الصّلاة مرافقا بأغاجان وشهبل. جلس في مقعده وبدأ بترتيل سورة الزّلزلة:

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا [1]

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا [2] [الزّلزلة]

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ [4]

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ [5] [القارعة]

وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا [3]

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا [4] [سورة الزّلزلة].

تغيّرت نبرات صوت جلجل. صارت كلماته أقوى من ذي قبل.

غصّ المسجد بالمصلّين، وكان الجميع يستمعون بانتباه. وتابع كلامه «مضى الصّابري

Twitter: @ketab_n

منذ وقت ولكنّ المسجد بقي. وفي يوم ما سنمضي نحن أيضا، ولكنّ المسجد سيبقى. هل هذا صحيح؟ هل سيخلد المسجد؟ كلّا، فحتى المسجد لن يخلد. سيمضي الأئمّة وتمضي المساجد ولن يبقى غير الصّدى». نظر الرّجال بعضهم إلى بعض. ونظر أغاجان إلى شهبل «ماذا يقول؟ سيبقى الصّدى؟ ماذا يقصد؟». ولكنّ جلجل على حقّ، قال أغاجان. لقد نسينا الصّابري منذ وقت طويل ولم يبق له صدى، لأنّه لم يكن له شيء ليقوله. كان والد الصّابري مختلفا عنه. فقد كان إماما مرموقا يقلي خُطبا حماسيّة، وكان يرغب في اتخاذ قرارات، وفي تغيير أشياء، كان رجلا يجرؤ على تسمية الأشياء بأسمائها. عندما كان إماما للدّار كان يمسك بالمدينة في قبضته، ويستطيع أن يحرّك البازار بإشارة واحدة. توفّي والد الصّابري منذ عشر سنوات، ولكنّ صداه بقي، ظلّ إلى اليوم في ذاكرة المدينة.

ألقى مرّة خطبة في المولد النّبويّ الشّريف هاجم فيها رضا خان والد الشّاه الحاليّ لأنّه منع ارتداء التّشادور وأوقف جنودُه النّساءَ المتحجّبات واقتادوهنّ إلى مركز الشّرطة. اعتُقل والد الصّابري ونُفي إلى كاشان. ثمّ أقفل أعوانه باب المسجد. وظلّ أغاجان يتذكّر ذلك كأنّه حدث بالأمس.

توقّفت الشّاحنات العسكريّة فجأة أمام دار المسجد ونزل منها جنود مسلّحون. ثمّ جاءت سيّارة جيب فيها ضابط مسلّح. خرج من العربة متأبّطا عصا خيزران. دخل إلى المسجد وداس بحذائه على أرضيّة بيت الصّلاة ليقبض على الإمام ويقوده إلى السّجن.

كان أغاجان لا يزال شابّا حينها وقد استلم لتوّه ولاية المسجد فذهب بهدوء إلى الضّابط وقال له «إذا غادرت المسجد سيخرج الإمام من تلقاء نفسه ويتبعك، وإلّا فإنّي أخشى فتنة كبيرة، وقد حذّرتك».

تحدّث أغاجان بوضوح وحزم قاطعين. فنظر الضّابط إلى المصلّين الّذين أحاطوا بالإمام. وفهم الرّسالة، وصوّب خيزرانته نحو صدر أغاجان وقال له «ستحضر لي الإمام، سأنتظر في الخارج» وغادر بيت الصّلاة وكَمَنَ قرب الباب.

رافق أغاجان وعشرات المصلّين الشّيخ مرفوعا رأسه إلى سيّارة الجيب. وسمح الضّابط للإمام أن يركب السّيّارة بينما جلس هو وراء عجلة القيادة. وفي تلك اللّحظة أخرج الجنود المصلّين من المسجد وأقفلوا بابه.

ولم تُفتح أبواب المسجد من جديد إلّا بعد ثلاث سنوات من الحادثة عندما أُجبر رضا خان، تحت ضغط الأنقليز، على مغادرة البلاد منفيّا إلى مصر.

Twitter: @ketab_n

ابتسم أغاجان وهو ينتظر بتوتّر شديد بقيّة خطبة جلجل. ولكنّ جلجل سكت ونظر بصمت إلى الحضور وفجأة ودون أيّ انتقال غَرَضيّ قال «أمريكا».

كان كمن قذف حجرا على الحضور الصّامت، وحدثت ضجّة في جانبي السّتارة لأنّ الحديث عن أمريكا كان ممنوعا في المسجد. كانت الكلمة مشحونة بدلالة سياسيّة خطرة. لم تكن تلك أمريكا ذاتها المعروفة في باقي أنحاء العالم. كانت أمريكا مدنسة، كانت العدوّ المباشر للإسلام. كاد الشّاه الشّاب أن يغادر البلاد فيُوضع حدّ لنظام ملكيّ دام ألفين ومائتي سنة، ولكنّ أعوان الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة أعادوه إلى البلاد بعد أن دبّروا انقلابا. ومنذ ذلك الوقت صار آيات الله يسمّون أمريكا 'الشّيطان' وتبنّت المساجد موقفا معاديا لأمريكا.

عندما ينطق إمام بعبارة 'أمريكا' يكون الغرض الطّعن فيها دون غيره «ليسقط الشّيطان، لتسقط أمريكا».

«لقد تغيّر الزّمن. ذهب رضا خان، اختفى، ولكنّ أمريكا الآن توجد في كلّ مكان، في طهران، في قم»، قال جلجل بصوت عال. لقد قال شيئا ما ولكنّه في الوقت ذاته لم يقل شيئا. لقد تلفّظ بحقيقة غير استفزازيّة: «لقد تغيّر الزّمن، وأمريكا في كلّ مكان».

وزن عقلاء المدينة كلامه بميزان الذّهب، واستنتجوا بأنّ هذا الخطيب داهية. كان يعرف كيف ينظم عباراته ليخلق التّوتّر.

نظر جلجل إلى المصلّين وهم ينتظرون الكلمة الموالية وكان الجميع متعلّقا بشفتيه. قطع الصّمت لينبس بكلمتين اثنتين فقط «الله، الله». يمكن أن تؤوّل هاتان الكلمتان بطرق شتّى: عندما نعبّر عن إعجابنا نقول «الله، الله»، وعندما نكون في وضع بائس نقول «الله، الله».

ولكنّ جلجل قد استعمل هاتين الكلمتين في سياق آخر. عندما تلفّظ بقمّ وأمريكا دون فاصلة، اكتسبت الكلمتان دلالة كبيرة. قم! أمريكا! الله! الله! كان كمن أطلق عيارين ناريّين في المسجد.

وغيّر جلجل موضوع خطبته ومرّ إلى سورة الفتح:

تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ

Twitter: @ketab_n

ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ

فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ

يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ [29].

نظر أغاجان إلى شهبل. لم يركّز جلجل على سورة الفتح وانتقل بسلاسة إلى سورة الرّوم:

غُلِبَتِ الرُّومُ [2]

فِي أَدْنَى الْأَرْضِ

وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ [3]

فِي بِضْعِ سِنِينَ...

وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ [4]

وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [5]

وكان هذا مختتم خطبته.

لقد كانت خطبة غامضة، كلّ واحد يستطيع تأويلها كما يشاء. كان قد نظمها بشكل لا يمكّن المخبرين السّرّيين من أن يكتبوا شيئا ضدّه. استفتح بالحديث عن الرّسول محمّد، وتلفّظ بعبارة أمريكا، ثمّ تحدّث عن انهزام الرّوم. أرادنا أن لا ندرك بوضوح ما يريد أن يقوله، ولا إلى أين يريد أن يصل.

أدرك أغاجان أنّ المسجد سيعرف فترة مهمّة من جديد كان يتمنّاها منذ وقت طويل.

نهض جلجل وغادر منبره. وقام له مئات المصلّين. واتّجه إليه أغاجان، واحتضنه، وقبّله على كتفه الأيسر ورافقه بفخر إلى باب المسجد.

Twitter: @ketab_n

السّينما

يا إلهي، أما

لثمت قطّ شفتيّ

جارية ثملى؟

أما

جَسَسْت قطّ

نهديها اليانعين؟

كانت هذه القصيدة على مكتب جلجل. رآها أغاجان عندما كان مارًا صدفة، فأخذها وقرأها، إلّا أنّ عينيه لم تُجاوزا «يا إلهي أما لثمت». كانت القصيدة صادمة. إله، لثم، جارية ثملى، نهدان يانعان، كلّ هذا فوق مكتب جلجل! كان اسم الشّاعر مذكورا في الزّاوية السّفلى للورقة: نُصرت رحماني، ولكنّ أغاجان لم يكن قد سمع بهذا الاسم من قبل.

من عساه يكون؟

كيف يجرؤ على كتابة مثل هذا هذه العبارات الدّنسة.

تذمّر أغاجان من تفتّت كلّ شيء. فالشّاه يشجّع هذا الانحلال، ولكن ماذا ينوي جلجل فعله بهذه القذارة؟ ولماذا يجيء بمثل هذه الأشياء إلى المكتبة؟

كانت توجد قصائد أخرى على مكتبه. بدأ أغاجان بقراءة واحدة. هي قصيدة تثير الفضول لأنّها قد كتبتها امرأة:

شفتاي العطشى

تبحثان عنك

Twitter: @ketab_n

انزع عني أدثرتي

خذني بين ذراعيك

هاتان شفتاي

ها هو جيدي ونهداي المشتعلان

ها هو جسدي النّاعم

سمع خطى جلجل في الباحة فلم يستطع أن ينهي قراءة القصيدة فأعادها بسرعة إلى مكانها فوق المكتب، وتوجّه نحو المكتبة متظاهرا بالبحث عن كتاب ما.

وعندما دخل جلجل، أخرج أغاجان كتابا من الرّفّ وسارع إلى مغادرة الغرفة واتّجه مباشرة إلى مكتبه.

أقلقته القصيدة، وتركته غارقا في أفكاره، لم يستطع التّركيز على عمله.

هاتان شفتاي

ها هو جيدي ونهداي المشتعلان

ها هو جسدي النّاعم

من تكون هذه الشّاعرة؟

هل تغيّرت البلاد إلى هذه الدّرجة حتّى صارت النّساء تستطعن الحديث عن أنفسهنّ بمثل هذه الحريّة؟

هل تغيّرت إلى هذه الدّرجة حتّى تتجرّأ النّساء على التّعبير عن أجسادهنّ وعن رغباتهنّ الدّفينة بهذه الحميميّة؟

كيف لم ينتبه إلى ذلك؟ أين كانت هؤلاء النّساء؟ لماذا لم يلتق بهنّ؟ كيف هنّ؟ وأين يسكنّ؟ هل كلّهنّ في طهران؟

الشّاه! هذا بسبب الشّاه والأمريكيّين! كانت الثّقافة الأمريكيّة تنساب في المنازل بغزارة عبر المذياع والتّلفاز والأفلام.

كان النّظام يفعل كلّ ما يستطيع ليخرج الشّباب من المساجد ويجعلهم مناصرين

للشّاه ولأفكار الشّاه. وكان الشّاه قد باشر 'ثورة بيضاء'. نشر كُتيّبا عرض فيه تصوّراته عن الوطن. وسعيا إلى محاربة الأميّة بعث الشّاه بالمدرّسات الشّابّات غير المتحجّبات، اللّواتي يضعن قبّعات ويتسلّقن الجبال مثل جنود الشّاه، إلى القرى النّائية لبناء المدارس.

نعم، لقد تغيّر كلّ شيء وأغاجان لم ير ذلك أو لم يرد أن يراه. كان الشّاه بصدد تصنيع البلاد كما اتّفق، وسيسمح، لهذا الغرض، للمستثمرين الأجانب ببناء مصانع في طهران وفي مدن كبرى أخرى. وسنجان ذاتها كان عليها أن تخضع لمثل هذه التّغيّرات.

ورحّب عشرات المستثمرين اليابانيّين والأوروبّيين بهذه الفرصة ترحيبا كبيرا. كانوا يبنون مصنع جرّارات عند مدخل المدينة، سيوفّر فرص عمل لمئات من شباب المدينة والقرى المجاورة.

ستتولّى ميسوبيشي المصنّع اليابانيّ الشّهير للجرّارات إدارة المصنع، وسيصنعون جرّارا صغيرا يستطيع الفلّاحون استخدامه في الجبال. وقريبا سيتمكّن كلّ فلّاح من امتلاك هذه الآلة بفضل إعانة ماليّة تمنحها الدّولة. وبهذه الطّريقة سيربط ميسوبيشي الفلّاحين بالشّاه.

كلّا، لم يكن أغاجان على علم بأيّ شيء، لقد علم بالأمر مؤخّرا، لأنّه لا يستمع إلى المذياع ولم يمتلك أبدا جهاز تلفاز. ربّما كان عليه أن يشاهد فرح ديبا زوجة الشّاه في التّلفاز ليفهم ما يحدث في البلاد. فقد كانت تبذل كلّ طاقتها لتمنح صورة جديدة لنساء البلاد. لم يكن أغاجان يعرف أنّها تتمتّع بشعبيّة واسعة في أوساط النّساء، حتّى أولئك اللّواتي يذهبن إلى المسجد يوميّا.

هي الزّوجة الثّالثة للشّاه، وقد أنجبت له ابنه الأوّل الأمير الوريث. أمّا زوجتاه الأولى والثّانية فلم تنجبا له ولدا. كان قد التقى بفرح ديبا في إحدى الحفلات في باريس حيث كانت تدرس. وقد صارت الآن ملكة البلاد وتسعى إلى تحسين وضعيّة النّساء وتحريرهنّ من مطابخهنّ.

وحتى هذا اليوم، يسير كلّ شيء وفق المراد، إذ يبدو أنّ الشّاه قد نجح في حبس آيات الله في مساجدهم. ولهذا كان باستطاعة فرح ديبا الذّهاب كلّ شهر مرتاحة البال إلى باريس لتتبضّع في أشهر محلّات مصمّمي الأزياء الّتي يرتادها نجوم هوليود.

وبينما كانت صحيفة نيويورك تايمز تقول إنّ إيران قد صارت واحة سلام تحت حكم

Twitter: @ketab_n

الشّاه، كانت فرح ديبا تحجز موعدا في مصحّة فرنسيّة لِفَرْنَسَةِ أنفها الفارسيّ. وعادت إلى البلاد بتسريحة جديدة.

لم تتجرّأ أيّة صحيفة على التّحدّث عن أنفها الجديد، وقلّدت تسريحة شعرها في الحال كلّ النّساء اللّواتي يذهبن إلى الحلاّقة. كانت كلّ النّساء تتحدّثن عن تسريحة شعرها، وحتى فجري سادات، زوجة أغاجان، كانت قد صفّفت شعرها بتسريحة فَرَحِيّة (على طريقة فرح)، ولكنّ أغاجان لم يلاحظ ذلك.

كانوا يبنون مصحّة للنّساء في مدينة سنجان. لقد كشفت الإحصائيّات الأخيرة أنّ نساء المدن والقرى المتديّنة تعانين أكثر من بقيّة النّساء من الاضطرابات المتّصلة بالولادة ولكنّهنّ كنّ يرفضن أن يعالجهنّ طبيب. ولهذا قرّرت سلط المدن المقدّسة فتح مصحّات لا يحقّ العمل فيها إلّا للطّبيبات. وستكون مصحّة سنجان أوّل مصحّة للنّساء في البلاد وأكبرها.

كان المكتب الملكي لفرح ديبا يدعم هذا المشروع وستأتي فرح شخصيّا إلى سنجان لافتتاح المصحّة.

كان جلجل يتابع كلّ تطوّرات البلاد، ويدمج مفاصل الحياة اليوميّة في خطبه شيئا فشيئا. انتقد مؤخّرا العمدة لأنّ المدينة لا تمتلك حتّى الآن مكتبة لائقة ولأنّ الأكشاك كانت تبيع للشّباب ترجمات مبتذلة لروايات أمريكيّة بثمن زهيد معتبرة إيّاها أدبا.

وفي مناسبة أخرى انتقد المسرح الصّغير لأنّه كان قد عرض مسرحيّة سخرت من الإمام. كانت المسرحيّة موجّهة إلى تلاميذ المدارس، وفي كلّ يوم تأتي مجموعة من تلاميذ المدارس لمشاهدتها. وكان جلجل ساخطا «هذا مُخْزٍ لمدينة سنجان الفاضلة، كيف يتجرّؤون على إخراج صورة الإمام هذا الإخراج لإضحاك التّلاميذ؟ لقد حذّرت أهل البازار: لقد شنّوا هجوما مقنّعا على الإسلام في هذه المدينة. هل نظرتم في محفظات أولادكم لتروا أيّة أفكار ملحدة يتشرّبونها في المدرسة؟ لقد ارتعشت يداي عندما وقع بصري على إحدى القصائد. واحتراما لنسائنا الجالسات خلف السّتارة لن أتحدّث عن مضمون هذه القصائد. لقد أُعلِنت الحرب على ديننا، فلا تلعبوا بالنّار، إنّي أحذّر الجميع، لا تفعلوا ذلك».

سمع العمدة هذا الكلام الحادّ الصّادر عن المسجد، ولتفادي أيّ تصعيد، منع عرض المسرحيّة.

Twitter: @ketab_n

لم يكن دخان الحادث قد انقشع عندما انتشر خبر بناء قاعة سينما في المدينة. كان أحد المستثمرين الّذين يملكون بعض القاعات الكبرى للسينما في طهران قد اشترى حمّاما قديما في سنجان قصد تحويله إلى قاعة سينما. وكان الحمّام معلما تذكاريّا، مكانا يناسب الأنشطة الثّقافيّة مناسبة تامّة، مكانا مثاليّا لقاعة سينما.

أعلم جلجل العمدةَ فورا أنّ سينما في مدينة مقدّسة مثل سنجان أمر غير مقبول البتّة. ولكنّ العمدة أخبره بأنّه لم تتمّ استشارته في الأمر لأنّ القرار قد اتّخذ سلفا في طهران. كان المكتب الثّقافي الملكي قد ساند المشروع لطابعه الثّقافيّ تحديدا، وأعطت فرح ديبا موافقتها الشّخصيّة عليه.

وعندما سمع مالك السّينما المستقبليّة أنّ فرح ديبا قد وافقت على المجيء إلى سنجان لافتتاح مصحّة النّساء قرّر فعل المستحيل حتّى تكون قاعة السّينما جاهزة في هذا التّاريخ ليستطيع أن يطلب منها افتتاح قاعة السّينما أيضا.

اتّصل بطهران وسُوّيت الأمور بطريقة تستطيع فيها فرح ديبا تدشين قاعة السّينما في مساء اليوم الّذي ستزور فيه المصحّة. ولكن بما أنّ سنجان مدينة مقدّسة قرّر الانتظار حتّى اللّحظة الأخيرة لإذاعة الخبر.

وفي يوم مشرق جميل ظهرت طائرة مروحيّة كبيرة في سماء المدينة وحامت ثلاث مرّات فوق البازار. واصطفّ تلاميذ المدارس على جنبي الشّارع الّذي ستمرّ منه فرح ديبا في سيّارة مكشوفة السّقف ستنقلها إلى المصحّة. أطلق الأطفال صيحات ترحيب وصفّقوا ونادوا 'عاش الشّاه'. وظهرت ثلاث طائرات نفّاثة فوق المدينة مخلّفة وراءها ثلاثة خطوط من الدّخان الملوّن بألوان العلم. وانتشر بين النّاس عشرات المخبرين السّرّيين في زيّ مدنيّ. وتوقّفت في زاوية الشّارع شاحنات مليئة بجنود مستعدّين لمواجهة أيّ تحرّك.

كانت فرح ديبا تبتسم للجمهور ملوّحة بيدها، وكان النّسيم الخفيف يتلاعب بشعرها، وهي تشعّ حيويّة.

وعندما مرّت الأستاذات وعاملات المصحّة حللن أحجبتهنّ لترينها بأنّ تسريحة شعورهنّ مثل تسريحتها، وصحن بإعجاب ولوّحن بخُمُرهن.

كانت الكاميرات تسجّل كلّ شيء حتّى تبثّ التّلفاز أنّ نساء المدينة المقدّسة سنجان يطعن فرح ديبا ويضعنها في قلوبهنّ ويتّخذنها قدوة.

Twitter: @ketab_n

كانت هذه أوّل زيارة تقوم بها فرح ديبا إلى مدينة مقدّسة. وستكون هذه الزّيارة بمثابة مقياس لشعبيّة النّظام وسيستطيع أن يعرف مدى اجتياحه للمدن المقدّسة المعادية له. ومرّ كلّ شيء بسلام ظاهريّا، إلى درجة أنّ التّلفاز لم ينتظر حتّى نشرة السّاعة الثّامنة بل بثّ التّقرير منذ السّاعة السّادسة مساء، معتبرا الحدث انتصارا نهائيّا للنّظام على آيات الله. ولكنّهم كانوا قد نسوا جزئيّة؛ جزئيّة قد تبدو للوهلة الأولى غير مهمّة.

كانت بعض شابّات سنجان اللّواتي سيعملن ممرّضات في المصحّة الجديدة واقفات أمام باب المستشفى وهنّ ترتدين مدعّات مهنيّة شفّافة قصيرة الأكمام. وعندما خرجت فرح ديبا من السّيّارة الملكيّة كان المصوّرون الّذين يتقدّمون الموكب يوجّهون كاميراتهم نحو النّساء وهنّ تهدين باقة ورد فاخرة إلى الملكة وتحنين رؤوسهنّ احتراما لها. ولكنّ مدعّاتهنّ المهنيّة البيضاء كانت شفّافة وكانت تظهر ملابسهنّ الدّاخليّة الزّرقاء وتسبّب ذلك في فضيحة للبازار وفقد جلجل رغبته في الأكل عندما سمع الخبر خلال طعامه.

كان ساخطا وفسّر هذا الحدث على أنّه صفعة لآيات الله وإهانة للبازار، وقد حصلت هذه الفضيحة في المدينة الّتي كان هو يؤمّ جمعتها، وعليه أن يبيّن الأمر في خطبته بعد حين.

رنّ هاتف أغاجان مساء. كان المتّصل شخصا من قمّ يريد التّحدّث مع جلجل. كان حديثهما قصيرا من متكلّم واحد لأنّ جلجل لم يقل شيئا. اكتفى بالاستماع وأنهى حديثه بهذه الجملة «لا، لم أكن أعلم بذلك. نعم، فهمت ذلك. حسنا. عرفت ما يكفي. أنت أيضا».

لم يفهم أغاجان موضوع المكالمة ولم يسأل عمّن كان يكلّم جلجل. وعندما نظر عبر النّافذة بعد قليل رآه يذهب ويجيء في المكتبة بعصبيّة.

أذاع البرنامج التّلفزيّ أنّ فرح ديبا قد غادرت المدينة بعد افتتاح المصحّة وعادت إلى طهران. ولكنّها في الحقيقة لم تغادر بعد. فقد ذهبت في طائرة مروحيّة إلى قلعة تاريخيّة قديمة خارج أسوار المدينة. وقد حُوّلت هذه القلعة الموجودة على أطراف الصّحراء إلى نُزُل، وقد كانت عبارة عن فندق على طريق الحرير كان يبيت فيه قديما مسافرون وتجّار.

وكانت فرح ديبا، وقد درست الهندسة المعماريّة في باريس، تترأس الأقسام المكلّفة بحماية كثير من المعالم التّاريخيّة. وهي مهتمّة بترميم هذه القلعة تخصيصا. وستعود فيما بعد، في السّهرة إلى سنجان لافتتاح قاعة السّينما.

Twitter: @ketab_n

كان مالك قاعة السّينما قد جلب معه من طهران لهذه المناسبة خصّيصا شريطا أمريكيّا يروي قصّة حبّ، لم يكن قد عُرض في البلاد من قبل. وما عدا ذلك، فلم يخبر أحدا عن الزّيارة الملكيّة، أعلن فقط عن حضور عدد من أعيان طهران.

عندما كانت فرح ديبا تتأهّب للجلوس إلى المائدة في القلعة القديمة لتناول الطّعام وأخذ قسط من الرّاحة، كان جلجل يجري اتّصالا سريّا في مكتب أغاجان. كان يتحدّث باختصار وبصوت خافت مع شخص ما من قم.

وكان في تمام السّاعة السّابعة جاهزا للذّهاب إلى المسجد. وذُهل شهبل، وقد جاء لمرافقته، من عصبيّته المفرطة.

سأله شهبل «هل من مشكلة ما؟»

– لا، لماذا؟ أجابه جلجل وغادرا المكتبة معا.

– عَمَّ ستحدّثنا بعد قليل؟

– لم أقرّر بعد، وجود هذه العاهرة في مدينتنا قد شغل بالي.

أراد شهبل أن يسأله «أيّة عاهرة؟». ولكنّه لم يفعل ذلك. لم يجرؤ على التّفوّه بهذه الكلمة. وسأله جلجل «أين أغاجان؟».

– هو في المسجد.

دخلا المسجد، وكان بيت الصّلاة قد غصّ بالمصلّين، وقد جاؤوا بأعداد غفيرة على غير العادة، يدفعهم الفضول، على الأرجح لسماع موقف الإمام من زيارة فرح ديبا.

صعد جلجل المنبر بتمهّل، جلس وبدأ يتحدّث بهدوء عن المسجد وعن دور الإمام. كان المسجد قلب المدينة النّابض، وكان الإمام الضميرَ الحيّ لمصلّي المدينةِ. لم يلمح في خطبته إلى افتتاح المصحّة ولا إلى التّقرير التّلفزيّ عن زيارة فرح ديبا. بل صوّب سهامه نحو السّينما.

«أنصتوا إليّ، صاح فجأة، وأشار بإبهامه، عُوا ما أنتم فاعلون!

لزم الصّمت برهة ثمّ أردف: باسم المسجد، باسم المدينة، باسم البازار، أحدّثكم، أسألكم، أحذّركم. أوقفوا مشاريعكم الشّيطانيّة. لا مكان في سنجان لثقافة الأمريكيّين

Twitter: @ketab_n

الفاسدة. لا مكان في سنجان للكبائر. أوقفوهم عند حدّهم، وإلّا أوقفناهم نحن».

«الله أكبر» قال أحدهم بأعلى صوته.

«الله أكبر» قال المصلّون بصوت واحد.

لم يكن أحد يعرف مقصد جلجل من هذه التّحذيرات، ولكنّ جميعهم قد فهموا أنّه أراد أن يعبّر بهذه الكلمات عن سخطه على مصحّة النّساء.

نظر رجال البازار إلى أغاجان وتعابير الرّضا تعلو وجوههم، فقد أعجبوا بموقف جلجل.

كان أغاجان أيضا فخورا به ولكنّه أدرك أنّ جلجل لن يبقى طويلا في سنجان. كان شغوفا جدّا بأن يكون إمام مسجد، وكان يحتاج إلى فضاء أرحب، سيختنق عمّا قريب بين هذه الجدران. ولكنّ هذا المسجد كان منطلقا ممتازا بالنّسبة إليه.

كان مالك السّينما متأكّدا من أنّ جلجل سيخطب مؤلّبا النّاس على السينما، ولكنّه لم يخش تحذيراته. فهو يعرف أنّ المخبرين السّرّيين وشرطة المدينة يحمونه. وقد حدث أنّ افتتاح السّينما سيكون مساء الخميس، لحسن حظّه، مما يعني أنّ المصلّين سيكونون في المسجد يستمعون إلى جلجل، وهذا سيمكّنه من استقبال فرح ديبا مرتاح البال. ولكنّ الظّاهر أنّه لا يعرف خصومه جيّدا لأنّ جلجل كان على علم بالسّاعة المحدّدة للافتتاح.

نظر جلجل إلى ساعته. كانت اللّحظة تقترب. ولكنّه استرخى ومسح على لحيته وابتسم. ظنّ أغاجان أنّه لم يعد لديه شيء ليقوله عن السّينما وأنّه سيمرّ إلى موضوع جديد، وقد اكتفى بالتّهديد. ولكنّ جلجل فاجأه قارئا سورة أبي لهب، وهي سورة آسرة تتحدّث عن امرأة غضب الله عليها:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [1]

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ [2]

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ [3]

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ [4]

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ [5]

Twitter: @ketab_n

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [1]

أحسّ أغاجان بالاختناق وأدرك فجأة أنّ جلجل لن يكتفي بالتّهديدات. كان أبو لهب عمّ محمّد، أخا لوالده. وكان العدو اللّدود لمحمّد وللقرآن. عند الإعلان عن الإسلام، وفي اللّيلة الّتي خطب فيها محمّد أمام وجهاء مكّة ليدعوهم إلى رسالته، شتم أبو لهب محمّدا وغادر الاجتماع. وفعلت زوجة أبي لهب مثله؛ شتمت محمّدا وقالت عن القرآن عباراتٍ نابية. ولم يتوقّفا عند هذا الحدّ بل واصلا سلوكهما العدائيّ في السوق وشتما القرآن وسبّا الله. وتألّم محمّد كثيرا من جرّاء ذلك ولكنّه لم يقدر على منعهما. وفي أحد الأيّام نزلت سورة أبي لهب:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [1]

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ [3]

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ [4]

وكان الجميع يدركون أنّ الإحالة على أبي لهب تعني أنّ الوضع خطر. وتابع جلجل:

«تبّت يدا الرّجل الّذي اشترى الحمّام القديم وتبّ

تبّت يدا الرّجل الّذي سيجعل الحمّام القديم سينما وتبّ

لنكسر باب الحمّام

لنكسر أرجل المجتمعين الآن في الحمّام

ولنلفّ حبلا على جيد نسائهم الموجودات في ذلك الحمّام».

لم يستطع أغاجان أن يهزّ رأسه لينظر إلى جلجل. كان ينظر إلى نقوشات الزّربيّة الّتي يجلس عليها، وأحسّ كأنّ جلجل يقف خلفه ويدفع برأسه نحو الأرض.

لقد فاجأه جلجل واحتار من هذا الخطاب، رغم أنّه كان عليه أن يبتهج به. لمَ لم يخبره جلجل بأنّه سيتحدّث عن السّينما؟ لمَ انبجست هذه النّبرة الحادّة فجأة؟ هل ذلك في مصلحة المسجد؟ ما هي نتائجه على المدينة؟ ولكن ليس الوقت وقت التّفكير في هذه الأشياء. تنفّس بعمق، هزّ رأسه، ونظر حوله. كان المسجد غارقا في صمت رهيب، والجميع ينظرون إلى جلجل بانتباه وقد قال «لقد حذّرت البلديّة مسبقا ومنذ فترة طويلة، وحذّرت أيضا المالك الجديد للحمّام، ولكنّهم رفضوا الاستماع إليّ، ولديهم اللّيلة شريط أمريكيّ

Twitter: @ketab_n

قذر ينوون عرضه، وفي هذا اليوم بالذّات. أتعرفون في أيّ يوم نحن؟ إنّه ذكرى وفاة فاطمة الزّهراء.

أنا جلجل، إمام المسجد، أمنع ذلك.

أنا جلجل، إمام جمعة المسجد، أمنع الدّخول إلى السّينما.

أنا جلجل، سأذهب حاملا القرآن لأسمّر باب مكان التّهلكة هذا» قال ذلك مخرجا القرآن من جيبه.

صاح النّاس «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر»

«ليتّجه جميعكم إلى الحمّام» صاح جلجل.

نهض ونزل من المنبر مستعجلا، ووقف الجمع له.

لم يتوقّع أغاجان هذا التّطوّر المفاجئ، فظلّ هامدا على الأرض. لقد أحسّ بأنّ جلجل قد خدعه، وأدرك أنّ الإمام قد استحوذ على إدارة المسجد. ولكنّ الوقت لم يفت بعد. كان يمتلك خبرة أكبر من جلجل، وعليه أن يحاول الإمساك بزمام الأمور وينقذ سمعة المسجد وهيبته. أمر جلجل لا يهمّه ولكنّ أمر المسجد يهمّه. نهض وجرى وراء جلجل مناديا على شهبل «اركض، لا تتركه وحده، اذهب معه».

اشتدّت الحماسة إلى درجة تعذّر فيها السّيطرة على النّاس. سأنجح في ذلك، قال أغاجان في نفسه، أنا الوحيد القادر على منع هذه الفوضى.

مشى جلجل باتّجاه السّينما رافعا القرآن يتبعه المصّلون وهم يردّدون «الله أكبر».

وفوجئ رجال الاستخبارات السّرّيون بهذا الاجتياح فركضوا في الظّلام خائفين يصرخون في أجهزتهم اللّاسلكيّة «تمرّد، السّينما في خطر».

وصلت سيّارتا شرطة ببطء، ولكنّ المخبرين لم يفهموا ما يحدث ولا إلى أين يتّجه الجمع.

قطعت ناقلات عسكريّة مليئة بالجنود الطّريق المؤدّي إلى السّينما. وقفز الجنود المسلّحون من ناقلاتهم وكوّنوا جدارا ليصدّوا المتظاهرين.

توجّهت طائرة مروحيّة إلى السّينما وحطّت في ساحة نزل المدينة لتنقل فرح ديبا.

Twitter: @ketab_n

وتوقّفت سيّارة العمدة على الرّصيف وخرج منها العمدة مسرعا وركض نحو المتظاهرين رافعا يديه فوق رأسه. وبحث عن أغاجان في وسط الجموع وعندما وجده صاح قائلا «ماذا تفعل بالله عليك؟ لقد أوقعتني في فخّ، أوقف هؤلاء النّاس قبل حدوث حمّام دم.

- ما الّذي تقوله، لم تعد المعتمديّة تستمع أبدا إلى المسجد، إنّها تهين كلّ سكّان المدينة ببنائها لقاعة سينما، والآن تهدّدني بحمّام من الدّم.

- لا، ليس الأمر كذلك، لقد أسأت فهمي، أنا لا أهدّدك، إنّي أطلب منك أن تساعدني. إنّ الأمور توشك على أن تسوء أكثر. لا استطيع أن أقول ذلك بصوت عال. ثمّ تمتم: فرح ديبا في السّينما. صدّقني، إذا واصل النّاس تقدّمهم سيطلق المسلّحون النّار، افعل شيئا، أوقفهم».

أوقف الجنود المسلّحون المتظاهرين، وصاح ضابط في مكبّر الصّوت «تراجعوا، لا تقتربوا أكثر».

لم يمتثل جلجل، لوّح بقرآنه وواصل، حاول أن يفتح طريقا بين الجنود، لكنّ الضّابط توجّه نحوه ومنعه من التّقدّم أكثر.

«قلت تراجعوا، صاح بقوّة، وإلّا سنطلق النّار».

- أطلق، صاح جلجل، وواصل طريقه.

جذبه الضّابط إلى الخلف من طرف عمامته، وقرّب رأسه من أذنه وصاح «إذا لم تتراجع، سألفّ عمامتك حول رقبتك واعتقلك».

أغاضت كلماته جلجل فدفع الضّابط بعنف وكاد أن يوقعه أرضا. فسحب الضّابط مسدّسه، وتدخّل أغاجان بسرعة، جذب جلجل إلى الخلف، وصاح في وجه شهبل «خذه معك». ولكنّ جلجل رفض أن يتبعه، خلّص نفسه من قبضة أغاجان وركض نحو الضّابط. أمسكه أغاجان في الوقت المناسب «والآن، هذا يكفي، توقّف».

دفع جلجل أغاجان جانبا وقفز إلى الأمام، ولكنّ أغاجان نجح في الإمساك به مرّة أخرى، جذبه من رقبة قميصه وصاح «لا تنس أنّني من يقرّر». ثمّ أخذ المكبّر من الضّابط وقال بأعلى صوته «اهدؤوا يا أصدقائي، وأنصتوا إليّ». فصمت الجميع.

«لقد تحدّثت للتّو مع العمدة، ستعدل المعتمديّة عن مشروعها. لن يكون هناك سينما في المدينة. عودوا إلى المسجد»

Twitter: @ketab_n

«الله أكبر» صاح الجمع.

كان لهذه الحادثة أثر كبير. وظلّ النّاس أمام المسجد لوقت طويل، ممّا أسعد أغاجان.

لقد قام المسجد بفعل كبير وكان وحده القادر على تفادي المعركة. صار الهجوم هجوما مباشرا على مشاريع الشّاه، وهي وجهة غير متوقّعة، وكانت صفعة مدوّية على وجه وزيره الأوّل. كان يريد أن ينتزع السّلطة من المدن المقدّسة ويهديهم في المقابل ثقافة غربيّة سمجة. ستتحدّث كلّ الصّحف عن ذلك غدا: تمرّد في سنجان، لقد فرض مسجد سنجان نفسه من جديد، سيكون آيات الله في قم راضين عن ذلك، وسيتحدّث كلّ أئمّة المساجد عن ذلك.

عاد الجميع إلى ديارهم عند منتصف تلك اللّيلة وصار المسجد فارغا فأقفل الحارس الأبواب. وكان أغاجان في مكتبه يكتب «بعد فترة من الصّمت، تكلّم مسجدنا من جديد. ربّما قد عدنا إلى دربنا القديم». وكان ما يزال يكتب عندما توقّفت سيّارتان مدنيّتان أمام المسجد. بقيت إحداهما تحت الأشجار، أمام المسجد، فيما أطفأت الأخرى أضواءها وانسابت ببطء في زقاق الدّار. خرج ثلاثة أعوان مدنيّين من السّيّارة وبقي السّائق بداخلها. مشى رئيس الشّرطة باتّجاه الباب الرّئيسيّ ورنّ الجرسَ، بينما ظلّ العونان الآخران على مقربة من السّيّارة.

سمع أغاجان رنين الجرس وشعر بالخوف. قيل له إنّ الشّرطة ستذهب لرؤيته غدا في البازار فلم يكن يتوقّع مجيئهم إلى داره في هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل.

كانت الجدّتان قد سمعتا الجرس أيضا، ففهمتا بأنّ أمرا ما غير طبيعيّ يحدث، وأنّ عليهما أن لا تخرجا قبل معرفة ردّة فعل أغاجان. وذهب شهبل مباشرة إلى مكتب أغاجان وقد سمع هو أيضا رنين الجرس. «إنّهم على الأرجح رجال الشّرطة، قال أغاجان بصوت خافت، نبّه جلجل، عليه أن يهرب، أخرجه من السّطح».

كان جلجل يتوقّع قدوم رجال الشّرطة وهو لا يزال في المكتبة عندما رنّ الجرس. أطفأ النّور في الحال، وتوجّه نحو الدُّرج على أطراف أصابعه.

ارتدى أغاجان معطفه وقبّعته وتوجّه نحو الباحة، وعندما لمح خيال جلجل قرب الدّرج انتظره حتّى يختفي في الظّلمة.

Twitter: @ketab_n

رنّ الجرس مرّة أخرى.

«أنا قادم» قال أغاجان وهو يتوجّه نحو الباب.

كانت النّساء تقفن خلف السّتائر وتتابعن بأعينهنّ ما يجري.

«من هناك؟» صاح أغاجان قبل أن يفتح الباب.

- افتح.

فتح الباب ورأى على ضوء الفانوس الشّرطيّ والرّجلين الآخرين قرب السّيّارة. فأدرك بأنّهم عملاء الاستخبارات السّريّة لأنّ عونا من المدينة لن يجرؤ على المجيء إلى الدّار وطرق بابه ليلا. إنّهم على الأرجح مجنّدون جدد أو أعوان من مدينة أخرى. وأدرك أغاجان ذلك من تصرّفاتهم فهم لا يعرفون أغاجان ولم يسلّموا عليه

«ما الّذي تفعلونه أمام داري في غمرة اللّيل أيّها السّادة؟»

- نحن نبحث عن الإمام، سنأخذه معنا، قال العون كاشفا عن هويّته.

وجعلت هذه الكلمات أغاجان يحسّ بخطورة الموقف ولكسب الوقت خرج وأغلق الباب وراءه.

«الإمام ليس بالدّار، ولكن إذا كان الأمر مستعجلا يمكنكم التّحدّث إليه غدا في المسجد»

لم يكن رئيس الشّرطة يتوقّع أن يغلق أغاجان الباب فصاح برعونة «اترك الباب مفتوحا».

- لا ترفع صوتك أيّها الشّرطيّ فالجميع ينامون.

- افتح الباب، قال الشّرطيّ وهو يركل الباب.

- اهدأ أيّها الشّرطيّ فقد أخبرتك بأنّ الإمام ليس هنا، وسيكون غدا صباحا في المسجد. هل فهمت أم لا؟ قال أغاجان بصوت عال ليستطيع شهبل سماعه.

«افتح الباب إذا كنت لا تريد أن افتحه بطلقات ناريّة» قال له الشّرطيّ وهو يفكّ زرّ حافظ مسدّسه. وفجأة ركض أحد رجال الشّرطة في الزّقاق صائحا «إنّه فوق السّطح، أوقفوه».

Twitter: @ketab_n

تسلّق رجال الشّرطة الجدار بعد أن صعدوا على الباب ووصلوا في لمح البصر إلى السّطح. ثمّ توجّهوا نحو الصومعات.

فتح أغاجان الباب وأراد التّوجّه إلى الدّرج ليصعد هو أيضا إلى السّطح، ولكنّ شرطيّا قال له «أنت، ابق هنا».

توجّه أغاجان نحو الصّالون ووقف هامدا في الظّلمة، تحت الأشجار، يتابع ما يحدث من بعيد.

«لقد لمحت خيالا خلف القبّة، صاح أحد رجال الشّرطة في الشّارع».

- ارفع يديك واخرج من العتمة، صاح رئيس الشّرطة من فوق السّطح.

ظنّ أغاجان بأنّهم قد قبضوا على جلجل فتوجّه نحو شجرة الأرزّ لتتسنّى له رؤية السّطح بوضوح. فرأى على ضوء الصّومعات الأخضر رئيس الشّرطة يتقدّم نحو القبّة ومسدّسه بيده ولكنّه لم ير جلجل.

- لا أحد هنا، قال العون الموجود في الشّارع.

- لقد لمحت خيالا، لا يمكن أن يكون قد ابتعد، أجابه عون آخر.

أحسّ أغاجان بالارتياح ووقف تحت ضوء الفانوس قرب الحوض وصاح «أيّها الشّرطيّ، إنّ الخيال الّذي لمحته فوق السّطح هو خيال حارس المسجد، لا تعقّد الأمور، كان الحارس قد خرج لتوّه من عندي عندما رنّ الجرس. أنت جئت من الجهة الأخرى ولا تعرف المسجد. لا أحد يستطيع الهروب عبر السّطح إذ يوجد رجال شرطة في الشّارع، سأريك، قال أغاجان، وتوجّه نحو الدّرج ليصعد فوق السّطح. لقد سبق وأن قلت لك إنّ الإمام قد رحل، قال لرئيس الشّرطة عندما صار فوق السّطح. لقد ذهب إلى قم في قطار اللّيل ليجري لقاء، تستطيع أن تتّصل بشبّاك تذاكر المحطّة إذا أردت. لقد شاهدوه مرّات عدّة. يجب أن لا تعقّد الأمور أكثر ممّا هي عليه. لا شيء فوق السّطح عدا القبّة والصّومعات. فتّش الأمكنة وارحل. هل سمعتني». لم يحرّك رئيس الشّرطة ساكنا ولكّنه سلّط ضوء مصباحه المحمول على أماكن عدّة في السّطح.

«لا تدنّس سطح المسجد بحذائك الدّنس واخرج من داري» صاح أغاجان وهو يريه الدّرج.

Twitter: @ketab_n

نزل رجال الشّرطة وهم يدمدمون وعادوا إلى الباحة الدّاخليّة.

«لم يتجرّأ أيّ غريب على الدّخول إلى هذه الدّار قطّ، واليوم يغزو وغدان داري، هذا يكفي الآن. ارحلوا كلّكم». ولكنّ صوت أغاجان الحادّ لم ينطل على الشّرطيّ إذ أمر تابعيه «فتّشوا كلّ الغرف حالا». فاندفع رجال الشّرطة نحو الغرف بوقاحة.

«شهبل، (لم يجبه أحد) اتّصل بالعمدة» واصل كلامه رغم أنّه كان يعرف أنّ شهبل قد رافق جلجل. فركض نحو مكتبه باحثا في أوراقه عن رقم هاتف منزل العمدة واتّصل به «اخرج هؤلاء الأوغاد من داري وإلّا فإنّي سأحضر بندقيّة من القبو وأقتلهم جميعا».

سحب رجال الشّرطة المؤذّن الأعمى خارج غرفته وفتّشوها.

«أيّها اللّقطاء، صاح المؤذّن، اخرجوا من غرفتي، اخرجوا من بيتي». كانت المكتبة مقفلة. فصاح رئيس الشّرطة «المفتاح».

- لا يوجد مفتاح، صاح أغاجان، وقد كان في الجهة الأخرى من الباحة.

- أعطنا المفتاح وإلّا خلعنا الباب. خرجت الجدّتان من العتمة وفتحتا باب المكتبة وأضاءتا النّور. وأراد أحد رجال الشّرطة أن يدخل دون أن ينزع عنه حذاءه.

«انزع عنك حذاءك» قالت له جلبانو. فلم يستمع إليها. فصاحت جليبه «انزع عنك حذاءك يا عديم الأدب».

ذُهل العون بقدم الكتب فتوقّف على العتبة هامدا ينظر إلى الرّفوف ومكتب الإمام العتيق، ثمّ خرج.

دخل الأعوان الآخرون إلى قاعة الزّرابي المظلمة. كانت توجد زربيّة منسوج نصفها معلّقة على الجدار. بحثوا وراء الزّربيّة وفتحوا الخزائن الكبيرة العتيقة ورموا برُزم الخيط. ثمّ غادروا هذه الغرفة وذهبوا إلى غرفة التّدخين.

رنّ جهاز اتّصال قائد الشّرطة فذهب باتّجاه الحوض وتحدّث مع أحدهم ثمّ عاد بعد دقيقة ونادى «لنذهب يا رجال».

تجمّع أعوانه في الباحة الدّاخليّة، ثمّ أغلقوا الباب خلفهم ورحلوا. فأقفل أغاجان الباب وأطفأ النّور. وقال للجدّتين «هل من شيء آكله، أتضوّر جوعاً وعطشاً». وكان قد جلس في مقعده عندما دخل شهبل:

Twitter: @ketab_n

«أين هو؟ سأل أغاجان.

- في المسجد

- في المسجد؟

- في القبو القديم، لقد سوّى الحارس كلّ شيء، قال شهبل.

- هو في أمان الآن، ولكنّ رجال الشّرطة سيعودون، لن يمرّ هذا الحادث بهدوء، سيترصّدون المسجد، علينا أن نرسله إلى قم. بعد قليل سيفتح الحارس باب المسجد لصلاة الصّبح، سيدخلون إلى المسجد ولن نستطيع منعهم من ذلك. علينا أن نجد طريقة لنهرّبه.

في هذه اللّحظة دخلت الجدّتان بطبق كبير من الفضّة وطرحتا منديلا صغيرا نظيفا على مكتب أغاجان ووضعتا فوقه صحنا فخما من خزف البورسلان فيه قطع من الخبز والجبن، وبحركات رشيقة وضعتا قرب الصّحن إبريق شاي يزيّنه شريط مذهّب الأطراف وكؤوسا، ثمّ خرجتا. كان الشّاي معطرا يتصاعد بخاره. ونظر أغاجان إلى شهبل مبتسما، فقال شهبل وهو يسكب الشّاي «من الواضح أنّهما استحسنتا تدخّلك».

- اجلب كرسيّا وتعال لتأكل معي، ما زال لدينا الكثير لنقوم به، لا مجال للنّوم اللّيلةَ.

بعد أن اقْتَاتَا، توجّه أغاجان إلى مهملات مكتبه وأحضر بعض الأدوات. وضع على الطّاولة أمام شهبل مقصّا وقبّعة وبدلة «لدي فكرة. سأظلّ واقفا على الرّصيف كأنّني انتظر أحدا. أعرف أنّ هناك رجال شرطة يراقبون كلّ شيء من سيّاراتهم وسأحاول لفت انتباههم، وفي هذه الأثناء ستأخذ هذا المقصّ وهذه البدلة وتذهب إلى المسجد عبر السّطح، فتساعد جلجل على قصّ لحيته وتطلب منه أن يلبس هذه البدلة وهذه القبّعة. بعد حين، سيأتي النّاس لصلاة الصّبح وأنا أتوقّع حشدا أكبر من ذي قبل بعد أحداث البارحة. عندما يغادر النّاس المسجد بعد الصّلاة ستخرجان ورائي وسأهتم أنا بالباقي، هل هذا واضح؟

- نعم واضح.

لم يكن الطّقس باردا هذا الفجر ولكنّ نسيما نَديّا كان ينبعث من الجبال. تسمّر أغاجان في مكانه أمام المسجد حسب الاتّفاق، ولاحظ أنّ الفانوس الموجود أمام المسجد كان مضاء رغم أنّه كان معطّبا منذ زمن طويل. كان الحارس قد ذهب مرّات كثيرة إلى مصلحة

Twitter: @ketab_n

الكهرباء في البلديّة ولكن لم يأت أيّ كهربائيّ لتغيير مصباح الفانوس. وكان أغاجان نفسه قد اتّصل بمكتب المدير مرّات عدّة ولكنّه لم يوفّق في التّحدّث إليه.

لم يكن يوجد أحد في الشّارع، ولكن على بعد مسافة منه وقف رجلان على الرّصيف يدخّنان سيجارة. وعندما عرفا أنّ أغاجان كان يراهما انسحبا إلى العتمة.

مرّت سيّارة خاصّة أمام المسجد وعلى متنها أربعة ركّاب، ثمّ عادت أدراجها ومرّت ثانية دون توقّف. ظهر الرّجلان اللّذان كانا قد استترا بالعتمة من جديد تحت ضوء الفانوس، مشيا تجاه أغاجان وهما يدخّنان. مرّا أمامه دون أن يسلّما عليه، لم يكونا من أبناء المدينة وإلّا لتعرّفا على أغاجان وسلّما عليه، ولو كان الظّلام حالكا.

واقفا على الرّصيف، اكتشف أغاجان من جديد أنّ تغيّرات جذريّة طرأت على المدينة خلال هذه السّنوات الأخيرة. لقد وقعت إدارة المدينة بين أيدي الغرباء. قبل سنوات كان أعضاء المجلس البلدي رجالا يعرفهم؛ رجالا ينحدرون من عائلات عريقة في المدينة ومن أبناء البازار. وعندما كان أغاجان يدخل إلى مبنى إحدى المؤسّسات العموميّة كان يستقبله المدير فورا، وهو يجهل الآن هويّة المدراء الجدد، وهم أناس لا يرغبون في أن تكون لهم صلة بالمسجد. وكانوا يرتدون بدلات ضيّقة ويضعون ربطات عنق ويدخّنون السّيجار الفخم. وكانت المدينة منقسمة إلى نصفين تقريبا؛ من جهة المباني التّقليديّة وعامّة السّكّان، ومن الجهة الأخرى المدراء الجدد ورجال الشّرطة الجدد والبنايات الحديثة والمسارح وهوّاة السّينما. قديما كان يستطيع تسوية الأمور بإشارة واحدة واليوم لا قدرة له حتّى على تغيير مصباح فانوس معطّب. وأدرك هنا مغزى قول العمدة «لا تنس يا أغاجان أنّه لم يعد باستطاعتي مساعدتك كما في الماضي».

أحسّ بشيء من القلق وما كان من عادته أن يرتاع بمثل هذه البساطة. كان يظنّ قبل سويعات قليلة بأنّ الأمور ستفرج، وحتى إذا اعتقل رجال الشّرطة جلجل فقد كان متأكّدا من أنّه سينجح في إخلاء سبيله وسيعيده إلى البيت بُعيد اتّصال بسيط مع رئيس الشّرطة، ولكنّه أدرك الآن بأنّه أخطأ في حساباته.

بدا وكأنّه بحاجة إلى الهواء الجبليّ العليل ليستطيع التّفكير بدقّة، ورؤية الأشياء بشفافيّة أكبر. أدرك بأنّ جلجل كان غريبا أيضا وغير مؤتمن. ما حقيقته يا ترى؟ إمام نكرة جاء من قم وتزوّج ابنتهم. وعدا ذلك؟ لا يعرف عنه شيئا.

Twitter: @ketab_n

أثّر فيه هواء الجبل فعلا، لقد انقشعت الغشاوة وصار بصره حديدا. رسم جلجل خطّة خطرة. كان على علم بوجود فرح ديبا في السّينما ولكنّه تجنّب إخباره. كان ينوي أن يحدث كارثة في المدينة. لقد دفع بالمصلّين الأبرياء نحو السّينما ليوقع فرح ديبا في فخّ وليقلب البلاد رأسا على عقب وليجعلهم محطّ حديث الصّحافة العالميّة. ولم يتفطّن أغاجان إلى شيء من ذلك. يا له من حظّ مكّنه من إحباط خطّة جلجل في الوقت المناسب. لقد خدعه جلجل وهو الآن موجود في أقدم الأقبية ومصيره معلّق بيدي أغاجان. لقد طلب من شهبل أن يحلق لحية جلجل.

أحسّ بالعرق يتصبّب من جبينه رغم أنّ الجوّ كان باردا. وليخفّف كربه بدأ يرتّل:

وَالضُّحَى [1]
وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [2]
مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى [3]
أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى [6]
وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى [8] [سورة الضحى]

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ [1] وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ [2] الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ [3] وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [4] فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [5] [سورة الشّرح].

استدار أغاجان ولاحظ بأنّ الصّبح قد لاح. كان النّاس يتوجّهون إلى المسجد بأعداد كبيرة فأحسّ ببعض ارتياح، ونهض ودخل المكان المقدّس.

لم نر قطّ هذا العدد الهائل من المصلّين في صلاة الصّبح من قبل، ومازال النّاس يتوافدون. لم يسمع أغاجان ما بثّه المذياع وسمعه النّاس من أنّ سنجان كانت مسرحا لتمرّد قاده إمام متزمّت قلب المدينة رأسا على عقب.

كتبت كلّ صحف اليوم عن زيارة الملكة للمصحّة وعن ذهابها إلى السّينما. وراجت الأخبار هنا وهناك بأنّ الإمام قد جنّد المصلّين للقيام بعمليّة قذرة على الأرجح. فجاء الجميع إلى المسجد لمتابعة بقيّة الأحداث.

ظهر الحارس، وذهب باتّجاه أغاجان وحيّاه. ومشى معه أغاجان مسافة قصيرة لتبيّن

Twitter: @ketab_n

الأمور مرّة أخرى. وعندما صارا في المسجد توجّه أغاجان خفية نحو الأقبية وذهب إلى القبو الأقدم. فبرز شهبل من العتمة.

«أين هو؟ سأل أغاجان

– في مخزن الأغراض القديمة.

– اصعد واطلب من والدك أن يؤذّن للصّلاة».

تابع طريقه نحو المخزن، وفتح الباب بحذر وقال «هذا أنا».

بدت ملامح جلجل مختلفة على ضوء الشّمعة الخافت. كان يرتدي بدلة وقبّعة ولحيته محلوقة. «لقد جنّدت الشّرطة كلّ عناصرها لاعتقالك وأنت تعرف السّبب أحسن منّي. وسأبذل قصارى جهدي لمساعدتك على الهروب. ولكن اعلم بأنّي لست راضيا على حيلك. أحسّ بأنّي قد طُعنت في ظهري. كان ينبغي عليك أن تخبرني بما كنت تنوي فعله، ولكنّك تعمّدت عدم إخباري. ليس الوقت وقت الحديث في هذه الأمور. عندما تنتهي الصّلاة بعد حين، سيأتي شهبل لاصطحابك، سنغادر المسجد مع بقيّة المصلّين. سينتظرك ابن أخ الحارس على متن درّاجته في ساحة البازار. وعندما تصل هناك اركب وراءه وسيقلّك إلى قرية ورتجه. وسيبعثك إمام ورتجة إلى كاشان، وقد رتّب إمام كاشان رحلتك إلى قمّ. هاك نقودا، فأنا ذاهب». قال أغاجان ذلك وخرج دون أن ينتظر ردّة فعل جلجل.

كان يودّ أن يوجّه إليه عبارات أقسى وأن يقول له «كنت تنوي تعريض المدينة والمسجد والدّار والعائلة للخطر. لقد خنت ثقتي فيك. لقد أدركت منذ البداية بأنّه عليّ أن لا أثق فيك. ولكن الحمد لله على تغيّر مجرى الأمور، الآن ارحل. لا أريد أن أراك لفترة طويلة». لكنّه لم يفعل ذلك، كان مسرورا لأنّه استطاع أن يكبح جماح غضبه ويلطّف عباراته.

حين دخل أغاجان بيت الصّلاة وقف الجميع احتراما له. علم الجميع بأنّ الشّرطة قد اقتحمت البيت البارحة وبأنّ جلجل قد هرب.

رافقته مجموعة من أعيان البازار إلى المحراب.

«أنا بحاجة إلى مساعدتكم، بعد قليل، تمتم أغاجان، هذه لحظة حاسمة بالنّسبة إلى المسجد. جلجل في خطر. سأؤمّكم أنا، هذا غير عاديّ، ولكنّ الأمر مستعجل. وبعد ذلك أريدكم أن تبقوا هنا قليلا ثمّ نذهب جميعا إلى البازار». وبعد أن نطق أغاجان بهذه

Twitter: @ketab_n

العبارات، ذهب إلى المنبر وخطى على المرقاة الأولى وقال بصوت عال «أصدقائيّ الأعزّاء، لا إمام اليوم ليصلّي بكم. لقد توجّب على جلجل الذّهاب بسرعة إلى قم. أعرف بأنّ الأمر غير مألوف ولكنّي سأحلّ محلّ الإمام. إنّ صلاة الصّبح قصيرة، اتبعوني».

حدث نوع من البلبلة، ولكن عندما صاح المؤذّن «حيّ على الصّلاة»، خيّم صمت على المكان وتوجّه الجميع نحو مكّة. صلاة الصّبح هي أقصر صلاة وتتكوّن من وقوف مرّتين وركوع مرّتين وسجود مرّتين.

وبعد انتهاء الصّلاة توجّه النّاس بأبّهة إلى أغاجان ورافقوه إلى باب الخروج. ورأى أغاجان شهبل وجلجل يخرجان من القبو وينضمّان إلى الجمع. طلب أغاجان من مجموعة صغيرة أن ترافقه إلى البازار ولكن يبدو أنّ عددا كبيرا من المصلّين أحسّوا بخطورة الموقف فمشوا وراءه في صمت.

لم يفهم رجال الشّرطة المنتشرين في كلّ مكان ما يحدث ولماذا يمشي هؤلاء النّاس بهدوء إلى البازار.

كان ابن أخ الحارس متأهّبا على متن درّاجته في إحدى زوايا ساحة البازار تحت فانوس. انفصل جلجل عن الجمع، وتوجّه نحو الدّرّاجة وجلس وراء السّائق. فشغّل السّائق المحرّك وغادرا دون أن ينظرا وراءهما. انتظر شهبل برهة حتّى يختفيا عن ناظريه، ثمّ انضمّ من جديد إلى الجمع. اقترب من أغاجان وهمس «لقد رحل».

Twitter: @ketab_n

الطّيور

حاء ميم، انتهى فصل الخريف الآن. سافرت صادقة إلى قم لتلتحق بزوجها قبل حلول فصل الشّتاء. غطّى أوّل تساقط للثّلج قمم الجبال. وصارت القرى المجاورة محاطة بقمم بِيض. وقلّ الحديث عن جلجل في الدّار، فسكّانها كانوا منشغلين بشيء آخر؛ ستحلّ الطّيور المهاجرة قريبا. وربّما يكون بينها طائر ذو زخارف نموذجيّة هذه المرّة.

ما أن استيقظ أغاجان حتّى قال لزوجته «لقد رأيت من جديد حلما جميلا يا فجري، إنّي اتّصل بأسلافي الأموات بشكل مستمرّ، لن تصدّقيني، ولكني رأيت البارحة والدي، أنا لا أعرف متى توفّي ولكنّه يزورني في أحلامي دائما. وأبدو عاجزا عن تأويل هذه الأحلام. يحدث كلّ شيء في جوّ خاصّ ومحيط ملائم. رأيت في حلم البارحة أنّ والدي قد توفّي فحملناه إلى المقبرة ودفنّاه، ولكن عندما عدت إلى البيت وجدته هناك فوق السّرير تحت غطاء أبيض. كنت أعرف أنّه والدي، رغم أنّنا كنّا قد دفنّاه. جثوت قرب سريره وأحسست بأنّه لم يكن ميّتا وأنّه سينهض. ثمّ تحرّك وبرز رأسه فوق الغطاء. حاول أن ينهض فسارعت بمساعدته وأعطيته عصاه وقبّعته، فغادر الغرفة، ومشى بحذر متّجها نحو الحوض، وجلس على المقعد ناظرا إلى الأسماك».

- أنت تفكّر في أبيك وتفكّر في الأموات دوما ولهذا السّبب أنت تحلم بهم دائما، قالت فجري سادات.

- أنا لا أفكّر في الأموات، نعم، أفكّر في والدي من حين لآخر، ولكنّي أحلم بكلّ الموتى تقريبا، حتّى أولئك الّذين لم أعرفهم قطّ، جدّي مثلا، أو والد جدّي. وهذا مثير جدّا، فأنا في النّهار في عالم الأحياء وفي اللّيل في عالم الأموات.

- ربّما يعود ذلك إلى أخبار المسجد الّتي تدوّنها.

نهض وذهب ليقف قرب النّافذة.

Twitter: @ketab_n

«فجري سادات، قال فجأة

- ماذا هناك؟

- لقد أشرقت شمس تموز».

نظرت فجري سادات إلى الشّمس المعلّقة مثل دائرة حمراء فوق قمّة زاردكوه؛ الجبل الأصفر.

«كنت أنظر كلّ يوم إلى قمّة زاردكوه دون أن تظهر لي. فظننت أنّنا لن نراها هذه السّنة، قالت فجري سادات.

- لقد كان ذهني مشغولا بجلجل في هذه الفترة الأخيرة حتّى أنّي نسيت تمّوز تماما.

حلّ فصل الشّتاء. يندر أن تسطع شمس حمراء حارّة فوق جبل زاردكوه في آخر يوم في الخريف أو في أوّل يوم في الشّتاء: وهي شمس تمّوز؛ وتمّوز يعني الصّيف.

تنتظر سنجان دائما بفارغ الصّبر الاعتدال المفاجئ للطّقس. وتدركه الطّيور المهاجرة قبل الإنسان، وتستغلّ هذا اليوم لعبور القمم الثّلجيّة آتية من الأقطار الرّوسيّة الآسيويّة الباردة متّبعة دائما طريق الحرير حيث الهواء السّاخن وتقطع جزءا كبيرا من الصّحراء دون توقّف. وعندما تبلغ سنجان تكون قد اجتازت المرحلة الأصعب من رحلتها. ومن ثمّ تطير على مراحل نحو الأقطار الحارّة لتستقرّ أخيرا في أعشاشها في نخيل الخليج العربي.

كان يوم تمّوز يوما مهمّا بالنّسبة إلى العائلة والبازار والتّجارة الوطنيّة للزّرابي. وتمكث فجري سادات والجدّتان في الدّار لاصطياد العصافير. ويستلهم سكّان الدّار ألوان الزّرابي من ألوان ريش الطّيور المهاجرة.

لقد تعلّم سكّان الدّار عبر الزّمن أنّه يوجد دائما في أسراب الطّيور المهاجرة نموذج أو نموذجان تكون ألوانهما مذهلة ويحوي ريشهما زخارف مميّزة. ولا أحد يعلم من أين يستوحي أغاجان الزّخارف الفريدة لزرابيه وخليط ألوانها الباهر. كان ذلك سرّ الدّار وقد حافظت عليه النّساء عبر القرون.

انهمكت الجدّتان في العمل كما كانتا تفعلان في السّنوات الماضية. فذهبتا إلى القبو باحثتين عن فخاخ الصّفصاف القديمة ونصبتاها في الباحة الدّاخليّة من جهة المكتبة وقاعة التّدخين.

Twitter: @ketab_n

عندما تغادر الطّيور الصّحراء متّجهة إلى سنجان كانت تطير في اتّجاه صومعات المسجد حيث كانت أربعة من طيور اللّقلق تعيش باستمرار؛ كلّ طائرين منها فوق صومعة. لا أحد يعرف متى ستموت هذه الطّيور الهرمة ولا متى ستحلّ طيور أصغر عمرا محلّها. فهي موجودة هناك دائما. وهي جزء من روح سنجان وأوّل علامة تراها الطّيور المهاجرة من بعيد.

وعندما تصل الطّيور إلى سنجان كانت تدور مرّات كثيرة مصدرة ضجيجا قويّا قبل أن تحطّ على سطح المسجد. ويراقب الزّاغ العجوز المستقرّ على القبّة حركاتها. وينثر حارس المسجد القمح فوق السّطح قبل وصول الطّيور ويضع لها أوعية صغيرة مملوءة ماء في أماكن متعدّدة. كان كلّ سكّان المدينة يعلمون أنّ أهل المسجد يقدّمون لها الماء والقمح ولكن لم يكن أحد منهم يعلم أنّ فجري سادات كانت تنصب لها الفخاخ.

جلست فجري سادات في مقعدها قرب الحوض وأمسكت حبال الفخاخ بيدها. واختبأت الجدّتان في المكتبة وهما تراقبان بحذر من فتحة في السّتار. حطّت بعض الطّيور قرب الفخاخ حيث نُثرت الحبوب وتقدّمت وهي تنقر الحبّ حتّى صارت تحت السّلال حيث نُثر عنب أحمر.

وما إن صارت الطّيور تحت السّلال حتّى جذبت فجري سادات الحبال فوقعت السّلال عليها وحبستها تحتها وجاءت الجدّتان. وانحنت كلتاهما أمام الفخّ الأوّل وفتحت جليبه غطاء السّلّة وأخرجت منها طائرا وأعطته إلى فجري سادات فباشرت التّدقيق في ريشه. واكتُشفت سبعة أنواع جديدة فوضعنها في سبعة أقفاص مختلفة وحملنها إلى مكتب أغاجان.

وعندما عاد أغاجان مساء توجّه مباشرة إلى مكتبه حيث كانت فجري سادات تنتظره.

- كيف كان يومكن؟ هل اصطدتن طائرا مميّزا ما؟

- إنّها طيور رائعة وقد رأينا كثيرا منها عن قرب اليوم، أجابته فجري سادات.

- أنا أتوق إلى رؤيتها، أين الجدّتان؟ قال لها.

- لن تتأخّرا.

بقي أربعتهم يعملون حتّى ساعات الصّباح الأولى. ذهبت جلبانو لإحضار أحد الطّيور في قفصها وغطّت رأسه بقلنسوّة سوداء حتّى لا يرعبه الضّوء وليظلّ هادئا فوق الطّاولة. ودرس أغاجان جناحي الطّائر وريشه بانتباه.

Twitter: @ketab_n

«هذا الطّائر لديه ريش رائع ولكنّه ليس مميّزا للأسف، قال أغاجان ذلك وهو يُري فجري سادات الرّسومات برأس قلمه.

- تعاليا وانظرا أنتما أيضا، قال للجدّتين.

وضعتا نظّارتيهما واقتربتا لرؤية الرّيش.

«الألوان مختلفة، ولكنّي سبق وأن رأيت هذه الزّخرفة، قالت جلبانو.

وأخذتا هذا الطّائر من يدي أغاجان وأعادتاه إلى قفصه ثمّ مدّتا إليه طائرا آخر.

«آه، هذا الرّيش خلّاب، هل رأيتنّ هذه الزّخارف هنا؟ هذه الخطوط الخضراء والحمراء المتداخلة، من المؤكّد أنّ رسّامينا سينجحون في الاستيحاء منها».

فحصت فجري سادات الرّيش بعدسة مكبّرة، وقالت «هذا ريش مميّز فعلا، وقد زاد البريق من جماله. كيف يكون لكلّ واحد من هذه الطّيور ريش مختلف عن غيرها، ولكلّ منها زخارف مميّزة».

نظر أغاجان بعدسة فجري سادات وقال «ضعي هذا جانبا»

ثمّ دقّقوا في ريش طائرين آخرين ولكنّهم لاحظوا أنْ لا شيء مميّزا فيهما، فأحضرت الجدّتان الطّائر الموالي، وتبيّن فورا أنّه كان فريدا. ولم يهدأ الطّائر فقالت جليبه «هذا طائر قويّ وريشه أكثف من ريش باقي الطّيور، انظر».

- هذا طائر غير عاديّ بالفعل، تلمع الزّخارف على ريشه مثل لآلئَ زُرْقٍ صغيرة، قالت جلبانو.

- لقد نظرت إليه على ضوء النّهار، ولكنّه يبدو أجمل هنا على الضّوء الاصطناعيّ، قالت فجري سادات.

- إنّه تحفة فنيّة، قال أغاجان. ما مصدر كلّ هذا الجمال؟

أخذت فجري سادات قلمها ونظرت في عدستها المكبّرة وبدأت تنقل الزّخارف الصّغيرة المرسومة على ريش الطّائر. وعندما أنهت ذلك، وضعت الجدّتان أمامها لوحة ألوان قديمة وريشة. ولم يكونوا مدركين بأنّهم فنّانون حقيقيّون. كانوا يعتبرون عملهم مواصلة لعادة عائليّة؛ عادة مرتبطة بالزّرابي والمغازة ذاتها. وكان ما يطمحون إليه هو تصميم أجمل

Twitter: @ketab_n

الزّرابي في البلاد والشّرق الأوسط أيضا. واعتبروا ذلك واجبهم فلم يطمحوا إلى أكثر من ذلك.

نقلت فجري سادات الزّخارف إلى أوراق وحاولت أن تلوّنها بألوان الرّيش السّاحرة مستعينة بريشة دقيقة الرّأس وتوجيهات الجدّتين.

وقالت جليبه «جرّبي هذا اللّون يا فجري، الأزرق الدّاكن قرب الأخضر، لا تخلطيهما، ارسمي خطّا رفيعا فوق الأزرق».

وفعلت فجري سادات ما طلبته الجدّتان منها بالضّبط. ثمّ أضافت «ولكنّي أريد أن أحصل على هذا الانعكاس البنفسجي. ماذا نفعل لنعطي الزّربيّة هذا الانعكاس البنفسجيّ بالصّوف؟».

- من المستحيل رسمه بالدّقّة ذاتها على اللّوحة، قال أغاجان. لا نستطيع أن نحصل من الألوان على النّتائج ذاتها على الورق وعلى الصّوف.

- ائتيا برزم من الصّوف، قالت فجري سادات للجدّتين.

ذهبت الجدّتان إلى غرفة الزّرابي، وعادتا تحملان بعض رزم الصّوف ووضعتاها على الطّاولة.

«أعطني خيطا من هذا الصّوف الأزرق».

- أظنّ أنّك لن تحصلي على نتيجة بخيط واحد، قال أغاجان، عليك أن تستعملي حفنة من هذه الخيوط الزّرق وتنسّقيهم مع الخيوط الحُمْر.

ووضع كميّة من الصّوف الأزرق على الطّاولة وأخذ ينسّق الخيوط الحمر مع الزّرق.

- أرأيتِ؟

- لا، أجابت فجري

- انتظري، قالت جلبانو وهي تمزج خيوطا حُمرا إضافيّة مع الصّوف الأزرق.

- والآن؟

- يبدو هذا مناسبا جدّا، قالت فجري.

Twitter: @ketab_n

– لن نستطيع أن نستنسخ هذا العمل هنا على هذه الطّاولة لأنّ ذلك لن يظهر إلّا على الزّرابي. وعندما تُعقد آلاف الخيوط الحمر على الخيوط الزّرق، فإنّ انعكاس البنفسجيّ يبرز بشكل طبيعيّ. وقد كان الأمر على هذه الشّاكلة دائما. انظري إلى الرّيش بالعدسة المكبّرة مرّة أخرى، من قريب لا نرى إلّا ريشا أزرق باهتا وعشرات الرّيشات الحمر وبعض الرّيشات الخضر، ويصدر عنها انعكاس طبيعيّ، قال أغاجان.

وتبادلوا النّظرات في صمت ثمّ قال أغاجان «لا أستطيع أن اعبّر عن سعادتي بعد، ولكن أظنّ أنّنا توصّلنا إلى نتيجة ما».

أنهت فجري سادات الرّسومات ورتّب أغاجان ما دوّن من ملاحظات، وأعادت الجدّتان رزم الصّوف إلى القبو ثمّ رتّبتا المكتب.

وكانت زينات تهتمّ بالمطبخ عندما تكون باقي النّساء منشغلات. فجاءت إلى المكتب وقدّمت الأطباق إلى الجدّتين ثمّ رافقت بقيّة العائلة إلى قاعة الطّعام. وكانت تحكي لهم الحكايات لتبعث الهدوء في الدّار. ينشدّ الجميع إلى كلامها ويسعدها انتباههم إلى ما ستقوله. ويطلبون منها أن تحكي لهم قصّة ما. فكان فنّ الحكاية يتحسّن عندها باستمرار.

عندما انبعث نور الفجر في الدّار في اليوم التّالي باشرت الجدّتان كنس الباحة ثمّ حملتا الطّيور إلى مقربة الحوض، فأطعمتاها وجعلتاها تشرب في الحوض ثمّ قبّلتا رؤوسها وأطلقتا سراحها.

حلّقت الطّيور فوق المسجد راسمة نصف دائرة ثمّ اتّجهت نحو الجنوب، مختصرة الطّريق للّحاق ببقيّة الطّيور.

إذا طارت دون توقّف فستبلغ الخليج العربي في مساء اليوم ذاته، وجوّ الخليج حارّ تتجوّل في مائه أسماك القرش مثل القوارب الغريبة.

Twitter: @ketab_n

جانشين

شفتاي المتعطّشتين
تبحثان عنك
حلّ عنّي أدثرتي
خذني بين يديك
هاتان شفتاي
هذا جيدي ونهداي المشتعلان
هذا جسدي الملتهب

أخفى أغاجان القصيدة في دُرج مكتبه في البازار، بعد أن كان قد احتفظ بها لوقت طويل في جيبه الدّاخليّ. في مرّات كثيرة كان سيلقيها في سلّة المهملات ولكنّه لم يفعل. ورغم أنّ هذه القصيدة مدنّسة فإنّ شيئا ما قد دفعه إلى قراءتها مرّات ومرّات. وقد نُقشت كلماتها في ذاكرته رغما عنه، إلى درجة أنّه قد حفظها عن ظهر قلب.

هو يحفظ عشرات من القصائد القديمة، ولكنّ هذه القصيدة كانت نوعا مختلفا لم ينفكّ عنه، واسترجع كلماتها على لسانه دون انقطاع. كيف تجرؤ امرأة على كتابة هذه الأشياء؟ ما اسمها؟

كانت الشّاعرة تسمّى فروغ فرغزاد. وكانت في هذه الفترة تتمتّع بشهرة كبيرة في طهران. وهي امرأة شابّة وجميلة أسالت في بداياتها الأدبيّة كثيرا من الحبر وأحدثت إحدى قصائدها رجّة في عالم الشّعر التّقليديّ الموزون.

نظرتُ إلى عينيه
حيث اختبأ سرّ
قلبي، تحت نظراته المتضّرعة
خفق مستسلما.

Twitter: @ketab_n

اللّه يا اللّه
شفتاه تدفعان
الرّغبة في شفتيّ

وقلت: أصبو إليك
آه، يا إلهي!
لقد خطئت

جسدي العاري
يغوص في مخدعه النّاعم
ذائبا
على صدره

تباهى كثير من النّاس بها مثل نجمة جديدة تضيء سماء الشّعر الفارسيّ، واعتبرها آخرون بغيّا تبيع جسدها على الأسرّة مثلما تفعل على الورق.

وفي قمّ، انتهر أحد آيات اللّه النّاشر الّذي نشر كتابا فاضحا مثل هذا بكلمات حادّة. ووظّفها في إحدى خُطبه ليبيّن أنّ أُجراء النّظام يفكّكون، بهذه الطّريقة، أسس الإسلام.

«إنّهم يهينون نساءنا، قال بصوت رنّان. لم تعد بناتنا في مأمن في هذه البلاد الغارقة في الكبائر».

لم تكن طهران حسّاسة لهذا الموضوع، إذ لها أجندتها الخاصّة. كانت الصّحف تعجّ بهذه الأشياء ومثيلاتها، وفي دور السّينما كنّا نرى على الشّاشات نساء ناتئات الصّدور في ملابس داخليّة قصيفة.

وكانت فرح ديبا تفتتح كلّ يوم ناديا ثقافيّا جديدا، حيث ترقص لها فتيات عاريات الأرجل، وتقرأ عليها نساء قصائد تتحدّث عن أجسادهنّ.

أخرج أغاجان قصيدة فروغ، وكان قد خبّأها تحت الأوراق القديمة الموجودة في درج مكتبه، وقال في نفسه «في الواقع، هذه القصيدة يجب أن تحفظ في سجلّ تاريخ المسجد، سأضعها في ملفّي» وفي ذات اللّحظة طُرق الباب ودخل خادمه وسأله: «لقد جاء الإمام، هل أدخله؟».

Twitter: @ketab_n

تذكّر أغاجان موعده مع جانيشين، المعوّض المعتاد للإمام. فوضع القصيدة في الدّرج وقال «أدخله». وكانت هذه المرّة الأولى الّتي يستقبل فيها أغاجان الإمام في مكتبه بالبازار.

ناهز عُمر الإمام خمسين سنة، وقد شابت أصداغه ولحيته. ولا تدلّ هيئته على أنّه إمام ريفيّ.

«اجلس» قال أغاجان مشيرا إلى كرسيّ أمام مكتبه.

جلس الإمام باحتشام وأخفى يديه في ثيابه. وجلب إليه الخادم الشّاي في طبق فضيّ وقدّم إليه قطع شكولاطة في علبة فخمة ملوّنة.

أخذ الإمام قطعة، ووضعها مباشرة في فيه ولاكها بعناية.

بدا خجلا من الغرفة ذات الهيئة الملكيّة المؤثّثة بمقاعد جلديّة وثيرة وبكراس عتيقة، وبمشكاة من الكريستال وبطاولة كبيرة للمهمّات كان يجلس إليها أغاجان؛ سيّد كلّ دور الزّرابي في القرى والمدينة. أمّا هو فهو الإمام الرّسميّ لمسجد في قرية جبليّة؛ قرية جيرجه. كان أغاجان يثق فيه. في الماضي عندما يمرض الصّابري أو يسافر، يأتي جانشين لتعويضه، ولكنّ ذلك كان يحدث لوقت قصير. والآن بما أنّ جلجل قد هرب فإنّه من المرجّح أن يبقى لفترة طويلة. وقد بعث أغاجان سيّارة جيب تبحث عنه مباشرة بعد رحيل جلجل، وفي مساء مقدمه ذاته، أَمَّ الصّلاة.

خلال إقاماته الماضية كان ينام في صالون المسجد، ولكن بما أنّ إقامته ستطول هذه المرّة، فإنّه سيحتاج إلى راحة أكبر ولهذا طلب منه أغاجان المرور به.

«كيف حالك؟ سأله أغاجان

- بخير والحمد لله.

- وكيف حال عائلتك؟ زوجتك وأبنائك، ألا يقلقون لتغيّبك فترة طويلة؟

- النّساء لا يتذمّرن، ولكنّي سأذهب إليهم في يوم محدّد بانتظام.

- هل أنت راض عن المسجد؟

- أنا راض.

وطُرق الباب «ادخل».

Twitter: @ketab_n

ودخل الغرفة سبعة رجال من أعمار مختلفة يلبسون بدل التّقطير ويضعون نظّارات. كانت أيديهم وملابسهم مبقّعة بالدّهن. ووضع أكبرهم على الطّاولة ورقة ملوّنة رسم عليها تصميم زربيّة وقال «هذه أوّل نتيجة: أنت ترى أنّ البنفسجيّ يغشى الرّسم مثل ضباب خفيف، ولكنّنا نظنّ أنّ أثره في الزّربيّة سيكون أجمل».

تملّى أغاجان في الرّسم بينما انحنى الرّجال السّبعة وحدّقوا معه.

«هذا خارق للعادة، لم أتوقّع نتيجة كهذه، وهذا بالضّبط ما تخيّلته في ذهني. لا أطيق الانتظار أكثر، إذا كان وقتكم يسمح سأسجّله هذا الظّهر. هل ستأتون؟ فقال الرّجال «سنفعل ما بوسعنا» وخرجوا من المكتب.

«اعذرني، قال أغاجان للإمام، كنت أنتظر هذا التّصميم بفارغ الصّبر منذ أسابيع. هؤلاء الرّجال السّبعة هم رسّاميّ، وهم فنّانون مقتدرون، إنّهم سحرة. وهم مشهورون في كلّ الشّرق الأوسط. والزّرابي الّتي يصمّمونها تقدّر بالذّهب. حسنا لنعد إلى موضوعنا، تريد أن تقضّي عندنا فترة طويلة إذا؟».

- أجل.

- هل تعلم أنّ هذا قد يدوم حوالى سنتين لأنّ ابن الصّابري لن ينهي دراسته للإمامة عمّا قريب؟

- أعلم ذلك، وهذه فرصة فريدة بالنّسبة إليّ. لطالما وددت أن أصير إماما في المدينة، ولكنّي ما قدرت على تحقيق هذا الحلم. وأنا مسرور لحصولي على هذه الفرصة الفريدة، ولكنّي لن أقدر على ذلك لولا مساعدتك.

- لا تشغل بالك، سأساعدك.

- قصدت، إذا أردت، فخطب القرى ليست هي ذاتها خطب المدن. ففي القرية نتحدّث عن الحياة اليوميّة؛ عن الأبقار والعلف. وفي المدينة يجب أن نثير مواضيعَ كبرى، السّياسةَ مثلا. أعتبر الحديث في هذه المواضيع مهمّا، وأستطيع التّعبير عنها بعمق في حضور أشخاص مهمّين. وسأرفع في نبرة صوتي، أريد أن يتابع الحضور خطبي بإعجاب.

ابتسم أغاجان، لقد أدرك رغبة الإمام، ولكنه في حقيقة الأمر، لم يره قادرا على ذلك. فهيئته لا تسعفه بذلك، وكلماته تفتقد إلى السّلاسة ولا يمتلك أيّة مهابة. لقد كان

Twitter: @ketab_n

إماما قرويّا ذا يدين عريضتين وجبهة عالية. يجب أن يكون مثل جلجل ليؤمّ الشّيوخ ويؤمّ النّساء الشّابّات.

«سيكون ذلك، قال أغاجان، ولكن في هذه الفترة المتحرّكة الّتي عقبت موت الصّابري وهرب جلجل، لن أغضب إذا رأيت الهدوء يعود إلى المسجد. تستطيع هنا أن تتحدّث براحة عن الأشجار والنّباتات وعن تجربتك في القرية، فهذه المواضيع تجذب سكّان المدينة كثيرا. كن على سجيّتك، وسيأتي كلّ شيء بطبعه».

ابتسم الإمام وحنا رأسه على صدره.

– أنا أتكلّم بجدّيّة، قال أغاجان، أنا أتشوّق لأعرف عمّا ستخطب مساء هذا الخميس. تحدّث مثلا عن جيرجه، عن الجبال، عن أشجار اللّوز، عن الظّباء الجبليّة المميّزة وعن الزّعفران. وإذا كانت لك أيّة استفسارات تستطيع أن تطلب من الحارس أن يخبرني. لقد طلبت منه أن يهتمّ بكلّ شؤون إقامتك. هل من شيء آخر ترغب في معرفته؟

– لا شيء، لا شيء حقيقة.

ودخل الخادم ليقود الإمام إلى الباب.

وفي المساء عندما كان أغاجان مستلقيا قرب فجري سادات انفجر ضاحكا فجأة.

«ماذا يُضْحِكُك؟» سألته فجري سادات.

– لا شيء، كنت أفكّر في الإمام. إنّه رجل بسيط وطموح؛ إلّا أنّه لا يعرف كيف يحقّق أحلامه.

– وهل هذا سبب لتسخر منه؟

– لا أبدا، أنا أثمّن رغبته في التّعلّم. ولكنّ المشكل أنّ يديه ضخمة وعضلاته مفتولة.

– لا يحقّ لك أن تصفه هكذا، قالت فجري سادات باسمة.

– أنتِ محقّة، ولكنّي أتحدّث عن تجربة، لا بد من وجود مضمون، فجسد فارغ لا معنى له، يجب أنْ يحوي روحا. لم آت بشيء من عندي، فقد أمال عمامته وأعلن «سأصعّد من نبرتي»، قال أغاجان وهو يضحك ضحكة جهوريّة.

– أنت تسخر منه، قالت فجري سادات.

Twitter: @ketab_n

– قلت لك كلّا، أنا لا أسخر منه، بل أشعر بسعادة لأنّ كلّ شيء سار كما أرغب. المسجد بخير، وأعمالنا بخير، وقد أُنجز التّصميم الجديد، إنّه خلّاب. وقد تلقّيت عددا من العقود الجديدة والبازار ينتظر زرابيّنا الجديدة بفارغ الصّبر. كلّ النّاس يريدون أن يشتروا منها. أمامنا سنة مزدهرة. وكلّنا بصحّة جيّدة، فماذا تريدين أكثر من هذا؟

ثمّ استدار نحو فجري سادات ووضع راحتيه على صدرها وقال «وعندي أنت، وأنا الآن أتشوّق إليك. فماذا يبتغي رجل مثلي أكثر من هذا؟». دفعت فجري سادات يده بلطف واستدارت على جنبها مقابلة إيّاه بظهرها. فمرّر يده تحت قميص نومها وداعب ردفيها وهمس «انزعي عنك كلّ شيء، أريدك عارية».

دسّت فجري سادات رأسها تحت الغطاء وقالت «هل جُننت؟ ماذا أكل مولاي حتّى رغب في رؤيتي عارية؟».

مرّر يده بين فخذيها الدّافئتين وهمس:

شفتاي المتعطّشتين
تبحثان عنك
حُلّ عنّي أدثرتي
خذني بين يديك
هاتان شفتان
هذا جيدي ونهداي المشتعلان
هذا جسدي الملتهب

«ماذا تقول؟» سألت فجري سادات مذهولة. دفعت الدّثار واستدارت على قفاها.

– هذه قصيدة حديثة، قال وهو يقبّل جيدها وينزع عنها ثيابها برقّة. ثمّ أدارها على ظهرها وتمتم سأتلو القصيدة، فهلّا أعدت تلاوتها عليّ؟

– لن أفعل ذلك. أنت تخيفني. فيم ترغب؟

– أرغب فيك، أنتِ.

وأطبقت فجري سادات جفنيها.

Twitter: @ketab_n

زينات

«وأحبّ الله ما خلق، أحبّ النّجوم ومجرّته وشمسه وقمره، وأرضه خاصّة.

افتخر بالأرض وأراد أن يسكنها هو نفسه. ولكن كيف السّبيل إلى ذلك؟ كيف يستطيع أن يسكن الأرض؟

وذات ليلة خامرته فكرة رائعة. طلب من رسوله جبريل أن يذهب إلى الأرض ليحضر له منها طينا.

وذهب جبريل لإحضار الطّين.

وخلق الله الإنسان كما أراد. وطلب من الرّوح أن تدخل إلى الجسد ولكنّ الرّوح رفضت. أحسّت أنّها أنبل من أن تحُلّ في جسد من طين.

وطلب الله من جبريل أن يتدخّل، فقال جبريل «ادخلي الجسد». ورفضت الرّوح.

فقال جبريل «ادخلي الجسد باسم الله»

- الآن وقد ذُكر اسم الله، سأطيع.

ودخلت الرّوح الجسد على مضض. وعندما بلغت صدر الإنسان انتصب فجأة، ولكنّه لم يستطع أن يثبت متوازنا فوقع.

فقال الله لجبريل مبتسما «إنّه غير صبور»

وسمّاه الله آدم.

وجلس آدم في مكانه سبعة أيّام منتظرا. وبعث الله إليه كرسيّا من الذّهب الأحمر مرصّعا بالأحجار الكريمة وثيابا من حرير وتاجا، فارتدى آدم الثّياب ووضع التّاج على رأسه وجلس على الكرسيّ.

Twitter: @ketab_n

وحملت الملائكة آدم وكرسيّه على أكتافها ونزلت به إلى الأرض.

وقد حدث هذا بعد خلق الأرض بألف ومائتين وأربعين سنة».

روت زينات هذه القصّة مساء أربعاء، وقد كانت العائلة مجتمعة، فاستمعت إلى القصّة بإعجاب.

كانت أمسيات الأربعاء مخصّصة لسرد الحكايات. وفي هذه الأمسية تناول أهل الدّار الطّعام مجتمعين ثمّ استمعوا إلى ما روته زينات من حكايات.

ووزّعت الجدّتان أكوابا صغيرة من اللّوز وأشعلتا شموعا وأطفأتا النّور. وكشفت زينات خانم أنّها وُلدت راوية. يشدّ دفء صوتها الانتباه وتروي حكايات قرأتها في كتب قديمة، خاصّة تلك الكتب الّتي تقدّم تفسيرا مفصّلا لسور القرآن. فالقرآن كتاب اختزالي وإيحائيّ ولا تتعرّض قصصه إلى التّفاصيل أبدا. فدُوّنت كتب كثيرة أسهبت في تفسير القصص الغامضة في القرآن وكانت زينات تستمدّ قصصها من هذه الكتب.

زينات امرأة هادئة الطّبع، وتبدو كالذّاهلة. ولم يكن أحد يعرف أنّها تمتلك موهبة سرد القصص إلى أن جاء يوم حكت فيه قصّة قصيرة من حفظها لمجموعة من الأطفال.

انعزلت زينات في غرفتها بعد غرق ابنها عبّاس. ولم تعاود الخروج من عزلتها شيئا فشيئا إلّا بعد أن حملت بابنتها صادقة، وصارت تظهر في الباحة الدّاخليّة وتذهب إلى المطبخ لتساعد الجدّتين.

وبعد ولادة صادقة صارت تخاف كثيرا إلى درجة أنّها لم تعد تستطيع النّوم. فلم تكن الجدّتان تفارقانها للحظة في تلك الفترة، تعتنيان بها وتظلّان قربها إلى أن تنام.

وعندما أنجبت أحمد عادت إليها مخاوفها. وفي أحد الأيّام وضعت أحمد على ركبتي جلبانو وقالت لها «اعتني به جيّدا فأنا أخاف أن أفقده. سأذهب إلى المسجد. أريد أن أصلّي». ومنذ ذلك اليوم صارت تذهب إلى المسجد كلّ يوم بإخلاص.

قضّى الصّابري أغلب أيّامه في المكتبة ولم يهتمّ بحياة زوجته أو أبنائه قطّ. وكان أبناء زينات يعتبرون أغاجان رجل الدّار ولهذا كان جميعهم يناديه «أبي». وبعد موت الصّابري صارت زينات تقضّي معظم وقتها في المسجد. ظنّ أهل الدّار كلّهم أنّها ستعتكف في المكتبة حدادا على زوجها، ولكنّها صارت تذهب إلى هناك لتهيّئ نفسها لمرحلة جديدة في حياتها.

Twitter: @ketab_n

كانت تجلس وحيدة في البداية معظم الوقت، ثمّ تعرّفت على نساء أخذنها إلى حلقاتهنّ الدّينيّة.

وبعد موت زوجها صارت زينات خانم كمن قام بتجربة مثيرة للفضول. صارت كمن تخلّص من شيء لا يدري أحد ما هو. كانت في ما مضى مثل بالون مربوط بخيط علق في غصن شجرة. ولكنّه عندما تخلّص من الشّجرة طار عاليا في السّماء. وكان إحساس زينات رائعا ومقلقا في الوقت ذاته. فكانت تأخذ أبناءها في العطل الطّويلة إلى الجبال عند والديها باحثة عن الرّاحة.

لم تعتبر زينات الصّابري رجلا فعليّا؛ زوجا، فقد كان إمام مسجد أكثر من كونه أبا لعائلة.

ولم يكن زواجها زواجا موفّقا مقارنة بفجري سادات. فلم تتمتّع بحياة عائليّة بل كانت امرأة أنجبت للدّار خليفة للإمام.

كانت فجري سادات تمتلك أغاجان وتعيش حياة حقيقيّة. وكانت زينات تسكن في الطّابق العلويّ أيضا. وعندما كانت تمرّ في ساعات متأخّرة من اللّيل من أمام غرفة فجري كانت دائما ما ترى أغاجان نائما قربها على الضوء الأصفر البرتقالي المنبعث من قنديل السّرير.

ولم يكن الصّابري ينام قرب زينات قطّ إلّا عندما يكون راغبا فيها. ولم يكن ذا رغبة في معظم الأوقات. وبعد ولادة أحمد لم يلقها في السّرير قطّ.

وقبلت زينات أن تكون فجري سيّدة الدّار. وكانت نساء التّجّار يستقبلنها كالأميرة، وما كانت منهنّ من تهتمّ بزينات.

فجري هي المرأة الّتي تستقبل الطّيور وتقاسم الآخرين سرّ الزّرابي، بينما تظلّ زينات في المطبخ لتعدّ طعام فجري.

ووُزّعت الأدوار على هذه الشّاكلة دائما، ودون إرادة زينات. فقبلت هذا الوضع ووجدت راحتها في الصّلاة. وكانت تدرك أنّ الحياة لن تستمرّ على هذا النّمط إلى الأبد. وأيقنت أنّه سيأتي يوم يقول فيه الجميع «ها هي ذي زينات».

شاركت زينات في الحلقات الدّينيّة في البداية تلميذة ثمّ صارت قطبا لحلقة نساء

Twitter: @ketab_n

متديّنات كانت تعتني بهنّ وتفسّر لهنّ النّصوص المقدّسة. فائتمنّها على أسرارهنّ والتزمن بنصائحها.

وسُرّت بوضعها الجديد ولكنّها لم تجد السّلام الكامل بعد، فاستمرّت باحثة عنه.

وبعد ظهر أحد الأيّام عند عودتها من الحمّام دخلت المسجد. كان الوقت متأخّرا ولم يكن يوجد أحد عادة في تلك السّاعة. دخلت قاعة الصّلاة فكانت فارغة، ثمّ خرجت. غسلت يديها في الحوض ورشّت الماء على وجهها.

ماذا تفعل في هذه السّاعة غير المناسبة من الظّهر ولمّا يحن وقت صلاة العصر بعد. لمَ غسلت يديها من الحوض؟ هي لم تفعل ذلك من قبل قطّ في كلّ السّنين الّتي كان فيها زَوجها إمام المسجد. ولم يكن اغتسالها ضروريّا إثر عودتها من الحمّام.

وخرج الإمام المعوّض السّاكن في المسجد إلى الباحة. وأحسّت به وراءها فانتفضت.

«السلام عليكم زينات خانم»، قال لها.

وردّت زينات السّلام دون أن تلتفت. ونشّفت وجهها بتشادورها وركضت إلى الشّارع المكتظّ بالنّاس هاربة من أفكارها الآثمة.

وفي اللّيل فكّرت في الإمام وهي ممدّدة في سريرها رغما عن إرادتها. غالبا ما يحدث لها هذا، ولكنّ التّفكير كان أعمق هذه الأمسية ولم تكن قادرة على صرفه عنها. هي المرّة الأولى الّتي تفكّر فيها في رجل آخر. منذ عامها السّادس عشر كان الصّابري الرّجل الوحيد في حياتها. وقد كرّستها له حتّى أنّها لم تكن تبصر رجالا غيره. ولكي تطرد الإمام المعوّض من فكرها دسّت رأسها تحت الأغطية وهي تردّد

قُل أعوذ بربّ النّاس
ملك النّاس
إله النّاس
احمني
احمني
احمني
احمني من شرّ
الوسواس الخنّاس

Twitter: @ketab_n

إنّه جنّ

إنّه جنّ

إنّه جنّ

ملك النّاس

احمني

احمني

ولكن ما أن توقّفت حتّى ظهر لها الإمام من جديد قرب سريرها. ونظر إليها، ثمّ تسلّلت نظراته من وجهها إلى صدرها.

ولم يكن الصّابري ذاته قد نظر إليها هذه النّظرة قطّ.

غطّت زينات صدرها بيديها وتمتمت بكلمات؛ كلمات ربّما كانت مطلع قصيدة جميلة؛ كلمات صدرت عن قلبها مباشرة. لم تكن تعرف قصائد الشّاعرات اللّواتي قلبن طهران رأسا على عقب مؤخّرا؛ قصائد تتحدّث عن مشاعرهنّ وأجسادهنّ. ولو عرفت لأخذت قلمها فورا ودوّنت كلماتها الخاصّة:

سيأتي شخص ما

سينظر إليّ

ويسألني:

هلّا نزعت عنك تشادورك

من أجلي وحدي؟

هلّا أريتني

شعرك؟

لم تعرف زينات متى دخل الإمام إلى أفكارها بالضّبط. كانت تلتقي به وتتحدّث معه في النّصوص الدّينيّة، وتسأله رأيه في ما استعسر عليها من الأسئلة الّتي تطرحها عليها النّساء. وكان الإمام يستقبلها في قاعة الصّلاة بعد الصّلاة ويقدّم لها النّصائح ويتأنّى في الإجابة عن أسئلتها. وغالبا ما كانت تلتقي به خارج المسجد عندما يخرج ليتنزّه في الباحة الدّاخليّة للمسجد مدخّنا سيجارة.

Twitter: @ketab_n

لم تكن تبحث عنه ولكنها كانت تلتقي به في كلّ مكان وكأنّه يعرف وقت ذهابها إلى المسجد. فكانت تراه ما إن تدخل إلى أحد الممرّات المظلمة.

عندما كانت تمرّ من أمام حجرته في بعض الأحيان كانت تلاحظ أنّ باب غرفته موارب قليلا ويظهر جالسا على كرسيّه يقرأ القرآن دون عمامة. لم تكن ترغب في النّظر إليه ولكنّها ما كانت تقدر على مقاومة التّجربة، فكانت تختلس النّظر إليه وتباغتها نظراته دوما. وكانت تشعر بأنّه يتعمّد فتح الباب من أجلها.

كان التّحدّث إليه مرخّصا لها لأنّه صار الآن إمام مسجدهم وهو يعوّض زوجها المتوفّى وابنها أحمد وهو يدرس الإمامة في قم. ولم تكن الوحيدة الّتي تزوره في غرفته فقد كانت نساء أخريات يفعلن الشّيء ذاته؛ إذ من مهامّ الإمام استقبال النّساء والاستماع إليهنّ وإرشادهنّ.

ولكنّ زينات قد لاحظت منذ لقائهما الثّاني أنّه قد تعمّد التّعطّر من أجلها بعطر يسمّى عطر مكّة. وقد تعرّفت إلى هذه الرّائحة لأنّ زوجها المتوفّى كان قد أحضر زجاجة من هذا العطر هو أيضا من مكّة. وهو عطر لا يُستعمل إلّا في المناسبات الكبرى.

يجلس الإمام على كرسيه وتجلس زينات قبالته ويظلّ الباب مواربا قليلا، وكان هذا دأبه كلّما زارته امرأة. تحدّثنه النّساء عن مشاكلهنّ الخاصّة وتبحن له بأسرار لا يخبرن بها أحدا حتّى أزواجهنّ أو أطبّاء عائلاتهنّ. أمّا زينات فكانت تأتيه لتراجع معه نصوصا لم تكن تفهمها.

وذات أمسية زارته مرّة ثانية في غرفته بعد الصّلاة لتسأله عن بعض آيات سورة العاديات. لقد فهمت السّورة ولكنّها كانت تحسّ، تشعر بأنّ في السّورة معنى باطنيّا لا تفهمه ولا تستطيع إدراكه.

وعندما جاء الإمام ليجلس قبالتها كعادته وضعت القرآن على الطّاولة وبحثت عن سورة العاديات ودفعت الكتاب نحوه فوضع الإمام نظّاراته وتتبّع الآيات بإصبعه.

«هلّا تفضّلت بقراءتها، قال وهو يدفع الكتاب نحوها بلطف. أريد أن أسمعها بصوتك».

بدأت زينات تقرأ السّورة في تردّد

Twitter: @ketab_n

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا [1]

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا [2]

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا [3]

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا [4]

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا [5]... [سورة العاديات]

«أنت على حقّ، قال الإمام، في السّورة معنى خفيّا. الآن وقد سمعتك ترتّلينها فهمت قصدك. صوتك يشدّ انتباهي ويدفعني إلى التّفكير مليّا. أنتِ لستِ امرأة عاديّة، ويندر أن أصادف نساء مثلك. كنت أنصت إليك وأركض في الوقت ذاته مع تلك الجياد السّريعة المندفعة الّتي يتطاير الشّرَرُ من سنابكها. لقد قرأتُ هذه السّورة مرّات كثيرة ولكن هذه أوّل مرّة أتأمّلها بعمق، والفضل في ذلك يعود إليك».

امتصّت زينات كلماته كما يمتصّ رمل الصّحراء قطرات مطر مفاجئ. وأثّرت فيها جملته الأخيرة. وفي اللّيل ظلّت تفكّر فيه في سريرها «الفضل يعود إليك»».

أحسّت دفئا وفتوّة في كلامه «أنت تقودينني مع الجياد السّريعة الّتي يتطاير الشّرر من سنابكها».

أشعلت النّور وجلست أمام المرآة ونظرت إلى شعرها: لم يعد أسود ولكنّه لم يشب بعد. ونظرت إلى حاجبيها: مازالا سوداوين، وكانت عيناها النّجلاوان متعبتين ولكنّهما في هذه اللّيلة أشعّتا ببريق غير مألوف. تحسّست وجهها بطرف أصابعها ووضعت يدها على شفتيها. قد تكون كبرت ولكنّها تريد أن تبدأ من جديد. وهي ترى إمكانيّة استعادة سنوات ضاعت في هذه الدّار.

ومنذ ذلك الوقت لم تذهب زينات لزيارة الإمام وتحاشت أن تنظر إليه كلّما التقت به إلى أن خاطبها ذات يوم في الظّلمة قائلا «زينات خانم، لمَ لمْ تعودي تأتين إلى غرفتي. أنا أفكّر في أسئلتك دائما».

بعد ثلاثة أيّام كانت زينات جالسة من جديد قبالة الإمام تحدّثه عن تأويلها لآية قرآنيّة. نظر إليها في صمت ثمّ قاطعها قائلا بهدوء «زينات خانم، عندما تحدّثينني تبرق عيناك، تضيئان مثل شمعتين في اللّيل، أقصد عندما تؤوّلين القرآن».

Twitter: @ketab_n

بدت زينات كمن لم يسمع ما قاله وواصلت تأويلها رغم أنّها لم تعد قادرة على التّركيز. ولم يضف الإمام شيئا بل تصرّف كأيّ إمام تجلس أمامه امرأة ما وتحدّثه عن مشاكلها. أدرك أنّ عليه أن ينتظر وقتا إضافيّا حتّى تقبل أن تسمع بقيّة كلامه. إلّا أنّه لم ينتظر كثيرا، فبعد ليلتين التقى بزينات في الممرّ فقال لها «هلّا تفضّلت بالدّخول، لا شاغل لديّ هذا المساء، وأنا أشعر بالملل. هل أحضرت آية أخرى؟».

فجلست زينات وباشرت قراءة الآية الّتي جاءت بها، وأنصت الإمام إليها. ثمّ قال لها «لديك قدرة على فنّ الحكاية؛ فأنت تبثّين الحياة في العبارات الميّتة. أنا أسمع ذلك وأحسّه وأراه على شفتيك»، مشيرا إلى شفتيها حتّى كاد أن يمسّ شفتها السّفلى.

رتّبت زينات حقيبتها وسافرت لقضاء أسبوع في بيت والدها في جيرجه لتطرد خيال الإمام من فكرها. وفكّرت بعمق. لا ترغب في الارتباط بالإمام فهو متزوّج ولديه أبناء، ثمّ إنّه يخطب في المسجد الّذي سيخطب فيه ابنها بعد سنوات قليلة.

وعندما عادت إلى الدّار اتّخذت الأمور مسارا آخر.

كانت واقفة في البازار أمام واجهة محلّ مجوهرات عندما رأت فجأة صورة الإمام على البلّور. وقف وراءها وتمتم «زينات خانم، لقد اشتقت إليك. لقد ظلّ الكرسيّ الّذي تجلسين عليه في غرفتي خاليا».

ولم تقل زينات شيئا، بل إنّها لم تستدر له؛ كانت تنصت إليه وهو وراء ظهرها.

ورغم أنّ صوته كان محمّلا بسحر لا يقاوَم فقد ظلّت تتحاشى الذّهاب إلى المسجد لصلاة العشاء وصلاة الصّبح لمدّة يومين. ولكنّها لم تستطع الصّمود فترة أطول. انتظرت حتّى غادر الحارس بعد أن أغلق باب المسجد ثمّ تدثّرت بتشادورها وذهبت إلى المسجد عبر السّطح فمرّت أمام غرفة الإمام ودخلت قاعة الصّلاة.

«أهذه أنت يا زينات؟» قال الإمام بهدوء وهو يجلس في غرفته.

- نعم، جئت باحثة عن كتاب في المسجد.

- ادخلي إن أردت، لقد أعددت شايا للتّو».

تابعت زينات طريقها نحو المسجد وعثرت على الكتاب الّذي جاءت باحثة عنه فأخذته وعادت أدراجها.

Twitter: @ketab_n

«أسمع خطاك في اللّيل دوما» قال الإمام.

دخلت زينات إلى الغرفة وجلست على الكرسيّ ووضعت الكتاب على الطّاولة. فنهض الإمام وأغلق الباب بلطف وأدار المفتاح في القفل. وأشعل شمعة ووضعها على الطّاولة وأطفأ النّور.

وانتظرت زينات وهي جالسة على كرسيّها.

وذهب لإحضار قرآنه وبحث عن سورة «أنكحت»، وهي السّورة الّتي يقرؤها الرّجل عندما يريد أن يضاجع امرأة غير امرأته الشّرعيّة. فإذا قرأ سورة «أنكحت» وقالت زينات «قبلت» فإنّ له الحقّ، حسب ما يقوله الكتاب، أن ينزع عنها ملابسها في الحال[1].

بدأ يقرأ السّورة بصوت خافت فأغمضت زينات عينيها. وقال الإمام وهو ينحني إلى الأمام «أنكحت وزوّجت».

ولم تقل زينات شيئا. فأعاد الإمام كلامه بالنّبرة ذاتها، ولم تقل زينات شيئا.

«أنكحت وزوّجت»، قال للمرّة الثّالثة.

«قبلت» قالت زينات ببطء وتركت تشادورها يقع على كتفيها.

ووضع الإمام القرآن على الطّاولة ولمس شفتيها وداعب جيدها الدّافئ.

---

1 المعرّب: ليلاحظ القارئ أن لا وجود لهذه السّورة في القرآن، بل لا وجود لهذا التّصوّر في الإسلام أصلا.

Twitter: @ketab_n

الكعبة

ما إن تستفيق الجدّتان حتّى تدلفان خارجا، متسلّحتين بمرشّيهما ومكنستيهما. فتسكبان الماء على الأرضيّة وتكنسانها. لا تعرفان بالضّبط في أيّة سنّ ابتدأتا في كنس الرّصيف أمام المنزل، وهما تكنسان لأنّهما ترغبان في الذّهاب إلى مكّة. وهما تفعلان ذلك خفية.

يُعتبر الحجّ إلى مكّة حلم ملايين المسلمين، ولكن لم يكن كلّهم يستطيعون إليه سبيلا، وحدهم الميسورون يستطيعون ذلك.

لم تمتلك الجدّتان فلسا، ولم تفكّرا في المال قطّ، فهما لا تحتاجانه لأنّ الدّار تحوي كلّ ما تحتاجان إليه. ولكنّهما كانتا تعلمان منذ طفولتهما أنّ من لم يكن ميسورا وهام بزيارة مكّة فإنّه لا يمكن أن يبلغها إلّا إذا كنس، بثلاثة شروط: أوّلا أن تكنسا الرّصيف قبل طلوع الشّمس لعشرين عاما، وأمّا الثّاني فأن لا يراهما أحد خلال هذه المهمّة، وأمّا الثّالث فيجب أن لا يكتشف سرّهنّ أحد.

وفي اليوم الأخير يتجلّى نبيّ الله الخضر ليكافئهما. كان الخضر من أوّل الأنبياء وقد عاش قبل محمّد وعيسى وموسى وإبراهيم ويعقوب وداود.

وكانت معرفة كيف سيأخذهما الخضر سرّا بين النّبيّ الشّيخ والكانسات.

كنست الجدّتان لعشرين سنة، ولكنّ النّبيّ لم يأت. ربّما تكونان قد أخطأتا في عدّ السّنين، أو إنّهما ربّما غفتا فجرا ما وكنستا بعد فوات الوقت، أو إنّ أحدا ما قد رآهما واكتُشف سرّهما. ولهذا فقد ابتدأتا عشرينيّة جديدة من السّنوات.

قد لا يكون لذلك أيّ معنى، ولكن ما عساهما أن تفعلا غيره؟ إنّ هدف الحجّ إلى مكّة يُكسب حياتيهما معنى، ويمنحهما القوّة لتظلّا صامدتين، ويمنحهما أملا في أن تفيقا في يوم سعيد وهما متأكّدتان بأنّه لم يبق غير يوم لتنتظراه قبل تجلّي النّبيّ.

Twitter: @ketab_n

ووَفق حساباتهما فهما الآن في نهاية عشرينيّتهما الثّانية، ولكن لا علامة ولا أثر للنّبيّ.

في نهاية عشرينيّتهما الأولى كان لهما من القوّة ما يمكّنهما من زيارة مكّة. ولكن عندما باشرتا عشرينيّتهما الثّانية كانتا تدركان بأنّهما ستكونان عجوزين في نهاية هذه العشرينيّة ولن تكون لهما القدرة اللّازمة للحجّ. ولكنّهما واصلتا الكنس.

وبعد أيّام، وقد كانتا جالستين على أرضيّة غرفة الزّرابي، حزينتين. قالت جلبانو «إذا انتزع أحد ما المكنسة من يدينا فسنقع ميّتتين لتوّنا. ولكن من الآن فصاعدا لن نستطيع الكفّ عن الكنس. علينا أن نواصل. وعندما تخور قوانا سنزحف تجاه الباب.

– أظنّ أنّنا نخطئ في أمر ما كلّ مرّة، قالت جليبه، ربّما نكون قد أسأنا العدّ من جديد.

– هذا مستحيل. لقد وضعنا علامة على الحائط في كلّ السّنين. ألم تعدّيها؟ لقد تجاوزنا عشرين سنة منذ زمن.

– ربّما نكون قد أهملنا إحدى القواعد.

– أيّة قواعد؟ لا توجد قواعد. القيام باكرا والكنس وعدم الحديث إلى أيّ إنسيّ.

– أعتقد أنّي أعرف هذا.

– أنتِ تعتقدين في كثير من الأشياء، ماذا تظنّين؟

– لقد قامت كلتانا بخطأ فادح، قالت جليبه.

– أيّ خطأ؟

– لا يحقّ لنا أن نخبر أيّ مخلوق كان عن سرّنا.

– نعم، وكذا فعلنا.

– كلّا. لقد حكت كلتانا للأخرى عن سرّنا. أنا أعرف سرّك وأنت تعرفين سرّي. وهذا محجّر. لا يحقّ لي أن أعرف سرّك ولا يحقّ لك أن تعرفي سرّي. كان على كلتينا أن تتصرّف دون علم الأخرى.

– آه، كفاك، أتوسل إليك.

Twitter: @ketab_n

لقد قرّرتا أن تكنسا الرّصيف أمام الباب وأن تقابلا النّبيّ الخضر معا وأن تذهبا إلى مكّة معا، ولكنّ كلّ شيء قد تغيّر فجأة.

كانتا تجلسان حزينتين في غرفة الزّرابي، قائمتين في العتمة وكأنْ لا أحد يقدر على إنقاذهما. ووقعت المكنستان من يديهما.

لم تعودا بشرا وإنّما صارتا خيالين في غرفة الزّرابي المعتمة، ليس إلّا نعيب طائر الزّاغ يمزّق الصّمت. وظهرت قدسي المجنونة. وجالت بنظراتها في غرفة الزّرابي وقالت «لقد سمعت الجدّتين تتحدّثان، أين هما الجدّتان؟ آه، ألم أسمعهما؟ ولكن لقد سمعتهما بوضوح».

انتفضت الجدّتان وقامتا. إذا كانت قدسي المجنونة قد سمعتهما فإنّها ستحكي ذلك للجميع، فهذه هي عادتها: أن تخبر كلّ النّاس بأسرار بعضهم بعضا.

- كيف حالك يا قدسي؟ قالتا بحذر.

- بخير

- كيف حال أمّك؟

- بخير

- وأختك؟

- أختي؟ إنّها مجنونة. ستُجنّ.

- هل ترغبين في الطّعام يا قدسي؟ قالت جلبانو وهي تدخلها إلى المطبخ لترى إن كانت قد سمعت حديثهما. ولكن عندما وصلتا إلى المطبخ، استدارت قدسي وذهبت.

- قدسي؟ نادتها الجدّتان، ولكنّها كانت قد اختفت.

كم عمر قدسي؟ ثلاثون سنة، أربعون؟ أكبر من ذلك؟ لا أحد يعلم. وفي كلّ الأحوال هي تبدو شابّة، شابّة ومجنونة. لقد كانت ابنة عائلة عريقة وقد كان والدها أحد أقارب أغاجان الأبعدين. كان رجلا ثريّا، ارستقراطيّا يمتلك قرى كثيرة في الجبال. ولكن كان هناك داء ما في عائلته فقد كانوا مجانين كلّهم.

تعرّضت زوجته لاضطرابات نفسيّة بعد ولادة ابنها الأوّل ولم تتعاف قطّ. وقد وُلد

Twitter: @ketab_n

ابنها مختلّا عقليّا، ولم تكن ابنتها الكبرى عاديّة وكانت قدسي تهيم على وجهها في طرقات المدينة.

وبعد موت أبيهم لم يبق لهم أحد ليعتني بهم. أغاجان وحده من اهتمّ بهم: كان قد رتّب بعضا من أمور العائلة وصار يتردّد عليهم بانتظام متفقّدا.

لا يزالون يسكنون دار أبيهم. وعندما تحتاج أمّهم إلى الذّهاب إلى البازار من حين لأخر، كانت تبدو مثل أميرة سابقة. إذا لمحتها تمشي يبدو لك أنّها سليلة عائلة عريقة وإذا أبصرتها عن قرب أدركت أنّ أحوالها ليست بخير. كانت قدسي وأختها ترافقانها في هذه الأيّام. وعند قطع الطّريق كانت الأختان تجريان أمامها وتعيقان حركة المرور بشكل لا تستطيع أيّة عربة مغطّاة، وأيّة سيّارة، وأيّة حافلة، وأيّة درّاجة أن تمرّ قبل أن تضع الأمّ قدمها على الرّصيف المقابل.

يُدعى أخو قدسي هاشما. وهو أكبر منها سنّا. وكان عندما يخرج يرتدي دائما بدلة كولونال ويتأبّط عصاه.

كان زيّه نظيفا دائما يلمع الأسد البرونزيّ للجيش الفارسيّ من على قبّعته العسكريّة. ومن الصّباح الباكر إلى آخر اللّيل كان يقوم بالحراسة أمام باب البازار. وعندما يمرّ عون شرطة كان يقف مستعدّا الاستعداد العسكريّ. وفي بقيّة الوقت يظلّ هامدا. لا يهتمّ به أحد ولا يزعجه أيّ طفل. وقد قُبل كمَعْلَم للبازار. وما إن يرى أغاجان يدخل البازار حتّى يحيّيه ويصيح على طريقة العسكر «استعداً اااد».

وعندما يغادر أغاجان البازار يعيد ذلك. وبعد أن يحيّيه أغاجان كان يذهب دائما ليصافحه ويسأله عن حاله.

«كيف حالك يا هاشم؟

– بخير.

– وأمّك؟

– بخير.

– وأختك؟

– بخير.

Twitter: @ketab_n

- سلّم على أمّك. وإذا احتجتم إليّ ابعثوا إليّ بقُدْسي.

- سأفعل.

- حسنا» يقول أغاجان.

وكانت قدسي على علم بكلّ شيء تقريبا. فكان كلّ من تلتقي بهم يسألونها «هل من جديد». وعليهم أن يسألوها بلطف دائما عن حاليْ أمّها وأختها. وإلّا فإنّها لا تردّ. ولم تكن تتكلّم دون مقابل. فكانوا دائما يعطونها بعضا من النّقود تضعها في فيها قبل أن تخبرهم بما تعلم «مات قاسم العجوز، أنجبت مريم بنتا ولدجاجة سلطانة سبع فراخ».

يكون فم قدسي فارغا في الصّباح الباكر، فتذهب من باب إلى باب لتجمع الأخبار. وتظلّ هكذا طارقة بابا بعد باب حتّى لا تعود قادرة على الكلام لأنّ فمها يمتلئ بالنّقود.

ماذا تفعل بنقودها؟ لا أحد يعلم. تسري إشاعات بأنّها تضعها في آنية وتخفيها في قبوهم، لأنّه إذا لاحظت أمّها بأنّها تتسوّل رغم جنونها فستقع ميّتة لتوّها. ويقول لها أغاجان «قدسي، أنت من عائلة عريقة، أنت سيّدة، يجب أن لا تدخلي إلى كلّ دار». ولكنّها لم تكن تستمع إلى كلامه، وكانت تدخل أيّة دارٍ مفتوحٍ بابُها. كانت لا تجلس أبدا، تدخل الغرف وتستمع إلى سكّان الدّار ثمّ تذهب إلى الدّار الّتي تليها، وهكذا تجمع أخبارها.

وفي بعض الأحيان كانت تجتاز الجسر إلى الجهة الأخرى من النّهر عند الكروم. وكان أغاجان يوصيها قائلا «لا تذهبي أبدا إلى هناك، فليس لامرأة شابّة أيّ شيء لتفعله هناك». فتقول مطيعة «حسنا، لن أفعل ذلك». ولكنّها كانت تذهب، رغم ذلك.

كانت تجتاز الجسر وتذهب مباشرة نحو شجر الكروم حيث يتسكّع رجال مبهمون، رجال يضعون في فمها حفنة من النّقود الصّفراء. عندما يراها رجل ما قادمة يذهب بها خلف الأشجار فيضع بعض النّقود في فمها ويقبّلها دون أن تقول قدسي شيئا. ويتحسّس نهديها الكبيرين، وقدسي لا تتحرّك. فيمرّر يده تحت ثيابها مداعبا جسدها دون أن تتحرّك. ولكن ما إن يحاول نزع سروالها عنها حتّى تفلت من قبضته وتركض هاربة نحو الجسر.

كانت قدسي تذهب بانتظام لرؤية أغاجان في البازار ولا يمنعها العم رمضان الخادم عندما لا يكون عند أغاجان زوّار. فتذهب لتجلس على كرسيّ قرب المكتب. وينادي أغاجان في كلّ مرّة «الشّاي لقدسي خانم». فيأتي الخادم بكأس شاي وقطع من الشّوكولاطة على

Twitter: @ketab_n

طبق فضيّ. ويسألها أغاجان عندما تزوره «هل لديك أخبار؟». فتنحني قدسي إلى الأمام وتخبره بصوت منخفض عمّا ترغب في إخباره به. قالت له: «لقد قطعت الجسر وذهبت نحو شجر الكروم،

- مرّة أخرى؟

- كان هناك رجلان أمسكا بي، فصحت وصحت وصحت بأعلى صوتي حتّى فرّ الرّجلان إلى الجبال.

- ألم أقل لك بأن لا تذهبي نحو الكروم؟ إذا فعلت ذلك مرّة أخرى سأذهب إلى أمّك وأخبرها. لا تذهبي أبدا، أسمعت؟

- كلّا، لن أعيدها أبدا.

- حسنا، هل تريدين أن تخبريني شيئا آخر؟

- نعم. وحكت له بقيّة الأخبار دفعة واحدة: روجاني عون الشّرطة يضرب زوجته كلّ ليلة ويدخّن أشياء وسخة، والإسكافي حبس أمّه في المقصورة العلويّة وهي تبكي لأنّها تريد أن تخرج، وعزام عزام تحمل معها دائما سكّينا عندما تنام مع زوجها، وحمار العمّ رمضان مريض، والجدّتان تظنّان بأنّهما ستذهبان هذا العام إلى مكّة، ولكنّه لم يأت، لمرّتين، لم يأت والجدّتان تبكيان.

- ماذا قلت عن الجدّتين؟ من لم يأت؟ سأل أغاجان.

- النّبيّ الخضر، هذه المرّة الثّانية الّتي لم يظهر فيها (انتفض أغاجان).

- عمّ تتحدّثين؟ ماذا تريدين أن تقولي؟

- يجب أن أذهب، قالت.

قامت ووضعت قطعة شوكولاطة في فمها وتجرّعت بعضا من الشّاي وهمّت بالذّهاب.

«انتظري» قال أغاجان.

وفي المساء قال أغاجان لزوجته، وهما على فراشهما، إنّ قدسي قد جاءت لزيارته.

«وبِمَ أخبرتك؟

Twitter: @ketab_n

- لا شيء غير العبث، تنتقل من موضوع إلى آخر وتخلط الأخبار بعضها ببعض.

- نعم، أعلم، تخترع حكايات كثيرة، وهي تشبه نوعا ما زينات خانم.

- لا، لا تقارنيها بزينات، فقدسي مجنونة.

- لم تفهمني جيّدا، فأنا لم أقارنها، ولكنّي أريد أن أقول إنّ زينات لم تعد قادرة على البقاء هادئة لدقيقة ورأسها مليء بقصص خياليّة.

- هذا صحيح، ولكنّ حكايات قدسي هذيان دون أساس.

- هذا ممكن، ولكنّها حاكية مَلِحَةٌ إلّا أنّها لا تقول كلّ شيء. ولا تفهم إلّا جزءا ممّا تعرفه، وهي تقول كلّ شيء في نَفَس واحد، مما يجعل حكاياتها أكثر إثارة».

فكّر أغاجان، لقد فكّر في الجدّتين اليومَ كلّه، ولكنّه لا يريد أن يخوض في ذلك مع فجري.

- هي تثير جنوني، لقد ذهبت من جديد إلى الجهة الأخرى من النّهر. لقد أخبرتني أنّ رجلين أمسكا بها وأنّها صرخت بصوت عال حتّى فرّا إلى الجبال.

- يا لطيف، هؤلاء الرّجال مرّة أخرى. أخشى أنّهم قد يؤذونها، وإذا حدث لها شيء ما فستكون أنت المسؤول، وأنت تعرف هذا. ربّما قد يحسن أن أكلّمها بنفسي وأن أخيفها حتّى تتحاشى هؤلاء الأنذال.

- لقد أخبرتني بأنّ حمار العم رمضان مريض وأنّ عزام عزام تحمل معها دائما سكّينا عندما يسكن إليها زوجها». ضحكت فجري.

- ماذا كانت تقصد؟

- لا أعرف؟ هي تجمع أخبارها من كلّ الغرف، وتدخل كلّ مكان، فترى شيئا ما وتنسج حوله قصّة. ربّما رأت سكّينا أو شيئا آخر على فراش عزام عزام. لقد أخبرتني أيضا أنّ روجاني عون الشّرطة يضرب زوجته كلّ ليلة.

- هذا ممكن، عليك أن تفعل شيئا ما لهذه المرأة المسكينة. هذا الرّجل مدمن وقذر. قل هذا لزينات فلها صلات مع رجال في المسجد. ربّما تساعد على ترتيب هذه الأمور. وتستطيع أن تذهب عند هذه المرأة لترى ما يحدث. عليك أن تطلب من زينات ذلك. ثمّ ماذا؟! واصل.

Twitter: @ketab_n

- قالت إنّ الإسكافيّ سجن أمّه في المقصورة العلويّة.

- هذا غير ممكن. أيّ إنسان يمتلك الجرأة ليسجن أمّه في مقصورة؟

- بعض الرّجال لهم من الغلظة ما يجعلهم يخترعون أقسى أنواع العذاب

- سَلْ زينات أن تذهب لرؤيتها، فقد تستطيع اكتشاف ما يدور.

- هي تحفظ الأحداث الّتي تشدّها وترويها بطريقتها، والآن وأنا أكلّمك فإنّي أرى هذه الأشياء على غير وجهها. حسب رأيي، يكون لديها دائما شيء مهمّ لتخبرني به كلّما جاءت لزيارتي، شيء لا تستطيع قوله لأيّ شخص آخر. أنتِ على حقّ، هي تخترع القصص مثل زينات، ولكن هناك فرق بينهما. زينات تروي حكايات قديمة أمّا قدسي فتأخذ جزءا من الواقع وتنسج قصّة حوله. لهذه الحكايات لبّ صلد، هذا ما أردت قوله.

وضعت فجري سادات رأسها على صدر زوجها وأغمضت عينيها وقالت «يكفينا حديثا عن قدسي في فراشنا، حدّثني عن أشياء أخرى، أشياء جميلة، لطيفة... لا أريد أن اشتكي، ولكن لم يعد عندك وقت لي، في هذه المدّة. فيما مضى كنّا نسافر معا، كنت تأخذني إلى مشهد، فنقضّي أسبوعا في نزل قرب زاوية الإمام الرّضا. وكنت تأخذني إلى أصفهان، ولكن مرّت سنون ولم نعد نفعل ذلك، صرت تسافر وحيدا وأبقى أنا في البيت. أحسّ أحيانا أنّني قد شخت وأنّك...

- لقد قالت شيئا آخر

- هل تسمعني؟ مازلت تفكّر في قدسي؟

- قالت شيئا ما عن النّبيّ الخضر وقد خذل الجدّتين.

- من خذل الجدّتين؟ قالت فجري سادات وهي تستوي على جنبها.

- النّبيّ الخضر. هذه كلمات قدسي حرفيّا. وهذا ليست كلمات خاوية، حسب رأيي، لقد سمعت حديثا ما بين الجدّتين. أظنّ أنّهما تخفيان سرّا ما.

- لمَ تشغل بالك بهذه الأشياء ومثيلاتها؟

- أنا أحسّ بذلك بكلّ بساطة. قالت قدسي «لم يأت الخضر، لمرّتين، لم يأت والجدّتان تبكيان».

Twitter: @ketab_n

وهكذا تذكّر في هذه السّنوات الأخيرة أنّه قد فاجأ الجدّتين فجرا وهما تحملان مكنستين، ولكنّه لم يفهم أنّ ما كانتا تقومان به سرّ.

وفي اليوم الموالي، قبل شروق الشّمس، ترك أغاجان فراشه وتسمّر قرب النّافذة مراقبا غرفة الجدّتين.

وبعد برهة فُتح باب غرفتهما، وظهرتا مثل شبحين تحملان مكنستين.

قضّى اللّيلة مفكّرا فيهما، وأدرك الآن ما عليه أن يفعل. ابتسم وعاد إلى فراشه.

وقع بصره على ساق عارية لفجري سادات. هي محقّة، صار يهتمّ بها أقلّ من قبل ولم يسافرا معا منذ أمد بعيد. وعندما كان يسافر، لم يكن يحمل إليها هدايا حميمة. خَال أنّه قد مرّت قرون منذ اليوم الّذي حمل إليها فيه علبة من دمشق تحوي سبع قطع ملابس داخليّة ذات ألوان مختلفة. انساب تحت الغطاء بتأنّ واحتضنها وشرع في نزع لباسها الدّاخليّ عنها.

«لا» قالت فجري سادات وهي بين اليقظة والنّوم. وكالعادة لم يستمع إليها وتابع ما كان قد شرع فيه.

«لا» قالت مرّة أخرى بشرود، ثمّ لم تعد تتكلّم.

Twitter: @ketab_n

اقرأ

مرّت بعض أيّام. وكانت الجدّتان منهمكتين من جديد في الكنس عندما سمعتا صوتا غير معهود آت من النّهج. فاستقصتا العتمة دون أن تبصرا شيئا. فواصلتا الكنس. وفجأة سمعتا صهيل جواد. فاستقصتا العتمة من جديد وما رأتا شيئا.

«ألم تسمعي صهيل جواد؟» قالت جلبانو

«بلى، ووقع سنابك أيضا»، ردّت جليبه.

واقترب الصّوت. فأمسكت الجدّتان بيدي بعضهما بعضا محدّقتين في زاوية النّهج دون حراك. ظهر جواد أسحم في بارقة فانوس الشّارع. وكان عربيّ ملفوف في معطف أبيض ممتطيا صهوة الجواد. فانحنت الجدّتان صامتتين في أدب.

وقال الفارس بالعربيّة «جاء الأجل، والسّلام من النبيّ الخضر ومكّة». ورغم جهلهما باللّسان العربيّ فقد أدركت الجدّتان مباشرة عمّا كان الفارس يتكلّم. فقد ردّدتا كلمتي الخضر ومكّة طويلا. فانحنتا من جديد أمام العربيّ المتطي صهوة الجواد.

«وإنّه الأجل، تابع الفارس، وإنّي جئت لجلبانو وجئت لجليبة».

وتنهّدت الجدّتان من الإثارة. فقد ناداهما الفارس باسميهما. ألم تسمعا ذلك؟

«جاء النّبيّ. اقرئي اسم الله يا جلبانو» قال الفارس.

ماذا ستفعل؟

تقدّمت جلبانو خطوة وحنت رأسها. أخرج الفارس رسالة من جيبه ومدّ يده إليها.

تقدّمت جلبانو بحذر نحو الفارس وأخذت الرّسالة.

«جليبه» قال الفارس.

Twitter: @ketab_n

فتقدّمت الجدّة الأخرى واستلمت ظرفا أبيض من يد الفارس.

«وإنّا لله، والله الصمد»، قال الفارس ثمّ شدّ عنان الجواد واستدار واختفى.

طلع النّهار. وظلّت الجدّتان متسمّرتين في مكانهما وظرفاهما في يديهما.

لم تجرؤا على الحركة خوفا من أن يكون ما شهدتاه ليس سوى حلم. ولكنّ ذلك لم يكن حلما لأنّ طائر الزّاغ طار ليحطّ على رأس الفانوس وأخذ ينعب بكلّ قوّته.

انسحبتا إلى غرفتيهما وأغلقتا الباب وأنارتا الغرفة وفتحتا ظرفيهما. لقد تلقّت كلتاهما الرّسالة نفسها ولكنّهما لم تكونا قادرتين على قراءة كتابة النّبيّ، إذ من البيّن أنّهما قد كتبتا بلغة سريّة. وكان عليهما أن تُريا الرّسالتين لأحد ما، ولكن لمن؟ لأغاجان؟ لفجري سادات؟ لزينات خانم؟ كلّا.

«فلنطلب من شهبل أن يشرح لنا محتواهما» قالت جليبه. فذهبتا إلى غرفته.

«انهض، مازلت في فراشك؟ ألم تصلّ بعد؟ اخجل من نفسك، سأخبر أغاجان بأنّك ترقد في فراشك كالآثم. اقرأ، انظر، اقرأ هذه الرّسالة، اقرأ لنا هاتين الرّسالتين»، قالت جلبانو.

حدّق شهبل في الرّسالتين شبه نائم وقال «أستطيع أن أقراهما، ولكنّي لا أفهم ما تعنيانه. فقد كُتبتا بالعربيّة».

ربّما عليهما أن تُريا الرّسالتين لأغاجان، ولكنّه كان في جيرجه وهما لا تستطيعان انتظار عودته. تدثّرتا بتشادوريهما وذهبا إلى إمام المسجد ليقرأهما لهما.

كان الإمام راجعا إلى غرفته وفي نيّته أن يغفو لحين بعد أن صلّى الضّحى.

وعندما سمع طرقا على الباب ظنّ أنّها زينات خانم فردّ بنبرة ناعس «ادخل».

دخلت الجدّتان. فسأل الإمام متفاجئا «ماذا هناك، سيّدتيَّ؟ لِمَ أنتما هنا؟».

- لقد تلقّينا رسالة، في الواقع رسالتين خاصّتين جدّا، هل تقرؤهما لنا؟

- بكلّ سرور، تفضّلا بالجلوس.

أخذ عمامته، وقد كانت على الطّاولة اللّيليّة، ووضعها على رأسه، وذهب ليجلس على كرسيّه مرتديا جلبابه القطنيّ وقال «اجلسا، سيّدتيّ، عليّ أن أضع نظّارتي».

Twitter: @ketab_n

وضع نظّارتيه وأخذ يقرأ إحدى الرّسالتين، ثمّ قال «رسالة عربيّة؟».

- ألا تستطيع قراءتها؟ قالت جلبانو

- كان يتوجّب عليّ أن أقرأها، ولكن يندر أن أقرأ رسالة عربيّة. أنا أعرف لغة القرآن، ولكنّ لغة القرآن مختلفة، إنّها لغة الله. أنا أقرأ القرآن وأفهمه، ولكن لا أعرف إن كنت قادرا على قراءة صحيفة عربيّة. سأشرح ذلك: إذا ما ذهبت اليوم إلى مكّة فإنّي أتساءل عمّا إذا كنت قادرا على التّخاطب مع النّاس في الشّارع. انتظرا، يوجد عنوان في أسفل الرّسالة. هل أنتما ذاهبتان إلى مكان ما؟ كيف وصلتكما هاته الرّسالة؟ تبدوان لأوّل وهلة وثيقتين رسميّتين جدّا. إنّها تذكران هنا اسما: الحاج أغا مصطفى مهاجر؟

- يجوز ذلك، فنحن نعرف الحاج أغا مصطفى مهاجر فهو يعمل في البازار.

- هذا واضح، عليكما أن تذهبا لمقابلة الحاج، والسّلام».

جنّت الجدّتان فرحا وانتزعتا الرّسالتين من يد الإمام.

وما إن خرجتا حتّى همّتا أن تذهبا مباشرة إلى البازار ولكنّ جلبانو قالت «حسب رأيي، لا يزال الوقت باكرا للذّهاب إلى البازار، لننتظر حتّى ترتفع الشّمس في السّماء. ثمّ إنّه يبدو لي أنّ علينا أن نرتدي ثيابا لائقة إذا ما ذهبنا إلى البازار برسالتين بهذه الأهميّة».

فجأة تغيّرت هيئة كلّ شيء في الدّار. كانت الدّار تبرق بنور أبيض، وبدا وكأنّ كلّ ما فيها يبتسم لهما، وكلّ النّاس يعرفون سرّهما. علّ الشّجرة الهرمة قد سمعت وقع سنابك الجواد والحوض قد امتصّ صوت الخضر.

ونظرت زهور الحديقة إلى الجدّتين بإعجاب ونور الشّمس يتلألأ على بلّور نافذة المكتبة، وطائر الزّاغ يدور فوق رأسيهما ناعبا بفرح. وهمهمت الجدّتان «شكرا، شكرا يا طائر الزّاغ». وكانت الأسماك الحمراء العجوز تقفز فوق الماء، فقالت الجدّتان «شكرا، شكرا».

«أسمع خطى سعيدة، ماذا حدث؟» قال المؤذّن وهو يقوّم خزفه في القبو.

ذهبت جلبانو وجليبة إلى القبو لتحيّياه، فقام من وراء طاولته وهو يدعك الطّين ليصيّره ألين.

هل ستخبرانه؟ هل لهما أن تكشفا عن قدر من سرّهما؟ لا، عليهما أن تذهبا إلى الحاج مصطفى أوّلا. هناك فقط ستعرفان إن كان حلمهما قد تحقّق أخيرا.

Twitter: @ketab_n

«صباح الخير»، قالت الجدّتان بفرح.

– صباح الخير سيّدتيّ، أعرف أنّ عندكما شيئا ما لتخبراني به، قال المؤذّن.

– هذا صحيح، لدينا خبر سارّ لنطلعك عليه، قالت جليبه. ولكنّ جلبانو تدخّلت قائلة «يا لها من مزهريّات جميلة أيّها المؤذّن، تبدو كلّها جديدة.

«لا تبالغا. أنا أصنع الأواني والمزهريّات حياتي كلّها، واليوم تريانها بعيون مختلفة». تبادلت الجدّتان النّظرات باسمتين.

«لقد تلقّينا لتوّنا خبرا سارّا سنخبرك عنه لاحقا. وعندها ستستطيع أن تعلنه من على سطح المسجد».

– «أنتما غامضتان»، قال المؤذّن.

تسلّقت الجدّتان دُرج القبو وهما تقفزان كفتاتين صغيرتين، وعادتا إلى الباحة الدّاخليّة.

كانتا سعيدتين حتّى إنّهما لم تعرفا ما هما فاعلتان، أو إلى أين هما ذاهبتان أو من هما زائرتان. أبصرتا فجري سادات متّجهة نحو المطبخ. فحيّتاها بيسراهما وهو ما لم تعتادا على فعله. مرّ القطّ العجوز فركضتا وراءه. فنطّ القطّ على السّطح إذ أنّه لم يحدث له شيء مماثل.

لبست الجدّتان أحسن ثيابهما ووضعتا مسحوقا على وجهيهما بلطف، وتدثّرتا بأحسن تشادوراتهما السّود وخرجتا تؤمّان البازار.

كان الحاج مصطفى صديقا قديما لأغاجان، وهو رجل متنفّذ في المدينة، يستأثر بتدبير الرّحلات المقدّسة من بلدان قصيّة، ويرتّب الحجّ إلى كربلاء والنّجف والمدينة ودمشق ومكّة.

يقع مكتبه في وسط البازار وكان يزوره في كلّ يوم مئات العازمين على الحجّ إلى مكّة ليضبطوا بياناتهم مسبقا. ودخلت الجدّتان إلى مغازته، ولكنّهما لم تقفا في الصّفّ مثل بقيّة الحجّاج لأنّ لكلّ منهما رسالة شخصيّة للحاج مصطفى.

نظرتا عبر زجاج مكتبه، ورغم أنّهما لم ترياه في المسجد إلّا مرّة واحدة فقد عرفتاه فورا. كان يجلس إلى مكتبه متحدّثا في الهاتف. وعندما رآهما، أشار إليهما بالدّخول، ففتحتا الباب بتبصّر.

Twitter: @ketab_n

«كيف أستطيع أن أخدمكما؟ قال الحاج مصطفى ما إن اقتربتا منه، فمدّت كلتا الجدّتين برسالتها إليه في الآن ذاته وقالت جلبانو:

- عندنا رسالة لك.

وضع نظّارتيه وفتح الظّرفين وأخذ يقرأ بتمعّن، ناظرا إليهما من حين لآخر من تحت نظّارتيه. وعندما أخذ الرّسالة الثّانية، نظر في صمت دقيقة ونظّارتاه في يده، والجدّتان تنظران إليه في استفهام.

أعاد وضع الرّسالتين في ظرفيهما وأعاد غلقهما بتوقير ووضعهما في درجه وقال لهما بنبرة تهنئة «تفضّلا بالجلوس».

جلست الجدّتان على المقعدين الجلديّين القديمين الوثيرين الموجودين أمام المكتب. وبحث الحاج مصطفى في دفاتره ودوّن شيئا ما وكلّم شخصا ما بالهاتف مكالمة غامضة. ثمّ خرج من مكتبه وترك الجدّتين لوحدهما دون أن ينبس بكلمة. وفي ظرف ربع ساعة، عاد وأخرج كتابا بنيّا كبيرا من خزانة دفاتره. وفتح الكتاب وقال بمهابة «جلبانو»

- أنا هي، قالت إحدى الجدّتين واستوت واقفة.

وضع أمامها علبة حبر وقال لها «ضعي سبّابتك في الحبر ثمّ مرّريها على الكرّاس».

وضعت جلبانو سبّابة يدها المرتعشة حيث أشار الحاج. ثمّ قال لها «يمكنك أن تعودي إلى مقعدك». ودوّن شيئا ما ثمّ قال «جليبه»

- أنا هي، قالت الجدّة الأخرى، بصوت مرتجف وهي تقوم.

«اضغطي أوّلا هنا، ثمّ هنا، لو سمحت».

غمست سبّابتها في علبة الحبر ثمّ وضعتها على المكان الّذي أشار إليه الحاج بطرف ريشته.

- ما هو عنوانكما؟ سألهما

- دار المسجد، قالت جلبانو

- تسكن كلتاكما في هذه الدّار؟

- نعم»، ردّتا.

Twitter: @ketab_n

وعندما أنهى الكتابة، ختم بعض المواضع في كرّاسه ونهض وهو يقول «اتبعاني». تبعته الجدّتان في ممشى طويل، ثمّ عبر غرفة واسعة، ثمّ غرفة أوسع من الأولى، ثمّ إلى ممشى شبه معتم إلى أن توقّف الحاج أمام باب. أخرج مفتاحا من جيبه وفتح الباب وقال «اخلعا نعليكما وادخلا».

دخلت جلبانو وجليبة إلى غرفة مدهشة: رباطات من القماش كتبت عليها نصوص مقدّسة عُلّقت على الحيطان وحقائب قديمة من جلد بنيّ مصفرّ مصفّفة في خزائن تصل إلى السّقف. وتمنح رائحة الكتب والجلد للغرفة جوّا مقدّسا. وقد غطّت زربيّة قديمة سطح الغرفة.

وكان على أحد الحيطان خزنة تكدّست فيها عشرات من الملفّات مغطّاة بطبقة كثيفة من الغبار.

ارتجفت يدا الجدّتين تحت تشادوريهما، وخلعتا نعليهما وتقدّمتا.

«اجلسا» قال الحاج مشيرا إلى كرسيّين قرب طاولة خشبيّة قديمة. وفوق الطّاولة علّقت مشكاة فضيّة متقنة الصّنع وفيها سبع شمعات قديمة احترق نصفها. وامتلأ قلبا الجدّتين أملا.

«ما قمنا به وما قلناه وما رأيتماه إلى الآن يبقى سرّا بيننا. إذا عرف أيّ شخص هذا السّرّ يُلغى عقدنا»، قال الحاج بنبرة حازمة

«هذا واضح» قالت جلبانو.

غاب وراء ستار وعاد بحقيبتين جديدتين بنّيّتين صفراوين برّاقتين صوّرت الكعبة عليهما. وضع الحقيبتين قرب الجدّتين بحركة بالغة الهيبة حتّى كاد يغمى عليهما. وذهب الحاج ليجلس قبالتهما وقال لهما بهدوء:

«عندما تعودان إلى الدّار، ستُسألان دون شكّ، ولكن لا تجيبا. أؤكّد: لا تجيبا أبدا».

- نفهم ذلك جيّدا، قالت جلبانو دون أن تخفق رموشها.

- وفي ذكرى مولد فاطمة الزّهراء لتأت كلتاكما مصطحبة حقيبتها أمام البازار، قال الحاج.

- حسنا، قالت جلبانو.

Twitter: @ketab_n

- إذا كان لكما أيّ سؤال لتسألاه فافعلا الآن، لأنّه بعد أن تغادرا لن يكون ذلك ممكنا.

تبادلت الجدّتان النّظرات بثقة. هل لهما أيّة أسئلة أخرى؟ لا، لا سؤال.

«نعم، عند أيّة ساعة علينا أن نكون أمام البازار؟» قالت جلبانو بتردّد.

- فجرا، قبل شروق الشّمس، أجاب الحاج.

وكان لجليبه سؤال آخر، ولكنّها لم تجرؤ على الإفصاح به فأسرّت في أذن جلبانو.

«اعذرنا، قالت جلبانو، فليس لنا تذاكر بعد. ربّما يحسن أن تسلّمنا تذاكر، ورقة مكتوبا عليها اسمينا على الأقلّ».

- الحقيبتان، قال الحاج، هذه وثيقتكما. واسماكما قد دوّنا في أسفلهما.

- حقّا، قالت جلبانو وهي تنظر نظرة حانقة إلى أختها لسؤالها غير المحنّك.

- ووثائق سفريكما ستعطى لكما في يوم مغادرتكما، قال الحاج. هل من أسئلة أخرى؟.

تبادلت الجدّتان النّظرات. لا، لم يعد لهما أيّ سؤال.

أشعّ وجهاهما سعادة: فأخفتا ابتسامتهما خلف تشادوريهما، وأخذتا حقيبتيهما وغادرتا المغازة وارتمتا في زحمة البازار.

وعندما وصلتا إلى الدّار أخفتا حقيبتيهما في حاويتين قديمتين في القبو وتصرّفتا وكأنّ شيئا لم يحدث، وكان حملهما أثقل من تنوءا به. فلم تناما اللّيل وظلّتا مستلقيتين طويلا وعيناهما مفتوحتان. طالت الأيّام واللّيالي. هل هذا صحيح؟ هلّا جاء اليوم الّذي ستحزمان فيه حقيبتيهما لتسافرا؟

كانتا تخشيان ألّا تريا ذلك اليوم، أن يلمّ بهما خطب ما، كأن تتكسر إحدى أرجلهما أو تموتا. ولكنّهما كانتا قد انتظرتا لأربعيــن سنة ولا تستطيعان أن تنتظرا بعض أشهر.

Twitter: @ketab_n

غرفة الكنوز

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [1]

قُمْ فَأَنْذِرْ [2]

وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ [3]

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ [4]

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ [5]

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ [7] [سورة المدثر]

خرج فريق من سبعة رجال من الزّقاق، يحمل أربعة منهم سلّة كبيرة علّقت على أكتافهم بعصيّ طويلة. ومشى الآخرون أمامهم. كانوا قرويّين من جيرجة جاؤوا حاملين كاظم خان إلى الدّار. طرق أحدهم الباب وانتظر برهة قبل أن تأتي جليبه لفتح الباب.

- سادتي! قالت جليبه متعجّبة من رؤية السلّة.

- لقد جئنا بكاظم خان، قال أحدهم وهو يشير إلى السلّة المعلّقة على أكتاف الرّجال.

- هذا كاظم خان يا جلبانو، قالت جليبه منشغلة.

وعندما رأت جلبانو السلّة أدركت ما عليها فعله، فرافقت الرّجال إلى غرفة التّدخين. وأخرج الرّجال كاظم خان من السلّة ومدّدوه فوق السّرير، وكانت عيناه مغمضتين ووجهه شاحبا ونحيفا. ثمّ غادروا الغرفة وذهبوا ليدخّنوا قرب الحوض. نشجت جليبه بينما كانت جلبانو تهتمّ بكاظم خان فغطّته بلحاف ووضعت مرآة وقرآنا على لوح خشبيّ فوق رأسه ثمّ ذهبت إلى المطبخ لتعدّ فطور القرويّين. حضّرت إبريقا من الشّاي وخبزا وجبنا ومربّى وسلّة فواكه فوق الطّاولة ونادت الرّجال قائلة «الفطور جاهز أيّها الرّجال».

Twitter: @ketab_n

ووصل أغاجان في هذه الأثناء وذهب مباشرة إلى غرفة التّدخين، وعندما رأى كاظم خان أدرك أن لا جدوى من نقله إلى المستشفى فعاد إلى المطبخ ليسلّم على القرويّين.

وقف الرّجال جميعهم عندما رأوه، وروى له أحدهم ما حدث «تغيّب عن المقهى بضعة أيّام فظننّا أنّه قد سافر. وفي إحدى اللّيالي سمعنا صهيل حصانه فاستنتجنا بأنّه قد عاد. ولكنّ الحصان لم يكفّ عن الصّهيل فذهبنا إلى بيته فوجدناه ممدّدا في سريره شبه ميّت. وفي اليوم الموالي وضعناه في سلّة ونقلناه إلى هنا في الحافلة».

- أشكركم على ذلك وأقدّر مساعدتكم لعمّي، قال أغاجان.

في المساء وضع كرسيّا قرب سرير كاظم خان وجلس قربه لوقت طويل ثمّ قرأ عليه سورة الفاتحة بهدوء.

كان كاظم خان روح الدّار، وهو من الرّجال الّذين يصعب عليهم الارتباط بالدّار أو المسجد. كان مختلفا كليّا عن أغاجان؛ فأغاجان هو رجل الدّار ورجل المسجد ورجل البازار ويضطلع بمسؤوليّات كثيرة في المدينة. أمّا كاظم خان فقد عاش طليقا كالطّائر ومات على هذه الحالة. تسقط الطّيور الهرمة من السّماء فجأة وتمدّد رؤوسها على الأرض وتغمض أعينها ثمّ لا تستفيق أبدا. كان كاظم خان شاعرا لا يؤمن بالتخوم. جرّب كلّ شيء؛ أشياء لا يتجرّأ أغاجان حتّى على مجرّد التّفكير فيها. وبحث أغاجان عن دفتر أشعار كاظم خان في جيبه الدّاخليّ وتصفّحه باحثا عن آخر قصيدة كتبها. وجدها وقرأها بصوت خافت:

’وكذا الشّفاه العذبة، وكأس المُدام

أجل، كلّ شيء ينتهي إلى العدم

اعلم أنّه، رغم طول حياتك،

لن تكون غير ما ستكونه، لا شيء: ولا تستطيع أن تكون أقلّ من ذلك‘.

لقد وجد كاظم خان منذ ستّين عاما شخصا يعدّ له مستلزمات التّدخين منذ وصوله، ولم تعد لذلك الآن أيّة جدوى.

كانت الجدّتان تجلسان في المطبخ تتبادلان الحديث وتبكيان في هدوء. رحل الرّجل الّذي أحبّتاه. متى التقتا به لأوّل مرّة؟ منذ نصف قرن. كانتا لا تزالان شابّتين، وبعد ظهر أحد الأيّام جاء الشّاعر كاظم خان إلى الباحة الدّاخليّة ممتطيا صهوة جواده. لم تكونا قد

Twitter: @ketab_n

سمعتا قصيدة بعد. وبعد بضعة أيّام كتب قصيدتين اثنتين: واحدة لجلبانو والأخرى لجليبة. وتغزّلت القصيدتان بعينيهما وضفيرتيهما الطّويلتين وابتسامتيهما ويديهما اللّتين تبعثان الدّفء عندما تشعلان النّار اللّازمة لتدخين الأفيون. وصارت كلتاهما ملكا أبديّا له في زيارته الموالية.

ظهر العم رمضان من فتحة الباب. كان هو من يعتني بالحديقة. وكان يذهب كلّ مساء إلى مخزف المؤذّن ليسلّم عليه ويتفقّد كميّة الطّين، فإذا لاحظ أنّها نقصت أمر بكميّة جديدة من الطّين المبلّل. يعيش العم رمضان وحيدا، فزوجته متوفّاة ولا أبناء له، ولا يملك غير حمار يكسب به قوته؛ كان يقطع الطّين من النهر لوحده ويحمله إلى زبائنه على ظهر حماره.

حيّا العمُ رمضان أغاجان بصوت خافت، فردّ عليه التّحيّة وأشار عليه بالدّخول وقال له «اسمع يا عم رمضان، إنّ كاظم خان لم يدخّن الأفيون منذ فترة، ويبدو غير مرتاح. ستعدّ الجدّتان مستلزمات التّدخين، فإذا دخّنت ونفخت الدّخان على وجهه سيرتاح».

لم يكن العم رمضان مدخّنا منتظما، فهو لا يستطيع توفير ثمن الأفيون. وقد سعِدَ بطلب أغاجان لأنّه يعرف أنّ كاظم خان كان يدخّن أفضل أفيون في الجبال. الأفيون الّذي يدخّنه العم رمضان عند أصدقائه من حين لآخر ذو لون داكن وكريه الرّاحة أمّا أفيون كاظم خان فكان أصفر اللّون تفوح منه رائحة الزهور البريّة الجبليّة.

أخذ أغاجان نصف لفافة أفيون وأعطاها إلى العم رمضان فوضعها في جيب معطفه وخرج ليساعد في إشعال النّار. وبعد برهة جاءت جليبه تحمل كانونا مليئا جمرا يتصاعد منه لهب أزرق، وإبريق شاي. ونظرت إلى كاظم خان وعيناها تفيضان بالدّموع ثمّ وضعت الكانون أرضا. فوضع العم رمضان الغليون على الرّماد السّاخن وقطّع الأفيون إلى قطع صغيرة.

وعندما صار الغليون ساخنا وضع على طرفه قطعة من الأفيون بواسطة إبرة وأخذ جمرة بالملقط الصّغير وقرّبها من الأفيون ثمّ بدأ يدخّن بهدوء ويستنشق بشكل أعمق. ونسي لبرهة أنّه كان يدخّن لكاظم خان ولكن ما إن وقع نظره على أغاجان حتّى قام حاملا الغليون في يده اليسرى والملقط في يده اليمنى وانحنى فوق كاظم خان وقرّب الجمرة من الغليون ودخّن؛ سحب الدّخان بعمق ونفخه على وجه كاظم خان.

ودخّن لمدّة نصف ساعة بتأنّ حتّى انتشرت سحابة من الدّخان الأزرق الدّاكن في الغرفة.

Twitter: @ketab_n

فُتح الباب ودخلت قدسي المجنونة فحاولت الجدّتان منعها ولكنّ أغاجان أشار عليهما بأن تتركاها تدخل. فذهبت نحو السّرير وانحنت ونظرت إلى وجه كاظم خان، وتمتمت بكلمات غير مفهومة وخرجت دون أن تكلّم أغاجان.

وقالت جلبانو للعم رمضان «هذا يكفي، هلّا تفضّلت بمغادرة الغرفة، سنقرأ لكاظم خان جزءا من القرآن». نهض أغاجان، وقد جعله الأفيون يتراخى، وغادر الغرفة مع العم رمضان.

وأخذت جليبه القرآن وجلست أرضا قرب جلبانو. لم تجدا صعوبة في قراءة الكتب العاديّة، ولكنّ قراءة القرآن تتطلّب وقتا أطول. ومن حسن حظّهما أنّهما كانتا تحفظان بعض السّور عن ظهر قلب.

فتحت جلبانو المصحف ونظرت إلى الصّفحة، ثمّ بدأت في ترتيل سورة تحفظها عن ظهر قلب، وكرّرت جليبه ما كانت تقوله.

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ [1]

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ

إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ [17]

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ [21]

أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ [22]

وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ [25]

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا

إِنَّا لَضَالُّونَ [26] بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ [27] [سورة القلم]

ثمّ قرّبت فمها من أذن المحتضر وهمست «كاظم خان، ها قد رحلت وسنلحق بك عن قريب. لدينا سرّ لا يحقّ لنا أن نبوح به لأحد ولكنّنا سنطلعك عليه أنت وحدك. سنذهب قريبا إلى مكّة. لقد رتّب النّبيّ الخضر كلّ شيء. ونستأذنك في الذّهاب إلى جيرجه في عطلة. أنا أقبّلك يا كاظم خان، كلتانا تقبّلك. لقد كنّا سعيدتين معك». وقبّلت كلتاهما كاظم خان على جبهته وغادرتا الغرفة.

Twitter: @ketab_n

وفي اليوم الثّالث عندما رأى أغاجان بأنّ ساعة كاظم خان قد دنت، دخل إلى الغرفة بمفرده وأوصد الباب وراءه وقبّل عمّه على جبينه وهمس «يمكنك أن ترحل الآن إذا أردت ذلك، سنفكّر فيك دائما وسأحتفظ بحذائك وأشعارك في غرفة الكنوز. أنا أجلس قربك وأمسك بيدك».

دخل شهبل بهدوء ووقف قرب الباب. فقال له أغاجان «هلّا أحضرت كأس شاي أحمر وملعقة». أحضر شهبل الكأس فوضع فيها بعضا من فتات الأفيون وحرّكه بالملعقة حتّى يذوب. وقال لشهبل «أمسك، أطعمه إيّاه بالملعقة، إنّ جسده يطلبه. بهذا ستغادر روحه جسده هادئة».

أدخل شهبل الخليط الدّاكن إلى فم كاظم خان على جرعات صغيرة بالملعقة. ووضع أغاجان يده إلى الكتف العاري لعمّه وقال «إنّه يرحل». وانحنى وقبّله من جديد على جبينه. وفارق العجوز الحياة ببطء. وقال أغاجان بنبرة حزينة «لقد رحل، هلّا أخبرت أهل الدّار».

كانت الجدّتان أوّل الدّاخلين فعزّتا أغاجان ووقفتا في صمت. ثمّ جاءت فجري وزينات باكيتين. وجاء المؤذّن. وحمل أغاجان حذاء كاظم خان ومجموعة أشعاره وذهب إلى المسجد في العتمة.

توجد في المسجد غرفة للكنوز، وهي مكان سريّ في القبو يُحتفظ فيه منذ قرون بالأشياء الثّمينة لأهل الدّار مثل الإجازات والعقود الرّسميّة والرّسائل والأوراق الشّخصيّة للأئمّة المتوفّين منذ العصور الأولى إلى اليوم. ويُحتفظ فيه أيضا بمئات الدّفاتر الّتي تحوي أخبار المسجد الّتي كان أرباب الدّار مثل أغاجان يدوّنونها منذ قرون. وكان كلّ ذلك مرتّبا أبجديّا في خزائن.

كانت غرفة الكنوز منجما ذهبيّا من المعطيات التّاريخيّة. ويمكن العثور في الأرشيفات على كامل التّاريخ الدّينيّ للبلاد وكذلك الوقائع الشّخصيّة لسكّان الدّار. وكان يتوجّب نقل الأرشيفات والأشياء الأخرى إلى المتحف لتُعرض فيه ولكنّها تكوّن جزءا أساسيّا فريدا وخاصّا لدار المسجد. وكان رئيس الدّار يحمل معه مفتاح غرفة الكنوز دائما.

وباستثناء أغاجان فإنّ شهبل وحده كان على علم بوجود هذه الغرفة وما تحتوي عليه. وقد حدّثه أغاجان عن الدّفتر أيضا. وقال لشهبل «الله وحده يعلم ساعة موتنا، ولكن عند موتي أنت من سيحمل المفتاح وسيكتب في الدّفتر ويتولّى تسيير الأمور». وأغاجان نفسه لم

Twitter: @ketab_n

ير غرفة الكنوز لأوّل مرّة إلّا عندما بلغ عمره سبعة وعشرين عاما. وعندما توفّي والده أخذ فانوسا وذهب في غمرة اللّيل إلى قبو المسجد وأدخل المفتاح في القفل القديم ويده ترتعش وفتح الباب ودخل الغرفة.

انتابه إحساس بأنّه قد دخل إلى عالم من الأحلام لأنّ الغرفة لم تكن تشبه أيّ مكان عاديّ. كانت الأرضيّة مغطّاة بزربيّة قديمة لونها أحمر رمّانيّ. وفيها كرسيّ وطاولة وُضع عليها كتاب مفتوح التصقت به ريشة أوزّ مغموسة في محبرة. وكانت عشرات من الأحذية مصفّفة على طول الجدار مكسوّة بطبقة من الغبار. ووُضعت على كلّ حذاء قطعة من الورق المقوّى كتب عليها اسم صاحبه. وهي أحذية أئمّة متوفّين، وقبالة صفّ الأحذية توجد عدّة مشاجب عُلّقت على كلّ واحد منها ثياب الصّلاة وعمامة الإمام السّوداء. وعُلّق على بعض المشاجب عكّاز وعلبة تحتوي على أشياء شخصيّة للإمام وعلى وثائق مهمّة تخصّ عصره.

لم يكن أغاجان يعلم متى شُيّد المسجد والدّار على وجه التّحديد. ولكنّه لو رغب في معرفة ذلك لوجد التّاريخ في هذه الغرفة. يستطيع، على نور فانوسه، أن يتبع المشاجب إلى آخر القبو حيث يوجد على الأرجح أقدم صندوق يحتوي على أوّل دفتر صنّفت فيه أوّل أخبار عن المسجد. ومن المرجّح أيضا أن يحوي هذا الصّندوق على المخطّطات المعماريّة للمسجد والدّار. ويفضي هذا المكان إلى ممرّ مظلم وقد رجّح أغاجان إمكانيّة وجود مواضع سريّة أخرى احتُفظ فيها بصناديق أخرى قديمة. ورفع فانوسه ليلقي نظرة على المكان فلمح صحائف معلّقة على الجدار دُوّنت عليها كتابات. وكان النّور خافتا كثيرا فلم يتمكّن من قراءتها. وعندما همّ بالدّخول إلى الممرّ لاحظ وجود طبقة من الغبار على الزّربيّة أكثف من تلك التي تغطي الصّناديق والثّياب والأشياء الأخرى التي رآها. والظّاهر أن لا أحد تجاوز المكان الّذي كان يقف فيه، ولا يحقّ لأغاجان إذا أن يخطو أبعد من ذلك.

بدا وكأنّ المكان مختوم بطبقة من الغبار وأنّه يحجّر فكّ الختم. كم أحبّ أن يمشي على طول الثّياب المعلّقة وأن يقرأ أسماء الأئمّة وسكّان الدّار القدامى؛ من كانوا؟ ما كانت ثيابهم؟ وما كانت خواتمهم؟ وأراد أن يفتح الصّناديق ليرى ما تحتوي عليه من أشياء، ويستنشق رائحة الملابس ويضع أحد الخواتم في إصبعه ويقرأ إحدى يوميّات المسجد. ما الّذي كانوا يتحدّثون عنه في تلك الفترة؟ ماذا كان يدور في الدّار والمسجد والبازار؟ ما كانت ألوان الأسماك الأولى في الحوض؟ ما هي الشّجرة الّتي كانت موجودة في وسط الباحة، حيث توجد الآن شجرة الأرز؟ وأيّ زاغ كان جدّ الزّاغ الموجود اليوم؟ أحبّ أن يظلّ

Twitter: @ketab_n

في القبو لأسابيع، لأشهر ليسترجع الزّمن، ليجد أجوبة عمّا خامره من أسئلة. ولكنّ ذلك كان مستحيلا. فغرفة الكنوز سرّ يسوده الغموض؛ سرّ ينتمي إلى المسجد، ينتمي إلى القرآن والماضي.

لم يكن النّفاذ إلى الزّمن الّذي ولّى مُتاحا. فهم أغاجان ذلك وكبح جماح فضوله. وضع أشعار كاظم خان في الصّندوق، وحذاءه في آخر الصفّ وراء الأحذية السّابقة ثمّ أطفأ فانوسه.

كتب كاظم خان في وصيّته أن لا يُدفن في القبو الصّغير للمسجد فبحث القرويّون عن مكان مناسب لدفنه، واختاروا مكانا جميلا في أعلى الهضبة الموجودة قبالة منزله تحت شجرة لوز تنثر آلاف الأزهار على الأرض في الرّبيع. وفي اليوم الموالي جاء عشرات القرويّين إلى سنجان لنقل جثمان شاعرهم إلى جيرجه. وتبعهم أغاجان وفجري سادات وزينات خانم والمؤذّن والجدّتان.

بعد أربعينيّة كاظم خان سافرت الجدّتان إلى مكّة. تدثّرتا بتشادوريهما وحملتا حقيبتيهما بعد صلاة الصّبح ووقفتا قرب الحوض، وقالت جلبانو «نحن مسافرتان»، وأضافت جليبه «سنقوم برحلة العمر».

ظلّت الجدّتان تخشيان أن يُلغى عقدهما إذا اكتشف أحد ما سرّهما. وما عادتا تقدران على تحمّل هذا الهاجس اليوم. كان المؤذّن أوّل من سمعهما فقال من غرفته «إلى أين أنتما ذاهبتان؟».

- إلى مكّة، أجابتاه.

- حقّا؟ إلى مكّة؟

- لا نستطيع أن نخبرك بشيء أيّها المؤذّن، ولكن صدّقنا.

وتحسّس حقيبتيهما فأدرك أنهما من الحقائب المقدّسة للكعبة. ثمّ قال بأعلى صوته «الجدّتان ذاهبتان إلى مكّة».

والظّاهر أنّ أهل الدّار كانوا مستيقظين فعندما أضاء أغاجان فوانيس الباحة وصل جميعهم مرتدين ثياب الاحتفال. فابتسموا وبكوا في الوقت ذاته، واحتضنوا الجدّتين وقبّلوهما بحنان.

Twitter: @ketab_n

واقتربت منهما فجري سادات وهي تحمل كانونا فيه بخور الإصفند ورافقتهما ابنتا أغاجان نسرين وإنسي وهما تحملان مرآة وتفّاحا أحمر. وحملت زينات خانم كوبا من الماء كما جرت العادة علامة على الدّعوة للمسافر بالسّعادة.

أحضر شهبل المصحف القديم من المكتبة وسلّمه إلى أغاجان. أمسكت جلبانو وجليبة بحقيبتيهما فقبّلهما أغاجان ومرّر القرآن فوق رأسيهما ورافقهما إلى الباب. وسكبت زينات الماء وراءهما. وبكى الجميع وكأنّ الجدّتين لن تعودا إلى المنزل من جديد.

Twitter: @ketab_n

الخيال

لاحظ أغاجان مرّات كثيرة أنّ زينات تغادر غرفتها ليلا ولكنّه لم يكن يعرف إلى أين تذهب. تقع غرفة زينات في الطّابق الثّاني ولكي تنزل إلى الطّابق الأوّل فعليها أن تمرّ أمام غرفة فجري سادات وأغاخان.

وذات ليلة، بينما كان أغاجان يقرأ في مكتبه، سمع فتح باب درج الطّابق العلويّ. ظنّ أنّها فجري، ولكنّه لم يسمع خطوات أخرى، فنظر من خلال فتحة في السّتار فرأى خيالا يتحرّك في العتمة. فتح الباب وخرج إلى الباحة، فلمح طرف تشادور أسود قرب الدّرج. ربّما تكون زينات، ولكن ماذا تفعل هناك في هذا اللّيل المتأخّر؟

عاد إلى مكتبه بينما أخذ طائر الزّاغ في النّعيب فجأة. فذكّر تحذير الزّاغ أغاجان بقصّة امرأة صراندياب.

كان في صراندياب ذات مرّة تاجر متزوّج من امرأة تسمّى جَميس. كانت جميلة إلى حدّ لم يتصوّر فيه أحد أنّه يمكن أن يوجد في الواقع امرأة بذلك الجمال. كان وجهها يبرق مثل يوم النّصر وشعرها أسود طويل كليل عاشق ينتظر حبيبته ولا وِصال.

وكانت لجميس صلات سريّة برسّام مشهور يصنع الأعاجيب بريشته. فكانت تزوره سرّا ويقضّيان معا أجمل اللّيالي الفارسيّة. وفي إحدى اللّيالي قالت له «تصير زيارتي لك أصعب يوما بعد يوم، وأصعب عليّ من ذلك طول انتظار فرصة سامحة في ليلة ما. ابتكرْ شيئا ما حتّى أستطيع أن أبقى معك لمدّة طويلة، ألست بفنّان؟ ».

– لديّ فكرة، قال الفنّان، «سأصنع لك رداء يكون أحد وجهيه أوضح من نجمة الصّباح في الماء، ويكون الثّاني أسود من اللّيل. وفي اللّيل تضعين الرّداء من الوجه الأسود وأنت قادمة إليّ وكأنّك جزء من اللّيل. وفي الصّباح تضعين الرّداء من جهته الأخرى وتعودين إلى دارك وكأنّك جزء من النّهار».

Twitter: @ketab_n

منذ سفر الجدّتين انفتحت حقبة جديدة في حياة الدّار. لم يعد الإيقاع الّذي وضعتاه للدّار موجودا. وقد كانت السّاعة القديمة شاهدا على هذا التّوقّف المفاجئ. عندما كانت الجدّتان هنا كان المطبخ ينبض حياة، وزاغ المسجد ينعب كلّما حلّ ضيف، والمكتبة مرتّبة دائما. والبيّن أن هذه الفترة قد انتهت.

في الماضي كانت الجدّتان توقظان الأطفال وتساعدان فجري سادات على ترتيب غرفتها. وتخبران أغاجان بكلّ ما يحدث في الدّار وتحرسان مَخْزَف المؤذّن. ولم يعد أحد اليوم يتكفّل بتلكم الواجبات.

لا أحد يستطيع أن يملأ الفراغ الّذي تركتاه. لو كانتا هنا لتبعتا زينات إلى السّطح على الأرجح.

كان أغاجان راضيا عن الإمام المعوّض، فهو يقوم بعمله بنشاط كبير ويتمتّع بحسّ مُبهج. خلال حديثهما الأوّل لاحظ أغاجان، عن صواب، أنّ الإمام يتّقد طموحا، ولكنّه شكّ في قدراته.

وواصل الإمام المعوّض الحديث عن القضايا الّتي تشغل الرّيف فقط، ولكن كان يبلي حسنا. فقد انتقد مؤخّرا وزارة الفلاحة انتقادا لاذعا متّهما إيّاها بعدم الاهتمام بالقرى الفقيرة.

لم يكن قد ذهب بعدُ إلى طهران، ولكن في إحدى خطبه، ألقى ملاحظة نُشرت في الصّفحة الأولى من الصّحيفة المحليّة «في طهران، حسب ما قيل لي، في كلّ بيت هاتف، ولكن في مئات القرى الجبليّة، لا أثر لأيّة مقصورة هاتف. في طهران، نستطيع أن نستدعي سيّارة إسعاف لجرح بسيط في أصبع، ولكن ماذا أفعل أنا إذا مرض أبي مرضا شديدا؟ سأحذّر طهران! خمّنوا! لقد خلق الله البشر سواسية».

ابتسم رجال الشّرطة وأعوان الاستخبارات لانتقاد غير هجوميّ مثل هذا. لقد ثمّنوا هذا النّوع من النّقد، بل إنّهم قد شجّعوه.

صارت ملاحظات الإمام المعوّض أكثر شعبيّة شيئا فشيئا، وصارت تُنشر بانتظام في الصّحيفة المحليّة. وكان أغاجان راضيا عنه وسمح له بحيّز أكبر من الحريّة في اختيار مواضيعه. وحين نُشرت صورة الإمام في الصّحيفة المحليّة مع جزء من خطبته سأل أغاجانَ زميلٌ له قائلا «هو بسيط ولكنّه يبدو حازما في مواضيع غير متوقّعة في الغالب».

Twitter: @ketab_n

لم تظهر أيّة صورة لأيّ إمام في صحيفة إلى حدّ الآن. وقد بعث الصّحيفة مصوّرا إلى المسجد ليلتقط صورة للإمام على سطح المسجد بين منارتين.

وفي اليوم الموالي، سُرّ الإمام برؤيته لصورته في الصّحيفة حتّى إنّه قضّى اليوم دون أن يقدر على الجلوس. لقد تحقّق حلمه. منذ شبابه كان يحلم بأن يخطب في مسجد كبير. واليوم صورته وخطبته تُنشران في صحيفة وقد كسب بعض الشّهرة في سنجان.

وفق الشّريعة، لم تقم زينات والإمام بأيّ ذنب، ولا يوجد شيء ليُخشى إذا. عندما يذهب مسلم ما ليعيش بعيدا عن زوجته الشّرعيّة لفترة طويلة، فيمكن له أن يتسرّى ولكنّ الإمام كان يدرك أنّه يخاطر في علاقته بزينات، وأنّ أغاجان سيعيده إلى قريته فورا إذا أدرك ذلك.

ولم تكن زينات مرتاحة لكونها زوجة ثانية. كانت تخجل من البقاء مع الإمام المعوّض في المسجد بينما يرقد زوجها وعشرات من الأئمّة المتوفّين في مرقد المسجد. كان الإمام يرغب في بقائها معه كامل اللّيل ولكنّها كانت ترفض جزعا من أن يفاجئهما أغاجان.

وعندما كانت تلتقي به في النّهار لم تكن تتخيّل أنّها عاشرته وأنّه قد نزع عنها ملابسها. ولكن في الظّلام يختلف كلّ شيء؛ فهي لم تكن تراه، كانت تحسّ فقط بيديه وكتفيه وظهره وحركاته؛ وقد كان قويّا كالثّور.

وما أن ينتهيا من وصالهما حتّى تمسك زينات بتشادورها وتمضي. كانت ترغب في أن تُنهي كلّ صلة لها به، وأن لا تسمع منه أيّة كلمة. ولكنها في اللّيلة التّالية عندما تكون وحيدة في فراشها، ولا ضوء، كانت تفتقده.

لم يقبّل زوجها الصّابري المغفور له صدرها قطّ ولم يلسع عجزيها كالمتوحّش، وحملها المعوّض إلى كون من اللّذّة نسيت فيه العالم كلّه.

حملها مؤخّرا إلى المرقد ونزع عنها لباسها وعاشرها على حجر قبر صلد بارد. اعترضت ولكنّه أصرّ، فعانقته واحتضنته واستسلمت له.

وكانت زينات تقول وهي في طريق العودة «هذا لا يجوز، لن أذهب إلى هذا الرّجل من جديد أبدا، هذا يكفي الآن، أحمد الله على أنّ أحدا لم يتفطّن إلى هذه العلاقة، يجب أن أكفّ عن ذلك وسأكفّ. سأتغيّب لفترة، سأذهب إلى قمّ عند ابنتي وسأبقى عندها مدّة

Twitter: @ketab_n

من الزّمن. سأذهب إلى مقام فاطمة الزّهراء لأتوب، وسأسألها الغفران. سأفعل ذلك، غدا، سأحزم حقيبتي وأغادر».

ولكنّها لم تفعل هذه المرّة أيضا، بل ذهبت إليه.

سمعها المعوّض تمشي بخطى خافتة نحو الدّرج. واختفت في الظّلمة ولكنّها بعد قليل، كانت تغسل يديها في حوض المسجد وترشح وجهها.

أراد المعوّض أن يحملها من جديد إلى المرقد، ولكنّها رفضت. وعندما أمسك بها بيديه الضّخمتين ودسّ رأسه بين نهديها، تملّصت منه. أوقفها، وفتح باب القبو برجله ونزل الدّرج. وفي القبو، أشعل شمعة على صخرة ضريح كبيرة ونزع عنها ملابسها، ونعليها وجوربيها وحملها حافية القدمين نحو ضوء الشّمعة. نزع عباءته ووضعها على حجر ضريح قرب الشّمعة، وأخرج عنقود عنب بنشوة ووضعه على صدرها والتقمه بفيه. وجرى عصير العنب على صدرها وبطنها فالتحسه وكادت زينات تموت نشوة.

وكان غارقين حتّى إنّهما لم يلحظا خيالا يمرّ أمام نوافذ القبو ممسكا شعلة.

كان المعوّض نشوان بعصير العنب وبزينات ورتّل بصوت عال سورة الفلق وهو ممدّد فوقها:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ [1]

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ [2]

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ

إِذَا وَقَبَ [3]...

كان يرتّل وزينات تستمع ولم يلاحظا شخصا ما ينزل درج القبو حاملا شعلة. ثمّ أبصرا النّور وسمعا وقع الخطى. فدفعت زينات الإمام وأخذت تشادورها الأسود واختبأت في الظّلمة.

استدار المعوّض ورأى خيالا يرفع شعلة فوق رأسه.

«أيّها الإمام، احزم حقيبتك».

Twitter: @ketab_n

الحجّ

استقدم أغاجان معوّضا آخر، إماما عجوزا من سروج. كان هذا الإمام أقلّ حماسا، ويتحدّث في خطبه عن الأولياء في أغلب الأحيان. كان أغاجان راضيا عنه. لم يغضب منه لأنّ المسجد صار أهدأ من ذي قبل.

لقد مرّت ثلاثة أشهر وسيعود الحجّاج قريبا. عزم أغاجان على تنظيم حفلة استقبال كبيرة للجدّتين وسيستدعي لها كلّ أفراد العائلة. تُعتبر حفلة استقبال الحجّاج حدثا فريدا دوما. فتُزيّن دار الحاجّ بمصابيح مختلفة ألوانها، وتُبسط الزّرابي في الأفنية الدّاخليّة ويُولَمُ. ويتوافد الأقارب والمعارف والجيران طيلة أسبوع لتهنئة الحاجّ والمشاركة في الولائم الّتي تقام على شرفه. وخلال هذا الاحتفال يسمّى الرّجل حاجّا والمرأة حاجّة. ويحمل الرّجل والمرأة كلاهما هذا اللّقب باعتزاز حتّى آخر أيّامهما.

وكتب أغاجان رسالة إلى أخيه نصرت:

أخي العزيز، لم تزرنا منذ مدّة، ونحبّ أن نراك. لقد استضفت كلّ الأقارب لحفلة استقبال الجدّتين، وأودّ أن تأتي أنت أيضا، حاول أن تكون هنا عند الموعد. لقد كرّست الجدّتان عمرهما كلّه لخدمة دارنا ومن واجبك أن تحضر الحفلة الأهمّ في حياتهما. أهل الدّار كلّهم مشتاقون إلى العم نصرت.

إلى اللّقاء.

وبعد أيّام هاتفه نصرت قائلا «أعتذر، لا أستطيع المجيء، لديّ موعد مهمّ، وأعد بأن أحضر لاحقا. سأعوّضهما عن ذلك».

وفي اليوم الموعود لعودة الجدّتين، توجّب على نصرت الذّهاب إلى المسرح الكبير بطهران، في شارع لالزار حيث ستغني مَهْوَش. كان قد تعاقد مع المسرح ليأخذ لهم مجموعة من الصّور الفنيّة لمغنية طهران المشهورة. وهذا طلب هامّ لا يقدر على رفضه: ستتأكد شهرته الفنيّة إذا نجح في أخذ بعض الصّور الجيّدة لهذه النّجمة.

Twitter: @ketab_n

كانت مهوش نجمة غيّرت ليالي طهران: لا بسبب صوتها، بل بسبب تمويجات يديها وصدرها وعجُزيها. وهي تمثّل المرأة النّموذج عند كلّ الرّجال الفُرس. وكانت رمز عصر تترك فيه النّساء تشادوراتهنّ في ديارهنّ طوعا ويخرجن إلى الشّوارع دون حجاب.

ويُغشى على الرّجال لذّة عندما يرون مهوش على الرّكح. تسحرهم حركات يديها العاريتين ونهديها الطّافحين من الصّدار مكشوف الرّقبة واليدين. ويعذّبهم كعباها العاليان وجورباها اللّامعان وشفتاها المحمرّتان. فتكشف أسرار الفارسيّات التّقليديّات للرّجال الّذين جاؤوا إلى المسرح من أجلها. استقبلها مالكو مسرح طهران مثل آلهة، وتدافع المصوّرون ليقتربوا منها.

على طول تاريخ البلاد لم تجرؤ امرأة قطّ على الصّعود إلى الرّكح في فستان ملتصق بعجزيها وصدرها. ورفعت يديها العاريتين المكتنزتين وهزّت عجزيها الهائلين. وفجأة تمايلت في مشيتها وغنّت بنبرة شبقيّة:

البارحة، حين عودتي من الهندْ
كنت قد عدت في مرسيدس بنز، متأكّدْ،
كن صريحا وقل لي
هل كان قد التوى عجزي؟

«لا، لا، من قال هذا؟ ردّ الرّجال مغتبطين.
«مدار شوهار، حماتي، أجابتهم
«إنّها تغار من عجزيك» صاح الرّجال دفعة واحدة.

اعتادت الصّحف أن تنشر صورتها يوميّا، ولكن لم يأخذ أيّ مصوّر بورتريه شخصيّا لها. وكان نصرت يعرف مُهَنروج مالك المسرح معرفة جيّدة وقد نجح في إقناعه أنّ البورتريهات الّتي سيأخذها لها ستصمد على مرّ الأزمان. ولم توافق المغنية على استقباله إلّا بعد أن أخبرها مالك المسرح أنّ هذا المصوّر مختلف عن غيره، وأنّه لا يصوّرها من أجل المال بل من أجلها هي.

وعندما كان نصرت يدخل منزل مهوش، كان أغاجان مستقلّا سيّارة نحو المحطّة ليستقبل الجدّتين. وفجري سادات تجلس قربه. وخلفهما كان رتل من السيّارات قد استقلّه عدد من الأهل والأصدقاء.

Twitter: @ketab_n

يوشك القطار على الدّخول إلى المحطّة وقد غصّ بحجّاج استغرقت رحلة عودتهم ثلاثة أسابيع: غادروا مكّة في حافلة متّجهين إلى المدينة حيث قبر الرّسول، ثمّ غادروا العربيّة السّعوديّة متّجهين نحو العراق حيث زاروا المدينتين المقدّستين: النّجف وكربلاء. في كربلاء يوجد مقام الإمام الحسين وفي النّجف مقام الإمام عليّ. ثمّ اجتازوا نهر أروندرود في باخرة ليعودوا إلى وطنهم في القطار.

كان الجميع يفكّرون في الجدّتين وكان الصّغار خاصّة فرحين بعودتهما لأنّ التّقاليد تقتضي أن تحمل الجدّتان لهم هدايا من مكّة.

تعتبر السّاعات اليدويّة الّتي تضيء عقاربها في اللّيل مثل الفوانيس وساعات التّنبيه الّتي تبثّ نصوصا قرآنيّة أهمّ الهدايا. وقد حملت الجدّتان خواتم وأسورة للفتيات وأحزمة سراويل قد دوّنت عليها أقوال مأثورة للأطفال. هدايا مكّة يثمّنها الجميع ولا ينسونها، فهي ليست هدايا عاديّة اشتريت من مغازة ما، بل هي هدايا مصدرها مكّة حيث الكعبة بيت الله، والمدينة الّتي وُلد فيها محمّد وعاش مع خديجة؛ أغنى امرأة في مكّة، ومالكة ثلاثة آلاف جمل.

كان القطار الّذي يوشك على الوصول قطارا مخصوصا يتوقّف في محطّات المدن الرّئيسيّة لينزل الرّكّاب. واهتمّت شركة السّكك الحديديّة كثيرا بتهييء المقصورات. وبما أنّ اللّون الأخضر كان لون الإسلام فقد ازدانت المقصورات بخافقات خُضْر، وعُلّقت على النّوافذ قطع قماش خُضْرٌ دوّنت عليها نصوص مقدّسة ووضع الحجّاج أنفسهم شالات خضرا.

صفّر القطار طويلا قبل وصوله إلى سنجان ثمّ دخل المحطّة وقد أنار أضواءه كلّها. وما إن توقّف حتّى عزفت الجوقة العسكريّة نشيد التّرحاب.

توقّفت سيّارة أغاجان في المحطّة. وكان رئيس المحطّة مرتديا زيّه الرّسميّ احتفالا بالمناسبة وحيّا أغاجان وهو في أعلى الدّرج. وانتظر إلى أن يتجمّع كلّ أفراد العائلة فيقودهم إلى صالة استقبال الضّيوف المبجّلين. وقدّم إليهم الموزّعون الشّاي والبسكويت في أطباق صنعت خصّيصا لسكّة الحديد. ورتّل قرّاء المسجد آيات قرآنيّة مسجوعة في مكبّرات الصّوت. وحملت العجائز المباخر ووضعن فيها بخور الإصفند فانبعث منها دخان عطر. وقدّمت العائلات الحلويّات والمشروبات بالتّتابع، وحمل عمّال سكّة الحديد مرشّات فضيّة ملأى بماء الورد ورشّوا بها على أيدي الزّائرين.

دخل قطار الجدّتين المحطّة. ولوّح مئات من الحجّاج بشالاتهم من النّوافذ محيّين جمع

Twitter: @ketab_n

المنتظرين في الممرّ. وتوقّفت المقصورات الثّلاث الّتي تقلّ حجّاج سنجان والقرى المجاورة أمام باب المحطّة بالضّبط. ونزل الحجّاج الواحد تلو الآخر يحملون حقائب ثقيلة فحيّاهم رئيس المحطّة من مكبّر الصّوت.

«أين الجدّتان؟ سألت فجري سادات.

– لا بدّ أنّهما لا تزالان في القطار، قالت زينات خانم. أنت تعرفينهما، فهما تريدان أن تنظّفا كلّ شيء خلفهما وتتركا المقصورة نظيفة.

– شهبل، هلّا ذهبت لتنظر أين هما، قال أغاجان. أظنّ أنّ القطار لن يغادر طالما هما لا تزالان في مقصورتهما تنظّفانها.

وبحث شهبل عن الجدّتين دون أن يفلح في العثور عليهما. فانحنى من إحدى النّوافذ قائلا «ليستا هنا».

– أسرع وابحث عنهما في باقي المقصورات أظنّ أنّهما لم تضيعا.

كان القطار طويلا جدّا وجرى شهبل من مقصورة إلى أخرى. فأعلم أغاجان رئيس المحطّة قائلا «لم تنزل مسافرتاي بعد، ربّما تكونان في عربة أخرى، ربّما لم تعلما بأنّ عليهما النّزول هنا».

دوّن رئيس المحطّة اسميهما في مكتبه، وأخذ مكبّر الصّوت وصاح «انتباه، نحن ننادي الحاجّتين جلبانو وجليبه، عليهما أن تنزلا هنا. أكرّر، الحاجّتان جلبانو وجليبه عليهما أن تنزلا هنا».

وبعد عشر دقائق لم يكن قد لاح أيّ أثر للجدّتين بعد. وجاء شهبل راكضا وقال: «لقد بحثت في كلّ العربات ولا أثر لهما. ربّما تكونان قد نزلتا في محطّة أخرى».

غادر الحجّاج وصار الممرّ خاويا. ودخل قائد القطار إلى عربة المحرّك وأغلقت أبواب القطار. وتردّد صوت رئيس المحطّة في الممرّ لآخر مرّة «انتباه، السّيّدة جلبانو والسّيّدة جليبه عليهما أن تأتيا إلى مكتب رئيس المحطّة».

انتظر المراقب برهة أخرى ثمّ نظر إلى ساعته وصفّر. تحرّك القطار، وغادر المحطّة وترك أغاجان والعائلة كلّها في الممرّ.

وظلّ أغاجان يهاتف كلّ المحطّات بين نهر أروندرود الحدوديّ وسنجان بمساعدة رئيس

Twitter: @ketab_n

المحطّة، ولكنّ أحدا لم ير الجدّتين. فزار كلّ الحجّاج العائدين من مكّة ولكن دون جدوى. قالوا بأنّهم رأوا الجدّتين آخر مرّة في مكّة وهم يظنّون أنّهما قد التحقتا بقافلة أخرى.

ولم يبق لأغاجان إلّا أن ينتظر الأخبار الرّسميّة لمرشدي الرّحلة، ولكنّهم لن يأتوا قبل بعض أسابيع بعد أن يكونوا قد سوّوا كلّ الإجراءات الإداريّة.

لا تمطر في الصّيف عادة، ولكنّ سحبا داكنة كانت تمرّ فوق المدينة في اتّجاه الصّحراء. وبدأ المطر في النّزول عندما طُرق الباب.

أضاء شهبل النّور وفتح الباب. كان الحاج مصطفى منظّم الحجّ يقف أمام الباب ومعه حقيبتان.

- مساء الخير، هل أغاجان هنا؟ قال

- لحظة من فضلك، سأعلمه.

غاب شهبل برهة وعاد مسرعا ليصطحب الحاج مصطفى إلى مكتب أغاجان.

وضع الحاج مصطفى الحقيبتين أرضا واحتضن أغاجان بقوّة.

«لم أر مثل هذا قطّ، إنّها قصّة غريبة، وأنا لا أعرف إذا كان علينا أن نعتبر الأمر بركة أو مأساة. إنّها بركة إذا كانتا قد اختفتا في بيت الله، ولكنّها مأساة إذا كان الأمر غير ذلك، قال بألم».

- ما الّذي حدث بالضّبط؟

- هاتان حقيبتاهما. وقد اختفت الجدّتان مثل قطرة ماء في الصّحراء. لقد بحثت عنهما في كلّ مكان في مكّة، في كلّ مراكز الشّرطة وفي المستشفيات وفي المساجد، ولكن لا أثر لهما، أيّ أثر كان. إلى غاية آخر يوم، كانتا في القافلة وهما بخير، وكانتا بصحّة جيّدة وسعيدتين. ولكن حدث شيء مثير: قبل حوالى ساعة من مغادرتنا مكّة متّجهين إلى المدينة جاءتا إليّ ووضعتا حقيبتيهما قرب مكتبي وكانتا متدثّرتين في تشادورهما ثمّ غادرتا دون أن تنبسا بكلمة. ظننت أنّهما أرادتا أن تذهبا إلى البازار مرّة أخيرة لشراء بعض الهدايا، ولكنّهما لم تعودا. هاتان حقيبتاهما. أنا آسف، ربّما كان عليّ أن اهتمّ بهما عن قرب. أرجو أن تسامحني، وسأفعل ما بوسعي لأجدهما. وسأعلمك بكلّ جديد.

غادر الحاج مصطفى، وظلّ أغاجان وحده مع شهبل.

Twitter: @ketab_n

«أظنّ أنّهما قد ضاعتا، أو أنّهما لم تعرفا الطّريق في مكّة، قال شهبل.

- ثمّ ماذا؟

- اختبأتا وراء السّتار المقدّس للكعبة. لم تكونا راغبتين أو لم تعودا ترغبان في العودة إلى الدّار، هذا مؤكّد.

- لمَ أرادتا الاختباء؟ سأل شهبل حائرا.

- أرادتا أن تموتا في مكّة، وهذا أطيب موت يتمنّاه مسلم. حسب رأيي، لقد استخلصت كلتاهما أنّها قد عاشت بما فيه الكفاية. وكان لهما الخيار إمّا أن تعودا إلى الدّار وتنتظرا موتا عاديًا أو أن تموتا في بيت الله. إذا متنا في مكّة نذهب إلى الجنّة مباشرة. قل لي: ماذا كنت ستختار إذا كنت في مكان الجدّتين؟

- لا أستطيع أن أتصوّر أنّهما قد بقيتا هناك طوعا. ما الّذي يحملك على أن تعتقد هذا الاعتقاد؟

- لا أستطيع أن أشرح لك ذلك. لقد عاشتا خمسين سنة على الأقلّ معنا في هذه الدّار، وخلال هذه الفترة كانتا قد سمعتا القصص القديمة، والآن تريدان أن تعيشا قصّتهما الخاصّة. (ابتسم شهبل). لنفتح الحقيبتين فربّما حوتا رسالة ما بداخلهما.

فتح شهبل الحقيبتين وكانتا ممتلئتين هدايا: ساعات يدويّة، وأسورة ذهبيّة، وخواتم وثيابا ذات ألوان تلمع في الضوء، وهدايا قيّمة لأهل الدّار.

- وهذا هو الدّليل، قال أغاجان. لم تتركا أيّ غرض شخصيّ في الحقيبتين، ولم تتركا حتّى كفنيهما المكيّين. كلّ النّاس يحلمون بشراء كفن مكيّ، وهذا أوّل ما يشتريه الحاجّ. نحن ندفن في كفن. لقد احتفظتا به، ربّما تلبسانه تحت ثيابهما.

- حقّا؟ قال شهبل. ماذا سنقول للآخرين؟

- الحقيقة. هلّا وضعت الحقيبتين خلف المكتب، وطلبت من الجميع الحضور إلى هنا.

فعل شهبل ما طلبه أغاجان، وخرج لينادي على كلّ سكّان الدّار.

وعندما اجتمع كلّهم في مكتب أغاجان، قال لهم «لقد جاء الحاج مصطفى لتوّه،

Twitter: @ketab_n

وللأسف لم يخبرني بأيّ جديد. سيتابع اتّصالاته يوميًا بشرطة مكّة وما إن يعلم بجديد حتّى يبلغني إيّاه».

تأثّر الجميع واستمعوا إلى أغاجان في صمت.

«هل يعني هذا أنّنا لن نراهما ثانية»، قالت نسرين؛ البنت الكبرى لأغاجان.

- لا يمكن أن تتوها. ستعثر الشّرطة عليهما، قال جواد ابن أغاجان.

- أعلم ذلك. لقد فعل الحاج مصطفى كلّ ما في وسعه. من يعلم؟ ربّما استقلّتا قطارا إلى مدينة أخرى. ملايين الأشخاص يذهبون إلى مكّة، وتوجد احتمالات كثيرة. ولكنّ الجدّتين قد قامتا بفعل نبيل جدّا. لقد أعطتا هدايا لكم جميعا للحاج مصطفى. وهذا، حسب رأيي، أكبر دليل على أنّهما بخير. «شهبل، الحقيبتان»، قال أغاجان.

وضع شهبل الحقيبتين على المكتب وفتحهما. نظر الجميع مذهولين إلى روعة الهدايا المكوّمة أمام أعينهم: ساعات يدويّة، ساعات منبّهة، عقود ذهبيّة، أحذية شتويّة، عاصبات رؤوس، عطورات، خُمُر متعدّدة ألوانها، قمصان ومحافظ أصليّة. وعلى كلّ هديّة عُلّقت ورقة كُتب عليها اسم الشّخص المهداة إليه. اشترت الجدّتان لنسرين وإنسي ابنتي أغاجان قمصانا زاهية، ولجواد ابن أغاجان طاقيّة رياضيّة وساعة يدويّة، ولفجري سادات علبة من أدوات الزّينة، وللمؤذّن عصا قابلة للطّيّ، وهو ما لم يره أحد من قبل قطّ، ولزينات خانم مجموعة مختارة من قصائد شعراء مكّة، ولأغاجان قلما يحمل في غطائه صورة الإمام عليّ، ولشهبل ساعة يدويّة ومقطع قماش أزرق كبير ذي خطوط بيضاء دقيقة يستطيع أن يخيط منه بدلة.

كان الجميع سعداء، وقد أعجبوا بذوق الجدّتين وأثنوا على هداياهما القيّمة. ولكنّ صرخة دوّت فجأة في الخارج قطعت عليهم فرحتهم. صرخت امرأة وسبّتها أخرى بصوت عال. ولم يعتدّ أهل الدّار على سماع النّسوة يتخاصمن، لم يكن ذلك حدثا عاديّا. كانت امرأتان تتعاركانْ على سطح الجيران قرب المكتبة.

«هاتان زوجتا الحاج شيشجار»، قالت زينات خانم.

كان عمر الحاج شيشجار ستين عاما. وقد ذهب إلى مكّة في رحلة الجدّتين ذاتها وعاد إلى داره لتوّه. وهو يتاجر بالبلّوريّات ويملك مغازة كبيرة في البازار. وللحاج زوجتان

Twitter: @ketab_n

تسمى الكبرى إكرام وتسمّى الصّغرى تاله. وقد أنجبت له إكرام سبع بنات، ولكنّه رغب في ولد فبحث عن امرأة أخرى لفترة طويلة. فوجد امرأة شابّة وتزوّجها ولكنّه اكتشف أنّها لا تلد.

«لا، لا تضربيني، لم أكن أعلم ذلك، لم أكن أعلم ذلك يقينا»، قالت تاله بصوت متوسّل. ولكنّ إكرام لم تكفّ عن ضربها، فصاحت في وجهها، وجذبتها من شعرها، وضربتها من جديد.

«لا تفعلي ذلك، لم أوذيك، أبناؤك أبنائي، أتوسّل إليك، كفّي عن ضربي».

تدخّلت زينات خانم بعد أن صعدت على الدّرج إلى السّطح

«ماذا بكما؟ لِمَ تختصمان؟».

- لا شيء، قالت تاله، زوجة الحاج الصّغرى.

- ولِمَ تضربك إذا؟ ولِمَ تختصمان على السّطح؟

- لأنّ الحاج في الدّار، هذا هو السّبب، وأنا.... أنا...

- أنتِ ماذا؟

- أنا حامل، قالت ذلك بصوت خافت.

واختفت إكرام زوجة الحاج الكبرى في الظّلمة باكية.

«تاله حامل، قالت زينات بأعلى صوتها.

- مبروك، مبروك، قالت ابنتا أغاجان وهما في ظلمة الباحة.

سأل الحاج شيشجار الله، خلال إقامته في مكّة، في الكعبة، أن يهبه ولدا. فوهبه الله توأما، ولدين في بطن واحدة.

ومرّت أشهر في دار المسجد دون أيّ جديد عن الجدّتين.

Twitter: @ketab_n

العودة

عندما ذهب شهبل إلى المطبخ صباحا ليتناول فطوره رأى امرأة جالسة على المقعد قرب الحوض ومعها حقيبة. ولم يعرفها إلّا عندما أنزلت تشادورها على كتفيها.

«أهذه أنتِ يا صادقة؟»

ذهبت صادقة إلى قمّ في ذات اليوم الّذي غادر فيه جلجل سنجان بعد أحداث السّينما ولم تعد إلى الدّار منذ ذلك اليوم.

احتضنتها زينات وقبّلتها وسألتها عمّا جرى لها ولماذا عادت إلى الدّار حزينة هكذا. وضعت صادقة رأسها على كتف والدتها وبكت دون أن تقول شيئا.

كانت زينات تعلم بأنّ ابنتها لم تكن سعيدة مع جلجل، وأنّه لم يمنحها حياة عائليّة عاديّة، ولم يكن يسمح لها باستقبال النّاس في دارها، وأنّها كانت تعيش في قلق مستمرّ.

كان كثير التّغيّب على المنزل تاركا إيّاها وحيدة، ولم يكن يخبرها عن أعماله ويمنعها من أن تحكي لعائلتها أيّ شيء عنهما.

اختفت الآن الابتسامة الّتي كانت مرتسمة على شفتيها. وصار وجهها مغطّى بحجاب من الحزن.

«ماذا حدث؟».

لم ترُدّ صادقة.

«هل هربتِ من المنزل؟»

«هل تعاركتما؟»

هزّت برأسها.

«أخبريني عمّا حدث إذا».

لم تجب.

Twitter: @ketab_n

كانت صادقة تمشي في الباحة وهي تفكّر في ما كان قد حدث لها مؤخّرا؛ غادر جلجل منذ أشهر وتركها وحيدة في المنزل ولم تكن تعرف أين ذهب ولا متى سيعود. وفي أحد الأيّام استلمت منه رسالة يقول فيها «لن أعود قريبا إلى المنزل. من المحتمل أن يطول غيابي. عودي إلى عائلتك ولا تخبري أيّ أحد بأيّ شيء».

كانت صادقة صامتة ولكنّ الجميع كانوا يعرفون بأنّها قد عادت لأنّ زواجها قد فشل. ومازالت تتساءل عمّا إذا كانت ستقبل بأن ترجع معه إذا ما جاء إلى الدّار في يوم ما. هل تعود إلى ذلك المنزل الفظيع في قم؟ هل ترغب في العيش معه من جديد؟ هل ستشاركه فراشه؟ وكانت تعلم أنّ المرأة لا خيار لها. عليها أن تعود إليه إذا طلب منها العودة.

وقالت في نفسها «لا، لن أذهب معه، وإذا أجبرني على العودة فسأصرخ إلى أن يصعد المصلّون في المسجد إلى السّطح».

دخلت المطبخ وأحسّت بالفراغ الّذي تركته الجدّتان.

عندما كانت الجدّتان هنا كان المطبخ نظيفا ومرتّبا دائما. ولم يعد الآن أيّ شيء مرتّبا في مكانه، فقد عمّت الفوضى. كانت سلّة الفضلات ممتلئة. وصارت أوعية حفظ أعشاب الطّبخ والتّوابل مبعثرة في كلّ مكان، وقد كانت في ما مضى مرتّبة في خزانة دائما. وزال الشّذى الّذي كانت تنشره الفواكه الموضوعة في سلالها فوق الحصير. بدأت صادقة ترتب المطبخ فأخرجت سلّة الفضلات ونظّفت قنّينات التّوابل ووضعتها فوق اللّوح الخشبيّ المخصّص لها. ورتّبت القدور وغسلت الأرضيّة ونظّفت الزّجاج وسَقَتِ النّباتات ثمّ وضعت قدرا فوق النّار وبدأت بتحضير الطّعام.

وعندما عاد بقيّة أفراد العائلة مساءً رأوا نور المطبخ مضاء واستنشقوا رائحة الطّعام تسري في كلّ مكان.

أعدّت صادقة لوازم الأكل في قاعة الطّعام وتجمّعت العائلة لأوّل مرّة منذ فترة حول المائدة.

لم يسأل أيّ أحد شيئا ولم يتحدّث أيّ شخص عن جلجل. كان الجميع يعلم أنّ أغاجان سيتحدّث معها إن لزم الأمر.

استمتعت العائلة بالأمسية الجميلة وقالوا بأنّهم قد اشتاقوا إلى الأطعمة اللّذيذة.

Twitter: @ketab_n

وبعد الطّعام عملت صادقة في المطبخ لوقت متأخّر من اللّيل. وبعد أن رتّبت المطبخ جلست قرب النّافذة ونظرت طويلا إلى حقيبتها، وكانت ما تزال قرب الحوض. استدعتها زينات لتُقيم معها في غرفتها ولكنّها رفضت.

نظرت إلى نفسها في مرآة المطبخ القديمة، وهي المرآة ذاتها الّتي كانت الجدّتان تنظران فيها إلى نفسيهما. أخبرتها المرآة المعتمة بأنّ مرحلة جديدة في حياتها قد بدأت.

كانت قد تردّدت طوال اليوم ولكنّها الآن تعلم ما الّذي يجب عليها فعله. فوقفت وأطفأت النّور وذهبت إلى القبو.

«من هناك؟» قال المؤذّن، انتفضت صادقة

«أهذه أنتِ يا صادقة؟ ألست مخطئا؟»

- نعم، هذه أنا.

- لم أكن متأكّدا من ذلك. لخطواتك وقع مختلف، أجد صعوبة في التّعرّف عليها. ما الّذي تبحثين عنه في القبو في غمرة اللّيل؟

- أبحث عن مفتاح، لا بدّ أنّه في إحدى الصّناديق القديمة.

- أيّ مفتاح؟

- مفتاح الغرفة الموجودة قرب دُرج المسجد؛ الغرفة الموجودة بين الدّرج ومكتب أغاجان.

- أتريدين هذا الفتاح الآن؟

وبحثت في الصّناديق القديمة ولكنّها لم تعثر عليه. فقال لها المؤذّن «انظري وراء هذه القبّة، لا بدّ من وجود صندوق آخر هناك، احملي الشّمعدان وإلّا فإنّك لن تري شيئا».

كان يوجد شمعدان صغير في مشكاة وبجانبه علبة كبريت. أشعلت صادقة شمعة واقتربت من الصّندوق وبحثت فيه ولكنّها لم تعثر على أيّ مفتاح.

«أعرف أنّه يوجد صندوق آخر، هنا، في الخزانة، يمكن أن يكون المفتاح فيه»، قال المؤذّن.

أضاءت نور الورشة فرأت المؤذّن أمام فرنه يصنع مزهريّة.

Twitter: @ketab_n

«انتبهي، لقد وضعت للتّوّ بعض المزهريّات، هناك»، قال لها.

وتوجّهت صادقة نحو الخزانة متنقّلة بحذر بين المزهريّات الّتي أُخرجت للتّوّ من الفرن، وفتحت الخزانة.

كانت معاطف رجال وعصيّ قديمة معلّقة في الخزانة.

«هل وجدته؟»

- كلّا، لا يوجد غير الملابس.

«يجب أن يكون هناك، لقد سمعت صليل مفاتيح عندما كانت الجدّتان هنا، وهما ترتّبان الخزانة».

أزاحت صادقة المعاطف فسمعت فجأة صوتا خافتا للمفاتيح.

«هذه هي، عثرتِ عليها» قال المؤذّن.

عادت صادقة إلى الباحة، سارت بمحاذاة مكتب أغاجان وتوقّفت أمام الغرفة الثّالثة. وجرّبت كلّ المفاتيح واحدا تلو الآخر، فلم يدخل في القفل سوى مفتاح واحد ولكن استحال تدويره. فرجعت إلى القبو لتبحث عن المؤذّن.

وضع المؤذّن بعض الزّيت على القفل وحاول فتحه ولكن دون جدوى. فقال لها «لا أعرف منذ متى لم يُفتح باب هذه الغرفة، المفتاح والقفل صدئان».

أراد أن يسألها قائلا «لمَ أنت مصرّة على فتح هذا الباب الآن في غمرة اللّيل؟ يمكنك النّوم في غرفة المسجد إذا أردتِ»، ولكنّه وضع مزيدا من الزّيت في القفل وحاول مرّة أخرى.

«لقد صار أفضل الآن، نعم، سُوّي الأمر، إنّه يدور، انتظري، ما يزال عالقا، تلزمه ضربات مطرقة ليُفتح ولكنّ الجميع نائمون الآن وأخاف أن أوقظهم». ورغم ذلك ذهب إلى غرفته وعاد حاملا مطرقة وسدّد طرقات خفيفة إلى القفل ودفعه نحو الأسفل.

«أنا لا أفهم ماذا ستفعلين في هذه الغرفة في هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل»، قال ذلك ولم ينتظر جوابها بل عاد إلى غرفته وأقفل بابه. وفتحت صادقة الباب بهدوء.

كانت الغرفة غارقة في الظّلمة. بحثت عن مفتاح الكهرباء ولكنّه لم يكن يعمل فذهبت باحثة عن الشّمعدان في القبو وعادت إلى الغرفة.

Twitter: @ketab_n

كان كلّ شيء مغطّى بأغطية بِيض تتدلى إلى حدّ الزّربيّة المفروشة على الأرضيّة. وكانت الأغطية مكسوّة بطبقة دقيقة من الغبار، فلفّتها بحذر وأخرجتها إلى الباحة.

كان في الغرفة سرير وقربه مرآة قديمة، وتشادور معلّق على مشجب وتحته حذاء شتويّ. ووُضع فوق طاولة قرب السّرير مُشط وعلبة مسحوق ومحفظة صغيرة لأدوات تجميل. وصُفّفت كتب على ألواح خشبيّة مُثبّتة على الحائط في أعلى السّرير. وعلى البساط الخشبيّ وضعت كأس شاي وكوب وعُلّقت بعض الفساتين في الخزانة.

ذهبت لتُحضر غطاءين نظيفين من المغسلة، ثمّ حملت حقيبتها وعادت إلى الغرفة. وضعت الحقيبة قرب الخزانة ثمّ رتّبت السّرير واندسّت تحت الغطاء ونامت. وفي الغد قامت باكرا ورآها الجميع ترتّب الغرفة بجدّ؛ نظّفت الزّربيّة وغسلت زجاج جميع النّوافذ، وركّب شهبل خيطا كهربائيّا جديدا. وعندما حلّ المساء كان النّور يضيء وراء الزّجاج الصّغير الملوّن للغرفة المحاذية للدّرج فتلوّنت الأرضيّة بدوائر ضوئيّة حمر وخضر وصفر.

في إحدى اللّيالي، بينما كانت صادقة واقفة على عتبة باب غرفتها تنظر إلى أضواء الزّجاج الحمر والخضر والصّفر المنعكسة على بطنها كان أغاجان يكتب في دفتره «صادقة حامل».

Twitter: @ketab_n

حرب العصابات

كان بعض الأعوان يُلصقون صورا بيضا وسودا كبيرة على أبوب البازار؛ صور أربعة رجال بشوارب ويضعون نظّارات. وكُتب أسفل الصّور «هرب هؤلاء السّجناء الشّيوعيّون، سيُكافأ كلّ من يبلغ عنهم بعشرة آلاف طومان»

ونشرت الجريدة المحليّة في صفحتها الأولى صُور المساجين الهاربين، وكتبت 'أربعة إرهابيّين خطرين ومسلّحين يتسكّعون في المدينة'.

احتشد النّاس على أبواب البازار في مجموعات وتحادثوا. لم يعرفوا أيّ شيء عن الشّيوعيّة سوى أنّ الشّيوعيّين بشر خطرون ولا يؤمنون بالله.

ونشرت الصّحيفة حوارا مع راعٍ يعتقد أنّه قد رأى السّجناء الهاربين.

سأله الصّحفيّ «هل كانوا مسلّحين؟».

- أجل، كانوا يمتطون أحصنة ويحملون بنادق على أكتافهم.

- أين قابلتهم؟

- لم أقابلهم. كنت أجمع قطيعي، وجريت وراء عنز شاردة فرأيت فجأة أربعة فرسان وأدركت فورا أنّهم غرباء. كانوا منتصبين على سروجهم مثل السّلاطين. ولم نعتد على رؤية هذا النّوع من النّاس في الجبال.

- هل تحدّثت إليهم؟

- لم أتحدّث إليهم حينذاك بل بعد قليل، لم أر وجوههم، فقد كانوا يتسلّقون الجبل، فلم أبصر غير ظهورهم. أظنّ أنّهم كانوا متّجهين إلى قمّة الجبل ليعبروا إلى الجهة الأخرى، إلى الحدود الأفغانيّة. وفجأة عاد أحد الفرسان وسألني خبزا وحليبا.

- هل أعطيته خبزا وحليبا؟

Twitter: @ketab_n

- نعم، لم أكن أعلم بأنّهم شيوعيّون، لو علمت ذلك لما أطعمتهم.

- ألم تسألهم عمّن يكونون؟

- لا نحن لا نسأل النّاس عمّن يكونون، أخذت قدحا وذهبت إلى عنز لأحلبها.

- وماذا فعل عندما أعطيته الخبز والحليب؟

- مدّ يده وصافحني وقال: عذرا لا أستطيع أن أدفع لك.

- هل قال شيئا آخر؟

- نعم، قال بأنّه سيتذكّر وجهي.

- ماذا يقصد؟

- لا أعلم، ولكن في اليوم الموالي رأيت صورته في ثكنة قريتنا. أربعة إرهابيّين! وأعطيتهم خبزي!

لم يكن أغلب النّاس يعلم ما الّذي يحدث بالضّبط، ولكنّ من كان يستمع منهم إلى راديو موسكو بالفارسيّة كان على علم بكلّ شيء. كان الفارّون الأربعة أهمّ العناصر في حركة يساريّة سريّة. اعتُقلوا قبل سنوات أثناء تمرّد في غابات شُمَل، في المقاطعة الشّماليّة. وكانوا يتزعّمون مجموعة تسمى «المجموعة الصّنوبريّة». وكانت هذه الحركة اليساريّة المعادية لأمريكا تحاول تنظيم ثورة على الشّاه تنطلق من الغابات الشّماليّة للبلاد.

كان أغلب سكّان الجبال يعيشون في عوز كبير. وكان القرويّون محرومين من أبسط الخدمات الأساسيّة؛ لا مدارس ولا أطبّاء ولا اتّصالات. ولم تكن قرية فرحان، مسقط رأس حامد أشرف تتلقّى أيّة مساعدة حكوميّة. وقد أهملت الحكومة القرية بسبب النّشاطات السّياسيّة لأشرف.

درس حامد أشرف الفيزياء في الجامعة التّقنيّة بطهران. وكانت هذه الجامعة مقرّ كلّ الحركات اليساريّة في البلاد. وكان مسيّرا شابّا انشقّ عن الحزب الشّيوعي التّقليدي طوده وأسّس حركة يساريّة سريّة تسمّى فِدايّ كانت تحضّر لثورة مسلّحة على الشّاه.

واعتاد القرويّون على معارضة النّظام وكانت القرية تُعرف باسم «القرية الحمراء» وكان القرويّون يفتخرون بأشرف وبما يُنسب إليه من صفات.

Twitter: @ketab_n

لا تملك القرى الأخرى عادة مذياعا، أمّا أهل القرية الحمراء فكانوا يستمعون إلى راديو موسكو. وما أن سمع القرويّون بهروب أشرف حتّى أذاعوا الخبر في الجبال. وقال أهل القرية الحمراء إنّ الحوار المنشور في الجرائد كان ملفّقا وإنّ هذا النّوع من الرّعاة لا وجود له، وقد كانت تلك أكاذيب أشاعتها الشّرطة والاستخبارات. وقال آخرون إنّ القرويّين قد دفعوا بهذا الرّاعي لمغالطة الشّرطة.

كان المتعاطفون مع الحركات اليساريّة يتحدّثون عن القرية في كلّ مكان من البلاد، ورسم كلّ منهم في مخيّلته صورة لها. يُقال إنّ كلّ القرى كانت شيوعيّة، وإنّها ترفع الأعلام الحمراء في الاحتفالات، وإنّ جنود الشّاه لا يجرؤون على دخول القرية منفردين.

كان معظم القرويّين الجبليّين أميّين لكن يُقال إنّ كلّ أهل القرية الحمراء كانوا يعرفون القراءة والكتابة، وإنّ المتعاطفين مع الحركة يذهبون إلى القرية سرّا لتعليمهم.

أذاع راديو أمريكا تقريرا عن هروب حامد أشرف وألمح إلى أنّ القرويّين قد وفّروا ملجأ لحامد ورفاقه. وفي اليوم الموالي اقتحمت أربع عشرة دبّابة المدينة تحرسها طائرات مروحيّة. ولم يكن أحد من الجبليّين قد رأى طائرة مروحيّة عن قرب، فتوقّفوا عن العمل وتسلّقوا الهضاب ليشاهدوا الطّائرات.

كانت الطّائرات تطير على ارتفاع منخفض ويظهر فيها رجال الشّرطة مسلّحين ببنادق. فترك أهل القرية أبواب ديارهم مفتوحة حتى لا يخلعها رجال الشّرطة وصعدوا إلى الأسطح احتجاجا.

فتّش الجنود كلّ البيوت واستجوبوا السّكّان الّذين كانوا فوق الأسطح وحطّموا أبوابا كثيرة وقلبوا القرية رأسا على عقب ولكنّهم لم يعثروا على أيّ أثر للثّوّار الفارّين. فاعتقلوا عددا من الشّبّان لم يقدّموا أيّ إثبات على أنّهم من سكّان القرية أو أنّ لهم أقارب فيها. ولم يقطع بحثهم إلّا حلول الظّلام، فانسحبوا.

في تلك اللّيلة لم يعد شهبل إلى الدّار وقلق عليه المؤذّن، وقد كان سمع الأخبار في مذياعه الجيبيّ. فذهب إلى أغاجان ليعلمه بأنّ ابنه لم يعد بعد.

كان أغاجان قد رأى صور الثّوّار الفارّين معلّقة في ساحة البازار، وكان على علم بفرار حامد أشرف. وهو يعرف القرية الحمراء معرفة جيّدة إذ يمتلك فيها وِرَشًا لحياكة الزّرابي. وكان أهل القرية الحمراء يعرفونه ويحترمونه ولكن لم يخطر على باله أن يكون

Twitter: @ketab_n

شهبل متورّطا في الأحداث الشّيوعيّة في القرية. وانتظر أغاجان إلى وقت متأخّر من اللّيل ولكنّ شهبل لم يعد. فسأل المؤذّن «هل تعرف أين يمكن أن يكون؟»

– جاء هذا الصّباح إلى رؤيتي في القبو ليخبرني بخروجه وبعودته متأخّرا، ولكنّي لم أتصوّر أن يتأخّر إلى هذا الحدّ.

– قد يكون ما أقوله سخيفا، ولكن هل تتصوّر أنّ له صلة ما بقرية فرحان؟

– القرية الحمراء؟

– لقد سمعت في البازار أنّ الشّرطة قد اقتحمت القرية اقتحاما يشبه استعراض القوّة، واعتقلت أعدادا كبيرة.

– ما علاقة هذا بشهبل؟ قال المؤذّن متعجّبا.

– صار كلّ شيء متّصلا بعضه ببعض هذه الأيّام. هاجت المدينة اليوم كلّه ولا حديث إلّا عن القرية الحمراء. ولكن حسنا، نحن في منتصف اللّيل وليس لنا سوى الانتظار. علينا أن لا نقلق ومن المستحسن الذّهاب إلى النّوم. سنرى ما سيحمله لنا الغد.

لم يضف المؤذّن شيئا وذهب إلى غرفته. وفجأة تذكّر أغاجان شيئا فصاح قائلا «انتظر، وماذا لو كان قد ذهب إلى القرية؟ هل يمكن أن يكون قد اعتقل؟ وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نفتّش أغراضه على الفور قبل أن تفعل الشّرطة ذلك. إذا كان قد اعتقل فسيسارعون إلى العثور على عنواننا».

ذهب أغاجان إلى غرفة شهبل وبدأ بتفتيش أغراضه. وذُهل لمّا عثر على عدد من الكتب تحت سريره وفي خزانة ثيابه. وهي كتب لم تكن توجد في مكتبتهم؛ روايات وقصص قصيرة وشعر حديث. وضمن هذه الكتب توجد منشورات سريّة تنتقد نظام الشّاه بعنف وتتّهمه بكونه امتدادا للإمبرياليّة الأمريكيّة.

تصفّح الكتب ولكن لا وقت لديه ليتأخّر، عليه أن يسرع. دسّ الكتب في كيس وجرّه إلى النهر.

في تلك اللّيلة لم يعد شهبل ولم تأت الشّرطة. وفي اليوم الموالي ذهب أغاجان إلى عمله وكأنّ شيئا لم يحدث. وحوالى السّاعة العاشرة رنّ جرس الهاتف. كان المتّصل رئيس الشّرطة وقد طلب من أغاجان أن يأتي لرؤيته في مكتب الشّرطة.

Twitter: @ketab_n

وضع أغاجان قبّعته وطلب من سائقه أن يقلّه. وجلس في مكتب الشّرطة بهدوء على الكرسيّ الّذي أشار إليه رئيس الشّرطة. ثمّ قال له:

– لقد اعتقلنا ابن أخيك مع مجموعة من الغرباء

– اعتقلته؟ قال أغاجان، لأيّ سبب؟

– لقد اعتقلناه في القرية الحمراء. ووجدنا في معطفه مذياع جَيْبٍ وكتابا.

– ما المشكل في امتلاك مذياع؟ كلّ النّاس يملكون مذياعا في أيّامنا هذه.

– كان على راديو موسكو.

– أظنّ أنّكم أُبلغتم بمعلومات خاطئة. إنّه يسكن في دار الجامع. وفي دارنا لا حاجة لنا إلى الاستماع إلى راديو موسكو.

– لا أظنّ أنّ هذه الحاجة توجد في داركم، ولهذا طلبت منك الحضور لمقابلتي.

– شكرا لكم، وأنا أقدّر لكم هذا، قال أغاجان.

– ولكن ما أريد معرفته هو ماذا كان يفعل في هذه القرية.

– لدينا بعض ورشات الزّرابي في فرحان يعمل فيها عشرات القرويّين. وأنا أرسل رجالي ليتفقّدوهم بانتظام. وقد ذهب شهبل إلى القرية في هذا الإطار.

– ولكنّ الكتاب الّذي وجدناه في معطفه كتاب ممنوع، قال رئيس الشّرطة.

– أيّ نوع من الكتب هو؟

– كتاب عن الثّورة الرّوسيّة.

– لماذا تقول إنّه كتاب غير قانوني إذا؟

– إنّه كتاب لماكسيم غوركي.

– من ماكسيم غوركي هذا؟

– كاتب روسي. عادة عندما نجد طالبا يحمل هذا الكتاب في جيبه نحكم عليه بستّة أشهر سجنا نافذا، ولكن ابن أخيك محظوظ لأنّنا نعرفك. فكلانا يحتاج إلى الآخر في هذه المدينة، ولهذا السّبب فأنا أطلق سراحه هذه المرّة، وأنا أفعل ذلك من أجلك، من أجلك وحدك.

Twitter: @ketab_n

«شكرا لكم، فهمت ما أردت قوله جيّدا. سأتحدّث معه، سأحذّره»، قال أغاجان وهو يقف.

بعد وقت قصير عاد شهبل إلى الدّار فاستدعاه أغاجان إلى غرفته وقال له:

- لديك مذياع وتستمع إلى راديو موسكو، فما معنى ذلك؟ ولِمَ لم تخبرني؟

- الشّرطة تبالغ، في أيّامنا هذه يمتلك كلّ النّاس تلفازا، ومن المؤكّد مذياعا. ويستمعون إلى كلّ الإذاعات. وأستمع إلى كلّ الإذاعات: موسكو، أمريكا، بي بي سي، وأيضا الإذاعات الوطنيّة.

- لقد وجدوا كتابا شيوعيّا في جيب معطفك.

- كان ذلك الكتاب رواية، قصّة، الكتاب هو الكتاب أنا لا أميّز. ولا يحقّ لرئيس الشّرطة أن يحدّد لي ما أقرأ.

- عليك أن تعتقد عكس ذلك، بما أنّه قد اعتقلك.

- يستطيع أن يعتقلني ولكنّه لا يستطيع أن يفرض عليّ رغبته.

- ماذا كنت تفعل في القرية الحمراء ليلا؟

- هذا، هذا أمر آخر، وكان عليّ أن أخبرك به قبل الآن، ولكنّي تردّدت. ليس الآن أوان الحديث في هذا الأمر، أخشى أن يُحزنك الأمر، وفي الوقت نفسه، إن صمتت فسيكون ذلك مؤثّرا أيضا.

- تكلّم يا شهبل.

- أنا في معضلة منذ فترة طويلة. يكبر الشّكّ ويتّسع كلّ يوم في رأسي.

- الشّكّ فيمَ؟

- في كلّ شيء. لا أريد التّحدّث في الأمر لأني مازلت أشكّ، ولكن هل تفهم ما أعنيه؟ أنا... أنا لم أعد أستطيع الذّهاب إلى المسجد أبدا.

- ولكنّك تذهب إلى المسجد، لقد رأيتك هناك، أنت دائما هناك.

- لا يتعلّق الأمر بحضوري البدني، فذهني غائب، وعندما أتّجه إلى مكّة يمتلئ رأسي بأفكار أخرى.

Twitter: @ketab_n

- أيّة أفكار؟

- أفكار لا أجرؤ على التّعبير عنها بصوت عال، وهذا هو السّبب الّذي من أجله ظننت أنّه من الأفضل أن ابتعد عن المسجد وعن الصّلاة.

- الشّكّ سمة بشريّة فلا تهلع من أوّل شكّ.

- أنا في مرحلة تتجاوز الشّكّ، أنا أفقد إيماني، لم أعد أشعر بالسّكينة في المسجد» قال شهبل ذلك في نَفَسٍ واحد.

تكوّم أغاجان في مقعده ولاحظ شهبل بأنّ يده كانت ممسكة بقرآنه الجيبيّ تحت معطفه، فقال له «أنا آسف لأنّي أسبّب لك الحزن».

- ما قلته لي أحزنني فعلا، ولكن أنا أيضا عشت هذه المرحلة في حياتي. يتمّ تجاوز ذلك عموما، إنّها مسألة عُمُر. في أيّام شبابي لم يكن هناك مذياع أو تلفاز أو هذا النّوع من الكتب. هذه الأشياء تؤثّر فيك كثيرا. ولكنّي لا أخشى شيئا لأنّي لم أرسم لك صورة مزيّفة أو مريبة لتبعد عن الله. لا أستطيع فعل شيء من أجلك، سأنتظر. ولكن هناك شيء عليك أن لا تنساه؛ أنا لست على خطأ، أنا أومن بقدرتك وأثق فيك، والشّكّ جزء من الحياة. أنت متعب الآن، اذهبْ وارْتَحْ، سنتحدّث في هذا الأمر مرّة أخرى.

انسحب شهبل وعيناه تغرورقان بالدّموع، ولكنّ أغاجان فاجأه بسؤال غير منتظر «هل تعرف أيّ شيء عن الثّوّار الفارّين؟».

- كلاّ، أجاب شهبل. ولكنّ أغاجان أدرك أنّه يخفي شيئا من نبرة صوته.

والتقى أغاجان قدسي المجنونة وهو ذاهب إلى البازار فجرا.

- كيف حالك يا قدسي؟

- بخير؟

- وأمّك؟

- بخير.

- هل من شيء تخبريني به؟

- ابنة موشيري تتسكّع في الطّرقات ومؤخّرتها عارية.

Twitter: @ketab_n

لم يفهم أغاجان ما أرادت قوله. كان موشيري من أثرى أثرياء تجّار الزّرابي في البازار. وله ابنة مختلّة العقل في الرّابعة والعشرين من عمرها فكان والداها يسجنانها في الدّار.

«ماذا حدث لابنة موشيري؟ هل تعيدين عليّ ما قلتِه؟»، قال أغاجان.

انحنت قدسي وهمست «يوجد أشباح في مسجدك».

- أشباح؟ مؤخّرة عارية؟ هيّا يا قدسي، عليك إخباري بالمزيد.

ولكنّها دخلت أوّل بيت كان بابه مفتوحا.

تلقّت الشّرطة أخبارا تفيد بأنّ قبو المسجد يؤوي أنشطة مشبوهة، ومن المرجّح أنّ الثّوّار الفارّين كانوا يختبئون فيه. وفي المساء دخل إلى المسجد رجلا شرطة متنكّران في هيئة إمام ووقفا وراء الإمام العجوز المعوّض أثناء الصّلاة.

وعندما انتهت الصّلاة ظلّا جالسين وبدآ يتجاذبان الحديث مع الإمام. قالا له بأنّهما جاءا من أصفهان وهما ذاهبان إلى مدينة قم المقدّسة وسيبيتان في فندق في سنجان. فدعاهما الإمام إلى كأس شاي في غرفته وأخبرهما بأنّه مجرّد معوّض وبأنّه إذا سارت الأمور على ما يرام فسينهي أحمد ابن المرحوم الصّابري دراسته في غضون سنة وسيخلف أباه. وشرب رجلا الشّرطة الشّاي وهما يراقبان الباحة الدّاخليّة للمسجد.

- هل تسكن وحدك هنا أم إنّه يوجد شخص آخر معك؟

- أسكن لوحدي، ولكنّ الحارس غالبا ما يكون موجودا، فالمسجد هو حياته، أنا أقدّر ما يقوم به، فهو يقوم بعمل عشرة رجال. يأتي فجرا ويعود إلى داره ليلا.

- أظنّ بأنّي سمعت ضجيجا ما في القبو، قال أحد رجلي الشّرطة وهو يخرج متذرّعا بأيّة حجّة.

- هذا المسجد قديم، قديم جدّا، وفيه الكثير من الأسرار. عليكما أن لا تسألاني عمّن يدخل إلى القبو ومن يخرج منه. هذا جزء من المساجد القديمة. أسمع أحيانا أصواتا غريبة أو خطى في اللّيل، ضجيجا من أصوات مبهمة. يحيا المسجد حياته الخاصّة. من الأفضل لنا عندما ننام هنا أن لا نستمع إلى الضّجيج. يجب أن نلقي رؤوسنا على المخدّات ونغمض أعيننا.

Twitter: @ketab_n

في نهاية سهرتهم سمعوا وقع خطى في الباحة فوقفا، واستأذنا في الانصراف واختبآ في الظّلمة. ثمّ زحفا نحو النّافذة الحجريّة الّتي عبرها يمكن النّظر إلى داخل القبو.

دخل خيال يحمل شمعة إلى القبو. بدا وكأنّه يبحث عن شيء ما أو يقوم بطقس وهو يمسك بشيء ما في يده اليسرى. لا يمكن إدراك من يكون ولا ماذا يفعل. تحدّث مع شخص آخر أو كلّم نفسه وتقدّم في القبو أكثر. سُمع صوت فتح باب واختفى الخيال.

ذهب رجلا الشّرطة إلى القبو في صمت، ونزلا الدّرج بحذر ووقفا متحاذيين يتسمّعان. ولم يجرؤا على إشعال مصباحيهما الجيبيّين، وتقدّما قليلا في القبو من الجهة الّتي اختفى فيها الخيال. كان عليهما أن يتوخّيا الحذر حتّى لا يتعثّرا في القبور. وسمعا صوتا مبهما، وكان شعاع من الضّوء الأصفر يمرّ من تحت الباب.

اقترب رجلا الشّرطة. وبدا وكأنّ شخصا ما كان يقرأ قرآنا أو يتكلّم مع شخص آخر في المكان الّذي بدت فيه الأصوات غير واضحة. وضع رجلا الشّرطة أذنيهما على الباب وسمعا جملا متقطّعة لم يفهما منها شيئا.

أَنْ أَرْضِعِيهِ

فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ

وَلَا تَخَافِي

وَلَا تَحْزَنِي

إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ... [7] [سورة القصص]

وفجأة سمعا صرخة عظيمة لامرأة. ونظرا إلى بعضهما بعضا وقد انتابهما القلق، ولم يعرفا إن كان الصّراخ آت من القبو أو من المسجد. فانسحبا في صمت وغادرا المسجد.

صادقة هي المرأة الّتي صرخت. كانت تقف قرب الحوض عندما شعرت بألم حادّ. كان الألم ينطلق من بطنها وينتشر في ظهرها، كان وخزا فظيعاً أشعرها بالدّوار. كان أغاجان وفجري وزينات والمؤذّن يشاركون هذا المساء في حفل حجّ في قرية مجاورة ولن يعودوا إلّا في اليوم الموالي. وسمع شهبل صراخ صادقة فركض نحوها وساعدها على الوقوف ورافقها إلى غرفتها. ورأى على ضوء الغرفة بعض دم على الأرضيّة فنادى نسرين ابنة أغاجان الكبرى

Twitter: @ketab_n

«اتّصلي بالطّبيب، سأذهب لآتي بالدّاية». وقفز فوق درّاجته ودوّس بكلّ قواه باتّجاه النهر.

وعندما رأت الدّاية صادقة قالت «الأمر خطير، يجب إحضار الطّبيب، لن أستطيع إنجاز الأمر لوحدي».

- الطّبيب في طريقه إلى هنا، قالت نسرين، سأنتظره.

لم تعد صادقة تستطيع تحمّل المزيد من الألم، كانت تصيح بشدّة فحاولت الدّاية أن تخرج الجنين.

«يريد الجنين أن يخرج ولكنّه لا يستطيع. لا أستطيع أن أرى في هذا النّور. نسرين، اجلبي مصباحا وكيسا كبيرا من مناديل الحمّام. أضيئي لي المصباح، لا تكوني رعناء هكذا، ركّزي».

تقدّمت نسرين خطوة دون أن تنظر إلى صادقة، وأمسكت المصباح فوق رأس الدّاية، ثمّ قالت «أظنّ بأنّ الطّبيب قد وصل».

- اصمتي ولا تحرّكي المصباح.

توقّفت سيّارة أمام الباب. ارتعشت يدا نسرين فبدأت تقرأ القرآن. وطلبت الدّاية من صادقة أن تدفع بقوّة أكبر وأن تواصل التّنفّس.

«الجنين في وضع مائل، لا يستطيع الخروج». وفي هذه اللّحظة صرخت صادقة صرخة قويّة وغابت عن الوعي.

ودخل الطّبيب إلى الغرفة.

«هؤلاء الأطبّاء، يصلون دائما متأخّرين، قالت الدّاية غاضبة، ينامون طويلا تحت أغطيتهم».

بمساعدة الدّاية ومصحوبا بترتيل نسرين تمكّن الطّبيب بعد ساعات وبصعوبة كبيرة من إخراج الجنين من بطن أمّه.

«إنّه ولد، (كانت الدّاية تمسك بالطّفل ورأسه إلى الأسفل)، ولكن فيه أمر غير طبيعي». وكان عليها أن تهزّ الطّفل مرّات كثيرة قبل أن يبدأ بالبكاء، حمدا للّه.

اتّجه الطّبيب نحو صادقة، أخرج السمّاعة من حقيبته واستمع إلى دقّات قلبها. «هي

Twitter: @ketab_n

مرهقة، ولكنّها بخير». واتّجه نحو الدّاية وقد كانت تغسل الطّفل في حمّام أعدّته نسرين.

«ظهره ليس على ما يرام»، قالت الدّاية، ووضعت الوليد على بطنه بحذر.

وضع الطّبيب نظّاراته وتتبّع بإصبعه العمود الفقري للوليد وتحسّسه. وقال هامسا «يوجد هنا اعوجاج كبير»

«هذا ما ظننته بالضّبط»، قالت الدّاية.

رحل الطّبيب. وقالت الدّاية لنسرين «الأمّ نائمة والطّفل أيضا. اعذريني لفظاظتي قبل حين، فهذا النّوع من الحالات يثير الأعصاب دائما. سأذهب لأنام لبضع ساعات ثمّ سأعود غدا باكرا. الطّفل ليس على ما يرام. سيتّصل الطّبيب غدا بأغاجان».

عاد الهدوء إلى الدّار. لا يزال النّور مضاء في غرفة صادقة وبقع دم منتشرة على أحجار الباحة. وتأثّر شهبل بأحداث اللّيلة.

في الماضي، عندما كان يولد في الدّار طفل، كان أغاجان يقرأ في أذنه سورة مسجوعة لأنّ الرّسول محمّد قد قال «إنّ أولى العبارات الّتي يسمعها الطّفل تظلّ منقوشة في ذاكرته إلى الأبد مثل جملة منقوشة على صخرة».

ذهب شهبل إلى المكتبة وأخذ أقدم المصاحف ودخل بهدوء إلى غرفة صادقة. كانت مستغرقة في النّوم وكان الطّفل نائما في مهده قرب الحائط. فتح المصحف وبحث عن سورة مسجوعة. ولكنّه غيّر رأيه فوضع المصحف في دولاب وانحنى وهمس في أذن الوليد الجديد بقصيدة للشّاعر الحديث الشّهير أحمد شملو، وكان قد حفظها عن ظهر قلب.

رغم الصّباحِ الثّقيلِ رصاصًا،
الجامدِ
امتطى الفارس صهوة جواده
وداعب الرّيح عرف الجواد.

إلهي
على الفرسان أن لا يتوقّفوا
عندما يجابههم الخطر.
فتح الطّفل عينيه.

Twitter: @ketab_n

ليزار [1]

صار عمر ليزار الآن عاما. وهو يحبو اليوم في الباحة حتّى الحوض؛ وهذه هي المرّة الأولى الّتي يبتعد فيها عن غرفته بهذا القدر. وأخذ يلعب بالماء. كان الكبار يراقبونه في البداية ولكن بمرور الوقت لم يعودوا ينتبهون إليه. كان ينظر إلى الأسماك الحمراء الّتي تتفرّس فيه بنظراتها الفارغة. وكانت هذه المرّة الأولى الّتي يرى فيها الأسماك. فكان يقلّد حركات أنوفها ويضحك؛ لقد كان سعيدا. اقترب من الحوض قدرا أكبر، وفجأة وقع في الحوض. ذُعر الجميع. وجرت صادقة نحو الحوض لتخرجه ولكنّ ليزار لم يتركها تحمله، انساب سابحا محاولا الإمساك بالأسماك.

دخل شهبل إلى الحوض وأخرجه ثمّ مدّه إلى أمّه. فحملته صادقة إلى غرفته باكيا.

كان ليزار ابنا لصادقة وجلجل. وُلد بعاهة في ظهره تمنعه من الجلوس. وكبر بسرعة وصار طفلا لا يهدأ. فكان يحبو تحت السّرير وتحت الأغطية مثل عظاية كبيرة. وقد اكتشف مبكّرا السّبيل إلى الباحة الدّاخليّة، فكان يندسّ بين الأعشاب في الحديقة. واكتشف أهله لاحقا أنّه أبكم.

وكان أبناء أغاجان لا يحبّون أن يدخل إلى غرفهم ويحبو تحت أغطيتهم. فكانوا يقفلون غرفهم بالمفتاح دائما. كانوا يخجلون من الاشمئزاز الّذي يحسّونه تجاهه ولكنّهم لا يستطيعون التّحكّم في مشاعرهم. واحتاج أهل الدّار إلى كثير من الوقت ليعتادوا عليه وليحملوا بين أيديهم طفلا يشبه الحيوان كثيرا ولكنّه إنسان. وكان للطّفل أشخاصه المفضّلون، فما أن يرى العم رمضان حتّى يتّجه إليه.

فكان العم رمضان يرفعه ويضعه فوق كتفيه ويتجوّل معه في الباحة الدّاخليّة موريا إيّاه الأزهار والأشجار وطائر الزّاغ وقطط المسجد. وكان ليزار يحبّ أن يمكث مع المؤذّن، فكان يحبو في غرفته وينام تحت سريره.

---

1 المعرّب: ليزار تعني العظاية، وهي كنية هنا. وقد حافظنا عليها في التّعريب لأنّها كتبت بحرف كبير في أوّلها.

Twitter: @ketab_n

«هذا أنت أيّها الولد؟ يسأل المؤذّن ضاحكا، أين القطّ؟».

وكان ليزار يحمل عصا المؤذّن ويمدّها إليه. وهذه طريقته في دعوته إلى أن ينزّهه. فكان المؤذّن يمشي في الباحة وليزار يتبعه.

لا أحد يعلم من سمّى الطّفل ليزار. ومنع أغاجان أبناءه من مناداته به ولكنّ الاسم ناسبه إلى درجة أن فرض نفسه على الجميع.

وقد اختار له أغاجان اسم «سجّاد محمّد» وسجّله في وثائق هويّته. ولكنّ الطّفل لا يستجيب لهذا الاسم إلّا أنّه ما إن يسمع «ليزار»، حتّى يحبو بكلّ ما أوتي من سرعة تجاه الشّخص الّذي ناداه.

لقد كان مخلوقا ينتمي إلى عالم القطط والدّجاج والأسماك أكثر من انتمائه إلى البشر. وقد قبل الجميع الوضع على حالته هذه، وتوقّفت أمّه عن التّذمّر: لقد كان الأمر مقدّرا.

اختفى جلجل من حياتهم ولكنّه عاد في ملامح ليزار. فالولد يحمل وجه أبيه. كان يتزحلق في سرير صادقة، ويداعب جسدها. وكانت تكره ذلك ولكنّها كانت مضطرّة لتركه، ولم يكن بيدها غير ذلك.

وعندما ترى زينات خانم حفيدها يحبو في الباحة، كانت تبكي في صمت. لقد كانت مؤمنة وتهتمّ بغيرها من النّساء المؤمنات وبسعادتهنّ، ولكنّها تعتقد أنّ الله قد عاقبها بهذا الطّفل. عاقبها لأنّها لم تسهر على راحة وليدها الأوّل عبّاس، وقد غرق بسبب إهمالها له، وبسبب الكبائر الّتي ارتكبتها في المسجد أيضا. لقد فعلت ما لم تفعله أيّة امرأة في وضعها قطّ. إذ طلب منها الإمام المعوّض كلّ ما للرّجل أن يطلبه من زوجته، في مدفن.

وهي الآن تجني ثمار ما كانت قد زرعته: ليزار.

وكان اليوم الّذي وقع فيه ليزار في الحوض يوما مهمّا لأهل الدّار. فقد أنهى أحمد ابن الصّابري أخيرا دراسة الإمامة وعاد من قمّ ليخلف والده. ستقام حفلة أداء اليمين بعد أيّام وقد جاء كلّ الأهل. هي حفلة لا تُشهد إلّا مرّة في العمر، وتسم مرحلة جديدة بالنّسبة إلى المدينة؛ وبها ستأخذ علاقات المسجد والبازار منحى جديدا. وكان الجميع يتوقون إلى معرفة كيف سيدير أحمد المسجد.

Twitter: @ketab_n

ذهب أغاجان الأسبوع الماضي إلى قمّ ليشارك في التّسليم الرّسميّ لعباءة الإمامة لأحمد. وقد قضى اللّيلة في قم ليستطيع أن يتحدّث معه في أمور مهمّة يتوجّب أن يحيط بها ذكرا بصفته إماما للمسجد.

وجد أغاجان أحمدَ قليل الخبرة، ولكنّه كان إماما شابّا ووسيما، فهو يلبس دائما ثيابا مستويةً، مستقيمَ المشية ومتعطّرا وعمامته حديثة نوعا ما. ثمّ إنّ صوته جهوريّ، ويلقي خطبا تشدّ المستمعين ويرتّل الآيات القرآنيّة عن ظهر قلب وبموهبة فطريّة. وستبين الأيّام ما سيكون قادرا على فعله.

جاء أحمد مساء يحمل حقيبة فاصطحبه أغاجان مباشرة إلى المكتبة ليتحدّث معه عن خُطبة اليمين. ولكن كانت لأحمد أولويّات أخرى. وضع حقيبته على الطّاولة وفتحها وأخرج ثوب الإمامة الجميل وبحث عن مشجب ليعلّقه عليه.

«لِمَ لا يوجد مشجب في هذه الغرفة؟» قال ساخطا.

«تستطيع تعليق ثيابك في خزانتك»، أجابه أغاجان.

ثبّت أحمد قلما بين لوحي دولاب كتب وعلّق عليه ملابسه. ثمّ أخرج أغراضه الشّخصيّة وقال:

- أين يمكنني أن أضعها؟ أحتاج إلى دولاب في المكتبة.

- تستطيع أن تضع أغراضك في غرفتك الخاصّة، قال أغاجان دون أن يفقد هدوءه.

- أريد أن أراها هنا، قال أحمد.

أدرك أغاجان أنّه قد أساء اختيار وقت محادثة أحمد فقال:

«أظنّ أنّك تحتاج إلى الرّاحة، سنتكلّم غدا في مكتبي». وغادر الغرفة.

وفي وقت متأخّر من اللّيل كتب في مذكّرات المسجد «سيضطلع الإمام الجديد بمهمّته غدا. لقد جاء أحمد ومن تصرّفاته أدرك أنّ الأشياء قد تغيّرت. هو مختلف عن أبيه وعمّن عرفت من الأئمّة. لا يحقّ لي أن أشكّ في خصاله فهو لا يزال شابّا ويستطيع أن يطوّر كلّ قدراته ولكن ما أنا متأكّد منه هو أنّ لنا الآن إماما وسيما. أنا أحبّه كثيرا وأتوق إلى معرفة إلى أين سيقودنا».

Twitter: @ketab_n

يغلق البازار أبوابه يوم الجمعة حوالى السّاعة العاشرة. ويذهب آلاف النّاس إلى المسجد من أجل صلاة أداء اليمين. فتنصيب إمام جديد حدث بسيط ولكنّه احتفاليّ. وتقام الصّلاة خارج المسجد، أمامه حيث تُبسط عشرات الزّرابي.

طاف رجال الشّرطة في الحيّ وتوقّفت بعض عربات الجنود المسلّحين في الطّريق المعترض. ولم يكن هذا عاديّا في سنجان.

لقد تغيّرت أحوال البلاد كليّا في السّنتين أو الثّلاث سنوات الماضية. وصار الطّلبة يتظاهرون في جامعة طهران ضدّ الشّاه، وصار شعارهم 'لتسقط أمريكا' يدوّي بانتظام. وخشي النّظام المناوشات.

راجع أغاجان مع أحمد سيناريو الاحتفال للمرّة الأخيرة ووضع قبّعته وغادر الدّار ذاهبا إلى المسجد.

«يوم سعيد مبارك»، قال الحاج شيشجار الجار الذّاهب إلى المسجد مع توأمه.

- إن شاء الله، ردّ أغاجان بسرور.

- إذا احتجتم إليّ فسأكون في خدمتكم، قال شيشجار

- شكرا على عرضك، ولكنّ كلّ شيء قد نظّم. كيف حال توأمك؟

- بخير، الأطفال اليوم يكبرون بسرعة. وابنك؟

- هذا صحيح، جواد شاب الآن.

رأى أغاجان قدسي المجنونة وهي تخرج من الدّار

- سعيد برؤيتك يا قدسي، هل أمّك آتية إلى الحفلة أيضا يا قدسي؟، قال أغاجان

- حتّى إنّها قد اشترت تشادورا جديدا أسود.

- سأكون سعيدا بحضورها، قال أغاجان

- ولكنها لن تحضر.

- لماذا؟

- لقد ضيّعت تشادورها الجديد، قالت قدسي

Twitter: @ketab_n

- ضيّعت تشادورها؟ ألا تكونين أنت، ربّما، من أخفاه؟، قال ذلك مبتسما.

- لا، لست أنا.

- كيف يحدث إذا أن يختفي تشادورها فجأة؟

- لا أعرف، لقد بحثت طوال اللّيل ولكنّها لم تجده.

- من المؤكّد أنّها ستجده في الوقت لتأتي إلى الحفلة، قال أغاجان وهو يتابع طريقه.

- كانت المجنونة مُشيري تمشي في الطّريق وعجزاها عاريان، لقد فعلت ذلك أمس من جديد، تمتمت قدسي.

- هل تعلمين ما عليك فعله؟ ستذهبين إلى دارنا، أحمد سيرتدي عباءة الإمامة الجديدة اليوم، سيعطيك نقودا، اذهبي بسرعة.

دخلت قدسي الدّار وخرج أغاجان إلى الطّريق حيث تجمّع عدد كبير من النّاس للاحتفال. كان رجل يحمل كاميرا على كتفه خرج من المجموعة ووجّه الكاميرا نحو أغاجان. «أنت أنيق جدّا بقبّعتك وبدلتك الزّرقاء الدّاكنة ذات الخطوط البيضاء الدّقيقة»، قال صاحب الكاميرا.

- هذا أنت، نصرت؟ قال أغاجان بنبرة مبتهجة. لو تعلم كم أسعدني حضورك، لقد ظننت أنّك لن تحضر أبدا. متى وصلت؟

- في الحين، في قطار اللّيل.

صافح ملحق العمدة يد أغاجان وهنّأه.

«لِمَ هذه العربات العسكريّة بحقّ الله؟

- لتزيد الحفلة بهجة»، قال الملحق وهو يرافق أغاجان إلى باب المسجد حيث يقف رئيس الشّرطة وممثّلو العسكر وموظّفو الإقليم ومدير المستشفى ومديرو المدارس.

تبع نصرت أغاجان وسجّل كلّ تحرّكاته. وسُرّ أغاجان بالاهتمام الظّاهر لكلّ السّلط ولكنّه وجده شيئا محيّرا في الآن نفسه. في الماضي كان حضورهم حفلات المسجد عاديّا ولكن في هذه السّنوات الأخيرة صار حضورهم نادرا، ولهذا لم يتوقّع أغاجان أن يراهم. والغريب أنّه لا يعرف أحدا من هؤلاء الموظّفين، فقد كانوا كلّهم وجوها جديدة بالنّسبة إليه.

Twitter: @ketab_n

سجّل نصرت أغاجان وهو يتحدّث مع رئيس الشّرطة. وفجأة جذبته قدسي المجنونة من كمّه وأسرّت في أذنه «أمّي لن تستطيع الحضور، لقد سُرق تشادورها الأسود، المجنونة مُشيري تمشي في الطّرقات وعجزاها عاريان».

نادى أغاجان شهبل «شهبل، هلّا بعثت قدسي إلى النّساء». وظهر رتل من المارسيدسات السّود من بعيد. فأعلم أغاجان المؤذّن بوصول الشّيخ آية الله جُلباجيغاني.

'الله أكبر' صاح المؤذّن، فصاح الجمع «صلى الله على محمّد وآل محمّد»

وصعد نصرت على السّطح المستوي ليرى الجمع بشكل أفضل.

كان آية الله جُلباجيغاني الأكثر قبوليّة عند السّلط من بين غيره من آيات الله. وقد جاء خصّيصا من قم ليصدّق على تنصيب أحمد.

وذهب ممثّلو المدينة نحو السّيّارة ليستقبلوه هو وجمع تلاميذه. وساعده أغاجان على الخروج من السيّارة ومدّ له عصاه وقبّله، وقاده من يده إلى الكرسيّ الفخريّ المنصوب هناك من أجله.

وظهرت قدسي من جديد. فنادى أغاجان شهبل وقد تضايق. فأخذ شهبل قدسي رغم اعتراضها. الآن وقد جاء آية الله يمكن للاحتفال أن يبدأ.

ظهر أحمد على رصيف المسجد محاطا بستّة أئمّة شبّان. وصاح المؤذّن 'الله أكبر'. فاتّجه أحمد ورفاقه نحو آية الله فتربّع أمامه وبسط يده بمهابة. فوضع آية الله يده برشاقة على عمامة أحمد ورتّل

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ [1]

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ [2]

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ

إِذَا وَقَبَ [3]

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ

فِي الْعُقَدِ [4]

Twitter: @ketab_n

ومدّ له أغاجان العباءة التّقليديّة للإمامة بعد أن ذهب باحثا عنها في غرفة كنوز المسجد. وقد كانت العباءة مرصّعة بحجارة كريمة. وارتداها كلّ الأئمّة عبر القرون في يوم أداء اليمين.

وبعد أن ارتدى العباءة، اتّجه أحمد نحو السّجّاد القديم. ووقف أغاجان وآية الله وراءه وتبعهم الجمع. 'الله أكبر'، نادى المؤذّن. فاستدار أحمد نحو مكّة وباشر أوّل صلاة رسميّة له.

وفي هذه اللّحظة خرجت امرأة شابّة من أحد الأنهج المقابلة للمسجد مرتدية تشادورا أسود جديدا ومنتصبة فوق حذاء أحمر عالي الكعبين، واتّجهت نحو آية الله ووقفت أمامه.

رآها أغاجان ولكنّه لم يستطع قطع صلاته ليصرفها؛ حلّت المرأة تشادورها وأخرجت ساقها اليمنى، وكانت السّاق عارية. فأغمض أحمد عينيه وحاول التّركيز في صلاته.

'الله أكبر' قال أغاجان بصوت عال لينتهرها ولكنّ المرأة ظلّت هناك.

استدارت المرأة ورفرفت تشادورها الأسود حولها كاشفة عن ساقيها العاريتين. لقد كانت عارية تماما.

'الله أكبر'.

كان آية الله العجوز مستغرقا في صلاته وعيناه مغمضتان فلم ير شيئا من المشهد. ولم يفتح عينيه إلّا عندما صاح أغاجان للمرّة الثّالثة 'الله أكبر'. ولكن بما أنّه لم يكن يضع نظّارتيه فلم ير سوى ظلّ أسود مشوّش. أنزلت المرأة تشادورها حتّى صدرها واستدارت ثانية ونظراتها ملؤها تحدٍّ. صار أغاجان مُجبرا على قطع صلاته؛ مدّ يده ليدثّرها بتشادورها ولكنّها أوقعت حجابها وتملّصت نحو الجمع. فأمسكها أغاجان في قفزتين وشدّها من قامتها وقذف إليه شهبل تشادورها فأمسكه وهو في الهواء ولفّ به المرأة بحركة واحدة وصاح «فجري».

كانت فجري سادات بصدد الاقتراب منهما، وقادت المرأة نحو الرّصيف في الجهة الّتي تصلّي فيها النّساء. وبفضل أحمد، وقد أظهر سيطرة على نفسه لم تنقطع الصّلاة وظلّ المصلّون يتّبعونه.

ولكنّ أغاجان وقد لمس امرأة عارية لم يعد يجوز له الصّلاة فدخل المسجد واتّجه

Twitter: @ketab_n

نحو الحوض. هو الّذي لم ير امرأة غير حرمه أمسك امرأة عارية من قامتها. ومازال يحسّ حرارة صدرها على يده. نزع عنه بدلته وثنى كمّي قميصه وانحنى أمام الحوض وأدخل يديه إلى مرفقيه في الماء البارد.

ولم يكن هذا كافيا، فانحنى من جديد وأدخل رأسه تحت الماء وتركه لبعض الوقت. وعندما أخرجه تنفّس بعمق واستوى واقفا ومسح وجهه بمنديله ولبس بدلته وخرج هادئا. وكان نصرت قد سجّل كلّ شيء.

Twitter: @ketab_n

الأفيون

انبعث النّور من جديد وراء نوافذ المكتبة. وصرنا نسمع من حين لآخر ضجيجا ناتجا عن قضاء الإمام لحاجاته.

استقدمت فجري سادات فتاة من جيرجه لتساعد صادقة لأنّه منذ ولادة ليزار لم يعد يكفيها الوقت لقضاء كلّ شؤون الدّار لوحدها. اسم الخادم زارا وقد كانت حاذقة وأمسكت بزمام الأمور. ظلّ المطبخ فقط من اختصاص صادقة وحدها. فهي تجد راحتها هناك، وتشعر بالحبور. فتخصّص وقتها لإعداد الطّعام.

الآن، وقد صار للدّار إمام رسميّ، فهم الجميع كم كان وجود الجدّتين مهمّا. فقد كانتا ترتّبان كلّ شيء في صمت، فتسير كلّ أمور الدّار بانسياب، ولكن منذ أن غادرتا لم تكف خمس نساء للحفاظ على إيقاعهما.

اقترحت زينات خانم مرّات كثيرة استخدام عزّام عزّام المرأة الّتي هدّدت زوجها ذات مرّة بسكّين، ولكنّ فجري سادات لم ترغب في ذلك.

ومنذ مجيء زارا سار كلّ شيء بانسياب من جديد. فقد كانت خادما مجتهدة ولكنّها كانت متحفّظة وخجولة؛ خجولة إلى درجة أنّها لا تستطيع النّظر في أعين النّاس عندما يخاطبونها.

«جيّد أن تكون خجولة، قالت زينات، وإلّا فإنّها، مع وجود كلّ هؤلاء الشّبّان الّذين يسكنون الدّار، قد تسبّب مشاكل».

كانت زارا فتاة جميلة، أو بالأحرى، شابّة لأنّها قد بلغت الواحدة والعشرين. وقد تزوّجت في السّادسة عشرة من رجل أكبر منها. ولأنّها لم تحمل خلال أربعة أعوام فقد طلّقها زوجها.

وكانت عائلتها سعيدة لأنّ ابنتهم صارت خادمة في دار المسجد، وتمنّت أن تظلّ فيها لفترة طويلة.

Twitter: @ketab_n

في الماضي كانت الجدّتان تخصّصان جزءا كبيرا من وقتهما للإمام الصّابري. ولكنّ أحمد غير محتاج إلى الرّعاية ذاتها.

وكانت زارا ترتّب كلّ شيء دون أن تتكلّم، ودون أن يلاحظ أحد وجودها ودون أن تزعج أحدا. فكانت تدخل إلى الغرف بهدوء فترتّبها وتحمل الصّحون المستعملة وتساعد صادقة في العناية بليزار وتغسل الشّبابيك وتقدّم للأسماك طعامها وتكنس الأوراق المتساقطة في الباحة وتذهب إلى القبو لترى لعلّ المؤذّن يحتاجها.

وكانت تنظّف مكتب أحمد من الغبار وتغيّر فُرُش سريره وتكوي قمصانه.

وعندما يعود أحمد إلى الدّار بعد صلاة الصّبح ينام إلى الظّهر، وفي بعض الأحيان إلى حدود السّاعة الثّانية ظهرا، وهذا ما لم يفعله أحد من أئمّة الدّار قبله قطّ. في الواقع، يظلّ أحمد في فراشه إلى أن تطرق زارا الباب وتقول «الطّعام جاهز يا إمام».

وكانت تحمل إليه كلّ صباح، قبل الصّلاة، رغيف خبز وزبدة وعسلا. فتطرق بابه بلطف متمتمة «هل أنت مستيقظ؟» فيردّ أحمد وهو تحت غطائه «ادخلي». فتضع الطّبق بخجل على الطّاولة الصّغيرة قرب سريره وتخرج.

لم يطلب منها أحد أن تخدم أحمد، فقد كان ذلك أمرا طبيعيّا. وكان أحمد راضيا عنها.

في أحد الأيّام جاءت زارا وأيقظته ليذهب إلى المسجد، ولكنّه عاد إلى فراشه ونام. وعندما أيقظته ثانية ارتدى ملابسه على عجل وهمّ بالخروج. ولكنّه توقّف فجأة قرب الحوض وجثا على ارتفاع انصباب الماء وتبوّل. نظرت زارا إليه بحَيرة: لم يفعل أيّ أحد قبله هذا قطّ، فهو أمر غير مسموح به. ولكنّها كانت تعرف أنّ كلّ أهل الدّار عليهم أن يتجاهلوا ما كانت قد رأته.

وذات صباح، بينما كانت زارا تضع طبق فطور أحمد قرب سريره، أمسك بيدها وجذبها بلطف إليه. تنصّلت الفتاة من يده برهة ثمّ استسلمت. فأمسكها من وسطها وجذبها تحت الغطاء. فقبضت فخذيها آليّا. «أنكحتُ وزوّجتُ» تمتم أحمد في أذنها. وصمتت زارا. فأعاد عليها أحمد «أنكحت وزوّجت». ولكنّ زارا صمتت. «أنكحت وزوّجت» فكرّر أحمد للمرّة الثّالثة. فردّت زارا بصوت خافت واحتضنته. وبعد قليل، غادرت السّرير وتحجّبت وقالت بصوت خافت «عليك أن تذهب إلى المسجد، لقد تأخّرت».

Twitter: @ketab_n

في صلاة الجمعة تتردّد شابّات كثيرات على المسجد من أجل أحمد خصّيصا. فطريقته في الكلام تختلف كليّا عن طريقتي الصّابري وجلجل. وكانت خطبه لا تهدف إلى التّنغيص على المستمعين بل تهدف إلى جذب اهتمامهم، وهو يحاول أن يدمج فيها السّياسة بمهارة. والبحث الّذي قام به رجال الاستخبارات لم يبيّن أيّة صلة للإمام بالحركات الدّينيّة الخطرة في قمّ. لقد كان مرحا لا متمرّدا، ولكن لا يزال من المبكّر معرفة في أيّ اتّجاه سيتطوّر وكيف ستؤثّر وظيفته إماما للمدينة في طبعه.

تحدّث في إحدى خطبه عن حكومة إسلاميّة يكون فيها القرآن مفتاح مغالق المجتمع. ولكنّه لم يُبِنْ أكثر من ذلك ولم يشرح حديثه. بدا كمن أراد أن يُلقي حجرا في بركة ليختبر عمق الماء.

وفي خطبة أخرى قام بقفزة نوعيّة. فقد تفوّه باسم آية الله العظمى الخميني. وقد فعل ذلك بشكل لا مُبَالٍ إلى درجة أن لا أحد استطاع أن يقول إنّ ذلك كان صدفة أو قصدا.

ولكنّ أغاجان لاحظ أنّ أحمد أظهر تعاطفا مع الخميني.

كان الخميني يعارض الشّاه بشراسة، وقد قال في آخر خطبه «إنّ الشّاه مصدر خزي. هذا الرّجل عار علينا. هو ليس شاها، بل ذيل للأمريكيّين». وقد تُبعت هذه الخطبة بمظاهرة كبرى في قم. فقد غزا الرّجال الطّرقات مردّدين شعارات معادية للشّاه. وتدخّل الجيش وحاصر المسجد الّذي خطب فيه آية اللّه. وأخرج مئات من الأئمّة الشّبّان بنادق من قبو المسجد وصعدوا إلى السّطح. وتحوّلت المظاهرة إلى حرب شوارع حقيقيّة.

قُتل عشرات الأئمّة الشّبّان وأُوقف كثير من الأئمّة الآخرين. قهر الجيش المقاومة وذهب قائد من الجيش إلى منزل الخميني لإيقافه شخصيّا. فمنع فريق من الأئمّة الّذين يحرسون الدّار القائد من دخولها، إذ عليه أن ينزع عنه نعليه أوّلا لأنّه من الممنوع دخول المنتعل إلى مكتب الخميني. وكان القائد يعلم أن لا أحد، ولو كان الجيش الأمريكيّ ذاته، يستطيع أن يساعد في هذه الحالة. فنزع النّعلين عنه.

«وقبّعتك أيضا» قال أحد الحرس. فوضع القائد قبّعته تحت ذراعه ودخل الغرفة. فانحنى وقال «لديّ أمر باعتقالك». ونُفي الخميني في اليوم ذاته. فقد بعثه الشّاه إلى العراق. ومن هناك سيقود، بعد سنوات، ثورة عارمة على أمريكا اجتثّ مملكة الشّاه من جذورها نهائيّا.

Twitter: @ketab_n

في هذه الفترة لم يكن أحد يجرؤ على نطق اسم الخميني، لأنّ أمر الخميني لم يعد مطروحا بكلّ بساطة. ولكن منذ فترة قصيرة صرنا نسمع باسمه من جديد. وزّعت منشورات في الطّرقات وظهرت صوره من جديد على حيطان المساجد.

نُفي الخميني، ولكنّ فكره ظلّ مُطبوعا في عقول الأئمّة الشّبّان الّذين يعملون بكلّ الوسائل وفي كلّ المناسبات على تمجيد اسمه.

وكان أحمد يحوز سمعة طيّبة شيئا فشيئا، لا في سنجان وحدها؛ إذ كثيرا ما تتمّ استضافته لإلقاء خطب في مدن أخرى. وقد خطب آخر مرّة في خُمين، المدينة الّتي وُلد فيها الخميني.

وقد زيّنت رحلاته القصيرة خُطبه فكان يتحدّث عن تنقّلاته بكلّ براءة «لقد زرت أصفهان مؤخّرا، إنها مدينة ساطعة، أصفهان، احترامي! وجهتي المقبلة هي كَشان. إنّ كشان غالية على سكّانها. كشان. احترامي! لقد كنت في خمين الأسبوع الماضي. وهذه أوّل مرّة أزور فيها هذه المدينة المباركة. خمين مكان فريد، يسكنها رجال متفرّدون، خميني! احتراماتي!».

لقد قصد بالخميني سكّان خمين ولكنّ كلّ الحاضرين قد أوّلوا كلامه بمعنى آخر وصاحوا «سلام بار خميني».

ابتهج أغاجان. كان يعرف أنّ أحمد لم يلق هذه الجملة عبثا ومن المؤكّد أنّه يتّبع نهجا ترسمه قم.

تلقّى أغاجان رسالة سريّة من قم تخبره أنّ جلجل قد عبر سرّا إلى العراق ليلتحق بالخميني. كان جلجل ذكيّا ولا يذهب إلى العراق عبثا. لا بدّ أنّه أحسّ أنّ الخميني سيستحوذ يوما ما على السّلطة وسيؤسّس الجمهوريّة الإسلاميّة. وفهم أغاجان لماذا أهمل جلجل زوجته وابنه لفترة طويلة.

ولكن لا أثر لأيّ علامة في الطّرقات تدلّ على تغيّر السّلطة أو على ثورة وشيكة. كان الشّاه يعيش أسعد سنوات ملكه؛ فقد صرّح في أحد الاستجوابات الصّحفيّة الّتي نشرتها التّايمز الأمريكيّة أنّه سعيد جدّا وأنّ بلاده واحة سلام.

Twitter: @ketab_n

كانت أمريكا تخاف من الاتّحاد السّوفياتي ولا تتصوّر حكومة لإيران أفضل من حكومة الشّاه. كان الشّاه دائما أوّل من يشتري أحدث الطّائرات والأسلحة من أمريكا ويودع جزءا مهمّا من عائدات النّفط الإيراني في البنوك الأمريكيّة. وهو واثق من أنّ الأمريكيّين يعتبرونه أفضل رئيس إيرانيّ، ولهذا كان يتّكئ عليهم اتّكاء أعمى وكان واثقا من أنّهم لن يتركوه يسقط. ولم ير ما يخشاه من رجل منفيّ في العراق مثل الخميني. فكان يعدّ ابنه لخلافته بكلّ هدوء وثقة.

وبينما كان أحمد يكرّس نشاطاته للمسجد، كان شهبل يستعدّ لدخول جامعة طهران. أراد أن يدرس الأدب الفارسي ولكنّ أغاجان لم ينصحه بذلك «الأدب الفارسي، هذه دراسة تستطيع أن تقوم بها بمفردك في الدّار، لا حاجة لك في الذّهاب إلى الجامعة من أجل هذا. أنت موهوب. ادرس الرّياضيات أو التّقنية أو إدارة المؤسّسات. توجد مصنّفات قديمة كثيرة في مكتبتنا، والدّار بحاجة إلى روح حديثة».

وعندما كان يغادر الدّار نهائيّا ليذهب إلى سنجان رافقه أغاجان شخصيّا في السّيّارة إلى المحطّة.

«توجد أشياء لا أعرف إن كان عليّ أن أخبرك بها أو لا»، تمتم شهبل وهو في السيّارة.

- أيّة أشياء؟ قال أغاجان.

- لقد رأيت أحمد مرّات كثيرة فوق سطح المسجد يدخّن خلف القبّة. أن يدخّن أو لا يدخّن فهذا شأنه، ولكنّ هذه السّجائر توحي بشيء آخر؛ شيء لا يتناغم مع وظيفته إماما. زد على ذلك، فإنّه يذهب عند غرباء ليدخّن الأفيون. ورأيت أنّ من واجبي أن أعلمك.

- جيّد أنّك أخبرتني، قال أغاجان بعد صمت طويل. سأنظر في ما يمكنني فعله. هل من شيء آخر عليّ أن أعلمه؟

- في الواقع لا، إنّه ميّال كثيرا للنّساء. لقد رأيته في المسجد وقد سمح لنفسه بحركات مع النّساء لا تليق بإمام.

- أنا أيضا لاحظت ذلك. عليه أن ينتبه، فلدينا أعداء في هذه المدينة.

وفي المحطّة رافق أغاجان شهبل إلى القطار في صمت. ومنذ أن كلّمه شهبل في

Twitter: @ketab_n

اعتقاداته وشكوكه لم يعد إلى الموضوع. لقد حاول أغاجان بضع مرّات أن يحبّب شهبل في تجارة الزّرابي ولكنّه لاحظ أنّ شهبل لم يتعلّق بها. والآن وقد صار في الممرّ أراد أغاجان أن يوصيه بأن يكون حذرا في الجامعة. ولكنّ شهبل لم يمنحه الوقت. فقد عانق أغاجان وقبّله واتّجه نحو القطار. وانتظر أغاجان في الممرّ إلى أن يتحرّك القطار ويختفي.

وراقب أغاجان أحمد عن قرب.

وذات يوم رأى أغاجان زارا تحمل طبقا في غير الوقت إلى المكتبة حيث كان أحمد يقرأ فتبعها. ورأى عبر فتحة في السّتار أنّ الفتاة قد انحنت لتضع طبقا فيه كأس شاي وصحن تمر على المكتب فجاس أحمد بيده داخل بدلتها. ولم تتحرّك الفتاة وتركته يفعل. فقام ورفع تنّورتها الطّويلة وسمّرها في مقابل رفّ كتب.

وفي اليوم الموالي استدعاها أغاجان إلى مكتبه وقال لها متودّدا «اجلسي». فجلست بخجل.

«دعيني أخبرك بأنّي سعيد جدّا بما تقومين به من عمل هنا. ونحن لا نتمنّى خادمة أحسن منك. ولكن عليك إمّا تجنّب أحمد أو حزم حقيبتك. هل هذا واضح؟».

ذُعرت زارا من حدّة نبرة أغاجان فلم تستطع النّبس بكلمة.

«هل هذا واضح؟» أعاد أغاجان.

فطأطأت رأسها إيجابا.

«ماذا ستفعلين؟ هل تريدين أن تبقيْ هنا أو تريدينني أن أبعثك إلى والديك؟

- أريد أن أبقى هنا، قالت بنبرة مرتعشة.

- حسنا. تستطيعين العودة إلى عملك. المؤذّن يحتاج إليك كثيرا، اهتمّي به أكثر من حين لآخر إذا لم يكن لك ما تفعلينه. تستطيعين الذّهاب».

وفي المساء بعد الصّلاة طلب أغاجان من أحمد أن يرافقه في جولة على طول النهر. وعندما كانا يمشيان على امتداد الماء غسقا، كلمّ أغاجان أحمد بنبرة حازمة. وبعد استهلال مقتضب أفهمه بوضوح أنّه لا يتسامح في فظاظة تصرّفاته مع النّساء وأنّه لا مجال لتدخين الأفيون في المسجد. وإذا لم يرغب في الاستماع إلى كلامه فسيكون مجبرا على تقييد حرّياته. فاستمع أحمد إلى أغاجان في صمت.

Twitter: @ketab_n

«ألا شيء لديك لتقوله لي؟»

لم يجب أحمد حتّى على هذا السّؤال.

وبعد أيّام من هذا التّوبيخ سأل أغاجان شيخ تجّار الزّرابي في المدينة إن كان بإمكانه أن يطلب يد ابنته لأحمد.

وبعد حوالى شهر احتفلت عائلة العروس احتفالا كبيرا. وفي حدود منتصف اللّيل زُفّت العروس إلى الدّار في عربة خيول مزيّنة. ومُنحت إحدى غُرف الطّابق العلويّ أعدّ لها صالون الضّيوف في ليالي العرس السّبع.

ارتاح أحمد لأسبوع وسافرت العائلة إلى جيرجه لتترك العروسين لوحدهما.

لبس أحمد ثياب قطن واسعة جعلته يتحرّك برشاقة. ومشى مثل أمير حمل عروسه الشّابّة إلى قصره.

كان اسم زوجته سميرة، وعمرها ثمانية عشر عاما، وهي ذات جمال تقليديّ. وفي ليالي العرس فتنها أحمد؛ كان يضاجعها إلى الصّبح ولا ينام إلّا عند أولى بارقة النّهار.

وعند الواحدة بعد الظّهر كان العم رمضان يستقبله في غرفة التّدخين ويعدّ له ضروريّات أفيون ملكيّ.

وقد طلب أحمد شخصيّا من العمّ رمضان أن يعدّ له الأفيون لسبعة أيّام لأنّ الأفيون يصعّد الشّهوات الجنسيّة، ويساعد تدخينه على إطالة مدى طاقة الحبّ.

وبعد أن يكون قد دخّن ربع ملفوف الأفيون يعود إلى الطّابق العلويّ وينساب تحت الغطاء قرب زوجته وهي ما تزال نائمة ويداها مقبوضتان.

وولدت سميرة بنتا وسمّتها مسعودة. وقد استقبلت كلّ العائلة الفتاة بفرح ولكنّهم انتظروا ولدا لضمان خلافة والده.

لا يزال المسجد مكتظا وأحمد يلقي خطبا آسرة وكأنّه ولد قاصّا. فقد كان يروي حكايات عجيبة عن تاريخ القرآن. وتحملك حكاياته شبه السّحريّة إلى أزمنة ولّت؛ إلى العصر الّذي عاش فيه الرّسول.

Twitter: @ketab_n

وقد منع الرّسول في عهده العازفين المتجوّلين؛ فلا يحقّ لأيّ مسلم الاستماع إليهم. وذات يوم بينما كان على السّطح مع عائشة، سمعا أصواتهم في الطريق، فقالت عائشة: «أريد أن أرى».

لم يرو أحد مثل هذه القصص في المسجد قطّ، وكان أحمد يجد دائما شيئا مخصوصا ليشدّ به انتباه المصلّين.

وصار أحمد يكثر الزّيارات إلى المدن الدّينيّة الهامّة مثل كشان وأراك وهمذان وأصفهان ويغيب لأسبوع أحيانا.

وكان يعود في كلّ مرّة محمّلا بكيسين أحدهما مليء نقودا وذهبا والآخر مليء برسائل عشق وهدايا خاصّة مثل التّبابين، والجوارب، والعطورات والصّابون والقمصان الداخليّة والخواتم تهديها إليه نساء محجّبات خلسة.

ورغم أنّه قد وعد أغاجان أنّه لن يدخّن الأفيون فقد واصل التّدخين في أماكن سريّة في المدينة. ولكي يضمن مزيداً من الحريّة فقد كان يقبل أكثر عدد ممكن من الاستدعاءات ويقوم برحلات قصيّة يستطيع خلالها أن يتملّص من رقابة أغاجان. وتعرّف على رجال اصطحبوه إلى دوائر خاصّة كان يدخّن فيها ويضاجع النّساء إلى طلوع النّهار.

ولم تكن له هذه الحريّة في سنجان. وليشبع حاجاته كان عليه أن يتّصل بسوقة المدينة. ولكنّه لم يكن يعرف أنّ رجال المخابرات كانوا يعدّون له فخّا. فقد مُنع تدخين الأفيون منذ سنة. كان المدمن المسجّل في دائرة البلديّة يستطيع أن يتزوّد قانونيّا مرّتين في الشّهر بنصف لفافة من الأفيون من صيدليّة ما، أمّا أحمد فكان يستطيع التّزوّد بالقدر الّذي يريد من ذلك المكان.

وذات ليلة، بينما كان يدخّن الأفيون في قبو إحدى الدّور المخصوصة في سنجان صحبة رجال آخرين وبعض النّساء اقتحم رجال الشّرطة المكان. فأخذوا مباشرة صورا لأحمد وهو جالس أمام آلة لتدخين الأفيون مشتملا على امرأتين غير محجّبتين. ووضع الأعوان بعض اللّفافات غير القانونيّة قرب آلة التّدخين وأخذوا صورا مفصّلة لهذا المشهد، ثمّ وضعوا الأصفاد في يدي أحمد واقتادوه إلى مكان سريّ كان ينتظره فيه عون.

Twitter: @ketab_n

لم يقل أحمد شيئا دفاعا عن نفسه. كان يعلم أنّه وقع في فخّ يصعب عليه التّخلّص منه.

«تستطيع أن تنام اللّيلة في فراشك وتؤمّ الصّلاة في المسجد غدا كالمعتاد، ولكن بشرط، قال العون؟

- ما هو هذا الشّرط؟ قال أحمد بنبرة مرتعشة.

- أن نتحادث من اليوم بعلاقات صداقة. فهمتَ ما أريد قوله، أليس كذلك؟

- كلّا، لم أفهم ما تريد قوله.

- إذا لم تفهم ستتعقّد الأمور: في هذه الحالة سأكون مضطرّا إلى اقتيادك مباشرة إلى السّجن حيث سنحمل لك غدا مع فطور الصّباح جريدة تنشر صورتك في صفحتها الأولى. ربّما تكون قد فهمت ما أريد أن أقوله».

دامت اللّيلة دهرا. وبكى أحمد في صمت. لم ينتظر أن تحمل له الحياة فجأة شيئا خطرا كهذا.

وعندما طلع النّهار أخيرا نفذ العون إلى الغرفة. استخرج الصّور وأراها إلى أحمد قائلا «ما نحن فاعلون؟ هل نطبع هذه الصّور بعد ظهر اليوم أو نجلس، أنت وأنا إلى طاولة؟».

لا مخرج لأحمد من هذه الورطة: إذا نشرت الجريدة الصّور الّتي يظهر فيها وأمامه لفافات الأفيون صحبة امرأتين غير محجّبتين سيكون الأمر قد انتهى بالنّسبة إليه وسيجلب العار للدّار. فتبع العون إذا إلى مكتبه حيث قدّم إليه كرسيّا ومطبوعة عليه أن يعمّرها. وقال له العون «إذا تفاهمنا، سيسوّى الأمر في خمس دقائق وسأصطحبك شخصيّا إلى بيتك. وما نرجوه منك سهل جدّا: نحن نريد أن تنشئ اتّصالات أكثر بقم وأن تنقل إلينا المعلومات الّتي نحتاجها. هذا كلّ شيء».

وبعد نصف ساعة اصطحبت سيّارة مدنيّة أحمد إلى المسجد وأنزلته أمام المدخل الرّئيسيّ.

«سنتّصل بك»، قال العون، وغادر.

لم يحدث أيّ شيء لبضعة أشهر. ظنّ أحمد وتمنّى أنّ الاستخبارات أرادت أن تخيفه وتخضعه لسلطتها. فهم لم ينسوا بعد جلجل وتحرّكه نحو السّينما والفوضى الّتي أحدثها

Twitter: @ketab_n

أثناء زيارة فرح ديبا. من المرجّح أنّهم أرادوا أن يثأروا وأن يرهنوا أحمد على الأقلّ.

تمنّى أن يكونوا قد تخلّوا عن مخطّطهم بجعله مثل الخلد، فهو لا يستطيع أن يلعب هذا الدّور أبدا، ومهنة الواشي لا تتلاءم معه ولا تناسب وضعه إماما للمدينة. ثمّ ماذا سينقل إليهم إذا توجّب ذلك فعلا؟

وفهم أنّ الاستخبارات أرادت أن تفرض عليه الصّمت بهذه الطّريقة وقد نجحوا في ذلك: لم يعد يجرؤ على أن يقول أيّ شيء عن الشّاه أو عن قم. وبدأت السّعادة تدبّ في قلبه بحياء والتّعاسة تفارقه شيئا فشيئا. ولكن في إحدى الأمسيات بعد الصّلاة مباشرة، جثا أحد أعوان الاستخبارات قربه في قاعة الصّلاة.

«كيف حالك؟» قال له بابتسامة مرعبة.

نظر أحمد خلفه مرعوبا ليرى إن كان أغاجان لا يزال موجودا، ولكنّه أدرك أنّه غادر.

«ماذا تريد منّي؟» قال أحمد بصوت منخفض للعون.

- هل تعلم أنّ هناك اضطرابات جديدة في قم. نريد أن تذهب هناك لتقوم بجولة عند آيات الله وتنظر ماذا يحدث. ما زلت تملك رقم هاتفي، أليس كذلك؟

- نعم، أملك رقم هاتفك، أجاب أحمد ممتلئا حنقا، وركع وتظاهر بإعادة صلاته. وعندما استقام، كان العون قد غادر.

وضع عباءته على كتفيه ويداه ترتجفان وقام وعاد إلى الدّار منحني الظّهر كالمحموم.

وعندما وصل إلى الدّار ذهب مباشرة إلى أغاجان وارتمى على ركبتيه وقال «أغاجان ساعدني، لقد وقعت في فخّ (ونظر إليه أغاجان بهدوء مع أنّه اندهش بهذا المشهد المفاجئ). لقد أخذوا لي صورا؛ صورا فاحشة أظهر فيها ومعي أفيونا ونساء. ويريدون الآن أن أذهب إلى قم لأصير قوّادا لهم. وإذا رفضت سينشرون الصّور في الجريدة».

ظلّ أغاجان مطبقا فمه في مقعده، وقد انتظر كلّ شيء إلّا هذا.

«أين؟» قال له

- في قبو في المدينة.

Twitter: @ketab_n

– لا مشكلة بالنّسبة إلى الأفيون ولكن من هؤلاء النّساء؟

– نساء ماخور

– لقد وجد رجال المخابرات طريقة للثّأر. هل تعاونت معهم؟ هل سبق وأن تعاونت معهم؟

– كلّا، إطلاقا، قال أحمد.

– ألم يسبق أن أعطيتهم أيّة معلومات؟

– كلّا، البتّة

– أكرّر، قال أغاجان بحزم، هل نقلت إليهم أيّ شيء؟

– كلّا، لم أقل شيئا، أفعل شيئا، قال أحمد.

– أنت محظوظ لأنّك لم تقل لهم شيئا ولم تتعاون معهم، وإلّا لانتهرتك فورا من الدّار. ولكن لم يفت الأوان بعد، أظنّ أنّه يمكننا أن نحدّ من الخسائر. اصمت ولن أتركك ولو للحظة طيلة الأشهر القادمة. سأرى ما يمكنني فعله فورا. يحتاجوننا لبثّ الهدوء في المدينة، ولذلك فلن ينشروا الصّور في الجريدة. وإنّما سيستعملونها لمساومتنا. اصمت وابق قريبا منّي مهما حدث.

– عليّ أن اعترف لك بشيء آخر، دون الأفيون، لن أستطيع أن أخطب. أعتذر عن الإساءة إليك.

– هذا يسيء إليّ كثيرا، قال أغاجان بتعاسة، كلّ البشر قد يرتكبون خطأ ما ولكنّي أعتبر الأفيون جرحا، إهانة لنا جميعا. أنا لا أتحمّل أن لا يقدر إمام مسجدنا على الكلام دون أفيون. أنت تسيء إليّ حقيقة، أنت تجرحني. لا تنازل في هذه النّقطة. عليك أن تُشفى وجوبا. وإذا لزم الأمر سأسجنك أنا نفسي في قفص. وفي انتظار ذلك لا تغادر الدّار دون موافقتي.

وفي الغد، ألغى أغاجان كلّ مواعيد أحمد وأخذ موعدا خصوصيّا مع طبيب العائلة.

وبعد خروجه من عيادة الطّبيب، ذهب مباشرة، ودون أخذ موعد، إلى مكتب الاستخبارات وطلب أن يكلّم الرّئيس فورا. فاستقبلوه، وعندما جلس في المقعد الجلديّ البُنّيّ الكبير، أرُوه صُور أحمد. فكان مجبرا على الوصول إلى اتّفاق مع الرّئيس. وعد بأن يهدّئ المسجد الآن بما أنّ الأوضاع قد تكدّرت في قم. وفي المقابل حفظ الرّئيس الصّور في دُرجه.

وفي المساء فتح أغاجان كرّاسته وكتب:

«إمام مسجدنا مدمن. سنواجه أوقاتا عصيبة».

Twitter: @ketab_n

سنوات هادئة

مرّت فترة هدوء طويلة.

وفرض أغاجان على أحمد قواعد صارمة للحياة سيكون لها وقع إيجابيّ. فمنع عليه أن يذهب ليخطب في مدن أخرى دون مرافق طالما لم يتأكّد من شفائه من الأفيون. ورغم أنّ الحوادث المتّصلة بالصّور صارت قصّة قديمة، فقد لاحظا، وفق رؤية أغاجان، انعطافا في تاريخ المسجد.

في البداية، كان شهبل يعود إلى سنجان مرّة في الشّهر على الأقلّ، ولكن تباعدت زياراته شيئا فشيئا. كان يهاتف البازار أحيانا ليكلّم أغاجان ولكن دائما ليسأل عن أمور عامّة «كيف حالكم؟ هل تجري الأمور كما تشتهي؟».

- ماذا تريدني أن أقول؟ العالم تغيّر يا ولدي. نحن نحتاج إلى رجل ذي أفكار جديدة. أحسّ بأنّي قد شخت كثيرا.

- أنت؟ أنت لست شيخا قطعا.

- ربّما لست شيخا، ولكنّي تقليدي. في أيّامنا، لا نستطيع أن نواجه المنافسة التّجاريّة في البازار بأفكارنا القديمة. اجتهد في دراستك فأنا بحاجة إليك. عندما تعود إلى الدّار سنتحدّث في الأمر.

ولكنّ شهبل يعود إلى الدّار في آخر المساء ويغادر من الغد في قطار اللّيل فلا يبقى له وقت ليتحدّث عن تجارة الزّرابي والبازار.

لم يكلّم شهبل أغاجان بصراحة بعد، ولكن لا ميل له إلى التّجارة، خاصّة تجارة الزّرابي. في الجامعة، صار عضوا في جماعة سريّة للطّلبة اليساريّين. وهذه العلاقات الجديدة لا تشبه تلك الّتي حُدّث عنها في المدينة الحمراء.

ومنذ وصوله إلى الجامعة، أدمج في قسم تأليف جريدة الطّلبة السّرّيين. فشعر

Twitter: @ketab_n

بارتياح. قلمه ذو قوّة كبيرة وكان أنضج من بقيّة أصدقائه، فلم يتأخّروا في اكتشاف خصاله القياديّة.

ولكنّ شهبل لم يكن وحده من تغيّر. بل تغيّر كلّ شيء. في الماضي، كان البازار يلعب دورا هامّا، ولم يعد الآن كذلك. لم تعد الزّربيّة الفارسيّة عاملا محدّدا للاقتصاد والسّياسة. فقد عوّضت الآن بالغاز الطّبيعي والنّفط.

في الماضي كانت لأغاجان نفوذ كبير في البازار، فتحترمه السّلطات، والآن صارت وقحة إلى درجة أنّها تجرؤ على أن تبعث أحد أعوان الاستخبارات إلى المسجد ليطلب من الإمام أن يصير قوّادا. وكان العمدة يتّصل مرّة في الأسبوع على الأقلّ ليحافظ على الصّلات بين البازار وباقي المدينة. أمّا العمدة الجديد فلم يفعل ذلك. وهو لم يدعه حتّى إلى حفل تنصيبه، رغم أنّه قد استدعى عددا من تجّار البازار، وهذا يدلّ على أنّ النّظام أراد أن يكسر تضامنهم. وكان البازار يفقد مكانته المتفوّقة بصفته منتجا للزّرابي. فقد انتشر كثير من المنسوجات العصريّة في المدينة. في الماضي لم يكن أحد يشتري هذه الزّرابي الصّناعيّة الرّخيصة الّتي تظهر وكأنّها مصنوعة من البلاستيك، أمّا اليوم فإشهاراتها تملأ كلّ مكان.

كان امتلاك هوائيّ تلفاز فوق السّطح محرّما في سنجان طيلة السنوات الماضية ولكنّ هذه الفترة قد ولّت منذ زمن. فعندما أراد أحد المستثمرين أن يحوّل حمّاما قديما في المدينة إلى قاعة سينما، استطاع جلجل أن يحرّك كلّ المؤمنين في المدينة وحتى أن يهدّد فرح ديبا. ولكن اشترى شخص ما مؤخّرا أقدم مستودع في المدينة وحوّله إلى قاعة سينما حديثة. وصِرْت ترى كلّ مساء مئات الشّبّان مصطفّين أمامها لاقتناء تذكرة.

وامتلأت المدينة بكثير من المحلّات الجذّابة وانقطعت الرّوابط بين البازار والجيل الجديد. في السّنوات الماضية كان الشّباب يزورون البازار للتّجوّل. ولم يعودوا يفعلون الآن. وقد أنشأت البلديّة شارعا رائعا يذهب إليه الشّباب ذكورا وإناثا ليشتروا المثلّجات في ساعة صلاة العشاء ويتجوّلون تحت الأشجار في الضّوء الخافت للافتات غاز النّيون.

في الحقيقة، لقد اكتسح الشّاه المدينة. وعلّقت صوره على كلّ واجهات البناءات العموميّة وتردّد صدى صوته في كلّ المحطّات الإذاعيّة. قديما كان التّجّار يخفون مذياعاتهم تحت طاولاتهم التّجاريّة خوفا من أن يفقدوا زبائنهم. ولكن في أيّامنا هذه صاروا يضعونها على لوح ظاهر حتّى يستطيع الجميع سماعها. وفي البازار ذاته علّق بعض كبار تجّار الزّرابي

Twitter: @ketab_n

التّقليديّة صور الشّاه في محلّاتهم وقد كان هذا الأمر غير قابل لمجرّد التّفكير فيه قبل بضع سنوات. ولكنّ كلّ شيء قد تغيّر بسرعة إلى درجة أن صار الواحد لا يعرف مدينته.

لم تعد ساحة البازار مركز المدينة، فقد صار مركز المدينة الآن الشّارع الذي ينتصب فيه تمثال الشّاه في وضع فروسيّ وسط حوض.

وغزا صوت الشّاه كلّ المنازل في سنجان تقريبا، وحتى دار المسجد، رغم أسوارها العالية لم تعد في حالة تسمح لها بالبقاء بعيدة عن هذه التّحوّلات.

وعندما كان الشّاه يلقي خطابا في مكان ما كانت البلدية تضع سيّارة جيب أمام باب المسجد وعليها مكبّرا صوت ينقلان الخطاب، فيظلّ صوته يتردّد في الباحة طوال النّهار. ولم تكن فجري سادات تفهم لِمَ لا يقول أغاجان شيئا ولا يعترض أحمد.

وعندما زار الشّاه قبل مدّة قصيرة ضريح قورش، أوّل ملوك مملكة فارس القديمة قال مفخّما كلامه «قورش ملك الملوك، ارقد بسلام لأنّي سأسهر أنا».

وظلّت سيّارة جيب ماكثة أمام المسجد لأسبوع كامل ومكبّرات صوتها تكرّر هذه الرّسالة صباح مساء.

وكتب أغاجان في كرّاسه «يا لها من أيّام ثقيلة، يا لها من ليالٍ ثقيلة، هذه إهانة بالغة لنا جميعا، ولكن لا مقدرة لي على فعل شيء، فلم أعد أجرؤ حتّى على دخول المسجد وإنّ أسفي لشديد».

ولم يعد أحد بقادر على أن يغلق بابه دون الشّاه، فقد دفعت الرّيح صوره في الدّار وقد كانت طائرة هيلكوبتر قد ألقتها فوق المدينة. فجمع ليزار بعضا منها ووضعها فوق مكتب أغاجان.

وذات يوم بينما كان أغاجان في الباحة سمع موسيقى صاخبة تنبعث من دار الحاج شيشجار. موسيقى في دار مؤمن؟ لا بدّ أنّ شيئا غير عاديّ سيحدث. ووقع بصره على هوائيّ تلفاز مثبّت على سطح دار شيشجار. هوائي تلفاز على سطح دار أكثر تجّار البلّوريّات احتراما في البازار؟ أهو متأكّد.

كان هناك حشد في دار شيشجار. صعد أغاجان بحذر الدّرج وجاس في الظّلام ذاهبا إلى سطح دار الحاج شيشجار لينظر ما يحدث.

Twitter: @ketab_n

وتبيّن له أنّه لم يخطئ لأنّه وجد هوائيّ أليمنيوم طويلا على السّطح.

لقد أراد الحاج أن يشارك كلّ المنتجات الحديثة مع ولديه. واستدعي إلى حفل تنصيب العمدة الجديد، وقد أهدى العمدة لكلّ مدعوّ صورة كبيرة للشّاه. وقد وُضعت الصّورة في إطار مذهّب وعُلّقت على ستار المدخنة، فوق التّلفاز مباشرة.

ولكن لمَ يفتح الحاج موسيقى صاخبة إلى هذه الدّرجة الآن؟

وسار أغاجان بخطى خافتة نحو حافّة السّطح ونظر في الباحة الدّاخليّة لدار الحاج.

كانت الحفلة في أوّجِها، ويشارك فيها عدد من الأصدقاء وأفراد العائلة. لقد كانت أمسية حارّة إلى درجة استحال البقاء في الدّاخل. فنصب أهل الدّار قرب الحوض سريرا خشبيّا كبيرا وأجلسوا عليه ابني الحاج وهما يلبسان جلبابين طويلين من القطن الأبيض. وكانت مجموعة من العازفين المتجوّلين تعزف موسيقى أمريكيّة بالغة الإيقاع وبعض الرّجال يرقصون وهم يمسكون بأيدي بعضهم بعضا.

الظّاهر أنّ الحاج قد ختن ولديه وهو يحتفل الآن بهذه المناسبة. وتركت أمّ التّوأمين المختونين تشادورها يتدلّى على كتفيها؛ وكانت تضع مِحْرَمَة رأس قد عُقدت بلا اهتمام وتتحدّث مع ضيوفها بسعادة. ولم تكن زوجة الحاج الأولى ولا بناتها السّبعة ضمن المحتفلين.

وُضعت أطباق مليئة بالبسكويت والحلوى في كلّ مكان، وكان الأطفال يتسابقون في الباحة الكبيرة، والحاج يتحدّث مع كلّ المدعوّين وهو يوزّع عليهم الحلوى. وانتزع الكاميرا من يد المصوّر ليلتقط صورا بنفسه لتوأمه المختونين. وذهب للمرّة الألف ووقف قرب ولديه وصاح «صوّرني مع ولديّ». وبعد برهة رآه أغاجان يدخل إلى الصّالون برفقة رجلين ويخرجون حاملين جهاز تلفاز كبير يشبه الخزانة الخشبيّة، ووضعوها قرب الحوض تحت الشّجرة الّتي يجلس عندها ولداه. وشغّل الحاج التّلفاز فظهر على الشّاشة فريق من راقصات طهران؛ فتحلّق الجميع حول الجهاز ناظرين إلى الرّاقصات بإعجاب.

تراجع أغاجان وتوقّف قرب القبّة الزّرقاء وداعب قرميدها المطليّ ثمّ تابع طريقه وتفقّد باحة المسجد والحوض والشّجرات ورفع بصره نحو طيور اللّقلق الهرمة، وتفاجأ بأنّ طيور اللّقلق لم تكن هناك وحتى أعشاشها اختفت. ظنّ أنّه لم يرها بسبب الظّلمة، ولكنه لم يكن مخطئا، فلا أثر لطيور اللّقلق.

Twitter: @ketab_n

فتح منفذ إحدى الصومعات واندفع في السّلّم المستقيم وصعد إلى قمّة الصومعة. وطقطقت بعض الأغصان اليابسة تحت قدميه، لقد كانت أغصان أعشاش قديمة. أحسّ بشيء ما يتحطّم داخله، وأنّه قد هرم وفاجأه هذا الشّعور غير المتوقّع. وتقصّى الأفق: كانت المصابيح متعدّدة الألوان تضيء في كلّ مكان، وقد نُصبت صورة كبيرة للشّاه قرب باب البازار تُنار بمسلّطات ضوء. وفي المركز الجديد تومض أضواء السّينما وهي تنبعث من مصابيح النّيون الحمر والصّفر. ورغم تأخّر الوقت فمازالت تُسمع موسيقى وأصوات نساء منبعثة من الشّارع.

متى اختفى صوت آيات القرآن من المدينة؟ كان يعلم أنّ المعارضة المقاومة في المسجد والبازار والقرآن لم تعد قويّة ولكنّه لم يظنّ أنّ النّظام سيغزو سنجان بهذه السّرعة.

أين هم آيات الله الّذين يناضلون ضدّ الشّاه؟ ماذا حدث للثّوّار الّذين تمّ إخراجهم من السّجن؟

كيف غيّرت الكتب الّتي كان شهبل يقرؤها سرّا المجتمع؟

أين هي المحطّات الإذاعيّة المعارضة للشّاه؟ أين جلجل وشراسته في معارضة الشّاه؟ أين هم الطّلبة الّذين يريدون تغيير العالم؟ وأين هو نُصرت، القادر على تصوير كلّ هذه التّغييرات؟

لقد كانت تلك سنوات هادئة ولكن كيف له أن يعلم أنّ عهدا جديدا سيحلّ قريبا وبسرعة رهيبة، وأنّ عاصفة مدمّرة ستلازمه؛ عاصفة هوجاء ستطويه وتقلبه مثل شجرة هرمة.

ونزل منكسرا، وأغلق منفذ الصومعة وعاد إلى الباحة. أراد أن يذهب إلى فجري سادات ويندسّ في فراشها لينسى كلّ شيء ولكنّه لم يفعل. خرج، وسار بهدوء نحو النهر.

كانت ضفاف النهر معتمة وهادئة. وكان النهر نفسه صامتا. ونظر إلى الكروم في الضفّة المقابلة، ثمّ إلى الجبال. كان كلّ شيء صامتا. فجال في المكان مفكّرا في حياته الماضية.

لقد وُلد في الدّار وخصّص حياته للمسجد، واشتغل في البازار دون توقّف ووظّف كلّ موهبته وطاقته في الزّرابي. وصارت ابنتاه شابّتين وصار ابنه الوحيد جواد شابّا؛ وهو ينهي

Twitter: @ketab_n

دراسته الثّانويّة ليستطيع الدّخول إلى الجامعة. وانتبه أغاجان إلى أنّه لم يحجّ بعد، في حين أنّ رجلا غنيّا مثله عليه أن يحجّ ولو مرّة في حياته.

تغيّر كلّ شيء، ولكن بدا وكأنّ كلّ هذه التّغيّرات لا تكفي، فقد شوّه أحمد سمعة المسجد كليّا. واندفع طائر الزّاغ ناعبا فجأة من بين أغصان كرمة وطار إلى الجهة الأخرى من النهر. وسمع أغاجان أصوات رجال ورأى خيال امرأة محجّبة تدير ظهرها للأشجار وتتّجه نحو الجسر.

وقال أغاجان في نفسه مباشرة «هذه المجنونة قدسي».

وظهر الخيال على الجسر.

«قدسي» صاح أغاجان.

فأسرعت في خطاها، وصاح وهو يجري خلفها في الظّلام «قدسي، انتظري، ماذا تفعلين هنا، في هذا الوقت المتأخّر».

«لِيمُت كلّ النّاس، إلّا أنتَ»، قالت قدسي في اللّحظة ذاتها الّتي صاح فيها طائر الزّاغ.

Twitter: @ketab_n

التّلفاز

صار ليزار، كلّما كبر أكثر، كائنا عجيبا لا تستطيع أن تقول إنّه طفل معاق أو حيوان. فقد كان رأسه ويداه ورجلاه بشريّة ولكنّ حركاته كانت حركات حيوان. وكلّما كبُر صار الحيوان فيه أوضح. وحاولت صادقة أن تعلّمه الكلام ولكن دون جدوى، فلم يظهر أيّ تجاوب معها.

كانت له طريقة خاصّة به، ولم يتأثّر بسلوك البشر من حوله. فلم يكن يريد أن يأكل مع غيره ولا أن ينام عندما ينام النّاس ولا أن يستعمل الملاعق، ويأكل مثل القطّ.

«لم أعد أحتمل، لم أعد أستطيع، لا أحبّ هذا الطّفل البشع».

- لا يحقّ لك أن تقولي مثل هذه الأشياء، يردّ عليها أغاجان.

وانفجرت صادقة ناحبة، وقالت باكية «بؤس بعد بؤس، لِمَ انقلب كلّ شيء في حياتي؟».

- أنت لا زلت صغيرة يا ابنتي، ولا تزال أمامك حياة طويلة لتحييها. ولا تُظهر الحياة وجها واحدا دائما، لا تنسي أبدا أنّ لكلّ شيء سببا. وإذا كان لأحد أن يتذمّر هنا فمن المؤكّد أنّه المؤذن؛ لقد وُلِد أعمى ورغم ذلك فإنّه لا يتذمّر أبدا، هذا جسده وقد قبِله، ونحن أيضا. هو لا يرى ولكنّ له أذنين حادّتي السّمع ويدين بالغتي الإحساس ورجلين تتذكّران الدّروب. وهو، حسب رأيي، يرى كلّ شيء، حتّى الأشياء الّتي لا قِبَلَ لنا برؤيتها. لا تبكِ يا صغيرتي، فابنك هو جزء من هذه الحياة، وأنا سعيد بوجوده معنا، فهو هديّة إلهيّة لدارنا. وأؤكّد لك أنّنا بحاجة إليه، وإلّا فما كان ليولد بيننا. لقد سكن هنا مئات الأشخاص. وهو ليس أوّل من يختلف عن غيره في عائلتنا. ثقي في الحياة، إنّنا نحتاج إلى ابنك لشيء ما، وإلّا لما وُلِد بيننا.

«آه لو أستطيع أن أكون واثقة مثلك» قالت صادقة وهي تبكي.

Twitter: @ketab_n

وفي الغد نادى أغاجان ليزار إلى مكتبه وأفهمه أنّ عليه أن يأتي لرؤيته في مكتبه كلّ يوم بعد صلاة الصّبح. لقد قرّر أن يعلّمه القراءة، وليحقّق هدفه، فقد كان محتاجا في السّنوات القادمة إلى صبر كبير ومواظبة دائمةّ. وقد استجاب له ليزار بشكل مُلفت كثيرا. فكان يذهب إلى أغاجان على أربع ممسكاً كتابا بأسنانه ثمّ يضعه على ركبتيه ويجبره على أن يتهجّاه له كلمة كلمة.

وعندما تعلّم القراءة قليلا، اعتاد التّمدّد تحت ظلّ شجرة في الحديقة. وعندما يكون الطّقس حارّا كثيرا فإنّه يتسلّق الدّرج إلى السّطح ويستظلّ مع كتابه بظلّ القبّة.

وفي الشّتاء كان يذهب إلى القبو ليقرأ قرب موقد المؤذّن.

وقد سمح له أحمد بالدّخول إلى المكتبة وقضاء ساعات بين الكتب. ولا أحد يعلم إن كان يفهم شيئا ما أو إنّه يحلم بطريقته الخاصّة.

كانت الدّار عالمه ويندر أن يخرج منها، إلّا إذا جاء العمّ رمضان باحثا عنه ووضعه على حماره ليذهب به إلى النهر. فيقوم الشّيوخ الجالسون أمام الدّكّان ويمسكون بالحمار ليزهوَ ليزار. وقد سمع عنه كلّ النّاس. فيحيّونه برفع قبّعاتهم ويمازحونه. ويُسرّ ليزار ويتحرّك بحماس. وصار العم رمضان غالبا ما يحمله إلى النهر حيث يغترف من الرّمل. فكان يحفر في الرّمل السّاخن ويجلس ليزار ليقرأ كتابه. وكان يرتاح كثيرا مع العم رمضان.

وقد رفضت صادقة مرّات كثيرة أن تعطي ليزار للعم رمضان.

«لماذا؟ سألها العم رمضان. لا يحقّ لك إخفاؤه».

كانت زينات تغيب كثيرا خلال هذه الفترة. وتذهب بانتظام إلى الرّيف لتعلّم القرويّات القرآن. وما إن تعود إلى الدّار حتّى تبحث عن ليزار فورا لتحكي له حكايات قديمة لا يسأم منها أبدا.

وتهتمّ زينات بليزار أفضل من كلّ الآخرين. وهي تعتبره عقابا أنزله الله عليها. كان ليزار أبكم ولكنّ له أذنين حادّتي السّمع ويستطيع التّنقّل بسرعة عجيبة. ويجبر من يحيطون به على التّواصل معه.

وكان نُصرت يتجاهله عندما يزورهم. فيداعب شعره أو يعطيه بعض الحلويّات، ولا أكثر من ذلك. وعندما كان ينام كان يغلق باب غرفته بالمفتاح ليمنعه من الدّخول عليه.

Twitter: @ketab_n

وذات ليلة دخل ليزار رغم كلّ ذلك. فتمدّد في إحدى زوايا الغرفة وأخرج كتابه من الجيب الدّاخليّ لبدلته.

كان نصرت محتارا، ظلّ على سريره لفترة طويلة ناظرا إليه. أراد أن يفعل شيئا ما من أجله، ولكن ما ذلك؟ وبغتة خطرت بباله فكرة فقال له «هل تأتي معي؟»

تبعه ليزار على أربع إلى الباحة ثمّ إلى القبو.

«اسمع، منذ فترة جاء شهبل بتلفاز ليُري القمر لأغاجان ولجدّك الصّابري. لقد كان الصّابري إماما ضعيفا وقد وقع في الحوض ومات ولكن لا بدّ أنّ ذلك الجهاز لا يزال هنا، في مكان ما. إذا وجدته فسأعطيك إيّاه. أتعلم، لقد وُلدت في دار لا تناسبك. العالم يتغيّر، ولكن كلّ شيء ممنوع في هذه الدّار. هل تفهم ما أقوله لك؟».

لم يفهم ليزار شيئا وكان ينظر دون أن يدرك عمّا يتحدّث نصرت.

«بيد أنّك محظوظ. فلو كنت قد وُلدت في عائلة أخرى لكانت قد باعتك لسيرك منذ زمن. ولكانت أعطتك الحبّ، والحبّ مهمّ جدّا للإنسان. ولكنّ هذه الدّار متخلّفة. لأنّهم يخشون الله فإنّهم يخافون من كلّ شيء أيضا: من المذياع ومن التّلفاز ومن الموسيقى ومن السّينما ومن المسرح ومن الفرح ومن النّساء الغريبات والرّجال الغرباء، فهم يحبّون المقابر فقط. هناك فقط يرتاحون. هذا صحيح، هل تعلم؟ أذهبت معهم إلى مقبرة؟ هناك تراهم فجأة مستثارين، فرحين، فهم يرتاحون مع الموتى. لهذا السّبب هجرت هذه الدّار عندما كنت شابّا. تعال، سنذهب لنرى أين يوجد هذا التّلفاز، من المؤكّد أنّه في مكان ما هنا، في هذه الأكداس إذا لم تكن الجدّتان قد ألقتاه. آه، هاتان الجدّتان، أنت لم تعرفهما. لقد كانتا سيّدتين فعلا. لم تحبّاني، ولكن، حسنا، لقد ذهبتا إلى مكّة ولن تعودا أبدا، عجوزان ماكرتان. آه، أظنّ أنّي عثرت عليه. انظر، تلفاز صغير لك. بهذا الهوائيّ الصّغير سأغيّر حياتك. دعني أرى أين يمكنني أن أضعه حتّى لا يضايقك أحد. انظر، هناك، فوق السّطح، وراء القبّة حيث المهملات. لقد كان مخبئي في ما مضى، كنت أقرأ فيه الكتب الممنوعة. ثمّ وضع فيه شهبل سريرا، والآن بعد أن غادر صار مخزن المهملات ملكا لك.

اندفع ليزار وراء نصرت على الدّرج الّتي تؤدّي إلى السّطح. ووضع نصرت التلفاز على طاولة قرب سرير شهبل.

«من الآن فصاعدا هذا السّرير لك، اجلس حتّى أريك كيف يشتغل التّلفاز».

Twitter: @ketab_n

انزلق ليزار في السّرير وجذب نصرت كابل التّلفاز إلى الخارج وثبّت الهوائيّ الصّغير بدقّة عند طرف إحدى العارضات حيث لا يمكن لأيّ شخص رؤيته.

«والآن انظر جيّدا» قال نصرت وهو يشغّل التّلفاز. وظهرت على الشّاشة امرأة وعليها مساحيق تجميل مرتدية فستانا أحمر بلا أكمام.

«لا تفزع يا صغيري، فخارج جدران هذه الدّار، يبدو العالم مختلفا كليّا. هل تحبّ النّساء؟ آه، آه، لا تسألني ذلك. سآخذك يوما ما إلى طهران. في الحقيقة، هذا التّلفاز صغير جدّا. سآتيك بجهاز أكبر. أمّا الآن فعليك أن تهتمّ جيّدا بهذا، فهو لك ولا أحد له الحقّ في أخذه منك. وإذا أراد شخص ما أن يأخذه منك فما عليك سوى أن تعضّه. اغرس أسنانك في قدمه وعضّه بكلّ قواك. هل فهمت؟».

استطاع ليزار أن يحافظ على سريّة مخبئه لمدّة سنة. ولكن ذات ليلة صعد أغاجان الدّرج بهدوء وفتح باب مخزن المهملات فجأة.

لم يكن ليزار ينتظر أحدا، فوثب وثبة واحدة من سريره إلى التّلفاز وجلس فوقه مثل قطّ كبير. وتدلّى رأسه من أحد جوانب الجهاز ورجلاه من الجانب الآخر.

بقي أغاجان برهة على عتبة الباب ثمّ أغلقه واتّجه نحو دُرَج المسجد ونزل.

الجراد

لم يكن اليوم يوما عاديّا بالنّسبة إلى أغاجان. فقد حصلت فيه أمور أكثر ممّا كان يتوقّع.

طُرق الباب. ففتحه ليزار ووجد نفسه قبالة عيني حصان كبرين كانتا تحدّقان فيه في شمس الظّهيرة. تعلّق بطرف الباب وتسلّقه ليستوضح ما كان يحدث. توقّفت عربة كبيرة محمّلة بتابوتين. كان الحوذيّ يرتدي معطفا أسود طويلا ومظلّة وصاح «أغاجان». فانسلّ ليزار إلى مكتب أغاجان وأشار إلى الباب مقلّدا صهيل الحصان.

وما إن رأى أغاجان الحوذيّ حتّى وضع قبّعته واتّجه نحو الباب.

«إنّا لله»، قال الحوذيّ

– إنّا لله، قال أغاجان، كيف أستطيع مساعدتك؟

– أحمل لكم جثّتين.

– جثّتين؟ لي؟

– عفوا، ليستا جثّتين، بل بقايا جثّتين.

– جثّتا من؟

– امرأتان من مكّة.

– الجدّتان، قال أغاجان، برعشة خفيفة.

– هل تمضي لي هنا؟ قال الحوذيّ وهو يمدّ له أوراقا.

– نظّارتي، قال أغاجان.

سارع ليزار باحثا عنها.

Twitter: @ketab_n

كان النّص مكتوبا باللّغة العربيّة؛ بعض الآيات القرآنيّة متبوعة بمعلومة قصيرة عن الجدّتين، وقد وُجدتا في غار في جبل حراء قرب مكّة.

جبل حراء هو من الأماكن المشهورة جداً في العالم الإسلامي، فهو الجبل الّذي كان يتسلّقه محمّد كلّ ليلة ليتلقّى خطاب الله، وفيه تجلّى جبريل لمحمّد أوّل مرّة لينقل إليه رسالة نبوّته.

يوجد قرب هذا الجبل أيضاً غار صغير هو الغار الذي في جبل «ثور» قصده محمد عندما خرج من مكة ليلاً، ولجأ إلى المدينة فارّا من أعدائه الّذين أرادوا قتله.

لعب هذا الغار دورا حاسما في تاريخ الإسلام وكذا تلك اللّيلة، إذ في تلك اللّيلة ذاتها، في ذلك اليوم، ابتدأ العهد الإسلامي.

وسُمّي الغار فيما بعد بغار العنكبوت.

في كلّ مرّة كان محمّد يدخل إلى الغار يظهر العنكبوت وينسج شبكة على المدخل حتّى لا يدرك أيّ شخص إن كان يختبئ هناك. اختبأت الجدّتان في هذا الغار، وهو أمر مستحيل نظريّا، ولكنّهما فعلتا ذلك، ووجدت الشّرطة وصيّتهما بالقرب منهما.

كانت حكاية صعبة التّصديق، فالنّفاذ إلى الغار الّذي يزوره ملايين الحجّاج عبر السّنين كان ممنوعا؛ وليس مسموحا لهم بغير النّظر إليه من بعيد.

وإذا صحّت هذه القصّة فإنّ الجدّتين قد قامتا بتجربة خارقة للعادة. كان أغاجان متأثّرا ولم يكن التّابوتان يشغلانه. فابنه جواد سيعود إلى الدّار بعد غياب دام ستّة أشهر. لقد تمّ قبوله هذه السّنة في جامعة أصفهان، وهذه هي المرّة الأولى الّتي يتغيّب فيها لوقت طويل. كان يدرس العلوم الفيزيائيّة هناك ويطمح إلى أن يكون مهندس نفط.

اكتُشف مخزون كبير من الغاز في سنجان. وكانت شركة أمريكيّة تستعدّ للحفر ولهذا تمّ استحداث شعبة جامعيّة جديدة وتقدّم مئات الطلّاب لاجتياز مناظرة الدّخول لهذه الشّعبة ولكنّ قليلا منهم فقط نجحوا. وكان جواد من بين النّاجحين. وصار الطّلبة النّاجحون في المناظرة يتلقّون دروسا يلقيها مهندسو نفط أمريكيّون. كانوا يتبعون جامعة أصفهان رسميّا ولكنّهم سيذهبون قريبا لمواصلة دراستهم على بعد أربعين كيلومترا من سنجان، في شركة النّفط شاهزند تحت مراقبة الشّركة النّفطيّة الأمريكيّة. وسيعيشون في إقامة داخليّة في المدرسة حيث يُمنع التّحدّث بغير الأنقليزيّة.

Twitter: @ketab_n

تضمن هذه الدّراسة الحصول على عمل، وفي حالة جواد سيكون العمل على مقربة من الدّار. ولا يمكن للمرء أن يطمح إلى أفضل من ذلك. وفي اليوم الّذي سمعوا فيه بقبول ابنهم لم تتمكّن فجري سادات من النّوم من فرط السّعادة، وتفاخر أغاجان بذلك.

كان أغاجان قد سوّى كلّ الأمور للذّهاب مع فجري سادات إلى محطّة سكّة الحديد لإحضار جواد.

– لماذا جئت بالتّابوتين إلى بيتي، قال للحوذيّ، كان عليك أن تحملهما إلى المسجد. كان عليك أن تتّصل بي أوّلا أو أن تأتي لتعلمني بذلك. ليس من اللّائق أن تحضر إلى منازل النّاس حاملا معك تابوتين في وقت متأخّر من العصر. ماذا تريدني أن أفعل الآن؟

– عفوا لا أحمل لك جثثا، قال الحوذيّ، إنّهما ليسا سوى كيسين.

– كيسان؟ كيف، كيسان؟، قال أغاجان ساخطا.

وقف الحوذيّ في العربة وفتح أحد التّابوتين وأخرج منه كيسا، ثمّ فتح التّابوت الثّاني وأخرج منه كيسا آخر وأمسكهما بيديه قائلا:

– انظر، لم يبعث السّعوديّون بغير كيسين، هل ستقبلهما أو أعيدهما إليهم؟

– ولكن لمَ تُحضر هذين الكيسين في تابوتين كبيرين؟ ولمَ تأتي بالعربة وفي هذا الوقت المتأخّر؟

– أفهم موقفك، ولكنّي لست سوى حوذيّ.

سارع أغاجان بدسّ بعض الأوراق النّقديّة في جيب الحوذيّ وأخذ الأكياس ودخل وأغلق الباب.

«ما الّذي يجري؟».قالت فجري سادات من الطّابق العلويّ.

خبّأ أغاجان الكيسين تحت بعض أوراق قرع كبيرة في الحديقة وقال «لا شيء مخصوص، هل أنتِ جاهزة؟ يجب أن نذهب وإلّا تأخّرنا».

كانت الشّمس الحمراء تنحدر في الأفق عندما جلس أغاجان وراء مقود سيّارته الفورد ذاهبا إلى المحطّة مع زوجته.

وبكت فجري سادات من الفرح عندما رأت ابنها ينزل من القطار. كان أفضل أولادها

Twitter: @ketab_n

عندها. مرّت ستّة أشهر على رحيله إلى أصفهان، وقد كانت تقبّله كلّ ليلة قبل النّوم. ولكنّه قد عاد بشارب قصير أسود وشعر أطول من ذي قبل.

تكفّلت فجري سادات بتعليمه بنفسها. كانت تحرص على أن لا ينغمس في أمور المسجد أو السّياسة أو البازار. عملت على أن يتلقّى تعليما حرّا ليستطيع أن يختار سبيلا خاصّا به. والآن صارت تجني ثمار ذلك. لم يكن ابنها يبدو ورِعا. وأحبّت أن يطيل شعره. وهو يشبه الآن عمّه نصرت أكثر من أبيه.

لم يهتمّ قطّ بشؤون المسجد طوال السّنوات الّتي قضّاها في الدّار وكانت فجري سادات سعيدة بأن اختار أغاجان شهبل لا جواد ليخلفه في البازار. ولم تكن تعلم أنّ شهبل قد خيّب آمال أغاجان وأنّه قد حوّل رجاءه إلى ابنه. ولكنّه لم يتحدّث في الأمر مع فجري بعد.

في آخر مرّة هاتف فيها شهبل البازار قبل بضعة أشهر لم يتّصل بأغاجان مباشرة بل اتّصل بالمستودع. وأُخبِر أغاجان بأنّ هناك من يطلبه على الهاتف.

« من هو؟

– رجل أعمال من طهران.

– ولمَ يتّصل على هذا الرّقم؟

– قال إنّه قد اتّصل مرّات كثيرة ولكنّ أحدا لم يردّ عليه.

ذهب أغاجان إلى المستودع ورفع السّمّاعة.

« أعتذر على إزعاجك يا أغاجان ولكنّي خشيت أن يكون هاتفك الشّخصيّ تحت المراقبة. اتّصل بك لأعلمك بأن لا تقلق عليّ إذا لم أعد إلى الدّار. أنا مشغول هذه الأيّام ببعض الأمور. وقد أحببت سماع صوتك. أبلغ سلامي إلى الجميع.

– لن أنسى ذلك، ولْيحمِكَ الله يا ولدي».

لم يكن شهبل محتاجا إلى أن يطيل الحديث. لقد فهم أغاجان مقصوده. ولكنّه لن يحدّث فجري في ذلك الآن. فهذه حفلتها، ولا يريد أن يفسدها عليها.

كانت الأمسية رائعة. وقد ظلّوا جالسين إلى المائدة لوقت طويل، وكان الجميع

Twitter: @ketab_n

مسرورين. وقد اعتادت زينات على أن تحكي قصّة في هذه السّهرات، ولكنّها كانت غائبة.

لم يفكّر أغاجان بأنّ لزينات صلات بقمّ. فقد تلقّت تعليمات بإنشاء روابط بين النّساء أثناء إعطائهنّ دروسا قرآنيّة.

ورغب المؤذّن في الحفاظ على عادة سرد القصص في السّهرات فحكى لهم قصّة يونس. هجر يونس بيته نهائيّا. استغرب أتباعه ذلك منه وحزنوا. وصل يونس إلى البحر ورأى المسافرين يركبون البحر في سفينة كبيرة فقرّر أن يفعل مثلهم. وأبحرت سفينته ثلاث ليال وثلاثة أيّام، وفي اليوم الرّابع اكفهرّت السّماء، وخرج حوت كبير من الماء فجأة وأوقف السّفينة. لم يعرف الرّكّاب ما هم فاعلون. ولم يتحرّك الحوت قيد أنملة. وقال راكب عجوز كان قد سافر كثيرا:

« لقد ارتكب أحدنا خطيئة، وعلينا أن نهديه للحوت وإلّا فلن يتركنا نمرّ.

– الحوت آت من أجلي، قال يونس، بإمكانكم إلقائي في البحر وإكمال رحلتكم.

– إنّنا نعرفك، قال احد المسافرين، أنت رجل مستقيم، لا يمكن أن تكون قد ارتكبت معصية، ونعرف أباك أيضا. لا، لست من يطلبه الحوت».

كان يونس يعرف أنّ الحوت قد جاء من أجله فقال:

«هذا أمر بيني وبين ربّي. وهذا سبب وجود هذا الحوت هنا».

وصعد إلى ظهر السّفينة وقفز في الماء. فالتقمه الحوت وغاص في الماء.

كان الجميع يفكّرون في مغزى القصّة عندما سمعوا ضجيجا مريبا يأتي من الباحة الدّاخليّة. فأرهف أغاجان سمعه.

«ما هذا؟ ما هذا الضّجيج؟» قال المؤذّن.

خرج أغاجان إلى الباحة ولاحظ أنّ الجوّ معتم أكثر من المعتاد.

«أسمع حسيس حشرات طائرة، قال المؤذّن».

«الجراد، قال أغاجان، أغلقوا كلّ النّوافذ».

ولكنّ الوقت كان قد فات كثيرا. فقد دخلت آلاف من الجراد إلى الدّار وأعتم الجوّ وكأنّ عاصفة رمليّة صحراويّة قد غمرت المكان.

Twitter: @ketab_n

التفّت النّساء في تشادوراتهنّ وجرين نحو الغرف لغلق الأبواب.

أسرع أحمد إلى المكتبة وأسرع أغاجان إلى القبو ليغلق مصراعيه.

حطّ الجراد على السّطح وعلى الأشجار، وفي الحدائق، وحتّى في الحوض وبدأ بالتهام كلّ شيء.

يندر أن يغزو المدينةَ جرادٌ قادمٌ من المدن الشّرقيّة البعيدة مثل مكّة. وبعد أن التهم كلّ شيء، اتّجه نحو الكروم واختفى وراء الجبال. ولم يعرف أيّ شخص منهم سِرْبًا من الجراد مثل سرب اليوم، ولم يسمع أكبرهم سنًّا بغير حكايات آبائهم.

يوجد في المكتبة كتاب يصف جيشا من الجراد انقضّ على سنجان قبل خمسين سنة. وصلت ملايين من الجراد أسرابا أسرابا. وأعتم الجوُّ. كان جرادا ضخما مثل الإصبع وذا لون ترابيّ، فلم يكن يُرى عندما يحطّ على الأرض، ولكن ما إن يتحرّك حتّى يبدو كأنّ الأرض تموج. صعد النّاس فوق أسطح منازلهم مسلّحين بقدور وأغطية وقرعوا القدور بملاعق ليخيفوا الجراد. ولكنّ الجراد كان أصمّ عن الضّوضاء. أشعل النّاس نيرانا أملا في طرده ولكنّ الدّخان لم يخنقه. أخرجوا مصاحفهم ورتّلوا معا سورة سليمان «كان الوادي مغطّى بحشد من النّمل مثل بساط أسود. وطار الهدهد رسول سليمان فوق الوادي وصاح قائلا: أيّها النّمل! أما عرفتموه؟ إن من جاء ليحدّثكم هو سليمان، وهو يتحدّث لغة الحيوانات، وهو في طريقه إلى ملكة سبأ، ألم تسمعوا بفاتنة سبأ؟ ابتعدوا إذا، أفسحوا الطّريق، دعوا الجيش يمرّ. إنّه سليمان، وإنّها ملكة سبأ، وإنّ أمرا جللا يوشك على الحدوث. ابتعدوا»[1].

لم يحدث شيء في أوّل الأمر. ولكن سرعان ما تحرّكت أسراب الجراد واختفت في قاع الوادي.

لم ينسحب الجراد إلّا بطلوع النّهار متّجها نحو الجبال. كان قد قضم الأشجار والحدائق، وكانت أشواك السّمك تطفو في الحوض. وقد ذهب أيضا ببقايا الجدّتين.

واعتقد أغاجان، وهو واقف قرب نافذته ينظر إلى الباحة الدّاخليّة، أنّ كلّ شيء يشير إلى أنّ أمرا مشؤوما سيحدث. لا يأتي الجراد دونما سبب.

وضع يده في الجيب الدّاخليّ لسترته وأمسك بالقرآن.

---

1 المعرّب: ما هذا بقرآن، ولا وجود له في آية سليمان من سورة النّمل. فلم نمزه عن غيره.

Twitter: @ketab_n

الوقت

رتّل المؤذّن وهو في سريره

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا [1]

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا [2]

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا [3]

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا [4]

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا [5] [سورة الشمس]

مرّت سبعة أيّام على غزو الجراد، ولا يزال المؤذّن ملازما لفراشه في غرفته.

«لماذا تسجن نفسك في غرفتك أيّها المؤذّن؟ لماذا لا تخرج؟ سأله أغاجان من وراء الباب.

- لا أجرؤ على ذلك.

- كيف هذا، لا تجرؤ على ذلك؟ ممَّ أنت خائف؟ ماذا حدث؟ قال أغاجان وهو يدخل الغرفة بحذر.

- لقد توقّفت ساعة رأسي، لا أعرف في أيّة ساعة نحن الآن.

- أنت بكلّ بساطة مرهق أيّها المؤذّن، قال أغاجان. هذا بسبب الفخار، لأنّك لم تعد قادرا على بيعه.

- كلّا، ليس بسبب الفخار، ولكن بسبب الجراد. عندما حلّ بنا لم تعد ساعتي تعمل. ولم أعد أجرؤ على الخروج من الدّار. سأذعر إذا سألني النّاس عن السّاعة، عن الوقت».

كان التّاجر الّذي يبيع فخار المؤذّن قد ألغى عقده معه. يوجد في البازار الآن الكثير

Twitter: @ketab_n

من الأشياء البلاستيكيّة الرّخيصة، فلم يعد النّاس ينظرون إلى الفخار. ولكنّ المؤذّن لم يكن قادرا على التوقّف عن العمل. كان يصنع باستمرار صحونا وأطباقا ومزهريّات وأباريق ماء ويضعها في القبو. ولمّا لم يعد القبو يتّسع صار يضعها في الحديقة بين النّباتات. ولمّا لم تعد الحديقة تتّسع صار يضعها فوق سطح المسجد.

ظلّ المؤذّن ملازما لفراشه ثلاثة أيّام أخرى، وفي اليوم العاشر عادت ساعته إلى العمل فجأة.

«الثّانية عشرة وثلاث دقائق» دمدم المؤذّن وهو يجلس على سريره مطلقا تنهّد فرج.

أرهف سمعه، سمع صوت باب الحديقة، ثمّ خُطى تعبر الباحة الدّاخليّة وتدخل إلى مكتب أغاجان.

«شهبل» قال في نفسه.

قام، أراد أن يناديه، ولكنّه لم يفعل. كان يعلم أنّ شهبل لم يذهب في هذا الوقت المتأخّر إلى مكتب أغاجان دونما سبب. عليه أن ينتظر. سيأتي شهبل لرؤيته لاحقا.

عندما ظهر شهبل في فتحة الباب قال أغاجان فورا «لقد تغيّر».

لم يعد وجهه يُظهر سمات ذلك الشّاب الّذي عاش في الدّار، إنّه رجل يقف أمامه الآن.

قام أغاجان وعانقه وقدّم له كرسيّا.

– كيف حالك يا بني؟ لقد نسيتنا، مرّ وقت طويل دون أن أسمع أخبارك.

– إنّها حكاية طويلة يا أغاجان. ويمكنني أن أختصرها في عبارات قليلة: أنا سعيد وأحوالي بخير.

فهم أغاجان بأنّ عليه أن لا يطرح أسئلة أخرى، ولذلك قال «ممتاز، هذا كلّ ما أردت معرفته». وسكت تاركا المجال لشهبل حتّى يُكمل حكايته.

«يوجد تململ في الجامعة هذه الأيّام. زار نائب الرّئيس الأمريكي طهران اليوم. فحاصر الطّلبة الطّريق الّتي تؤدّي من المطار إلى القصر ولكنّ الفرقة العسكريّة المناهضة للثّورة قد نجحت في تفريقهم. فانسحبوا وأعادوا التّجمّع واقتحموا السّفارة الأمريكيّة. كان

Twitter: @ketab_n

فريق من الشّرطة في انتظارهم وأوقف زحفهم وواجههم فقذف الطّلبة زجاجات حارقة من المولوطوف على نوافذ السّفارة فاحترق الجناح الأماميّ. وظهرت طائرة هيلكوبتر وبدأت تطلق النّار عشوائيّا. توفّي طالب وجُرح كثيرون. والشّرطة تبحث الآن عن الطّلبة الّذين قادوا المظاهرة. وقد هرب جميعهم. وأنا منهم. أريد أن اختبئ لبضعة أيّام في مكان ما من المسجد بانتظار عودة الهدوء، إذا لم تكن تمانع.

- فيمَ أمانع؟ ردّ أغاجان. لقد أحسنت صنعا بمجيئك إلى الدّار. أنت هنا في أمان أكثر منه في أيّ مكان آخر. أستطيع أن أساعدك هنا أكثر منه في طهران.

- شكرا.

- على ماذا؟

- لقد هجرت الدّار، ولكن عندما أخشى شيئا أو أشعر بالخطر أفكّر فيك فورا. لقد كانت هذه الدّار ملجأ آمنا لي. شكرا على هذا الشّعور بالقوّة الّذي منحتني إيّاه. وشكرا على التّربية الّتي ربّيتني إيّاها. لم أكن أعرف من أكون عندما كنت أعيش في الدّار. وصرت أعرف الآن: لقد جعلت منّي رجلا قويّا».

تأثّر أغاجان بالتّقدير الّذي أبداه له شهبل.

«لقد صرت رجلا رصينا حقّا، تعرف كيف تعبّر عن مشاعرك، قال أغاجان.

- أريد أن أضيف شيئا آخر، قال شهبل، عندما مرّ قطاري بمحطّة قمّ أذهلني مشهد لم أره من قبل قطّ. حاصر مئات من الأئمّة الشّبّان المحطّة، لقد كانوا على سكّة الحديد ومنعوا القطار من التّحرّك وكانوا يصيحون «لا إله إلّا الله». لم أر مظاهرة عنيفة مثل هذه. كانت في هتافات المتظاهرين قوّة خارقة. ما رأيته في قمّ هو طريقة جديدة للاعتراض. لقد غيّر آيات الله خططهم. الأئمّة الّذين لم يكونوا يرغبون بمعرفة أيّ شيء عن القطارات صاروا يقفون بين سكك الحديد. وتسلّق إمام شابّ إلى أعلى الجدار وألصق صورة للخميني على صورة للشّاه كانت موضوعة في إطار. كانت تجربة مؤثّرة. أمر كبير يوشك أن يحدث: هل لديك اتّصالات بقم؟»

كان هذا السّؤال غير متوقّع. لا، لم تكن لديه اتّصالات بقم. ولم يهاتفه أيّ من آيات الله هذه السّنة. أدرك أنّ قطارا مليئا بآيات الله قد غادر المحطّة وبأنّه قد فوّت هذا القطار.

Twitter: @ketab_n

كانت السّاعة تشير إلى الواحدة إلّا ثلاث عشرة دقيقة عندما سمع المؤذّن وقع خطوات في الممرّ. تعرّف المؤذّن على الخطوات ولكنّه لم يكن قادرا على أن يقول لمن هي. سمع صرير قفل. نهض وذهب حافي القدمين إلى مكتب أغاجان وقال «سمعت وقع خطوات في الممرّ، يوجد أحد ما أمام الباب».

«اصعد إلى إحدى الصومعات»، قال أغاجان لشهبل في الحال.

قبّل شهبل أباه بسرعة وتسلّق إلى السّطح، وأخذ في طريقه غطاء من المخزن. فتح باب الصومعة اليسرى، وولج إلى الدّاخل وأغلق الباب وراءه.

رأى أغاجان ليزار في الباحة تائها وثيابه مبلّلة.

«لا تبق هنا، قال له، اصعد إلى الطّابق العلوي».

وذهب بهدوء إلى الباب وفتحه.

كان رجل يضع نظّارات وقبّعة واقفا أمام الباب وفي يده مفتاح. سبق لأغاجان أن رآه ولكنّه لا يذكر مكان ذلك.

«أظنّ بأنّنا نعرف بعضنا بعضا، ولكنّي لا أبصر جيّدا في الظّلمة، قال أغاجان، كيف أستطيع أن أساعدك؟».

نزع الرّجل قبّعته، فتعرّف إليه أغاجان ولكنّه لم يستوعب الأمر مباشرة. لقد كان جلجل، والد ليزار. وكان يبدو عجوزا.

«السلام عليكم» قال جلجل.

ولم يعرف أغاجان كيف يتصرّف من جديد.

لقد حطّم جلجل حياة صادقة. كان قد هجرها بعد أن حملت منه بطفل معاق وذهب إلى العراق ليلتحق بالخميني، وبعد عدّة سنوات يحضر إلى الدّار دون أن يعلمهم.

«كيف أستطيع أن أخدمك؟»، سأله أغاجان ببرود، مغلقا الباب وراءه.

– أنا أجوب البلاد لأبلّغ رسالة الخميني للإيرانيّين. وقد جئت اليوم إلى سنجان لأقابل مجموعة من رجال البازار. ظننت أنّك ستكون ضمنهم واستغربت لعدم رؤيتي لك هناك. عليّ أن أعود إلى العراق هذه اللّيلة بالذّات. ولديّ رجاء: هل استطيع أن أتحدّث مع زوجتي؟

Twitter: @ketab_n

- شرعيّا هي لم تعد زوجتك. عندما يهجر الرّجل زوجته لوقت طويل دون أيّ خبر منه يُفسخ الزّواج. أنت أعلم بذلك منّي. ولا حقّ لك في مقابلتها.

- أعرف ذلك، وهذا لا يمنع، فربّما كانت هي من يريد مقابلتي.

- أنا من يقرّر هنا. وهي لا تريد مقابلتك، أجاب أغاجان.

- ولكن لي طفل منها ويحقّ لي أن أراه.

- هذا صحيح، ولكن من الأفضل لنا جميعا أن ترحل في الحال وأن ننسى هذا اللّقاء، أجابه أغاجان بلهجة أكثر هدوءا.

- أصدقك القول، لم أكن أنوي المجيء إلى هنا، حتّى إنّي كنت قد ركبت السيارة للرّحيل. ولكنّي لم أكن قادرا على مغادرة المدينة قبل أن أراهما. أفهم غضبك، ولكنّك رجل ذو خبرة كبيرة. إنّها قضيّة سياسيّة. إنّه النّظام الأمريكي، يجب التّضحية بالجسد، بالزّوجة، بالابن لقلب النّظام، وإلّا فلن نتمكّن من ذلك. لم يكن لديّ خيار آخر.

- لا وقت لديّ لسماع هذه الحماقات في غمرة اللّيل، قال أغاجان وأشار عليه بالرّحيل.

ومن وراء نظّارته السّوداء رمق جلجل أغاجان بنظرة ساخطة وقال «بما أنّك أردت أن يكون الأمر هكذا، سأرحل، ولكنّنا سنلتقي».

ثمّ ذهب.

وعندما كان أغاجان في فراشه مع فجري حدّثها عن الزّيارة غير المنتظرة لجلجل. تحادثا في الأمر دون أن يتعمّقا فيه فقد كان كلاهما متعبا. وفي مساء اليوم الموالي، طرقت فجري باب مكتب أغاجان وقالت «عليّ أن أحدّثك»

- ادخلي، قال أغاجان والتّعجّب يغمره.

توقّفت فجري في وسط الغرفة وقالت:

«أظنّ أنّ زينات على اتّصال بجلجل، وأظنّ أنّ جلجل قد قابل صادقة بإذن من زينات».

- ماذا؟ ماذا تقولين؟ من أخبرك بذلك؟ قال أغاجان مذهولا.

Twitter: @ketab_n

- أظنّ بأنّهما يعملان معا. أعتقد أنّ جلجل قد ربط زينات بقم. وقد صارت زينات تتمتّع بسلطة، أرى ذلك في تصرّفاتها. ألم تلاحظ بأنّها لم تعد تتردّد على مسجدنا؟ عليك أن تحذرها، إنّ لها نشاطات غريبة».

قد تكون فجري على حق، فلِمَ لمْ يفكّر هو ذاته في هذا الأمر؟

«سأخبرك بأمر لا يحقّ لي أن أخبرك به في الواقع، ولكن بما أنّ الأمور وصلت إلى هذا الحدّ، فمن الأفضل أن تعرف الموضوع. لقد سبق لجلجل أن رأى صادقة. وأظنّ أنّه لم يكن مجرّد لقاء. لقد كانت صادقة تعبر الباحة ذاهلة.

- ماذا؟ مستحيل؟ هذه حكايات عجائز.

- إنّها ليست حكايات عجائز. أنتَ تلاحظ أقلّ تغيير يحدث في البازار، ولكن لمَ لا ترى التّغييرات الّتي تحدث في دارك؟ ما إن أسمع خطى زينات على الدّرج حتّى التفّ آليّا في تشادوري. لم أعد أجرؤ على أن أتزيّن أمامها، أحسّ كأنّ شخصا غريبا ينظر إليّ. لا أعرف ما الّذي تفعله. لا أعرف بمن تتّصل، ولكنّ نظراتها قد تغيّرت. وهذا الانطباع ذاته عندما نعقد اجتماعاتنا النّسائيّة. لا يجرؤ أحد على فتح فمه في حضور زينات.

في الماضي كانت هذه الاجتماعات تروق لي، ولكن اليوم صارت تتردّد على الاجتماعات نساء وقحات لا يتحدّثن عن غير الشّريعة. وزينات هي من يدير النّقاشات».

اندكّ أغاجان في كرسيّه. وطُرق الباب.

«من هناك؟».

ارتفع صوت قدسي من وراء الباب «دخان في السّينما».

- ماذا تفعلين هنا في هذه السّاعة من اللّيل؟، قال أغاجان ونهض فورا وفتح الباب.

كانت طبقة من الدّخان الكثيف تنتشر فوق وسط المدينة وسيّارات الإطفاء تتّجه نحو الحريق وهي تطلق صفّارات الإنذار.

«جلجل»، قال أغاجان في نفسه فورا، ولكنّه لم يبح بما جال في باله لفجري. غيّر ملابسه وسارع بالخروج ذاهبا إلى وسط المدينة.

Twitter: @ketab_n

انتشرت سيّارات الشّرطة والإسعاف في كلّ مكان وهي تنقل الجرحى إلى المستشفى. لقد انفجرت قنبلة في السّينما وأسفرت عن ثلاثة قتلى وأكثر من مائة جريح.

وبعد أسبوع انفجرت قنبلة أخرى في سينما أصفهان وأسفرت عن عدد أكبر من القتلى والجرحى. ولكنّ النّظام لم يشر إلى هذه الحوادث ولم تتكلّم عنها الصّحف.

وبعد أربعين يوما انفجرت قنبلة ضخمة في مدينة عبدان، وهي مدينة في أقصى الجنوب، في اليوم الّذي قدّمت فيه أكبر سينما في البلاد العرض الأوّل لفيلم أمريكيّ. وأسفر الانفجار عن أربعمائة وسبعين قتيلا وعدد أكبر من الجرحى.

ونُشر الخبر في الصّفحة الأولى في كلّ الجرائد العالميّة.

لم يكن الشّاه غافلا عن خطى الخميني، ولكنّه لم يكن يتصوّر أنّ آية الله بإمكانه أن يجمع تحت الرّاية نفسها وفي وقت قصير كلّ البازارات وكلّ المساجد. كانت هذه الأحداث تقلقه ولكنّ التّقارير الّتي كان يبعثها إليه موظّفوه لم تكن تشير إلى احتمال وقوع ثورة شعبيّة. لم يكن الشّاه يسمع غير عبارات الرّضا الكامل من الشّعب واعترافه بالجميل. وكانت البلدان الغربيّة تثق به ثقة تامّة. فلم يكن يرى من داع لأن يعطي هذه الاعتداءات وزنا كبيرا.

أمّا على الصّعيد العالمي فقد كانت كلّ الأنظار متّجهة نحو العراق، حيث كان الخميني منفيّا.

أثناء خطبة الجمعة، بثّ القسم الفارسي في إذاعة البي بي سي هذه الرّسالة للخميني «لسنا نحن من قام بهذه الأفعال. نحن لا نرتكب مثل هذه الجرائم. إنّها غلطة المخابرات».

اكتسب هذا البثّ بعدا تاريخيّا: إنّها أوّل مرّة يبعث فيها إمام؛ آية من آيات الله، برسالة عبر المذياع. كان صوته صوت شيخ ولكنّه يصرّ على المقاومة أكثر من ذي قبل. لم ينطق بكلمة 'شاه' وليحقّر الملك، ناداه باسمه الثّاني رضا «كلمات رضا هذا قاسية، دعوه يتكلّم. هو لا يساوي شيئا. ليس سوى خادم. أنا أتحدّى أمريكا».

وأعلنت البي بي سي أنّ مظاهرة ستنظّم الجمعة القادمة في طهران. وانفجر الخبر كالقنبلة.

لم يفهم الشّاه لماذا يريد الشّعب أن يتظاهر مادام سعيدا. ولم يكن يرى إمكانيّة اندلاع ثورة بما أنّ الاستخبارات تراقب كامل البلاد عن كثب.

Twitter: @ketab_n

وفي يوم الجمعة الموعود نزل آلاف من تجّار البازار في طهران إلى الشّارع وتجمّعوا في ساحة المجلس حيث يوجد مبنى البرلمان. والتحق بهم آلاف آخرون في الشّوارع المتقاطعة مع السّاحة؛ إنّهم المصلّون الّذين خرجوا لتوّهم من المسجد حيث كانوا يؤدّون صلاة الجمعة.

وعندما غصّت بهم السّاحة ساروا نحو قصر الشّاه. شُكّل الصفّ الأوّل من أئمّة شبّان ويمشي أمامهم أحد آيات الله لوحده، وقد بدا صغيرا نسبيّا. وكان يرتدي ثيابا أنيقة مميّزة لم يسبق لأحد أن رآها.

لم يكن الأئمّة التّقليديّون يهتمّون بملابسهم. ولكنّ آية الله هذا كان خارجا عن المألوف بوضوح. كان يمشي منتصبا، ولحيته مهذّبة، وقميصه الأبيض مكويّ ونعله الأصفر يجذب انتباه الجميع.

كان مجهولا لم يره أحد من قبل. جاء من العراق عبر دبي متنكّرا في زيّ تاجر؛ بدلة وقبّعة أنقليزيّة رائعتين. ونجحت هذه المظاهرة الأولى الّتي نُظّمت على سبيل التّجربة. وأعلنت البي بي سي أنّ حوالى مائة ألف شخص قد تظاهروا في شوارع طهران وأنّ النّظام صار بين جيل جديد من الأئمّة.

ونُشرت صورة آية الله اللّافت للنّظر في الصّفحة الأولى لكلّ الجرائد الصّباحيّة.

وعنونت صحيفة كيهان، أهمّ صحف البلاد مقالها بعبارة «من هذا الرّجل؟».

يدعى هذا الرّجل آية الله بهشتي، وعمره حوالى خمس وعشرون سنة وهو أصيل أصفهان. وكان في تلك الفترة أصغر آيات الله في تراتبيّة المذهب الشّيعي.

كان بهشتي شخصا متحمّسا يؤمّ المسجد الإيراني في هامبورغ، وهو أهمّ المساجد الشّيعيّة في أوروبا.

وهو من أوّل الأئمّة الذين سمعوا بخطى الثّورة. فغادر مسجده فورا متّجها إلى العراق وعرض خدماته على الخميني.

وبما أنّه قد عاش طويلا في ألمانيا فقد كان يعرف العالم الغربيّ من الدّاخل. كان الرّجل الموهوب الّذي يحتاجه الخميني بالضّبط ليحقّق حلمه في إنشاء دولة إسلاميّة.

كان بهشتي يعرف قيمة الحكايات الشّرقيّة وسلطة الكاميرات. واقترح أن يركّز انتباه التّلفزات الغربيّة على الخميني ويلعب بذلك: «إمام عجوز يجلس على زربيّة فارسيّة بسيطة، يعيش في المنفى، طعامه الخبز والحليب، ويتحدّى أمريكا».

Twitter: @ketab_n

ولم يكن الخميني يعرف من العالم الحديث شيئًا على خلاف بهشتي. فقد كان لا يزال يجد صعوبة في نطلق كلمة «راديو».

كاد الظّلام أن يحلّ عندما طرق بهشتي باب دار الخميني في النّجف. وفتح جلجل الباب.

«أنا بهشتي، إمام مسجد هامبورغ، أرغب في حديث خاصّ مع الخميني»، قال هذا بمثابة التّعريف بنفسه.

في تلك الفترة، كانت دار الخميني كلّها تحت مراقبة جلجل. ويأتي العديد من الحجّاج لمقابلة آية الله.

لم يكن جلجل قد رأى بهشتي، ولم يكن قد سمع عنه، ولكنّ تصرّفه اللّافت للنّظر وأناقة ملابس هذا الإمام قد أثّرت فيه في الحال فقال له:

«هل يمكنني أن أعرف فيم تريد أن تحادث آية الله؟

- أفهم سبب فضولك، ولكنّه موضوع أودّ الحديث فيه مع آية الله فقط».

رافق جلجل بهشتي إلى الصّالون، وأحضر له كأس شاي وقال له «هلّا انتظرت هنا».

لم يكن الخميني يعرف عن بهشتي أكثر ممّا كان يعرفه جلجل، ولكنّه كان صديق والده، عندما كان حيّا. كان والده آنذاك إمام مسجد الجمعة الأقوى في أصفهان.

قال له جلجل «آية الله يعرف والدك، وسيسرّ بمقابلتك»، ورافقه إلى المكتبة المتواضعة لآية الله العجوز، وقد كان متربّعا على سجّاده.

دخل بهشتي، وانحنى قليلا، وأغلق الباب وراءه.

Twitter: @ketab_n

باريس

ألف، لام، راء

لم نعلم قطّ مسبقا

ما كانت نواياكم

سنتبعكم

سأتبعكم، منحنيا بتواضع.

لم يلاحظ أيُّ شخص أيَ شيء، ولم ينتظره أحد، ولا أحد يعلم ما كان يحدث، ولكن، كمن خرج من العدم، ظهر الخميني العجوز فجأة في مطار شارل دي غول بباريس.

كانوا أربعة: الخميني وبهشتي وجلجل وبتول حرم الخميني.

لم يغادر الخميني النّجف قطّ طوال أربع عشرة سنة من المنفى. كان يستيقظ كلّ صباح في السّاعة الخامسة والنّصف فيصلّي ويقرأ القرآن.

وفي السّابعة والنّصف تُحضر له زوجته فطوره. ويظلّ يعمل في مكتبته الصّغيرة حتّى منتصف النّهار والنّصف، موعد صلاة الظّهر. بعد الغداء كان يغفو قليلا ثمّ يعود إلى العمل في السّاعة الرّابعة. وبعد الظّهر كان يستقبل الزّوّار، وكان أغلبهم من تجّار الزّرابي الإيرانيّين القادمين إلى العراق لقضاء شؤونهم، وهناك أيضا منشقّون إسلاميّون يتنكّرون في هيئة تجّار ليقابلوه. وهم من ينشئ الصّلات السريّة بين الخميني وآيات الله في قم.

في الشّتاء كان يقضّي كامل الوقت في مكتبته. وفي الصّيف كان يذهب ليعمل في حديقته بداية من السّاعة السّادسة لأنّ الجوّ يكون أكثر إنعاشا. ومع بداية اللّيل يرتدي عباءة الإمامة ويذهب إلى مسجد الإمام عليّ.

وكانت زوجته تمشي وراءه على بعد حوالى ثلاثة أمتار.

Twitter: @ketab_n

ولكنّه قد صار في هذه السّاعة في مطار شارل دي غول بباريس، متّكئا على عصا قرب البساط الدبلوماسي.

بعد أن أخذوا أمتعتهم استقبلهم أكبر تاجر زرابي فارسيّة في باريس ورافقهم بحافلة صغيرة إلى نُوفَلْ-لِي-شَاطُّو حيث وجد لهم بيتا.

قبل نحو ستّين سنة ترك الخميني قريته الأمّ وذهب إلى قمّ ليتابع دراسة الإمامة.

في تلك الفترة لم تكن في القرية الّتي كان يسكنها سيّارات بعد، بل لم يكن هناك طرقات لتسير عليها السّيّارات أصلا. فقطع الجبال مشيا على الأقدام حتّى وصل إلى أراك ثمّ وصل بسرعة إلى قم. ولم يحدّث رضا خان والد الشّاه البلاد إلّا بعد عشرات السّنين بمساعدة الأنقليز، فبنى سكك الحديد.

عندما بلغ الخميني أراك ذُهل لمّا رأى شاحنة كان يقودها سائق أرميني ينقل الزّوّار إلى قم المقدّسة. وكان في الشّاحنة عشرات من الزّائرين.

كانت رحلة لا تُنسى عند الخميني. ولكنّه عندما وصل إلى قمّ بعد أن تجاوز التّلال البريّة أمرضته رائحة الدّيزل القويّة.

وعندما صار لاحقا آية لله صار يتنقّل في سيّارة مرسيدس-بنز حديثة، ولكن في كلّ مرّة يدخل فيها إلى سيّارة كانت رائحة الدّيزل تكدّره.

وقد أثّرت فيه هذه الرّائحة من جديد عندما كانت الحافلة الصّغيرة تعبر شوارع باريس لتصل إلى الضّواحي.

كان بهشتي قد رتّب كلّ شيء مسبقا، فأخذ مباشرة مفكّرته ورفع سمّاعة الهاتف.

في تلك الفترة كانت صحفيّة إيرانيّة شابّة تعمل في التّلفزة الأمريكيّة آي بي سي. اتّصل بها بهشتي وأعلمها أنّ الخميني قد غادر النّجف إلى باريس وأنّه سيوجّه الثّورة الإيرانيّة مستقبلا من باريس.

وأعلمها بأنّها ستكون أوّل من يدير المقابلة التّلفزيّة الّتي سيقدّمها آية الله لآي بي سي إذا تصرّفت بسرعة، وإلّا فإنّه سيتّصل فورا بالبي بي سي.

وفي اليوم الموالي توقّفت سيّارة من الآي بي سي بمحاذاة الرّصيف أمام مبنى الخميني. كان الوقت في باريس بعد الظّهر ولكنّ اللّيل قد حلّ في إيران.

Twitter: @ketab_n

اندفع العم رمضان في الطّريق مستثارا، وقفز من فوق حماره وركض نحو مكتب أغاجان وصاح:

«الخميني في باريس، سيتكلّم في التّلفزة.

- أين؟

- في مسجد الحاج طاجي غان. هل ستأتي؟

لم يكن أغاجان يرغب في الذّهاب إلى المسجد. لقد صار الجميع يذهبون إليه في هذه الفترة الأخيرة. لقد صار مركزا للتّحرّكات.

لم يعد يأتي إلى مسجد أغاجان غير الشّيوخ. ولكن في مسجد الحاج طاجي يوجد أناس كثر إلى درجة أنّ كثيرا من المصلّين يضطرّون إلى البقاء في الخارج.

كان الأئمّة الشّبّان الذين جاؤوا من قم يلقون في كلّ ليلة خُطبا مؤثّرة. وكانوا يدعون الحشد السّاخط إلى اللّحاق بهم إلى الشّارع.

«للأسف، قال أغاجان للعم رمضان، لا أستطيع الذّهاب الآن، سآتي فيما بعد».

كان يتحرّق فضولا. كان شاهدا على عصره وعليه أن يرى كلّ شيء وأن يسجّل كلّ شيء. وعليه أن يكون حاضرا أثناء هذا البثّ. ولذلك لبس أغاجان معطفه وقبّعته وذهب عند الحاج طاجي غان.

كان المسجد مكتظّا، ومئات من الأشخاص قد وقفوا في الخارج، في الطّريق. وأخذ مكانا مظلما ليبقى متخفّيا.

«أنت لم تسرق أيّ شيء، قال في نفسه، لماذا تختبئ في الظلّ، ادخل وانظر ماذا يحدث».

فتح لنفسه مسلكا وسط الحشد، ودخل إلى المسجد. كان الرّجال يملؤون الباحة الدّاخليّة، والنّساء تملأن قاعة الصّلاة.

وفي لحظة لم يعد أغاجان قادرا على التّقدّم فقرّر أن يعود أدراجه ويبلغ السّطح عبر الدّرج. وقبع في ركن يستطيع أن يرى منه كلّ شيء. علّقت ثلاثة أجهزة تلفاز كبيرة في أعلى الحائط. كان حدثا لم يسبق له مثيل. وتذكّر أغاجان الجهاز الصّغير الّذي أحضره شهبل

قبل سنوات إلى الدّار ليُريه القمر هو والصّابري. لا يزال الحديث الّذي دار بينه وبين شهبل محفورا في ذاكرته.

قال له «أغاجان، هل أستطيع التّحدّث إليك؟

- بالطّبع يا بنيّ، ولكن عمّا تريد أن تتحدّث معي؟

- عن القمر.

- عن القمر؟

- كلّا، عن التّلفاز.

- كيف هذا، عن التّلفاز؟

- على الإمام أن يعلم كلّ شيء، أجاب شهبل. عليه أن يكون مطّلعا على ما يدور حوله».

توفّي الصّابري ثمّ جاء جلجل، ثمّ خلفه أحمد، والآن، هذا.

هاج النّاس في الشّارع وصاحوا «صلّ على محمّد وآل محمّد».

أدار أغاجان نظراته نحو الباب. دخلت مجموعة من الرّجال الملتحين وهم يلبسون بدلات إلى المسجد. ورافقوا إماما شابّا إلى أحد أجهزة التّلفاز الّتي ستبثّ بعد قليل الحوار الّذي أجراه الخميني.

عرف أغاجان هؤلاء الملتحين. إنّهم رجال الأعمال الّذين استلموا إدارة البازار.

تقدّمت امرأة من الرّجال المرتدين بدلات وكلّمتهم. ثمّ عادت إلى قاعة الصّلاة. كانت هذه المرأة زينات، ولكن بما أنّها كانت ترتدي تشادورا أسود فلم يستطع أغاجان أن يتعرّف عليها من المكان الّذي كان موجودا فيه.

وشغّل شابّ ملتحٍ التّلفزات فحبس الجميع أنفاسهم ومدّوا رقابهم حتّى يروا الصّورة بشكل أفضل.

أظهرت الكاميرا أوّلا الشّوارع الهادئة في نوفل-لي-شاطو، ثمّ بعض الفرنسيّات وهنّ يذهبن إلى المتاجر الكبرى. وتوقّفت حافلة مدرسيّة في محطّة ألصقت فيها معلّقة حائطيّة بألوان جذّابة تمثّل امرأة على الموضة. خرجت من الحافلة فتاتان صغيرتان تحملان

Twitter: @ketab_n

حقيبتي ظهر. نظرت الفتاتان برهة نحو الهدف. وانتقلت الكاميرا ببطء نحو منزل وأظهرت الأشجار، والعريش والحديقة.

ثمّ ظهر الخميني على الشّاشة، وكان جالسا على زربيّة فارسيّة.

صاح الحشد في المسجد متأثّرا «السّلام على الخميني، السّلام على الخميني».

لم تكن القنوات الوطنيّة تستطيع استقبال البثّ الأجنبيّ ولكنّ المنظّمين ثبّتوا فوق سطح المسجد هوائيّا يلتقط الصّور من العراق.

ركّزت الكاميرا على وجه الخميني فتعرّف النّاس على آية الله العجوز الّذي يريد محاربة أمريكا.

كان قليل من النّاس يعرفون الخميني وبما أنّه لم تنشر له أيّة صورة حديثة فلم يكن أحد يعرف شكله. وهذا سبب توقّف الكاميرا عند وجهه برهة. كانت لحيته بيضاء طويلة ووجهه يلمع تحت أضواء الكاميرات، كان قدّيسا.

حاول الوقوف. فسارعت يد (من المحتمل أن تكون يد عضو في الفريق التّلفزيّ) إلى مساعدته، ولكنّه رفض ونهض لوحده.

وذهب إلى الخارج حيث فُرشت زربيّتان، واحدة كبيرة والأخرى صغيرة. خلع الخميني نعليه وجلس على الزّربيّة الصّغيرة. أخرج بوصلة من جيبه بطريقة مقنعة وحاول أن يحدّد الاتّجاه الصّحيح، ولكنّه لم ير الإبرة بوضوح فوضع نظّارته بهدوء واتجه نحو مكّة متّبعا إشارة البوصلة. وقف بهشتي وراءه فوق الزّربيّة الكبيرة على مسافة منه. ولم يظهر جلجل. بما أنّه المستشار الأمين للخميني فيجب أن يبقى مجهولا.

ظهرت بتول زوجة الخميني ملتفّة كليّا في تشادور أسود ووقفت خلف بهشتي للصّلاة.

اتّجهت الكاميرا نحو زوجة الخميني وقد وقفت منتصبة كالتّمثال. ثمّ اتّجهت نحو السّياج الأخضر، وقد كانت تنظر من ورائه نساء وأطفالهنّ إلى المشهد فاغري الأفواه.

وخلال وقت قصير، اجتاح حشد من الصّحفيّين من كافّة أنحاء العالم نوفل-لي-شاطو. وبهذا شدّت الثّورة انتباه العالم بأسره.

إلى ذلك الحين كان بهشتي وجلجل فقط إلى جانب الخميني، ولكن بعد المقابلة

Twitter: @ketab_n

الصّحفيّة، أحيط الخميني في ظرف يوم بسبعة رجال جاؤوا تباعا من أمريكا وألمانيا وأنقلترا وباريس. وبعد فترة قصيرة شكّلوا معا مجلس الثّورة.

وعندما سقط الشّاه وانتصرت الثّورة، عُيّنوا في مناصب هامّة في الدّولة، فأصبحوا، وفق التّرتيب: الرّئيس، ورئيس الحكومة، ووزير الماليّة، ووزير الصّناعة، ورئيس البرلمان، ورئيس المكتب الجديد للاستخبارات ووزير الشّؤون الخارجيّة.

ولكن بعد سنوات قليلة قامت الثّورة المسلّحة بتصفية ثلاثة منهم. أُعدم أحدهم بتهمة التّجسّس لأمريكا، وسُجن آخر بتهمة الفساد، وعاد من كان رئيسا منهم إلى باريس حيث طلب اللّجوء السّياسيّ. وطرد رئيس الحكومة بعد وقت قصير.

وكانت تنظّم مظاهرات في طهران بشكل منتظم وتضمّ في كلّ مرّة ملايين الأشخاص.

وصار رجوع الخميني محتوما.

تغيّر حال البلاد في لمح البصر، فأطال الرّجال لحيّهم واختفت النّساء وراء تشادوراتهنّ.

ثمّ أسفرت إضرابات كبيرة في القطاع النّفطي عن أزمة في البلاد. فترك العمّال آلاتهم، وتوقّف الطّلبة عن متابعة دروسهم وترك التّلاميذ مدارسهم ونزلوا إلى الشّارع.

وتركت الثّورة بصماتها في الدّار.

ابتعدت زينات عن العائلة بوضوح وصارت صادقة تخرج كثيرا. وكانت تحضر مع زينات اجتماعات النّساء الإسلاميّات.

كانت صادقة تتجوّل في الدّار مكشوفة الرّأس وصارت اليوم تضع الحجاب حتّى في الدّار. وكانت فيما مضى تكرّس كلّ وقتها للدّار، وتهتمّ بليزار. ولكنّها أهملت كلّ شيء الآن. فكانت تعود متأخّرة وتأكل في المطبخ وحدها وتنام.

كان أغاجان يذهب في كلّ يوم إلى البازار، ولكنّ النّاس هناك كانوا يهتمّون بكلّ شيء عدا تجارة الزّرابي.

وصار يحسّ بالغربة في مغازته.

Twitter: @ketab_n

ظلّت الزّرابي الملفوفة الّتي كان من المفروض أن تُرسل إلى الخارج منذ فترة طويلة مكدّسة في المستودع. وظلّ الصّوف وبقيّة المواد اللّازمة لصنع الزّرابي، وقد كان من المفروض أن تُرسل إلى الورشات في القرى، مبعثرة في الممرّات والورشات.

أطال خادمه الوفيّ، وهو من يرافق الزّبائن إلى مكتبه ويقدّم لهم الشّاي، لحيته. ولم يعد يأتي إلى عمله في الوقت المحدّد وصار يغادر المغازة عندما يبدو له ذلك قائلا إنّ عليه الذّهاب إلى المسجد.

وأفرغ العمّال إحدى الورشات وأخرجوا الكراسي والطّاولات وفرشوا بعض الزّرابي على الأرضيّة وجعلوا من المكان قاعة صلاة. وعُلّقت على الجدار صورة مؤطّرة للخميني، ووُضع ساموفار مسجد على طاولة. لم يكن أحد من العمّال يشتغل. كانوا يتحلّقون طوال اليوم في المغازة ويعلّقون على الأحداث الجارية. ويشربون الشّاي في قاعة الصّلاة ويستمعون إلى برامج البي بي سي الفارسيّة ليتابعوا آخر الأخبار القادمة من باريس.

كان أغاجان يدرك أنّ مغازته قد انساقت مع التيّار ولكنّه لم يكن في حالة تسمح له بإيقاف هذا المسار.

في الدّار لم تعد فجري سادات تتزيّن مثلما كانت تفعل. لقد فقدت بهجتها. كانت فيما مضى تشتري الثّياب والملابس الدّاخليّة باستمرار، ولم تعد تشتري الآن شيئا.

كان أغاجان يحبّ أن تنظر فجري سادات إلى نفسها في المرآة لترى ما إذا كان نهداها لا يزالان يانعين لكنّ فجري سادات لم تعد تفعل ذلك. لم تعد تضع حُليّها. صار صندوق حليّها الآن مخزّنا في الخزانة، وقد كان مكانه الطّبيعي قرب المرآة.

وكانت بنتا أغاجان أيضا ضحايا لكلّ هذه التّحوّلات. بدا كما لو أنّ رجال المدينة قد نسوا أن بنتيه صارتا راشدتين منذ زمن وأنّهما لا تزالان تعيشان مع والديهما.

قاسى أغاجان من غياب شهبل. أراد أن يتحدّث معه، وأن يفصح له عمّا يختلج في صدره. ولكنّ ذلك كان مستحيلا. فشهبل يأتي إلى الدّار صدفة ويختفي فورا. كان أغاجان يعلم أنّه لا يتابع دروسه. رغب في التّحدّث معه مرّات كثيرة، ولكنّه أحسّ أنّ شهبل لم يكن مهتمّا.

منحه أغاجان كلّ ثقته. وكان يعلم بأنّه سيعود إليه.

Twitter: @ketab_n

في الفترة الأخيرة صار أغاجان يذهب إلى التّنزّه بمحاذاة النهر في الظّلمة أكثر من ذي قبل. وهو يتذكّر عبارات والده: «إذا أحسست بالحزن، اذهب وتنزّه بمحاذاة النهر، وسيذهب بحزنك».

«لا أريد أن أتذمّر، ولكنّي أحسّ بحجر في حلقي»، قال أغاجان للنهر.

كانت عيناه تلمعان، وانحدرت دمعة على خدّه ووقعت أرضا. امتصّ النهر الدّمعة، حملها بهدوء في اللّيل ولم يقل لأحد شيئا.

Twitter: @ketab_n

طهران

كان أغاجان جالسا في مكتبه بالبازار وكان الخادم قد أحضر له كأس شاي عندما سمع جلبة في الطّابق الأرضيّ. كان العمّال قد تركوا مكان عملهم وتجمّعوا ليشاهدوا أخبار السّاعة الثّانية بعد الزّوال.

«ماذا حدث؟ قال أغاجان.

- هرب الشّاه، قال الخادم.

- الله أكبر، صاح أحدهم.

لم تقل الأخبار شيئا عن هروب الشّاه، والظّاهر أنّها إشاعة تسري. ولكنّ الإشاعة كانت قويّة إلى درجة أن اضطرّت الحكومة إلى إظهار الشّاه في التّلفزة.

كان يستقبل بعض قوّاد الجيش. ولكنّ الصّورة فاقمت الوضع. كان الشّاه يظهر على التّلفاز في كلّ ليلة وهو متغيّب خلال المدّة الأخيرة. لم يصدّق أحد عينيه. كان هزيلا ويبدو عليه خوف كمن هو على وشك أن يخسر كلّ شيء.

لم تقل الإشاعة سوى جزء من الحقيقة.

وفي اليوم الموالي راجت شائعة جديدة: هربت فرح ديبا إلى أمريكا مصطحبة أبناءها معها.

وكانت الحقيقة غير ذلك.

لم تكن فرح ديبا من هربت، بل هي أمّها وقد اصطحبت الأطفال.

وتكاد حرب شوارع أن تندلع في طهران. أصبح المتظاهرون يقتربون أكثر فأكثر من القصر. وأُخبر الجيش بأنّ الملّوات ينوون اقتحام القصر.

طلب الشّاه من فرح ديبا أن تغادر البلاد مع الأطفال.

Twitter: @ketab_n

«كلّا لن أسافر. لن أتركك لوحدك ولو للحظة في هذا الوضع.

– لا يتعلّق الأمر بي، بل بالأطفال، قال الشّاه.

– فلنتصرّف بطريقة أخرى إذا. سأطلب من أمّي أن تصطحبهم».

وبينما كانت الطّائرة المروحيّة تنقل أبناء الشّاه إلى قاعدة عسكريّة ليغادروا البلاد في طائرة حربيّة، كان نصرت في قطار اللّيل متّجها إلى سنجان.

دخل القطار إلى المحطّة في السّاعة الرّابعة صباحا. ذهب نصرت إلى البيت بسيّارة أجرة وخلد إلى النّوم بهدوء في غرفة الخِلّان.

وأيقظه ليزار صباحا وهو يدخل إلى الغرفة.

«لديّ شيء من أجلك، قال نصرت وهو يُخرج من حقيبته قفّازين من الجلد. البسهما وهيا نذهب لنأكل شيئا في البازار، فأنا جائع».

لبس ليزار القفّازين وتبع نصرت يمشي على أربع.

وعندما وصل إلى البازار توقّف عند أسفل نُصب كبير يرمز للشّاه فارسا.

ونظر ليزار إلى نصرت ليرى إن كان سيسمح له بتسلّق التّمثال. فأشار إليه نصرت بنظراته، وخلال دقائق كان ليزار على صهوة الجواد وراء الشّاه.

كان ليزار أوّل من تجرّأ على القيام بهذا الفعل. في البداية لم ينتبه أحد إلى ذلك، ثمّ شيئا فشيئا صار النّاس يتوقّفون ليشاهدوا. منحت حماسة الفضوليّين الشّجاعة لليزار فانحنى وتعلّق برقبة الحصان وتحرّك وكأنّه يعدو.

وهنا صار يُشبه القرد أكثر من أن يشبه العظاية. وقفز من عنق الحصان إلى رأس الشّاه، ثمّ تزحلق على طول ذيل الحصان، وقفز من جديد فوق الشّاه برشاقة لا مثيل لها.

واكتظت السّاحة أكثر فأكثر وكان الجميع يصفّقون.

وصل شرطيّان ولكنّهما لم يتجرّآ على التّدخّل. تحدّث أحدهما في جهازه اللّاسلكي. فوصلت شاحنة عسكريّة بها فرقة تدخّل، ولكنّها لم تتلقّ أمرا بالتّحرّك. فاكتفت بمراقبة السّاحة لأنّه في وضع مشحون مثل هذا يمكن أن يتحوّل أيّ تحرّك إلى معركة شوارع. من جهة يمكن اعتبار هذا التّصرّف حادثا بسيطا: طفل معاق كليّا تسلّق نصب الشّاه، ومن جهة أخرى، فرغم براءة هذا التّصرّف، فإنّ له محملا سياسيّا.

Twitter: @ketab_n

وفسّر جميع الحاضرين هذا التّصرّف على أنّه علامة على ضعف النّظام، ولكن لا أحد توقّع أن جماعة من الهستيريّين ستضرب نصب الشّاه بعد قليل بسلسلة حديديّة.

وفي اليوم الموالي نشرت الصّحيفة المحليّة صورة ليزار وهو متعلّق بعنق الحصان الملكيّ في صفحتها الأولى.

ونفذت طبعة الصّحيفة في الحال. كان أمرا لم يُشاهد من قبل. وكلّ من قرأ المقال ذهب ليستمتع برؤية ليزار فوق سطح المسجد.

وكان هذا تحوّلا في حياة ليزار: في الماضي كان يتسلّق كلّ يوم مارّا بالسّطح إلى قمّة إحدى الصومعات حيث كانت طيور اللّقلق قد بنت أعشاشها ليقرأ هناك كتبه.

ولم يكن يأتي أحد ليشاهد، ولكن صار اليوم مئات الشّبّان يأتون يوميّا ليشاهدوه.

واتّصل أغاجان بنصرت متذمّرا من ذلك:

- لقد أثّرتَ فيه تأثيرا سلبيّا.
- لماذا؟ لا أرى في ذلك مشكلة.
- إنّه يتسلّق الصّومعات كالقرد، يكاد أن يتحوّل إلى مصدر تسلية للمدينة.
- دعه يفعل ما يحلو له. فقد يُصلح ذلك الصّورة المتضرّرة للمسجد.
- إنّك تتحدّث عن مسجد لا عن سرّك. لا يحقّ لنا أن نصير أكثر سخفا: عانينا في البداية من تصرّفات أحمد، والآن هذا الطّفل.
- سأتحدّث إليه، قال نصرت.

وبعد يومين سيستقلّ نصرت قطار اللّيل مرّة أخرى ذاهبا إلى سنجان.

في تلك المرّة لم يكن يعرف بأنّ سنجان ستراه بشعر أسود للمرّة الأخيرة؛ عندما سيأتي في المرّة الموالية، سيكون شعره قد شاب وسيتغيّر وجهه إلى درجة أنّ أحدا لم يتعرّف عليه عندما دخل إلى الدّار.

استدعى نصرت ليزار إلى غرفته ووضع في جيبه عددا كبيرا من المنشورات تحمل صورا للخميني بالأبيض والأسود وقال له «بعد قليل عندما يكون هناك أناس كثيرون في السّاحة ستصعد فوق الصومعة وسترمي بكلّ هذه الأوراق إلى الأسفل، هل فهمتني؟ هكذا. قال ذلك محرّكا يديه. ترميها دفعة واحدة فوق النّاس».

Twitter: @ketab_n

عند السّاعة الحادية عشرة والنّصف صعد ليزار فوق الصومعة. وبعد أن قام ببعض الوثبات ليشدّ انتباه النّاس رمى بالصّور دفعة واحدة.

أخذ نصرت، وقد كان فوق السّطح، صورة من الصّور وهي في الهواء وحاول النّاس الإمساك ببقيّة الصّور.

استحوذت الصّحف الوطنيّة على الصّور وكان هذا أوّل رسم للخميني تنشره صحيفة.

فوجئ النّظام ولم يستطع اتّخاذ أيّ إجراء بما أنّ أغلب الصّحف قد ساندت نشر الصّور. واشترى أغاجان الصّحف وحفظها في الصّندوق حيث يحتفظ بدفاتره.

كان نصرت وكاميراته موجودين في كلّ مكان يشهد أحداثا مهمّة، وتنشر الصّحف كلّ يوم الصّور الّتي يلتقطها.

وسجّل في شريط فيديو أيضا المظاهرة الكبرى الأولى الّتي أقيمت في طهران ومشى بهشتي في مقدّمتها، وكان قد دخل البلاد بطريقة غير قانونيّة ليقود هذه المظاهرة الهامّة.

وقد ركّز نصرت على حضور آيات الله وعلى قوّة تجمّعهم. كانت مشاهدة تحقيقاته التّلفزيّة تكفي لمعرفة ما ينتظر البلاد.

وكانت اللّقطات الّتي يبعثها نصرت إلى الهيئة الثّوريّة في باريس بانتظام قد جعلت صلته تتمتّن ببهشتي. وكان بهشتي يتّصل به في بيته ويعلمه بالمظاهرات المتوقّعة. وبهذا يكون لنصرت ما يكفيه من الوقت ليستعدّ.

في مطار طهران كان رجل أمين في خدمة الهيئة وكان ساعي بريد. فكان نصرت يعطيه الصّور والأشرطة ويبعثها الرّجل في أوّل طائرة إلى باريس.

كان نصرت مستقلّا ولكنّه كان يتساءل أحيانا عن الحزب المستفيد من عمله. هل كان يقوم بالدّعاية للخميني؟ كلّا، إنّه لا يرتبط بأيّ شيء أو أيّ أحد. ولا صلة له بالدّين أو بالسّياسة. ولا يقيم اعتبارا لأيّ شخص ولا يفكّر إلّا في كاميراته. ويكون حاضرا حيث يكون. وكاميراته تسجّل.

وحافظ على اتّصالات سريّة مع شهبل أيضا. وكان يعطيه صورا ينشرها في صحيفته السريّة. في أحد لقاءاتهما أثناء إحدى المظاهرات تناقشا نقاشا جادّا. وكان نصرت يقرأ

Twitter: @ketab_n

صحيفة شهبل ويعرف أنّ خصومات عنيفة قد وقعت في الحزب حول موضوع الحكومة الإسلاميّة الّتي ينوي الخميني إنشاءها.

وكلّما أظهر الخميني رغبته في السّلطة بشكل أكبر، تساءلت الجماعات السريّة عن الموقف الواجب اتّخاذه تجاه ذلك. هل سيساندونه؟ هل يجب عليهم أن يقفوا ضدّه؟ ويندلع نقاش حادّ ينتج عنه انشقاق خطر: قسم صغير من الحركة لم يكن يريد مساندة الخميني وقرّر أن يظلّ في الخفاء، أمّا القسم الأكبر فقد وضع أسلحته وساند الخميني ورؤاه المضادّة لأمريكا.

وكان شهبل قد ترك الجامعة منذ وقت طويل واتّبع هذا النّهج الأخير.

في اليوم السّابع عشر من الشّهر الصّيفيّ شدريفار أخذت الأحداث منعطفا جديدا. استجمع آيات الله قواهم في طهران ليحشدوا أكبر عدد ممكن من النّاس في المساجد. وفي السّاعة الثّامنة صباحا غادر جميعهم مساجدهم وتوجّهوا نحو ساحة البرلمان وهم يهتفون بشعارات. وعزم كلّ من أتباع الخميني وأتباع النّظام على إظهار قوّتهم.

عندما انطلق آلاف المتظاهرين من كلّ شوارع طهران إلى ساحة البرلمان غادر الجيش ثكناته ليلقّنهم درسا.

كان القائد رحيمي يقود القوات من سيّارة جيب متوقّفة في زاوية من زوايا السّاحة، وراقب الوضع من وراء نظّارته الشّمسيّة.

وعندما اكتظّت السّاحة بالنّاس أمر الدّبّابات بمحاصرة كلّ الشّوارع الجانبيّة لمنع الحشد من الفرار.

لم يكن النّاس يعرفون نوايا الجيش فكانوا يقدّمون الزّهور للجنود، وكان الجنود يقبلونها.

وصاح النّاس «السّلام، السّلام، أيّها الجيش، نحن نريد السّلام». وأجابهم الضّبّاط ملوّحين بأيديهم بسماحة. قصد منظّمو المظاهرة اجتياح البرلمان واحتلاله وكان المتظاهرون يجهلون ذلك. وأعلم نصرت فتموقع في مكان ملائم مع كاميراته.

وما إن وصل الصّفّ الأوّل من المتظاهرين إلى البرلمان حتّى صعد بعض الشّبّان فوق الحواجز المشبّكة. فأصيبوا برصاص القنّاصين الموجودين على الأسطح المجاورة وسقطوا على الأرض صرعى.

Twitter: @ketab_n

وهرب النّاس في كلّ الاتّجاهات مردّدين «لا إله إلّا الله».

وبينما كان النّاس يحاولون الفرار ركض عشرات الشّبّان نحو باب البرلمان وحاولوا اجتياز الحواجز المشبّكة العالية، ولكنّهم أصيبوا أيضا.

وصاح المتظاهرون مذعورين «لا إله إلّا الله». وأخذوا يهزّون الحواجز الحديديّة الطّويلة ليكسروها ويدخلوا المبنى. ولكنّهم لم يجدوا الوقت الكافي لذلك لأنّ الجيش باغتهم من كلّ زوايا السّاحة.

وسقط مئات من القتلى والجرحى في ظرف دقائق معدودة.

وسجّل نصرت كلّ شيء بكاميراته وهو منبطح على بطنه فوق أرضيّة شرفة.

ولاحق الجنود المتظاهرين وأطلقوا النّار على كلّ من كان في مرمى أسلحتهم. وطرقت النّساء أبواب المنازل بحثا عن ملجأ، وتسلّق الرّجال الأسطح أو الأشجار، واندسّ شباب وشابّات تحت السيّارات، وبُعثرت الأحذية والحقائب والقبّعات وآلات التّصوير والأوشحة والتّشادورات السّوداء في كلّ مكان.

لم يفلت أيّ شيء من كاميرا نصرت: القائد الّذي يضع نظّارات شمسيّة وقد أعطى الأوامر، والرّجال الّذين سقطوا من الحواجز المشبّكة، والرّجال الّذين التجأوا إلى المواسير الّتي تتجاوز نقطة الحصار ليهربوا، والدّبّابات الّتي انطلقت من كلّ الشّوارع الجانبيّة للسّاحة وسارت فوق أجساد من سقطوا.

وبعد سبع دقائق خيّم صمت مطلق على السّاحة: كلّ من استطاع الهرب كان قد هرب، ووجد مئات من الأشخاص ملجأ في البيوت المجاورة، ولم يبق في السّاحة غير القتلى والجرحى.

كان القائد قد أعطى الأوامر بمنع كلّ الصّحفيّين من الدخول إلى السّاحة وأتلف فورا كلّ الكاميرات الملقاة أرضا.

ونزع نظّارته وألقى نظرة على ساحة المعركة وأصدر أمرا بتنظيفها دون تأخير. ثمّ ركب سيّارة الجيب وذهب ليقدّم تقريرا للقصر.

وما كاد يذهب حتّى هرب نصرت من أسطح المنازل.

وبعد ثلاثة أيّام بثّت البي بي سي التّقرير التّلفزيّ لنصرت. وكان هناك أكثر من سبعمائة قتيل.

Twitter: @ketab_n

وتابع أغاجان الأحداث في تلفاز ليزار.

خاطب الشّاه الشّعب غاضبا «أسمع صوت ثورة. أسمع صوت شعبي. لقد ارتُكبت أخطاءٌ. سأقترح على البرلمان رئيسا جديدا للحكومة قادرا على إعادة النّظام. وأطلب من الشّعب بعض الصّبر». كان صوته مرتجفا وخطابه مشوّشا.

وبعد أيّام قليلة، اقترح رئيسا جديدا للحكومة، ولكنّ الخميني رفضه فورا، فلم يعش هذا البرلمان غير أسابيع قليلة.

بحث الشّاه عن مرشّح آخر، ولكن لم يعد يتجرّأ أحد على التّعاون معه، فأجبر، نتيجة لذلك، على منح كلّ السّلط للعسكريّين. فشكّل القائد أزهري، أكثر قوّاد الجيش تبعيّة لأمريكا، حكومة عسكريّة وفرض حظر التّجوال في كامل مدينة طهران.

ولخرق هذا الأمر، دعا الخميني الشّعب إلى الصّعود إلى أسطح المنازل ليلا. فاستجاب ملايين الإيرانيّين لدعوة الخميني وصاحوا من فوق أسطحهم بلا انقطاع «لتسقط أمريكا، الله أكبر».

لمَ لم يصعد أغاجان إلى السّطح؟ ألم يكن ضدّ النّظام؟ ألم يُسرّ بانتهاء حكم الشّاه؟ ألم يُسرَّ بعودة الخميني الوشيكة؟

ماذا سيقول الجيران إذا لم يصعد أيّ فرد من الدّار فوق السّطح؟

«فجري»، نادى أغاجان.

ولكنّ فجري لم تسمع بسبب الضّجيج المتصاعد من الحشد.

«يا فتيات»

جاءت نسرين، ابنته الكبرى.

«كلّ النّاس فوق الأسطح، سأصعد أنا أيضا، أين أمّك؟ هل سترافقنني؟».

والتقى بليزار في منتصف الدّرج. فأمره قائلا:

«اذهب وابحث عن المؤذّن»

أسرع ليزار نحو القبو ليعلم المؤذّن. وبعد وقت قصير ظهر فوق السّطح أغاجان والمؤذّن وفجري سادات وابنتاها متحجّبات بالأسود وصاحوا «الله أكبر، الله أكبر».

Twitter: @ketab_n

ووقف ليزار على حافّة القبّة ونظر مذهولا إلى الحشد الهستيريّ.

بذل الشّاه جهودا غير مجدية ليجد رجل سياسة يحترمه الجميع ويقدر على التّوفيق بين أعضاء الحكومة. لم يكن أيّ سياسيّ مهيّأ لتحمّل مسؤوليّة هذه المهمّة الثّقيلة والميؤوس منها.

ومع ذلك فقد أقنع بختيار الرّجل الثّاني في الحزب الوطني بلعب دور الموفّق الأكبر. ولكنّ بختيار لم يقبل العرض إلّا بشرط أن يغادر الشّاه البلاد لمدّة غير محدّدة. فوافق الشّاه. ومن ذلك الحين تسارعت الأحداث كما لو أنّ جرفا ثلجيّا قد انهدّ وحمل معه كلّ شيء.

وفي اليوم الموالي، عندما وصل أغاجان إلى مغازة البازار صباحا وجدها تغلي.

كان الشّاه يغادر. وانظمّ أغاجان إلى عمّاله، وقد كانوا يشاهدون التّلفاز. كان الشّاه وفرح ديبا في مطار طهران محاطان بمجموعة من الموظّفين.

صافحه بختيار وتمنّى له رحلة طيّبة.

وفجأة ارتمى ضابط عند قدمي الشّاه وقبّل حذاءه وتوسّل إليه لكي لا يرحل. ودمعت عينا الشّاه من شدّة تأثّره بذلك الموقف.

وأخرج أحد الحضور قرآنا ورفعه فوق رأس الشّاه حتّى يستطيع المرور تحته. وكانت تلك عادة إيرانيّة في تمنّي السّعادة لمن نحبّهم.

قبّل الشّاه القرآن ومرّ من تحته قبل أن يتوجّه إلى الطّائرة. ثمّ قبّلت فرح ديبا القرآن وتبعت الشّاه. وركبا الطّائرة. ورافقتهما إلى الحدود طائرتا قنص عسكريّتان.

بعد ثلاثين يوما كان أغاجان وفجري سادات وابنتاهما وليزار ينظرون في التّلفاز إلى صورة المطار الفرنسي حيث كان التّقنيّون يهيّئون طائرة كونكورد للعودة التّاريخيّة لآية الله.

كان بختيار قد أنذر الخميني بأنّه لن يسمح للطّائرة بالهبوط. ولكنّ الخميني ردّ على هذا الإنذار باحتقار «بختيار أقلّ من أن يُعتبر. أنا من يقرّر. سأؤسّس حكومة ثوريّة. سأعود إلى البلاد».

مشى ملايين من الأشخاص إلى مطار طهران في الصّباح الباكر، حيث من المفروض أن تحطّ طائرة الكونكورد الفرنسيّة.

Twitter: @ketab_n

كان شهبل من بين هؤلاء. كان يرى كلّ شيء بأمّ عينيه ويكتب تقريرا عن ذلك لصحيفته.

وأخذ نصرت، وكاميرا كبيرة على كتفه، مكانا في سيّارة جيب مكشوفة كان يقودها سائق ملتح يوصله إلى أيّ مكان يريد. وكان الوحيد الّذي يحقّ له تصوير كلّ شيء عن قرب.

ظهرت الكونكورد فوق المطار.

«صلّوا على محمّد، مرحبا يا خميني، مرحبا يا خميني»

حطّت الطّائرة، وبعد وقت قصير فُتح الباب، وظهر الخميني في أعلى سلّم الطّائرة، ولوّح بيده بهدوء.

«السّلام على الخميني» صاح الحشد مبتهجا.

خرج أغاجان من الدّار. والتقى بأحمد في الزّقاق. ودون أن يعرف السّبب، أخذه بين ذراعيه واحتضنه بقوّة. إنّهما لا يستطيعان التّنبّؤ بما ينتظرهما.

Twitter: @ketab_n

القاضي

أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، قال جلجل وهو يتوجّه إلى مكتب الخميني.

نقول «استغفر الله» عندما نرتكب معصية، أو نشكّ في أنّنا ارتكبنا معصية، أو نواجه أمرا مستعصيا، رغما عنّا. وأحيانا يكون الاستغفار ببساطة دليلا على الإعجاب بنعمة منّ الله بها علينا دون أن ننتظرها، أو طلبا للغفران من الله.

أو أنّنا نستغفر الله، كما في حالة جلجل، عندما نكون متأكّدين بأنّنا سنرتكب أخطاء حتما.

رفض الخميني الإقامة في قصر الشّاه، وفضّل أن يسكن في غرفة في إحدى مدارس الأئمّة في حيّ فقير.

وكان الظّلام قد حلّ عندما دخل إلى مكتبه وجلس على سجّاده وقُدّم له كأس من الشّاي السّاخن وبعض التّمر. وبعد أن ترشّف الشّاي طلب قلما وورقة.

ظلّ وحده طيلة نصف ساعة ثمّ طلب أن يأتيه جلجل. وأحسّ جلجل بالاستعجال في هذا الطّلب فدخل وأغلق الباب وراءه وجثا أمام آية الله وقبّل يده.

كان جلجل أوّل شخص يقوم بطقس الولاء هذا مع الخميني بصفته زعيم البلاد. وبصنيعه هذا الصّنيع فقد أعلن أنّه مستعدّ لقبول المهمّة الّتي قرّر الخميني أن يوكلها إليه مهما كان نوعها.

همس إليه الخميني أن يقترب، وفهم جلجل أنّها مهمّة سريّة، قرّب رأسه وأنصت «سأعيّنك حاكما بالله»، قال الخميني وهو يمدّ له وثيقة.

وارتعشت يد جلجل.

Twitter: @ketab_n

«ستفعل أمريكا أيّ شيء لتطيح بنا. وأريد أن تتمّ تصفية كلّ ما بقي من النّظام. أَبِدْ كلّ من يعارض الثّورة، ولو كان والدك، أو أخاك. دمّر كلّ ما يقف في طريق الإسلام. أنا من كلّفك بهذه المهمّة ولكن لا يحقّ لأحد أن يحاسبك إلّا الله. أرِ الجميع أنّ الثّورة لن تنكسر. ابدأ الآن، دون تأخير».

قبّل جلجل يد الخميني مرّة أخرى، وقام وغادر الغرفة لينكبّ على مهمّته في الحال.

ورغم الظّلمة فقد لبس النظّارات الشّمسيّة الّتي اشتراها من باريس.

لا مجال للمقارنة بين جلجل هذا وذاك الّذي أثار في أحد الأيّام فتنة ليمنع فرح ديبا من افتتاح قاعة سينما جديدة.

صار الآن يشعّ نفوذا بعمامته السّوداء ولحيته السّوداء الطّويلة وقد بدأت تشيب على مستوى الذّقن. وسيُثير الخوف بسبب الوظيفة الّتي أسندت إليه للتّو.

وبعد ساعة ركب سيّاة الجيب الّتي كانت تنتظره أمام الباب وملفّ في يده.

أقلّته السّيّارة إلى أكبر مسلخ في المدينة حيث كانت تُذبح كلّ يوم آلاف الأبقار والخرفان لسكّان طهران، وقد احتجزوا هناك سرّا أسمى موظّفي النّظام القديم، حبسوهم وسط الدّواب العنيفة خوفا من أن تحرّرهم أمريكا.

دخل جلجل إلى فضاء مظلم وُضع فيه كرسيّان، واحد عال وراء طاولة حاكم الله وواحد منخفض للمتّهم.

وكان المصباح المعلّق فوق كرسيّ المتّهم يبعث وميضا أصفر باهتا لا يضيء إلّا وجه المتّهم.

يجب التّصرّف بسرعة: غدا قبل طلوع الشّمس يجب أن يفهم جميع النّاس أنّ النّظام القديم أصبح نهائيّا جزءا من الماضي وأنّه من غير الوارد قطعا أن يعيد الأمريكيّون الشّاه إلى العرش مرّة أخرى.

وضع جلجل دفتره فوق الطّاولة وقال: أتوني بالمتّهم الأوّل.

كان المتّهم الأوّل هويدا رئيس الحكومة القديمة للشّاه. أدخلوه والأصفاد في يده.

ظلّ هويدا رئيسا للحكومة طيلة خمسة عشر عاما، وكان دائما ما يُشاهد مرتديا بدلة رائعة وبيده عصا، ودبّوسا زهريّا، وغليونا في فمه، ولا يلبس الآن غير لباس نوم وسخة.

Twitter: @ketab_n

وبالإضافة إلى جلجل يوجد مصوّر مقنّع كان ينتقل طولا وعرضا يلتقط صورا للمتّهم.

«يمكن للمتّهم أن يجلس»، قال جلجل بصوت عال وهو جالس في مقعده.

جلس هويدا.

«أنت أمام حاكم الله»، قال جلجل بصوت جليديّ، دُرس ملفّك، وحُكم عليك بالإعدام، هل لديك شيء تريد أن تقوله؟».

هويدا المتعوّد على أن يستقبله الرّؤساء الأمريكيّون بكثير من التّقدير، هويدا الّذي احتفى به مجلس الشّيوخ الأمريكيّ ثلاث مرّات، وكان قد درس الحقوق في أمريكا، لم يفكّر أبدا أن يكون هذا الإسطبل النّتن محكمة، ولهذا السّبب صمت، ولكنّ شفتاه كانتا تتحرّكان لوحدهما وكأنّه كان يدخّن غليونه.

- هل قلت شيئا ما؟ سأله جلجل.

- لا، لا شيء، قال هويدا

- أحكم على المتّهم بالإعدام، سينفّذ الحكم في الحال، قال جلجل.

أخذ حارسان هويدا حتّى قبل أن يعي أنّه محكوم بالإعدام فعلا. واقتادوه إلى المستودع الموجود وراء المسلخ حيث كُوّمت آلاف من جلود الأبقار الّتي ذُبحت حديثا. كانت رائحة العفن حادّة إلى درجة أنّها تُحتّم سدّ الأنف. وضع الحارسان هويدا على الحائط بين كومتين من الجلود وعصّبوا عينيه وقدّموا له بعد ذلك قدح ماء حسب العرف الإسلامي، فرفضه بحركة من يده.

كان هويدا يرتعش في ثياب نومه، ولكنّه لم يكن يريد أن يصدّق بعد بأنّه سيُعدم. كان يظنّ بأنّهم يريدون ترهيبه. وسُمعت خطى جلجل في الممرّ. وبعد قليل، أشار على الحارسين اللّذين وقفا على بعد مسافة قصيرة أمام هويدا.

«استعداد»، أمر جلجل بصوت عال مثل ضابط جيش.

جثا الحارسان على ركبة واحدة وصوّبا بندقيّتهما نحو هويدا.

- أنا بريء، صاح هويدا مرتعش الصّوت، أريد محاميا.

Twitter: @ketab_n

- أطلقوا النّار، صاح جلجل.

سُدّدت سبع طلقات، وسقط هويدا وقد اخترقته الرّصاصات، وانسطع وجهه فوق حجارة الأرض المبلّلة. والتقط له المصوّر صورا.

وعاد جلجل إلى كرسيّه ونادى المتّهم التالي.

أحضروا له رئيس المخابرات. وكان قد سمع الطّلقات النّاريّة وارتعب فلم يعد قادرا على أن يخطو إلى الأمام.

«اجلس»

ساعده الحرّاس على الجلوس.

«هل أنت بصيري؟

- نعم، أجاب بعد تردّد.

- هل كنت رئيسا للاستخبارات، وقد أعطيت الأمر باعتقال المئات من المقاومين وتعذيبهم وقتلهم. (لم يجب بصيري على سؤال جلجل). هل كنت رئيس الاستخبارات السريّة؟ كرّر جلجل.

- نعم، أجاب بصوت خافت.

- حكم عليك حاكم الله بالإعدام، قال جلجل. وسيُنفّذ الحكم في الحال. هل لديك شيء ما لتقوله؟».

بصيري الخائف والمخيف، وقد كان نطق اسمه يكفي ليرتعد الجميع، بدأ بالبكاء وطلب العفو. ولكن بإشارة بسيطة من إصبع جلجل اقتاده الحارسان إلى المستودع حيث كان هويدا قد أُعدم لتوّه. عصّبوا عينيه، وقدّموا له قدحا من الماء ووضعوه على الحائط.

«استعداد»، صاح جلجل.

جثا الحارسان على ركبة واحدة وصوّبا بندقيّتهما نحو بصيري.

«أطلقوا النّار حتّى ينفذ الرّصاص»، صاح جلجل بحزم.

أطلق الحارسان النّار. وأفرغا مخزني الرّصاص في بندقيّتيهما ممّا أخّر سقوط

Twitter: @ketab_n

الجثّة. لم تسقط جثّته فوق كومة من جلود الأبقار الطّريّة إلّا بعد آخر رصاصة، وجهه أرضا ويداه متقاطعتان.

تابع جلجل بهذه الطّريقة حتّى ساعات الصّباح الأولى. فأعدم كلّ زعماء النّظام القديم وقد اعتقلوا حديثا واحتجزوا في المسلخ. وعندما أنهى مهمّته غسل يديه وطلب إحضار فطور الصّباح. فقُدّم له حليب وعسل وبيض مطبوخ وخبز ساخن على طبق فضيّ مستدير. وأُحضرت له الطّبعة الأولى من الصّحيفة وقد نُشرت على كامل صفحتها الأولى صورة هويدا معصوب العينين متباعد الذّراعين وهو معلّق في الهواء يتلقّى الرّصاصة الأولى في صدره.

استقبل جلجل طيلة أسبوع خمسة عشر إماما شابا من قم وقد كانوا يدرسون الشّريعة الإسلاميّة في مدرسة الأئمّة. وعيّنهم قضاة للإسلام وأرسلهم إلى المدن الكبرى ليحاكموا، دون تأخير، موظّفي النّظام السّابق المتّهمين بارتكاب جرائم. وحصل جميعهم على حريّة التّصرّف مع المتّهمين بإطلاق وبلا شفقة.

طُرق باب بيت أغاجان. لم يكن قد عاد بعد من البازار، فكان ليزار من فتح الباب. دخل ثلاثة رجال مسلّحين وقد عُقد وشاح أخضر حول جبين كلّ واحد منهم. كانوا جنودا في جيش الله المكوّن من زمر عسكريّة شُكّلت في المساجد لتطبيق أوامر الخميني.

«أين أحمد»، قال أحدهم لليزار.

كانت فجري سادات في المطبخ، ورأت الرّجال ولكنّها لم تستطع الظّهور لأنّها لم تكن مرتدية تشادورها. ففتحت النّافذة وقالت «يا بني، هلّا أحضرت لي تشادوري»

ذهب ليزار باحثا عن تشادورها. أحضره والتفّت فيه فجري وخرجت وسألتهم

«كيف أخدمكم أيّها السّادة؟»

- أين أحمد، سأل أحدهم من جديد بنبرة متغطرسة. لدينا أمر بالبحث عنه.

- إلى أين تريدون أخذه؟

- إلى المحكمة الإسلاميّة.

وفي هذه اللّحظة خرج أحمد من المكتبة وتوجّه نحو الحوض دون عباءة ولا عمامة فركض الرّجال نحوه في الحال.

Twitter: @ketab_n

نظر إليهم أحمد مذعورا وسألهم عن سبب مجيئهم.

- لقد تلقّينا أمراً باعتقالك، ستحاكم أمام المحكمة الإسلاميّة.

- لماذا؟ ماذا فعلت؟

- لا نعرف.

- لن أذهب إلى أيّ مكان. قال أحمد وهو جاث أمام الحوض ليغسل يديه.

أمسك به الرّجال وجرّوه نحو الباب.

قاوم أحمد وصرخ «ماذا تفعلون، اتركوني».

ولكنّ الرّجال لم يستمعوا إليه.

حرّر أحمد نفسه منهم واتّجه نحو مكّة وقال «ساعدني يا رب».

طلبت فجري سادات من ليزار أن يغلق الباب. ونزل جواد، وكان قد عاد اللّيلة الفارطة، فقالت له فجري سادات «اتّصل بأغاجان حالا». وانتصبت أمامَ الرّجال وقالت لهم «ماذا تفعلون بالله عليكم، إنّه إمام المسجد، ألا تخجلون من أنفسكم».

سمع ليزار خطوات أغاجان في الزّقاق ففتح الباب بسرعة وغمغم بشيء ما. رأى أغاجان أحمد وهو يتخبّط بين أيدي الرّجال المسلّحين، صاح قائلا:

«توقّفوا، توقّفوا، ما معنى هذا؟».

وصل المؤذّن أيضا، ونزلت بنات أغاجان الدّرج بسرعة. وسحب أغاجان أحد الرّجال إلى الخلف فسقط أحمد وأراد أن يركض تجاه الدّرج ليتسلّق السّطح لكنّ أحد الجنود ركله بعنف على ساقه فسقط قرب الحوض. وأمسك به الرّجل واضعا ركبته على ظهره وسحقه أرضا وألبسه الأصفاد.

وقف ليزار قرب المؤذّن مندهشا.

حاول أغاجان التّحدّث مع الرّجال قائلا «سأقوده بنفسي إلى المحكمة، لا أريد أن تسير الأمور بهذا الشّكل. أنا أغاجان، تستطيعون الوثوق بكلامي، سأذهب معكم، إنّ تصرّفكم تجاهنا غير صائب». فدفعه أحد الرّجال. وتدخّل جواد وأمسك والده وقال «هذا يكفي، لا تستطيعون فعل أيّ شيء آخر».

Twitter: @ketab_n

يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله، صرخ أحمد بينما كان الرّجال يدفعونه إلى داخل سيّارة الجيب بعنف.

«أين تقع المحكمة»، صاح أغاجان ولا حول له.

انطلقت السيّارة ولم يجب أحد.

بكت فجري سادات فاصطحبتها ابنتاها إلى الطّابق العلويّ. أراد جواد أن يصطحب أغاجان إلى الدّاخل أيضا ولكنّه رفض وقال «يا لها من حكاية مرعبة، أريد أن أعرف إلى أين اصطحبوه». وخرج.

اقتاد الرّجال أحمد معصوب العينين إلى مكان سريّ حيث تُعقد المحكمة الإسلاميّة منذ البارحة.

وعندما نزعوا عنه العصابة أدرك بأنّه في غرفة سيّئة الإضاءة ولا يعرف أين. وفهم بأنّ الغرفة موجودة في قبو لأنّهم أنزلوه ثلاث عشرة درجة.

لم يكن للغرفة نوافذ، وكانت الجدران مغلّفة بأغطية سوداء كبيرة كتبت عليها آيات قرآنيّة بالطّلاء الأبيض.

كان هناك طاولة وكرسيّ عال، وسُمّر علم أخضر في أعلى الحائط بشكل مائل، رمزا للإسلام.

وكان هناك أيضا كرسيّ منخفض أُجبر أحمد على الجلوس عليه. وتركه الرّجال وحده في الغرفة الخانقة تحت النّور الأصفر المقلق الذي يبعثه المصباح الصّغير.

جلس على الكرسيّ المنخفض طيلة ساعة منتظرا دون أن يحدث أيّ شيء.

ملأه صمتُ الغرفة والشّكُ رعبا.

فُتح الباب من إحدى النّواحي ودوّت خطوات مستعجلة في الدّرج. دخل الحارس وصاح «قاضي الإسلام، قف».

قام أحمد، ورأى خيال إمام شابّ يجلس على الكرسيّ العالي وراء الطّاولة، وقال

«يستطيع المتّهم الجلوس».

جلس أحمد مرّة أخرى وحاول التّعرّف عليه، ولكن بما أنّ نور المصباح كان ينعكس مباشرة على عينيه فإنّه لم يستطع تمييز وجه الإمام.

Twitter: @ketab_n

«سأقرأ اسمك، إذا كان صحيحا، تستطيع أن تقول نعم، وبعد ذلك سأطرح عليك بعض الأسئلة وعليك أن تجيب عليها»، قال الحاكم.

«أنا إمام المدينة، قبل أن أجيب على أسئلتكم أريد أن تُردّ إليّ عمامتي وعباءتي، وإلّا فلن أجيب».

- أنت أحمد الصّابري، ابن محمّد الصّابري؟

لزم أحمد الصّمت.

كان المتّهم عضوا نشطا في الاستخبارات، قال الحاكم، إنّها الجريمة الأكثر سريّة يمكن لإمام أن يرتكبها.

- هذا غير صحيح. لم أفعل شيئا». لم يستطع أحمد أن يمنع نفسه من قول ذلك.

- إنّه مكتوب في الأعلى، أجاب الحاكم وهو يلوّح بدفتر.

- لا يمكن أن يكون هذا سوى دفتر مزوّر لأنّي أعرف أكثر من أيّ شخص آخر أنّي لم أرتكب أيّ خطإ ولا كبيرة في ذمّتي.

- لدينا حجج تفيد بأنّك كنت عميلا في استخبارات الشّاه، قال الحاكم.

- لا دليل لديكم لأنّي لم أكن قطّ عميلا في الاستخبارات. وبصفتي إمام المدينة، فلديّ اتّصالات مع الجميع، سواء كان شحّاذا أو رئيسا للاستخبارات. ومن المحتمل أنّهم قد كتبوا تقارير عن هذه الاتّصالات. ولكن لا يمكن للحاكم أن يستخدم هذا حجّة. كنت إماما للمسجد في فترة مضطربة، وفي كلّ مرّة ألقي فيها خطبة مشحونة يأتي رجال الشّرطة ليذّكروني بوجوب احترام النّظام. ولا يمكن للحاكم أن يعتبر هذا حجّة. لم أرتكب أخطاء قطّ.

- أنت مدمن مخدّرات، قال الحاكم.

- هذا ليس خطيئة، وكلّ آيات الله في البلاد يدخّنون الأفيون، قال أحمد.

- لدينا دليل بأنّك كنت تدخّن الأفيون صحبة كبار رجال الاستخبارات السريّة.

- هذا صحيح، ولكنّي لم أقم بغير تدخين الأفيون معهم، ولا شيء آخر.

- لقد أعطوك أموالا، فهذا مكتوب هنا.

Twitter: @ketab_n

- ذلك جزء من وظيفتي، الإمام رجل ثقة، وكلّ النّاس يعطونني أموالا لأغراض مختلفة. وقد أعطوني هم أيضا أموالا أودعتها في خزينة المسجد.

- كنت على علاقة مشبوهة ببعض النّساء في مرّات كثيرة.

- كنت فعلا على علاقة ببعض النّساء، ولكن وفق الشّريعة الإسلاميّة دائما.

- لديّ هنا صور تُظهرك في وضع غير لائق وأنت تدخّن الأفيون مع عاهرات.

- كان ذلك فخّا نصبته لي الاستخبارات بهدف إيذائي ولكنّي....

وحاول الإجابة باعتقاد راسخ على أسئلة الحاكم إلى هذا الحدّ، ولكنّ يديه كانتا ترتعشان، ودموعه تنحدر ببطء على خدّيه، تحت النّور الأصفر الّذي يشيعه المصباح.

وبدأ يتلعثم شيئا فشيئا، ولم يكن يكمل جمله. كان ذلك بسبب الأفيون. لم يكفّ عن التّدخين قطّ، واشترى غليونا كهربائيّا عصريّا من طهران يمكّنه من التّدخين بسريّة وفي كلّ مكان. وكان أغاجان يعرف ذلك ولكنّه تغاضى عن الأمر.

لو كان قد دخّن الأفيون الآن لاستطاع الدّفاع عن نفسه بأكثر حدّة. ولكنّهم اعتقلوه في وقت غير مناسب، قبل أن يدخّن ليذهب إلى المسجد بالضّبط.

وفي هذا الضّغط غير المألوف كانت كلّ خلايا جسمه تطلب الأفيون أكثر من أيّ وقت مضى. وأحسّ باختناق شديد كأنّ فيلا يجثم على صدره.

اعتاد على أن يحمل في جيب عباءته قطعة من الأفيون الصّلب فقد يحتاجها. ولو كانت لديه الآن واحدة لوضعها في فمه ولأحسّ بشيء من التّحسّن ولكنّ الملتحين اقتادوه وهو في قميص الإمامة.

فتّش بيأس في جيوب قميصه ولكنّها كانت أخوى من الصّحراء.

وحاول فكّ أزرار رقبة قميصه ليتنفّس بشكل أفضل ولكنّه لم ينجح. لم يعد يتحكّم في أصابعه. غطّى عرق بارد جبينه، وبدأت أذناه تصفّران. ثمّ غابت الأصوات فما عاد يسمع صوت الحاكم. واسودّ كلّ شيء من حوله وسقط من على الكرسيّ.

في صباح اليوم الموالي أخذت زوجته طفلها وعادت إلى منزل والديها.

Twitter: @ketab_n

الحمار

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ [4]

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ [5]

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا [10]

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا [13]

وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا [14]

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا

يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ.... [40] [سورة النّبأ]

بحث أغاجان عن أحمد في كلّ مكان في المدينة طيلة شهر وطرق أبواب كلّ الّذين يعرفهم دون أن يعثر له على أثر.

كان الجميع يعرفون أنّه قد اعتقل وسرت إشاعات كثيرة عنه.

«ماذا ستفعل الآن؟»، قالت فجري سادات لأغاجان.

- أظنّ أنّه من الأفضل الانتظار، خاصّة في خضمّ هذه الأحوال المتقلّبة. إذا ذهبتِ إلى البازار فسترين كيف أنّ التّجّار يتحاشونني. إنّ سمعتي في خطر.

انتفض أغاجان عندما رنّ الجرس.

أصدر الجرس صوتا غير عاديّ، صوتا يصمّ الآذان، وقد رنّ مثل توقّف القدر.

«من هناك»، سأل أغاجان بصوت مرتعش.

- افتح، صاح رجل.

- من هناك؟ سأل ثانية.

Twitter: @ketab_n

- أتينا من أجل أغاجان.

فتح الباب، ووجد ملتحيا مسلّحا يقف أمامه.

- كيف أستطيع مساعدتك؟

- يريد الإمام أن يحدّثك على انفراد، قال الرّجل.

- أيّ إمام؟

- إنّه في سيّارة الجيب.

ذهب أغاجان نحو السيّارة وقال للإمام الشّاب وقد كان جالسا في المقعد الخلفيّ، عبر زجاج السيّارة «مرحبا بك، يمكنك الدّخول إذا أردت، سنتحدّث بشكل أفضل في مكتبي».

خرج الإمام من السيّارة ورافقه أغاجان إلى مكتبه وقدّم له كرسيّا.

«كنّا ننوي استدعاءك إلى المحكمة، قال الإمام بهدوء، ولكنّ الوقت داهمنا، والأمر يتعلّق بحديث وطلب يجب الرّدّ عليه هنا وفورا».

- ماذا تقصد؟

- لقد اتّخذت المحكمة قرارا وجئت لأعلمك به، وهو مكتوب على الوثيقة الّتي سأقرؤها عليك.

ظنّ أغاجان بأنّ الأمر يتعلّق بأحمد وأحسّ فجأة بنوع من الارتياح لأنّه يبدو أنّه أصبح بالإمكان التّحدّث في الأمر.

أخذ الإمام ظرفا مفتوحا من جيبه الدّاخليّ، وأخرج منه رسالة وفتحها بعناية وقرأ:

«بسم الله الّذي يعاقب المذنبين الّذين لا يستجيبون له بلا رحمة

باسم الزّعيم آية الله الخميني

قرّرت المحكمة الإسلاميّة، بأنّه ابتداء من الآن، وإلى فترة غير محدّدة أن لا تكون لعائلة غائمّاغامي فرحاني أيّ سلطة على مسجد الجمعة في مدينة سنجان».

وقف أغاجان من شدّة ذعره.

Twitter: @ketab_n

«هذا مستحيل، المسجد ملك لنا».

– المسجد ملك لله، تابع الإمام بهدوء، لم يكن المسجد قطّ ملكا لأيّ كان، يجب أن تعرف ذلك.

– ولكنّنا نملك وثائق تثبت أنّ الأرض والمسجد جزء من هذه الدّار. كلّ شيء مدوّن في سندات عائلتنا. هذا تراثنا. لديّ إثباتات.

– لا تنفعل هكذا. لا يمكنك امتلاك براهين شرعيّة. المسجد ملك للجميع. لم يكن لعائلتك غير حقّ إدارة المسجد. وهذا ليس شرعا إلهيّا. لدينا الآن حكومة إسلاميّة ويحقّ للحاكم أن يعيد النّظر في القرار القديم. ولم تعد إدارتك للمسجد مرغوبا فيها الآن. انتهى الحديث. لقد جرّدتكم المحكمة الإسلاميّة من هذه الحقوق. سيُفصل المسجد عن الدّار. ويمكنك الاستمرار في السّكن هنا مع عائلتك. جئت لأخذ مفاتيح المسجد. هل يمكنك أن تسلّمها لي؟

– لا، لا أستطيع، لا يحقّ لي ذلك، قال أغاجان. ما الّذي تفعلونه؟ أنتم تدمّروننا جميعا. ما الذي تعنيه كلّ هذه الإهانات؟

– إذا لم تعطني المفاتيح سأجعل الرّجال الواقفين خارجا يدخلون لأخذها بالقوّة.

– لست أنا من سيعطيك المفاتيح، قال أغاجان بنبرة حازمة.

خرج الإمام، وعند عودته إلى السيّارة أمر رجاله بالذّهاب لإحضار المفاتيح. دخل ثلاثة رجال إلى مكتب أغاجان واقتربوا من طاولة عمله. أوقفهم وهو ينتصب ساخطا في وسط الغرفة وصاح «اخرجوا من بيتي، هيّا، أسرعوا.

أبعده الرّجال وبدأوا بتفتيش مكتبه.

«سأعتبر هذا سرقة»، صاح أغاجان في الرّجل الّذي كان يقلب محتويات الأدراج على المكتب. وذهب إلى الرّجل ودفعه. سمع جواد الضجّة وجاء وجذب والده إلى الوراء ووقف بينه وبين الرّجل.

أخذ الرّجال كلّ المفاتيح الّتي وجدوها في الغرفة ورحلوا، ولكنّهم لم يحصلوا على مفتاح غرفة الكنوز؛ إذ إنّ أغاجان كان يحتفظ به دائما في الجيب الدّاخليّ لثيابه، إلى جانب القرآن.

Twitter: @ketab_n

وبعد ثلاثة أيّام حامت طائرة مروحيّة فوق المسجد، وكان فيها آية الله الأراكي.

كان الأراكي واحدا من عشرات آيات الله الّذين أرسلهم الخميني إلى المدن الكبرى ليشرفوا على تطبيق الشّريعة، ومنح كلّا منهم نفوذا مطلقا، ولا أمر عليهم إلّا له. كانوا يسمّون أئمّة الجمعة، وكانت قواعدهم مساجد الجمعة.

ولوّح مئات المصلّين في الشّارع بأيديهم نحو الطّائرة وصاحوا بشعارات مثل «سلام الله على الإمام».

حطّت الطّائرة على السّطح المنبسط، وصعدت مجموعة من الرّجال، من مسؤولي البازار، إلى السّطح ورحّبوا بآية الله العجوز.

ووقف مئات من الإسلاميّين في الباحة الدّاخلية للمسجد وضربوا على صدورهم وردّدوا «جنام بي فدايات خميني».

وساعد رجلان مسلّحان آية الله على نزول السلّم. وحمله النّاس على أكتافهم حتّى وصلوا إلى داخل المسجد.

كان أغاجان يريد مشاهدة كلّ شيء عن قرب ففتح الباب الأرضيّ لإحدى الصومعات وولج إلى داخلها. صعد إلى المكان الّذي أدخل إليه نصرت المرأة وانتصب هناك بكلّ قامته، ونظر إلى الأسفل ودوّن كلّ ما كان يحدث هناك بينما كان نور الصّومعة الأخضر يضيء وجهه.

أصبح المسجد مركزا للتّحرّكات المهمّة في المدينة، وكان آية الله يلقي كلّ يوم جمعة خطبة يحضرها كلّ سكّان المدينة والمدن المجاورة.

وصار آية الله أقوى رجل في المدينة، وكثرت مواعيده فلم يكن ينفّذ أي قرار في المدينة دون مشورته.

المحكمة فقط كانت خارج سلطته، وكان الحاكم الإسلاميّ يتصرّف بحريّة بالرّغم من أنّه كان يلجأ إلى جلجل في حالات خاصّة.

اتّصل الحاكم هاتفيّا بجلجل ليحدّثه بخصوص ملفّ أحمد، فأصدر له أمرا واضحا «أنت الحاكم، أغمض عينيك وأصدر حكمك».

وفي هذه الأثناء زار الحاكم المسجد وقدّم الملفّ إلى آية الله طالبا منه حكمه.

Twitter: @ketab_n

درس آية الله الملفّ بين صلاتين وأيّد حكم القاضي قائلا «باسم الله تعالى، لأنّه إمام يجب أن يعامل بصرامة أكثر من الملحد، والسّلام».

وفي اليوم الموالي طافت سيّارة جيب مزوّدة بمكبّر صوت المدينة من طلوع الشّمس إلى السّاعة الواحدة بعد الظّهر وهي تعلن «يا مؤمني مدينة سنجان الأعزّاء، تجمّعوا في السّاعة الثّانية في ساحة البازار حيث سيعلن القاضي حكمه على أحمد الصّابري، العضو القديم في الاستخبارات، وهذا أوّل حكم إسلاميّ علني. الله رحيم، ولكنّه شديد العقاب إذا لزم الأمر».

وقف أغاجان في الباحة الدّاخليّة قرب الحوض عندما سمع الخبر وتحجّر جسده ولم يعد يشعر بساقيه، فتمسّك بالمصباح الّذي أسند إليه رأسه.

سمعت فجري سادات أيضا ما أُعلن عنه في مكبّر الصّوت، فسألت أغاجان مضطربة:

- ما العمل؟

- لا شيء. الله وحده يستطيع مساعدتنا. لقد طرقت كلّ الأبواب على مدى شهر وقبّلت كلّ الأيدي، ولكنّ ذلك لم يجد نفعا. لا أحد يعلم شيئا عن هذه المحاكمات. كلّ شيء يحدث وراء أبواب مغلقة، قال أغاجان.

- لكن لمَ لم تفعل زينات شيئا، إنّها تصاحب آيات الله؟

- أظنّ أنّها لا تستطيع فعل شيء كثير، فهي أيضا لا تعرف من يكون هذا القاضي الّذي سيصدر الحكم. ثمّ هي تتعاون معهم كليّا ولا تستطيع أن تدافع عن ابنها.

- لمَ لا؟ لقد قلت لي أكثر من مائة مرّة بأنّه بريء.

- لا أعرف يا فجري، لم أعد أعرف.

- أحمد ابنها قبل كلّ شيء، وهو إمام المسجد ثانيا. لمَ تذهب أنت لتكلّم كلّ النّاس وتقبّل أيدي جميع النّاس بينما لا تظهر هي أبدا. أين هي الآن؟ لماذا تختبئ، حتّى عنك أنت؟

- إنّها ثورة يا فجري، وليست تغييرا بسيطا في السّلطة السّياسيّة. إنّها قلب كليّ لأفكار النّاس. ستحدث أمور لم نكن قد تصوّرناها قطّ في حياة عاديّة. سيصير النّاس في

Twitter: @ketab_n

حالة تجعلهم يقومون بأشياء مروّعة. انظري حولك، كلّ النّاس تغيّروا، لم نعد نعرف أحدا تقريبا. لم نعد نفهم إذا كان النّاس يرتدون قناعا أو إنّهم قد نزعوا أقنعتهم. من يعرف ما الّذي حدث لزينات؟

من كان يصدّق أنّ زينات ستصير شخصا مهمّا.

– مهمّا؟ ما معنى هذا، مهمّا؟ أجابت فجري.

– صار لها نفوذ، وهي تقرّر، وتنظّم، والله وحده يعرف ما تفعله أيضا.

– إنّها لا شيء، إنّها شخص سيّئ للغاية. وكلّ اللّواتي يتعاملن معها وضيعات. هنّ نساء لم يكن أحد ينظر إليهنّ قطّ. كلّهنّ قبيحات.

– فجري؟

– لزينات روح خبيثة، قالت فجري دون أيّ اعتبار لردّة فعل أغاجان.

– ليس الوقت مناسبا للحديث عن هذه الأمور. أنا ذاهب إلى ساحة البازار. سأذهب لأرى، ربّما استطعت مساعدة أحمد.

– لا، لا تذهب إلى هناك، لن تنال غير الإهانة. انتظر في البيت إلى أن تهدأ الزّوبعة.

صلّى أغاجان أوّلا، ثمّ وضع قبّعته، وانتصب وذهب لملاقاة قدره.

احتشد النّاس في ساحة البازار، فتوقّف قرب شجرة حيث يمكنه رؤية المنصّة الّتي ستقام فوقها المحاكمة بوضوح. كان النّاس يتحدّثون فيما بينهم ويتساءلون عن كيفيّة تنفيذ الحكم الإسلاميّ.

وصلت ثلاث سيّارات جيب عسكريّة، ثمّ دخلت سيّارة مرسيدس بنز سوداء إلى السّاحة. فتح الحرّاس باب السّيّارة ليخرج منها إمام شابّ، ورافقوه إلى المنصّة. جلس على الكرسيّ العالي وقال «ائتوا به».

ذهبوا ليحضروا أحمد من وراء ستارة خضراء نفيسة ودفعوه إلى الأمام. لم يكن معتنيا بمظهره، وكان قد هَزُلَ. وبما أنّه لم يدخّن الأفيون في هذه المدّة الأخيرة فإنّ ملامح وجهه قد تغيّرت. كان يمشي مثل متشرّد عجوز لم يغتسل منذ وقت طويل. ولو لم يعرّف به القاضي لما عرفه أحد.

Twitter: @ketab_n

نظر الجميع إلى أحمد؛ الإمام المحبوب الّذي كان قد تلقّى فيما مضى رسائل غرام كثيرة.

طلب القاضي من الحشد الصّمت وشرع في قراءة حكمه «لقد جعل أحمد الصّابري من نفسه مذنبا بتعاونه الكبير مع أعوان الاستخبارات في النّظام السّابق. لقد تعاون مع الشّيطان. ولكن بما أنّ يديه لم تكونا ملطّختين بالدّم فلم يُحكم عليه بغير عشر سنوات سجنا».

هاج الحشد، فطلب منهم القاضي الصّمت مرّة ثانية وتابع «لم يعد للمتّهم الحقّ بممارسة وظيفة الإمامة، وستصادر عباءته وعمامته».

كان أحمد يرتعش داخل قميصه الطّويل المتّسخ.

«ولكن بما أنّه إمام مسجد، وبصفته هذه فقد كان عليه أن يكون قدوة، ولهذا ستكون عقوبته أثقل»، قال القاضي. وبعد ثوان من الصّمت قال فجأة «أحضروا الحمار».

ذهب الحرّاس لإحضار حمار أبيض كان رابضا خلف المحكمة.

علت السّاحةَ جلبةٌ، ما الّذي سيقومون به؟ ما الّذي سيفعلونه؟

لم يكن الحمار، وقد أرعبه الحشد، يريد التّقدّم، فدفعه الحرّاس إلى أعلى المنصّة.

تعرّف أغاجان على الحمار الأبيض؛ حمار العم رمضان. وظهرت مجموعة من الإسلاميّين يلبسون وشاحات خضر حول جباههم وقد كُتب عليها «جنود الخميني»، وصاحوا «الله أكبر، الموت للمتواطئ مع الشّاه».

صاح القاضي «سيمتطي الحمار وظهره إلى المقدّمة ويُقاد إلى مسجد الجمعة. إنّها عقوبة رحيمة لشخص خان عباءة الإمامة».

بدا الجمهور مصدوما، ونظروا إلى أحمد بدهشة وقد كان يحدّق في الأرض بنظرة فارغة.

أخرج أغاجان منديله ومسح عرق جبينه ولم يستطع التّصديق بأنّهم سيُدخلون أحمد إلى المسجد وهو جالس على الحمار ووجهه إلى الوراء.

عرف أنّ أحمد قد ارتكب حماقات ولكنّه لا يظنّ بأنّه قد كان متواطئا مع الشّاه. ذلك

Twitter: @ketab_n

ليس من طبعه. ولكن لماذا لا يقول أحمد شيئا؟ لماذا لا يعترض؟ لماذا لا يدافع عن نفسه؟

فتح أغاجان لنفسه مسلكا وسط الحشد وصاح بأعلى صوته «أحمد، أنت لست خائنا. دافع عن نفسك».

التفت الجميع إلى أغاجان مذعورين.

«افتح فمك، قل شيئا»، قال بصوت أعلى.

تمالك أحمد نفسه عند سماع أغاجان.

صاح القاضي «صمتا».

«لا يحقّ لك أن تصمت يا أحمد»، صاح أغاجان.

«صمتا»، صاح القاضي مرّة أخرى.

توجّه حارسان نحو أغاجان.

«تحرّك يا أحمد، من أجلي، من أجلنا، من أجل المسجد»، صاح أغاجان محاولا مقاومة الحارسين اللّذين كانا يريدان أخذه. «أنت إمام مسجدنا، دافع....»، كان لا يزال يصيح ولكنّه لم يستطع إتمام جملته لأنّ أحد الحرّاس لوى له يده فوق ظهره ودفعه إلى الأسفل ووجهه إلى الأرض.

«افعل شيئا يا أحمد» قال أغاجان بينما كان الحارسان يحاولان السّيطرة عليه.

هرع تاجران من البازار وحرّرا أغاجان من أيدي الحارسين وأرجلهم وحملوه إلى المكان الّذي كانا فيه.

استجمع أحمد قواه والتفت إلى الحشد ورفع يديه إلى السّماء وقال «أقسم بالقرآن أنّي بريء»

- اصمت، قال القاضي.

- أقسم بالمسجد، لم أكن متواطئا أبدا.

- اصمت، صاح القاضي بغضب هذه المرّة.

- «لا أستطيع أبدا...» ولكنّه لم يكمل جملته لأنّ الحارسين رفعاه ليجلساه فوق الحمار.

Twitter: @ketab_n

تراجعت البهيمة مذعورة. فوجّه لها أحد الحرّاس ضربة عنيفة على جنبها بفوّهة بندقيّته، فترنّحت البهيمة، وسقطت ثمّ وقفت ثانية.

تقدّم رجل عجوز يحمل بندقيّة على ظهره وعصابة على جبينه وداعب رأس الحمار وهدّأه بسهولة حتّى استطاع الرّجال أن يشدّوا أحمد على ظهر الحمار.

ارتعد أغاجان عندما تعرّف على العجوز: ألم تخدعه عيناه؟ كان الرّجل العم رمضان، خادمه القديم. أصبح جنديًا في الجيش الإسلامي. هذا لا يمكن تصوّره. لقد أهدى حماره لإهانة أحمد وتحطيمه.

اللّعنة عليه، وهو ربّما ما يزال يحمل مفاتيح الدّار في جيبه، كيف يتغيّر المرء بهذه السّهولة؟

أحسّ أغاجان بألم شديد فبدأ يرتّل سورة المرسلات:

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا [1]

فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا [2]

وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا [3]

فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا [4]

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ [7]

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ [8]

وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ [9]

وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ [10]

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [15]

تحرّك الحمار حاملا أحمد على ظهره وهو يبكي في صمت ورماه أحدهم بحجر أصابه في رأسه.

لم يستطع أغاجان تحمّل ذلك، اندفع إلى الأمام ووقف أمام الحمار فاتحا ذراعيه «توقّفوا، لا يحقّ لأحد رمي الحجارة، لم يُحكم عليه بالرّجم، أين هو هذا القاضي الملعون».

Twitter: @ketab_n

طرحه حارس أرضا. وبسرعة لم تُعهد منه وقف على رجليه وركض باتّجاه الحمار.

أوقفه حارس بفوّهة بندقيّته.

ورمى شخص آخر حجرا أصاب أحمد في أذنه اليمنى. فأخرج أغاجان حينئذ قرآنه بسرعة ودفع الحارس وركض نحو أحمد، استقرّ أمامه ورفع قرآنه إلى الأعلى وقال «بحقّ هذا الكتاب لا ترجموه».

انتزع الحارس القرآن من بين يديه وضربه به على وجهه بعنف. فقد أغاجان توازنه ولكنّه وقف في الحال وأمسك بأحمد من وسطه وجذبه إليه حتّى سقط كلاهما على الأرض.

رفع حارسان أحمد على الحمار من جديد بينما كان ثالث يركل أغاجان على بطنه وظهره ورجليه.

بدأ الحمار يسير وتبع الحشدُ البهيمةَ إلى المسجد.

ظلّ أغاجان على الأرض يتلوّى من الألم وهو يردّد:

يا أيّها المزمّل
يا أيّها المدثّر
لا تبق أرضا
قم
والقمر
والنّهار إذا طلع

وتوكّأ على يديه وقام متألّما.

Twitter: @ketab_n

البقرة

في البدء كانت البقرة، وما بقي صمت. هذا ما كان الفرس الأوائل يعتقدونه. وهذا ما يفسّر رسومات رؤوس الأبقار الّتي تزيّن أعمدة القصور الفارسيّة القديمة في بلاد فارس.

عندما تموت البقرة، تخرج بقيّة الحياة من جسدها، تخرج من لحمها حيوانات ونباتات.

اختفت هذه الاعتقادات في تاريخ معيّن وحلّت محلّها اعتقادات أخرى. فتمّ تقديس النّار واختفت عبادة الأبقار.

كانت النّار تشتعل في قمم الجبال في معابد النّار عندما وُلد زارادشت في يزد. كان أوّل نبيّ فارسيّ، وقد أعلن أنّه لا يجب عبادة البقرة أو النّار. فنقل الإله إلى السّماء وسمّاه أهورا مازدا.

وصارت النّار رمزا لأهورا مازدا في الأرض. وقدّم النّبيّ إلى شعبه كتابه المقدّس أفيستا وقد دوّن فيه كلام الإله.

وبعد قرون عدّة دعا محمّد إلى الإسلام فزالت كلّ المعتقدات الفارسيّة القديمة وأُطفئت النّار.

وبعد ألف وأربعمائة سنة لم تعد إيران تعبد البقرة أو النّار، ولكنّ الرّوح الفارسيّة ظلّت متأثّرة بهذه المعتقدات القديمة.

أصبح الإسلام الآن سبب قطيعة عميقة في قلب عائلة أغاجان. على مدى ثمانية قرون كانت الدّار تحارب أعداء الإسلام من أعلى المنبر مثل رجل واحد. ولأوّل مرّة صار الإسلام عدوّا للعائلة.

لم يعد شهبل إلى الدّار رغم أنّ أكبر مراحل الثّورة قد أنجزت. أمّا نصرت فأحواله تسير بخير. كان يشتغل ليلا نهارا ليصنع لنفسه مكانا في السّينما الإيرانيّة، في قلب

Twitter: @ketab_n

الجمهوريّة الإسلاميّة الجديدة. فلم يعد لديه وقت ليعود إلى الدّار ولم يعد يهاتف مطلقا.

وكرّست زينات نفسها نهائيّا لخدمة إسلام الخميني، ونادرا ما كانت تأتي إلى الدّار. وقد قطعت كلّ صلاتها بالعائلة. ولا أحد يعلم ما تقوم به بالضّبط.

لم يكن المؤذّن بخير فكان يسافر كثيرا، وحتى جواد صار يتغيّب بانتظام.

لم يكن يخبر أحدا إلى أين يذهب ولكنّه كان يُكثر الذّهاب إلى طهران. واتّصل بشهبل. وقد كان يبدي دائما تعاطفا ضمنيّا مع الحركة اليساريّة الّتي ينشط شهبل فيها حاليّا.

وسأل جواد شهبل «لِمَ لا تأتي إلى الدّار؟».

- عندما كان الخميني في باريس أعلن بأنّه سيتسامح مع الأفكار المخالفة لفكره. ولكنّه بعد أن أمسك بزمام السّلطة لم يعد ذلك الأمر مطروحا. فهو يعتبر مناضلي اليسار ملحدين لا حقّ لهم في المواطنة في دولة إسلاميّة. فتوجّب علينا إذا أن نختفي ونختبئ في أماكن سريّة. لا نستطيع أن نثق في الخميني.

وقرّرت نسرين وإنسي ابنتا أغاجان أيضا مغادرة الدّار. وأرادتا أن تستقرّا في غرفة في طهران. لم تكن أيّة فتاة قد غادرت الدّار قبل الآن. وكانت نسرين وإنسي راشدتين ولم تعودا راغبتين في البقاء في الدّار وانتظار زوج.

كانت فجري سادات قد منحتهما تربية مهذّبة. لم تفرض عليهما قطّ التّردّد على المسجد، وأرسلتهما إلى أفضل مدارس المدينة.

وبعد أن أنهتا المرحلة الثّانويّة، تلقّت كلتاهما تكوينا لأساتذة التّعليم الثّانوي. ولو سار الوضع على ما كان عليه في الماضي لكانتا قد انتهتا دراستهما الآن ولصارتا أستاذتين. ولكن عندما اندلعت الثّورة أغلقت كلّ الجامعات وكلّ المدارس. ولم يعد يُسمح لهما بإنهاء دراستهما بعد الثّورة.

أحدث النّظام الإسلاميّ الجديد ثورة ثقافيّة في المؤسّسات والمكاتب والمدارس والجامعات، وطردت اللّجنة كلّ الّذين اعتبرتهم غير متحمّسين للإسلام. فكانت نسرين وإنسي أوّل من اعتبرتا غير جديرتين في دفعتهما بسبب أحمد والفضيحة الّتي أثارها أغاجان في ساحة البازار. ومكثتا في الدّار فترة من الزّمن ولكن لم يبق لهما أيّ مستقبل في سنجان.

Twitter: @ketab_n

قالت فجري سادات لأغاجان ذات أمسية قبل النّوم «تريد نسرين وإنسي الذّهاب إلى طهران. لقد حادثتاني في الأمر.

- لا نستطيع ترك الفتاتين تعيشان لوحدهما في طهران، قال أغاجان.

- وماذا ستفعل لهما إذا؟ هل ستحبسهما هنا إلى الأبد؟

لم يقل أغاجان شيئا.

«لا مستقبل لهما هنا، يجب أن تتركهما تغادران».

وفي أحد الأيّام ذهبت نسرين وإنسي إلى مكتب أغاجان وقالتا له بأنّهما تريدان الذّهاب إلى طهران لتعملا وتسكنا هناك، وأنّه لا موجب لمنعهما.

- أنا لا أمنعكما، قال أغاجان.

فانتقلتا للعيش في طهران وسكنتا مع زميلة قديمة في الدّراسة.

استمرّ أغاجان في الذّهاب كلّ يوم إلى البازار، لكنّ كلّ شيء كان قد تغيّر. التحى كلّ الرّجال وكانوا يبذلون قصارى جهدهم ليتقرّبوا من رجال الدّين. صار جميعهم متكبّرين ولم يعد أحد يقدّره. وصار خادمه الأمين يأتي إلى العمل في زيّ ميليشيا، إلى درجة أنّ أغاجان لم يعد قادرا على الاتّصال هاتفيّا بحضوره.

عندما كان يذهب إلى تفقّد الورش في الماضي كان القرويّون يستقبلونه مثل ملك، أمّا اليوم فلم يعد أحد يأتي ليرحّب به.

وفي أحد الأيام زاره صديق قديم من أصفهان فوجده جالسا إلى مكتبه منحنيا على أوراقه فلم يتعرّف عليه. صار أغاجان الآن عجوزا أشيب ومنكسرا.

كان يحاول أن يواصل العمل بصفة طبيعيّة ولكنّ ذلك لم يكن مجديا، لم تعد له القدرة على التّحمّل. صار يعود إلى الدّار باكرا ويعتني بالحديقة. وكان يختفي أحيانا في القبو ويبقى هناك لساعات طويلة وسط أشياء الماضي. فتذهب فجري سادات لتبحث عنه:

- ماذا تفعل هنا طيلة هذا الوقت؟

- لم يتسنّ لي الوقت لأرى ما يوجد في داخل هذه الصّناديق في الماضي.

- هذا يكفي اليوم، اذهب لغسل يديك، لقد أعددت الشّاي.

Twitter: @ketab_n

فيغسل يديه ووجهه في الحوض ثمّ يذهب إلى المطبخ ليحتسي الشّاي مع فجري.

وكان أغاجان يقول لفجري عندما كانت تتذمّر بشأن مستقبل أولادهم «اصبري».

- كيف أستطيع أن أصبر وقد غادر أبنائي الثّلاثة الدّار دون مستقبل ولا نعلم حتّى مكانهم؟

- لا يعاني أبناؤنا هذا الوضع لوحدهم. آلاف الشبّان يقاسون المصير نفسه. كان الأمر دائما على هذه الشّاكلة وسيظلّ كذلك. ولكن يوجد علاج يمكن أن يساعدنا جميعا: ألا وهو الصّبر.

- أنت فقط تستطيع أن تصبر، أنت يمنحك إيمانك هذه القوّة أمّا أنا فلست قادرة على ذلك، أنا ضعيفة، ويعتريني الشكّ. أنا لا أجرؤ على إخبارك بذلك، ولكنّي أشكّ في ما إذا كان الله يرى كلّ هذا.

- كوني قويّة يا فجري، لا تستسلمي لوسوسة الشّيطان، توشكين على فقدان هدوئك، وهذا ليس جيّدا لك.

- كلّ النّاس يدافعون عن مصالحهم الخاصّة، كلّهم يسعون إلى حماية حياتهم، أنت الوحيد الذي كان صادقا وما يزال كذلك، ولكن فيم نفعك ذلك؟ لقد انتهى بك الأمر في القبو. كنت في الماضي رجل البازار وكانت كلمتك هي العليا، وماذا تفعل الآن؟ تبحث في القبو عن مخلّفات الماضي.

- لا تقولي ذلك يا فجري، قال أغاجان وقد جُرح.

- أنا آسفة، ولكنّك تعرف بالضّبط ما قصدته. أين هم أصدقاؤك؛ رجال البازار المتنفّذون الّذين عليهم مساعدتك.

- لست بحاجة إلى مساعدة أحد، قال أغاجان.

- لقد أهملك الجميع. أين زينات؟ أين المؤذّن؟ وأين نصرت تحديدا؟ هل وصلتك أخبار عنه؟

وفي تلك اللّحظة كان نصرت في بيته يستحمّ. كان يبحث عن طريقة يساهم بها في تطوير السّينما الفارسيّة. ولكنّه كان يعلم أنّه لن ينجح أبدا دون دعم الخميني. وبينما كان الماء ينحدر على رأسه، خطرت على باله فكرة عبقريّة. بقرة. وصاح بكلّ ما أوتي من قوّة «لقد

Twitter: @ketab_n

وجدتها». أغلق الحنفيّة في الحال وأخذ المنشفة ونشّف جسده وارتدى ملابسه وخرج على عجلة من أمره. استقلّ سيّارة تاكسي فأوصلته إلى القصر الّذي جعل منه بهشتي مكتبا له.

مرّت تسعة أشهر على الثّورة ولم يتّخذ الخميني قرارا بعد بشأن السّينما. كانت أبواب دور السّينما مسمّرة وقد صُرّح بأنّها أماكن نجسة شأنها شأن المواخير.

خلق التّعاون الكبير بين نصرت وبهشتي علاقة وثيقة بين الرّجلين. كان بهشتي يعرف السّينما. وعندما كان في ألمانيا كان كثيرا ما يذهب إلى السّينما سرّا لمشاهدة الأفلام. ولكنّه يعتقد أنّ الوقت لم يحن بعد لمناقشة الموضوع مع الخميني.

«أعرف ما يجب فعله بالضّبط، قال نصرت لبهشتي، علينا بكلّ بساطة أن نجعل الخميني يذهب إلى السّينما. يجب أن يرى بأمّ عينيه أنّ قاعة السّينما أمر مختلف تماما عن الماخور.

- كن واقعيّا، قال بهشتي، ماذا نستطيع أن نريه كي نقنعه؟

- البقرة، قال نصرت.

- البقرة؟

- إنّه أوّل فيلم فارسيّ جدّيّ، ويمكننا أن نقول إنّه إسلاميّ أيضا.

- وعنوانه البقرة؟

- نعم البقرة. إنّه تراث فارسيّ. لا أقول إنّه عمل رائع ولكن هذا أفضل ما لدينا لنريه للإمام. إنّ البقرة موجودة في روح كلّ فارسيّ، وحتى في روح الإمام. سأجد قاعة سينما وأنت أحضر الإمام. يمكن للإسلام أن يفعل الكثير للسّينما. لديّ مشاريع كبرى. إذا أعجب الخميني بالفيلم ستنبعث سينما مستقلّة من أعماق ثقافتنا. للشّيعة طريقة مخصوصة في رؤية العالم وثقافتنا الفارسيّة القديمة مادّة خام؛ وخلال وقت قصير سنغزو قاعات السّينما في العالم أجمع.

- لنترك العالم لوقت آخر، لنري الفيلم للإمام أوّلا.

- لقد سمّرنا أبواب كلّ قاعات السّينما، وقام أكابر تجّار الزّرابي بحركة وطنيّة: إنّهم يشترون قاعات السّينما ويحوّلونها إلى مساجد.

Twitter: @ketab_n

- لن ننجح أبدا في حمل الإمام إلى السّينما.

- سأتصرّف بطريقة أخرى إذا، سأحمل السّينما إلى الإمام.

- سيكون ذلك حدثا: سيستمتع الخميني؛ تدور أحداث الفيلم في الرّيف، حيث ولد».

وفي مساء اليوم الموالي دخل نصرت إلى مسكن الخميني الموجود على الهضاب الشّماليّة لطهران، حاملا على كتفه شاشة وفي يده آلة عرض.

رافقه بهشتي إلى مكتب الإمام فوجداه جالسا على سجّاده وظهره مسند بمخدّة إلى الجدار. شاب شعر نصرت منذ الثّورة والتحى وصار يضع قبّعة فنّانين. اعتاد الجميع على الانحناء أمام الخميني وتقبيل يده ولكنّ نصرت لم يفعل ذلك. نزع قبّعته وطأطأ رأسه قليلا.

وعرّف بهشتي به «هذا هو المصوّر الّذي جابت تقاريره عن الثّورة العالم بأسره مرّات كثيرة. وهو رجل يمكننا الوثوق به. هو سليل عائلة متضلّعة في الدّين، وله أفكار هامّة حول السّينما، سأترككما لوحدكما».

خيّم صمت قصير عندما غادر بهشتي الغرفة. ووضع نصرت أغراضه وبحث عن مكان ليعلّق فيه الشّاشة. أخرج مطرقة صغيرة من جيبه ودون أن يستأذن سمّر الشّاشة في الجدار المقابل للخميني.

وغيّر مكان طاولة كانت قرب الحائط ووضع فوقها مسلّط الضّوء. ثمّ وضع كرسيّا في وسط الغرفة وقال «هلّا جلست على هذا الكرسيّ؟».

- أنا مرتاح هنا، ردّ الخميني بشيء من الانزعاج.

- نعم، أفهم ذلك، ولكنّ الكرسيّ جزء من السّينما.

رمقه الخميني بنظرة تعجّب، فلم يسبق أن خاطبه أحد بهذه الطّريقة قطّ. ولكنّه كان يعلم بأنّ نصرت مصوّر، ويعلم أيضا أنّ هناك شخصين يجب طاعتهما: طبيب العائلة والمصوّر. فوقف وذهب للجلوس على الكرسيّ وسط الغرفة.

أنزل نصرت السّتائر وأطفأ النّور حتّى صارت الغرفة مظلمة تماما.

ثمّ أنار مسلّط الضّوء.

Twitter: @ketab_n

بدأت المكبّة بالدّوران، وكان الفيلم قديما باللّونين الأبيض والأسود. وظهرت بقرة على الشّاشة وخارت، وهو ما لم يكن الخميني يتوقّعه. وشوهد قرويّ يقبّل البقرة على جبهتها ويداعب رقبتها ويقول «أنت بقرتي، بقرتي الحبيبة، تعالي، سنذهب في نزهة».

تقدّم القرويّ وتبعته البقرة. وعندما وصل إلى المرج أخرج غليونه التّقليديّ وجلس تحت ظلّ شجرة وبدأ يدخّن وهو ينظر إلى بقرته مسرورا وهي ترعى الكلأ. ثمّ ظهرت قرويّة محجّبة وقالت:

«السّلام عليكم، يا مشهدي.

- السّلام عليكم يا باجي. تعالي واجلسي في الظّلّ، الجوّ حارّ اليوم. لن أتأخّر في اصطحاب بقرتي إلى النّهر. لقد أحسّت البهيمة بحرّ شديد في الاسطبل. كيف حالك يا باجي؟».

جلست القرويّة على الأرض إلى جانبه ونظرا إلى البقرة في صمت.

لم يكن الفيلم رائعا ولكنّه ضمّ مشاهد ساحرة من حياة القرويّين البسطاء. كانت القصّة عاديّة ولكنّ ما شدّ المتفرّجين هو بساطة حياة هؤلاء النّاس.

كان فيلما يتماشى تماما مع روح الجمهوريّة الإسلاميّة الجديدة للخميني لأنّ القرية كانت خلوا من كلّ مظاهر الحداثة. لا كهرباء ولا مياه جارية وكانت كلّ القرويّات محجّبات والقرآن في كلّ مكان. لم تُسمع موسيقى، ولم يمتلك أيّ شخص مذياعا. ولم يكن من الممكن العثور على فيلم يجد فيه الخميني نفسه ووالديه ومواطنيه أفضل من هذا.

تتحدّث القصّة عن قرويّ لم يكن له أطفال وهو يحبّ بقرته كثيرا. فإذا بالبقرة تمرض في أحد الأيّام فنصحه شيوخ القرية بذبحها قبل أن يستفحل مرضها ولكنّه رفض. وسقطت البقرة جثّة هامدة في غياب القرويّ فقرّر القرويّون دفنها فورا قبل وصول مالكها.

وعندما عاد القرويّ وسأل عن بقرته أخبره جميعهم بأنّها هربت، فذُعر. بحث عنها أيّاما وأيّاما ولكنّه لم يعثر عليها. ففقد بسبب ذلك متعة الحياة وشهيّة الأكل.

زاره شيوخ القرية ليواسوه وليفهموه بأنّه لا يجدر بالإنسان أن يبكي لموت بقرة ولكنّ المرض اشتدّ بالقرويّ حتّى صار يتوهّم بأنّه قد تحوّل هو ذاته إلى بقرة. وعندما دخل الشّيوخ إلى بيته بدأ يخور من الألم مثل البقرة. فأخرجوا مناديلهم وبكوا القرويّ في صمت.

Twitter: @ketab_n

وعندما انتهى الفيلم أشعل نصرت النّور وأمسك الخميني بمنديله.

وفي الجمعة الموالية أعلن كلّ آيات الله في مواعظهم عبر البلاد عن بلاغ غريب «في هذا المساء سيبثّ التّلفاز فيلما عنوانه البقرة وقد أمر به الإمام الخميني وسمح للنّاس بمشاهدته». فذهب النّاس الّذين لا يملكون تلفازا في بيوتهم إلى دور الشّاي بأعداد غفيرة ليشاهدوا الفيلم. وكان يوما مهمّا في تاريخ الفنّ الإيراني.

شاهد أغاجان الفيلم مع ليزار في مخزنه على السّطح. وكانت تلك المرّة الأولى الّتي يشاهد فيها فيلما. وحين رأى البقرة والقرويّ والبيوت المعدمة لم يستطع أن يصدّق أنّ هذه هي السّينما الّتي امتُدحت كثيرا.

وشاهد شهبل وجواد الفيلم معا.

وشاهدت نسرين وإنسي ابنتا أغاجان الفيلم مع صديقة من أيّام الدّراسة.

وشاهدته صادقة في طهران رفقة عدد من النّساء الإسلاميّات، إذ كان جلجل قد تمكّن، بمساعدة أخته، من جعل صادقة تقضّي بعض الوقت في العاصمة.

وكانت زينات خانم تسكن عند عزّام عزّام وهي مساعدتها، وقد تبرّأت زينات في المسجد مؤخّرا من أحمد، وقالت إنّها تخجل من ابنها.

ولم تكن زينات وحدها في هذا الصّنيع. فقد ظهر كثير من الآباء المتديّنين في التّلفاز ليتبرّؤوا من أبنائهم الّذين يعارضون آيات الله. كان كلّ النّاس يتحدّثون عن ذلك، ولكنّ أحدا منهم لم يفهم ما يحدث. هل إنّ إيمانهم هو الذي ألهمهم فعل ذلك أم إنّهم خضعوا لغسيل دماغ؟

وفي اليوم الّذي تلا تبرّؤ زينات من ابنها استقبلها آية الله في مكتبه وبلّغها بهذه العبارات على انفراد:

«زينات خانم، أنت نموذج المرأة الإسلاميّة الّتي أحتاج إليها في المدينة. أنت محجّبة حقيقيّة. فاطمة الزّهراء راضية عنك. والآن استمعي إليّ جيّدا. أكلّفك بإضفاء هيئة إسلاميّة على كلّ نساء سنجان. أريد أن أراهنّ كلّهنّ مثل زينات خانم. هل هذا واضح؟

- نعم يا آية الله، هذا واضح»، قالت زينات وهي تقوم.

وأسّست زينات مع ستّ نساء متزمّتات هيئة الأخلاق. وبدأت في أسلمة السّلوكات العامّة للنّساء.

Twitter: @ketab_n

كانت غالبيّة نساء المدينة يضعن تشادورات عندما يخرجن، ولكن كثيرا من النّساء الشّابّات رفضن الخضوع لإلزامات النّظام الإسلامي ورفضن وضع تشادور. وطافت ثلاث سيّارات جيب المدينة وعلى متنها متحجّبتان ورجل مسلّح لتفقّد أحجبة النّساء.

وما إن يروا امرأة تضع مساحيق تجميل أو غير متحجّبة وفق المعايير الإسلاميّة حتّى يقفزوا خارج الجيب ويهجمون عليها ويعتقلونها.

فإن استمعت المرأة إلى نصائحهم وأصلحت حجابها فإنّهم يطلقون سراحها، أمّا إذا سفّهتهم فإنّهم يحبسونها في شاحنة صغيرة تسير وراء الجيب ويقتادونها إلى مكان سريّ ليلقّنوها درسا.

وتمثل كلّ النّساء المعتقلات أمام زينات. وقد اخترعت مع عزّام عزّام طريقة لإرعابهنّ رعبا لا ينسى. فكانت عزّام عزّام تطلي سيقانهنّ بمحلول مُحلّى وتحتجزهنّ زينات في غرفة مظلمة تطير بداخلها الصّراصير. أمّا الفتيات اللّواتي يعترضن بقوّة فإنّها تحتجزهنّ في غرفة مظلمة تجري بداخلها الفئران على أرجلهنّ وهي تصوّت.

وقد قامت زينات مؤخّرا بمسح شفتي امرأة كانت تضع أحمر الشّفاه بمنشفة خشنة حتّى سال منهما الدّم.

وفي اللّيلة الّتي كان فيها كامل الشّعب جالسا أمام التّلفاز لمشاهدة فيلم البقرة، تخطّت مجموعة كبيرة من الطلّاب الإسلاميّين الحواجز المشبّكة للسّفارة الأمريكيّة واجتاحوها بمباركة من الخميني.

وفي لمح البصر اعتقلوا السّفير وخمسة وستّين موظّفا كانوا يسكنون في المبنى لأسباب أمنيّة. واقتيد الرّهائن في الحال إلى أماكن سريّة لأنّ النّظام كان يخشى أن تنشر أمريكا قوّة كبيرة لتحريرهم. فحُملوا على سبيل الحيطة في سيّارات جيب إلى قم وأصفهان وسنجان.

أيقظ المساعد آية الله الأراكي في غمرة اللّيل وقال له «يجب أن ترتدي ملابسك حالا، هناك من ينتظرك في الصّالون».

– من هو؟ قال آية الله.

– شابّ صغير، سيبلغك بسرّ حكوميّ.

Twitter: @ketab_n

ارتدى آية الله ملابسه بسرعة، وقد كان الشّابّ ينتظره في الصّالون.

مدّ آية الله يده إليه فقبّلها الرّجل وقال بصوت هامس «أنا طالب في جامعة طهران، أحمل لك رسالة سريّة من آية الله روح الله الخميني».

مدّ آية الله رأسه إلى الأمام وهمس له الطّالب بالسّرّ في أذنه «هناك ثلاث سيّارات أمام الباب وفيها سبعة أمريكيّين معصوبي الأعين».

لبس آية الله عمامته فورا وأمسك بعصاه وقال «هل نذهب؟».

وركب إحدى السيّارات وتوجّهوا نحو الصّحراء.

قام ممثّلو إيران وأمريكا وكذا الوسيط السّويسري بمحادثات عديدة من أجل إطلاق سراح الرّهائن ولكنّ المفاوضات طالت ولم تنجح. وكان الخميني قد وضع على الأمريكيّين شرطين لا تنازل عنهما:

تسليم الشّاه ليخضع لمحاكمة إسلاميّة.

إرجاع مليارات الدّولارات من إيرادات النّفط الإيراني المودعة في البنوك الأمريكيّة إلى إيران.

ولكنّ الأمريكيّين لم يستطيعوا تسليم الشّاه لأنّ آيات الله كانوا سيعدمونه دون أيّة محاكمة. ولا يستطيعون أيضا تحويل مليارات الدّولارات في مدّة قصيرة مثل هذه. فأوقفت المفاوضات ونُسي الأمر.

بعد مائة وسبعين يوما حلّقت ستّ طائرات نقل أمريكيّة فوق سنجان ليلا. لم ير أو يسمع أيّ أحد أيّ شيء. كانت قد غادرت قبل نصف ساعة من فوق حاملة طائرات تابعة للأسطول البحري الأمريكي كانت راسية في الخليج العربي، ودخلت إلى إيران عبر المجال الجوّي العراقي بإذن من صدّام حسين.

وتوجّهت الطّائرات إلى مطار عسكريّ سريّ في الصّحراء.

وكانت الخطّة تقتضي أن يحرّر حرس الشّاه القدامى الرّهائن وينقلوهم على متن طائرات مروحيّة إلى هذا المطار ليغادروا البلاد من هناك. وقد اكتشف الأمريكيّون الأماكن الّتي احتفظ فيها بالرّهان بفضل معلومات قدّمها صديق للخميني كان يتجسّس لحسابهم.

Twitter: @ketab_n

ولكنّ العمليّة فشلت. وقع حادث غامض كان الخميني الوحيد القادر على تفسيره جعل كلّ شيء يسقط في الماء. وعندما تمّ الإعلان في صباح اليوم الموالي عن أنّ العمليّة العسكريّة الأمريكيّة بالغة السريّة قد انتهت بكارثة خطب الخميني قائلا «لقد أوقفهم الله، الله يحمي هذه البلاد»، قال بنبرة هادئة، «لماذا لا يريد الأمريكيّون أن يفهموا ذلك؟ الأمر بسيط للغاية. الله من فعل ذلك».

عندما استعدّت طائرتان أمريكيّتان للنّزول في مطار الصّحراء اصطدمتا بمروحيّة فاشتعلت الطّائرات والمروحيّات والتهبت نار عظيمة وسط الصّحراء ولكنّ أحدا لم يعلم بذلك.

وقد أسفر الحادث عن ثمانية قتلى وخمسة جرحى، وانسحبت بقيّة الطّائرات الأمريكيّة بعد الحادث مباشرة نحو حاملة الطّائرات.

أيقظت الضّجّة الكبيرة راعيا كان يغفو تحت شجرة قرب أحد آبار الماء على تخوم الصّحراء، فوقف وتفرّس في الظّلمة ورأى سحابة سوداء ترتفع في السّماء الصّافية.

فتسلّق شجرة ورأى نارا على مسافة بعيدة وأدرك فورا أنّ أمرا مرعبا يحدث، فركض باتّجاه القرية تاركا قطيعه. وبعد نصف ساعة كان كلّ القرويّين فوق أسطح منازلهم يشاهدون الحريق.

وركض إمام القرية نحو المسجد وفتح الباب وأمسك بالهاتف، الهاتف الوحيد في كلّ القرى، واتّصل بآية الله الأراكي قائلا «أرى لهيبا عاليا في الصّحراء. لم ير شيوخ القرية شيئا كهذا قطّ. من المؤكّد أنّ أمرا ما فظيعاً يحصل». فأرسل آية الله قائد الجيش الإسلامي إلى الصّحراء فورا ليستجلي الأمر. وبعد ثلاثة أرباع الساعة أخذ آية الله هاتفه الأحمر واتّصل مباشرة بمنزل الخميني في طهران وقال «لهيب نار عال في السّماء، يبدو أنّ طائرات عديدة قد تحطّمت. النّار حارقة فلم نستطع الاقتراب منها».

وقبل أن تجمع طهران فريق تفتيش وترسله إلى سنجان كان القرويّون قد توجّهوا على ظهور الحمير نحو مكان الحادثة وحاولوا إنقاذ الجرحى. ولم تكن السّلطات قد عرفت بعد ما حدث حتّى أعلن راديو موسكو الخبر في نشرة الخامسة صباحا «تحطّمت ثلاث طائرات أمريكيّة في صحراء إيران، غير بعيد من سنجان».

كان المؤذّن يستمع إلى هذا البرنامج يوميّا فسمع الخبر ولكنّه لم يدرك مدى أهمّيته.

Twitter: @ketab_n

ولم يذهب إلى أغاجان إلّا في النّشرة الموالية عندما سمع اسم سنجان وصاح «تحطّم الأمريكيّون في الصّحراء».

وافتتحت التّلفزة الوطنيّة نشرتها في السّاعة الثّانية بتقرير مباشر من الصّحراء، وركّزت الكاميرات على الجثث الأمريكيّة. ثمّ ظهر آية الله الأراكي وألقى خطابا حادّا وهو يلوّح بكلاشينكوف: «الإسلام معجزة، بعد ألف وأربعمائة سنة يبقى الإسلام معجزة.

دخلت طائرات أمريكيّة إلى البلاد عبر العراق مطفئة أنوارها وحلّقت في الظّلام. وقد استعملوا أحدث الوسائل الإلكترونيّة ليشوّشوا على راداراتنا. رتّبوا كلّ شيء بدقّة وحسبت حواسيبهم ذات الذّكاء الخارق حسابا لكلّ شيء؛ ولكنّهم نسوا أن يحسبوا حسابا لشيء واحد: القرآن. لسنا بحاجة إلى حواسيب عصريّة جدّا لنحسب هذا النّوع من الحسابات، لسنا بحاجة إلى عيون إلكترونيّة لنرى كلّ شيء. يوجد واحد فقط يحرس بلادنا، واحد فقط يحمينا، واحد يسهر على كلّ شيء ونحن نيام.

إنّه الله.

أمريكا لديها حواسيب إلكترونيّة، ونحن لدينا الله.

أمريكا لديها طائرات استكشاف، ونحن لدينا الله.

يا أمريكا، إذا كنت تريدين معرفة من أسقط طائراتك اقرئي سورة الفيل:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [1]

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ [2]

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ [3]

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ [4]

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ [5] سورة الفيل]».

Twitter: @ketab_n

الحرب

بعد خمسة أشهر، حوالى منتصف النهار حلّقت ثلاث طائرات حربية عراقية فوق طهران. كانت تحلق منخفضة جدا حتى أنك ترى الطيارين. هرب الناس فزعين من الأصوات الّتي تصم الأذان، وخوفا من تلك الآلات خاصّة.

قصفت الطائرات المطار، معلنة الحرب، أي الحرب على إيران.

كان الجيش العراقي قد اجتاح الليلة الماضية الأراضي الإيرانية وسيطر على كل النقاط الإستراتيجية للإقليم الجنوبي الغني بالبترول في خوزستان. وأصبحت أهم مصافي الغاز ومعامل تكرير النفط الآن بين يدي صدام حسين.

ذُعرت الحكومة ورفض الشعب تصديق ذلك؛ ولم يفهم أن الأمر لا يتعلق بخطر عادي، ولكن بإعلان حقيقي للحرب إلا بعد أن شاهد في التلفاز الصور الأولى للمركبات العراقية أمام المعامل الإيرانية لتكرير النّفط.

ألقى الخميني خطابا في التلفاز وطلب من كل من يملك سلاحا أن يتوجه حالا إلى أقرب مسجد إليه. «إنه الجهاد».

جمع هذا النداء في يوم واحد جيشا كبيرا من المؤيدين. ملايين من الرجال شبانا وشيوخا حمّلوا في حافلات وأرسلوا إلى الجبهة، دون أن تكون لهم أية تجربة.

في ذلك الوقت، قامت طائرات استطلاع أمريكية بدوريّات على علوّ مرتفع فوق ساحة الحرب، والتقطت صورا لتحركات الجيش الإسلامي وبعثتها لصدام حسين، وسمحت بهذا للطّائرات العراقية بقصف الجيوش الإيرانية دون توقف.

شجع الخميني الشعب، بعيدا عن الإحساس بالهزيمة، قائلا «وحده الموت يستطيع أن يحمينا. إنّ أمريكا تراقب كل شيء من أعالي السماء. ولم يبق لنا سوى شيء واحد لنفعله: أن ننشئ جسرا من الجثث أوّلا لنكون بعد ذلك قادرين على مواجهة العراق».

Twitter: @ketab_n

ولبس جيش من المجاهدين أكفانا وأخذوا أسلحتهم وخرجوا لفتح طريق يؤدي إلى الجيش العراقي. وأخيرا التحم الجيش الإيراني بالجيش العراقي وأشعلوا حربا دامت ثمانية أعوام وأبادت ملايين الجنود من الجانبين.

خشي آيات الله أن يستغلّ المعارضون الحرب لقلب النظام. وارتاب الخميني من تحركات اليساريين الذين يعتبرهم أعداء الله والقرآن. وانتظر بفارغ الصبر الفرصة المناسبة ليمحقهم نهائيا. وحاولت المعارضة اليسارية من جهتها سرا أن تضعف المميّزات الدّينيّة لدولة آيات الله الإسلامية، وأن تزيحهم، بما أتيح لها من إمكانيات.

لحماية مؤخرة الجيشِ قرر النظام سحق كل الحركات اليساريّة دون تأخير. وأعلم الخميني جلجل قائلا «أبِدْهُم نهائيا بلا رحمة، أقصِهم، اسحق كل الذين يعادون الإسلام».

وحاول رؤساء الحزب الشيوعي القديم المسمى طوده، وقد كانوا يدعمون الخميني دون تحفظ أن يوقفوا كلّ تحرّكاتهم في الحين.

ولكن النظام لم يكن يضع يده على رؤساء الجماعات السريّة. فقد كانوا ردكاليين ويتفاوضون سرا حول إمكانية حمل السلاح ضد النظام. ووقع حزب طوده، ولم يكن يريد الحرب ضد الخميني، في الفخ.

بعد ثلاثة أشهر عرضت التلفزة الإسلامية القائد العجوز لذلك الحزب بهدف بث الرعب بين الشعب. كان منكسرا، ضعيف البنية، رمادي البشرة، وغير حليق. من البيّن أنّهم قد أخذوه مباشرة من غرفة التعذيب ووضعوه أمام الكاميرات. وتوسّل إليهم أن يتركوه بسلام.

لقد كان مشهدا مرعبا؛ تسجيلا تلفزيا غاية في الإتقان من أجل ترهيب السكان. وحقّق البثّ هدفه إذ هرب بقيّة أعضاء الحزب في تلك الليلة ذاتها.

وتلقّى آية الله الأراكي في سنجان أمرا بإخلاء القرية الحمراء حالا.

عاشت القرية في ذلك العهد أفضل سنواتها، وأصبحت منطقة مستقلة تدير شؤونها وفق قوانينها الخاصة؛ قرية طوباوية خلق فيها الشباب دولة شيوعية مثالية. وكان حصاد القرية يُجمع ويقسم بعدالة بين كل القرويين. وفي المساء، يتجمع الناس في ساحة القرية ويتناوبون على قراءة قصائد الشّاعر الروسي مايكوفسكي.

Twitter: @ketab_n

في الليلة التي وقع فيها هجوم السلطات، كانوا كلّهم متجمّعين بالسّاحة يشاهدون فلما روسيا. وفجأة، صرخ أحدهم: «العربات، إنهم قادمون. حاصروا كل شيء ! »

ولكنّ ذلك كان متأخّرا. وأُفرغت القرية في لمح البصر. هرب بعض النّاس إلى الجبال، ودخل بعضهم الآخر إلى منازلهم وأغلقوا الأبواب بالمفاتيح. أمّا من كان قد خبّأ بندقيّة منهم فقد حمل سلاحه وصعد إلى السّطح.

حامت مروحية فوق القرية فأطلقت عيارات نارية من الأسطح تجاهها، فتراجعت مغيّرة اتّجاهها فجأة.

دخلت العربات العسكريّة إلى القرية وخرج مئات الإسلاميين المسلّحين واتخذوا مواقعهم في الظلمة. وكانت مروحيّتان تحلّقان فوق المنازل بين حين وآخر وتضيئان الأسطح بشدة. وتطلقان النّار على كلّ شيء يتحرّك تحت الضّوء. لم يكن أحد يترقب هجمة عنيفة بهذا الشّكل. راقب الإسلاميون المسلّحون أطراف القرية ورموا كل من حاول الهرب.

وانبعثت طلقات جنونية من بعض الأسطح، وعلى كلّ طلقة ردّ الجنود بقنبلة يدويّة فجّرت السّطح. ولم تعد المقاومة مجدية ففتحت المنازل أبوابها واحدا تلو الآخر وخرج القرويّون رافعين أيديهم.

ولاحقت سيّارات الجيب كل الذين هربوا إلى الجبال وأطلقت عليهم النّار عندما رفضوا الاستسلام. وحُمل كل الذين أوقفوا في اللّيلة نفسها إلى السّجن، وكان من بينهم جواد ابن أغاجان.

وذهب جلجل، حاكم الله المخيف، إلى سنجان في مروحية ليقاضي المتهمين.

كان يزرع الموت والفساد حيثما حلّ. فكان تسعة شبان من القرية الحمراء قد أعدموا ولمّا تُشرق الشمس بعد، ولا يزال سكان سنجان نائمين.

اهتزّت القرية. وجرى الآباء الذين أوقف أبناؤهم أو بناتهم نحو السّجن، للتأكد من قائمة المعدومين.

أُرجعتَ الجثث إلى ذويها ولكن المشرّع أعلن أنها جثث نجسة، والجثث النّجسة لا يحق أن تدفن مع الجثث العاديّة. فأخذ الآباء أمواتهم بالشّاحنات إلى الجبال ليكرموهم بالدّفن.

Twitter: @ketab_n

لم يكن أغاجان يعرف أن جواد كان قد أوقف أيضا. كان يظنّه في طهران. ولم تخامره فكرة أن يكون ابنه أحد الشبان الصّغار الذين أعدموا. وهو يعرف أحد هؤلاء الشّبّان الذين لاقوا ذلك المصير، لقد كان ابن الممرّض المقابل دكّانه للمسجد. وكان أغاجان عندهم يرتل القرآن عندما رنّ جرس الهاتف. رفع السّمّاعة فخاطبه شخص ما دون أن يعرّف بنفسه قائلا «لن أطيل عليك، أنا صديق جواد. لقد أوقف في القرية الحمراء. وهناك احتمال كبير أن يكون قد أعدم. إذا كنت تريد أن تفعل شيئا ما لأجله، عليك أن تفعله حالاً. إذا كان من حاكمه هو حاكم الله فإن الوقت قد تأخر». ثم علّق.

ارتعشت يد أغاجان عندما وضع السّمّاعة. وتقاطعت في ذهنه ملايين الأفكار. أراد أن ينادي فجري سادات لكنّه أصبح غير قادر. لقد أوقف ابنه، لماذا لم يبلّغوه؟ وأين كان الرّجل الّذي أبلغه؟ من هو؟

لقد ذهب جواد إلى طهران على حد علمه فماذا كان يفعل في القرية الحمراء؟ وماذا يمكنه أن يفعل من أجله؟

إنّه لا يعرف كيف يتصرّف. تناول الهاتف عدّة مرّات ليكلّم أحدا، لكنه كان يضعه في كل مرّة.

ارتدى معطفه، ووضع قبّعته وخرج. ولمّا يتجاوز الباب بعد حتّى رنّ الهاتف من جديد: «عفوا، قال الصّوت نفسه، إنّه لا يزال حتّى الآن في سجن المدينة. وسيعود القاضي بعد بضعة أيّام ليحكم على آخر الموقوفين. يجب أن تتصّرف بسرعة.

لكنّ ماذا كان يفعل في تلك القرية؟ ومن أنت؟

– كنّا مع بعضنا في القرية، استطعت أنا أن أهرب وقتها. لكنّه أوقف. يجب عليك أن تسرع بفعل شيء لأجله. آسف، لا أستطيع أن أتكلّم أكثر، يجب أن أقطع المكالمة» قال الرجل.

اندفع أغاجان نحو الباب، لكنّه تراجع على قدميه ونادى «فجري سادات».

ولكنّها لم تجبه.

فجري سادات، صاح بصوت أعلى.

وأدركت فجري من نبرته أنّ شيئا خطيرا قد حدث، فنزلت إلى الطّابق السّفلي.

Twitter: @ketab_n

« كوني قويّة» قال أغاجان. «لقد أوقف جواد».

كاد أن يُغمى على فجري. واستطاعت أن تنطق بعسر «ماذا؟ أوقف؟ لماذا؟».

– أحد أصدقائه كلّمني بالهاتف، وقال أنّه قد أوقف في القرية الحمراء.

– ماذا يفعل في القرية الحمراء؟

– لا أدري.

– ربّما يكون قد ذهب مع شهبل. أين هو شهبل؟

– لا أدرى أين هو إطلاقا. يجب أن نفعل شيئا. قبل أن يفوت الأوان، قال وهو يهمّ بالخروج. لكنّني لا أدري ما هو، لا أدري إلى أين أذهب؟

– اذهب إلى المسجد ! قالت فجري سادات وهي شاحبة كالموت، كلّم آية الله.

أراد أغاجان أن يقول شيئا، لكنّه امتنع، واتّجه إلى المسجد. لم تطأه قدماه منذ أن أخذه الإسلاميّون منه، ولو للصّلاة. دخل ولكن آية الله لم يكن موجودا. «أين آية الله؟» قال للحارس الجديد:

– لقد غيّر مواعيده سيتغيّب لبعض الوقت، لم يرغب في أن يتمّ إزعاجه في قضايا الإعدامات.

– أين يمكنني أن أجده؟

– لا أدري، لا أحد يستطيع أن يعرف، إنّه يعيش في أماكن مختلفة.

ذهب أغاجان إلى الدّكان المقابل للمسجد.

– هل يمكنني مساعدتك في شيء، أغاجان؟

– هل تعرف أين يقيم آية الله؟ أحتاج إلى أن أكلّمه، إنّه أمر مستعجل!.

عرف صاحب الدّكان أهميّة سؤاله فصاح :«لا إله إلا الله. لا يحقّ لي إخبارك. ولكن اذهب وانظر في المنزل الكبير حيث يسكن رئيس الاستخبارات السريّة».

ركب أغاجان سيّارة تاكسي وتوجّه إلى ذلك المنزل.

كان رجلا أمن مسلحين يحرسان الباب. توجّه إليهما، لكنّهما صاحا به أن لا يتقدّم أكثر. عليه أن يعرّف بنفسه عن طريق سمّاعة الباب.

Twitter: @ketab_n

ضغط على الزّر. وانتظر الإجابة

« ماذا هناك؟ قال أحدهم بصوت حاد:

- أريد أن أتحدّث إلى آية الله.

- اكتب بوضوح ما تريد أن تقول له على ورق وضعه في صندوق الرّسائل الموجود على العمود الأيمن لسمّاعة الباب.

- أريد أن أكلّمه شخصيّا.

- يريد الجميع أن يكلّموه شخصيّا، لكن هذا مستحيل.

- لكن الأمر ضروري. أنا أغاجان الحافظ السّابق لمفتاح مسجد الجمعة، إذا أبلغته سيقابلني بالتّأكيد.

- ليس مهمّا من تكون. فآية الله ليس لديه وقت، زد على ذلك فهو ليس هنا ولا أعرف هل سيعود اليوم.

(بقي أغاجان مذهولا أمام الباب)

- لا تبق هنا، ارحل»! .

رجع إلى المدينة مترجلا. إنّها المرّة الأولى في حياته التي لا يدري فيها ماذا يفعل.

فرملت سيّارة بقربه، وأنزل السّائق زجاج النافذة وصاح «فيم تفكّر؟ أتريد أن تنتحر؟».

- سامحني، قال أغاجان، إنّه خطئي.

عرفه السّائق ورأى نظرته المنهكة.

- «إلى أين أنت ذاهب ! ربما أستطيع أن أوصلك».

- أنا؟ ذاهب إلى السّجن، إذا كان هذا لا يقلقك.

- أيّ السّجنين؟ القديم أم الجديد؟ .

- لا أعرف، إنّه السّجن الذي أعدم فيه الشّباب.

- حسنا إذا، إنّه السّجن القديم. اركب !.

Twitter: @ketab_n

أُحيط السّجن القديم الموجود خارج المدينة بأسوار عالية جدّا. وتوقّفت السّيارة بالسّاحة، أمام السّجن، فنزل أغاجان. كان الباب الحديديّ مفتوحا. وكان ثلاثة حرّاس يقومون بالمراقبة من الأسوار. وما عدا ذلك، لا يوجد أثر لأيّ كائن حي.

لم يحلّ الليل بعد. لكن الأضواء الكاشفة أشعلت آليّا.

«لا يوجد أحد هنا»، صاح السّائق، إذا أردت أستطيع أن أوصلك إلى منزلك». لكن أغاجان لم يسمعه، اتّجه إلى الباب يبحث عن جرس، لكنّه لم يجد، فضرب بقبضته على الباب الحديديّ. لكنّ أحدا لم يجيب.

« هل من أحد هنا؟، نادى بصوت مرتفع

- سأوصلك إلى منزلك إذا أردت، أعاد السائق قوله.

- يا سادة، قال أغاجان وهو يتوجّه إلى الحراس المتمركزين على الأسوار، ولكنّهم تظاهروا بأنّهم لا يسمعونه.

خرج السّائق من سيّارته، وتوجّه نحوه، أخذه من يده وقال :«من المستحسن أن تعود إلى منزلك وأن ترجع غدا».

ساعده على ركوب السّيارة، واتّجه نحو المدينة وأنزله أمام المسجد. لما وصل إلى الدّار، تذكّر بغتة شيئا ما فنادى بنبرة ملحّة « فجري! ضعي تشادورك

- لماذا؟

-سنذهب إلى العمّ رمضان !»

لقد مضى وقت طويل لم يريا فيه العم رمضان، ولا يعرفان ماذا يفعل الآن بالضّبط. يعرفان فقط بأنّه قد وضع حماره تحت تصرف آية الله وأنّه يرتدي بدلة عسكريّة. رنّ أغاجان على جرس الباب. لكن لا يوجد ضوء بالمنزل. ضغط على الجرس مرّة ثانية. فسمع وقع خطوات داخل الممرّ، فتح الباب فتراءى العمّ رمضان بالمدخل. كانت له لحية طويلة ويحمل مسدّسا. وقد بدا أسنّ في العتمة. لم يكن ينتظر أن يرى أغاجان وفجري سادات.

«هل نستطيع الدّخول؟» قالت فجري سادات.

«تفضّلا» قال العمّ رمضان.

Twitter: @ketab_n

كانت هناك صورة كبيرة للخميني مثبتة بالحائط، وقد عُلّقت صور آيات الله الآخرين في كلّ مكان.

قال أغاجان «نحن نحتاج إلى مساعدتك يا عم رمضان. لقد أوقف جواد. أتستطيع فعل شيء من أجلنا؟».

نظر إليهم العمّ رمضان باندهاش. لقد كان خادمهم دائما، وقد أحسنا إليه كثيرا. والآن يقفان أمامه منكسرين ويطلبان مساعدته.

« ماذا يمكنني أن أفعل من أجلكم؟ لا أدري إن كنت أستطيع أن أفعل شيئا ذا قيمة.

- أريد أن أتحدّث مع آية الله، أيمكنك أن تنسّق لي ذلك؟ يجب أن يحدث ذلك الآن، فورا. وإلّا فإنّي أخشى أن يكون الوقت متأخّرا.

- الآن؟ إنّه مستحيل. لا أدري، أريد أن أقول، انتظرا، اجلسي يا فجري سادات، هل ترغبين بكأس من الشّاي؟»، قال وهو يتّجه إلى الهاتف الذي تمّ تزويده به مؤخّرا.

اتّصل بشخص ما وقال: «أريد الحصول على موعد مع آية الله ، أتستطيع أن تدبّر الأمر لي؟ ليس من أجلي ، إنّه من أجل شخص أعرفه... نعم، أعرفه جيّدا منذ زمن طويل. الأمر هام... هذه الليلة إذا كان ممكنا... أفهم. وغدا...؟ حسنا، بالمسجد، بعد الخطبة؟ لا، من المستحسن أن يكون قبل ذلك».

وفاضت عينا أغاجان بالدموع.

في يوم الجمعة اتجه جمع غفير من النّاس إلى المسجد. وانتظر أغاجان آية الله أمام الباب، ولكنّه كان قد تأخّر.

ففي اللّحظة التي تأهّب فيها للذّهاب إلى المسجد رنّ جرس هاتفه الأحمر:

«هاجم العراق الأسبوع الماضي جيشنا بأسلحة كيماوية وسقط آلاف القتلى، بعض المئات منهم من سنجان والقرى المجاورة. وكان مخاطبه منسّق صلوات الجمعة. سنسلم إليكم الجثث غدا».

توقفت سيارة آية الله المرسيدس بنز السوداء أمام المسجد. فخرج بعض الحرّاس. وتأهّب أغاجان للذّهاب نحوه لكن أحد الحرّاس منعه. « لديّ موعد مع آية الله» ، قال أغاجان.

Twitter: @ketab_n

ابتعد ، قال الحارس.

ألقى آية الله نظرة على أغاجان، لكنه لم يعرفه، فهو لم يره أبدا. نزع أغاجان قبّعته وحنا رأسه. ولكنّ آية الله تجاوزه.

«عندي موعد معكم» قال أغاجان.

توقف آية الله ، التفت ثم أكمل طريقه. فجرى أغاجان خلفه.

«أنا الحافظ القديم لمفتاح المسجد !» صاح بينما أمسكه أحد الحرّاس.

أشار عليه آية الله بتركه.

عجل أغاجان للّحاق به. فمدّ الأراكي يده وهو يتابع طريقه نحو المسجد. فتناول أغاجان يد آية الله وقبّلها أمام باب قاعة الصّلاة.

كان المصلّون ينتظرون آية الله داخل المسجد واستقبلوه بالشّعارات، ورأى جميعهم أغاجان وهو يقبّل يده وقد توقف يستمع إليه. ورأى جميعهم أغاجان وهو مازال يتكلّم حتّى عندما انطلق آية الله ماشيا، وكان حانقا، وأمسك بطرف ملابس آية الله فأبعده الحرّاس بعنف.

وتوجه آية الله الأراكي إلى المنبر وتوقّف عند المرقاة الأولى. ناوله أحد الحرّاس بندقية أمسكها في يده في إشارة إلى أنّ البلاد في حرب.

«اللّقيط صدام قد قصف جوهرتنا بأصفهان ! صدّام أقلّ من لا شيء. إنّه لقيط مطيع لأمريكا. إنّ أمريكا تنتقم لنفسها منّا. تستخدم أمريكا صدّام كآلة. ليس صدّام من يقصف مساجدنا بل هي أمريكا.

أمريكا ! اقصفينا ! نحن لا نخافك.

أمريكا، دمّري كل مساجدنا التّاريخيّة المقدّسة فنحن لا نخشاك.

صدّام خادم!

إنّه يخشانا، يخاف من جيوشنا ، يخاف من أبنائكم.

يا مؤمني سنجان ! تأهّبوا. فلديّ أنباء مؤلمة. لقد هاجم صدام أبناءنا بأسلحة كيماوية.

Twitter: @ketab_n

تأهّبي أيّتها الأم

تأهّب أيّها الأب

علينا أن ندفن أبناءنا بعد قليل. لقد وصل أبناؤنا إلى الجنّة واستقبلتهم الملائكة.

-الله اكبر ! الله اكبر ! صاح الجمع.

-الله أكبر، والنّصر لنا، ولن نتوقف عند بغداد، سنضرب أمريكا وإسرائيل. سنحرر الحرم الشريف.

- الله اكبر ! الله اكبر ! صاح الجمع.

- سنعيش أوقاتا عصيبة، وأولادكم يكتبون الآن صفحة مجيدة في تاريخنا. أهنّئكم على استشهاد أولادكم !

لكن احذري أيّتها الأم، واحترس أيّها الأب. فنحن نحارب على جبهتين. هناك، يقاوم أبناؤنا صدّام. وهنا نقاوم نحن الشيوعيين، وهم أعداء انتشارهم محدود ولكنّهم خطرون جدّا لأنّهم يعيشون بيننا. سنمحقهم أيضا !».

وجّه بندقيّته نحو أغاجان وصاح «لا رحمة! عقوبة قاسية !

- الله اكبر !»

كان أغاجان جاثما وأحس وكأنّ ثقل المسجد على كتفيه. وتمتم وهو منحي الظّهر:

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [5]

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [6]

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ [7] [سورة الفاتحة]

وعندما رجع أغاجان إلى الدّار حكى لفجري سادات كيف عامله آية الله، فتدثّرت بتشادورها مباشرة.

«إلى أين أنت ذاهبة؟

- سأذهب لأرى زينات. يجب أن تساعدنا !

Twitter: @ketab_n

- لن تساعدك. هي لم تفعل شيئا من أجل أحمد ولن تفعل شيئا لجواد. انقلب العالم رأسا على عقب. لقد أعلن الخميني الجهاد وأجبر الجميع على فضح المعارضين. ستشي الأمهات بأولادهن.

- جواد لم يفعل شيئا.

- لا تكوني ساذجة يا فجري. هذا ما تقوله كل الأمهات. لم يعد يسكن الدّار منذ فترة طويلة. نحن لا نعرف ماذا كان يفعل ولا ما الذي ذهب يبحث عنه في تلك القرية.

- ومع ذلك سأذهب إلى زينات.

- لقد تبرّأت زينات من أحمد في المسجد. فإذا كانت تتكلم بهذه الطريقة عن ابنها فكيف تريدين منها أن تساعد ابنك؟

- لا نستطيع فعل شيء آخر. يجب أن أذهب. وأنت أيضا. سنذهب معا».

مازالت زينات تعمل بالسجن ، في جناح النساء حيث تقوم بالضّغط على السّجينات فيخضعن لإرادتها ويصرن مستعدّات للصّلاة سبع مرّات في اليوم. ويشين، بلا خجل، بكل صديقاتهنّ، واحدة تلو الأخرى.

ذات ليلة عندما رجعت زينات إلى الدّار بغتة لتأخذ آخر ممتلكاتها سمعت صوت أغاجان في الظلمة « زينات لماذا تفعلين كل هذا سرّا؟ لماذا لا تريدين رؤيتنا؟ لماذا لا تلقين علينا حتّى مجرّد التحيّة؟.»

لم تردّ زينات وأكملت طريقها نحو الباب. لكن أغاجان أمسك بها. «لا تستطيعين الهرب هكذا، عليك أن تجيبيني. يقول الناس عنك كثيرا من السّوء في غيابك. يقولون إنّك قد صرت جلادة، هل هذا صحيح؟ (قاطعته زينات).

- ليقل الناس ما يريدون قوله. أنا أقوم بواجبي، أفعل ما يأمرني به الله!

- عن أيّ إله تتحدثين؟ لماذا لا أعرف أنا هذا الإله؟

- لقد تغيّرت الأزمان». قالت زينات ذلك وفتحت الباب وخرجت.

كانت زينات تشعر بالرّضا؛ رضا لم تكن قد شعرت به من قبل. وأحسّت بالبرود تجاه ما يقوله النّاس عنها: فهي لم تفعل شيئا سيّئا. عندما أوقف أحمد، حصلت على موعد مع

Twitter: @ketab_n

جلجل في قم سرّا. وقد كان لقاء هامّا؛ ومثّل منعرجا في حياتها. لقد تساءلت عمّا إذا كانت على الهدى، فمحا جلجل كل شكوكها. قال لها:

«لقد حدثت ثورة عظيمة، واجتثّ الإسلام أخيرا جذور ملكية قديمة تعود إلى ألفين وخمسمائة عام. ونحن الآن بصدد تأسيس أول جمهورية شيعيّة. سيعاقبنا الله بلا رحمة إذا ما نحن أضعنا هذه الفرصة الفريدة. لله وجهان؛ واحد رحيم والآخر رهيب. ونحن الآن في فترة الوجه الرّهيب. وليس هنالك من وسيلة أخرى لحماية الإسلام. لقد صعّب أعداؤنا المهمّة. يجب أن نأخذ الإسلام ونترك كلّ شيء: ابنا كان أو أبا أو أمّا؛ ليس ذلك مهمّا. فالله سيكافئك في الجنّة».

استقرت جمعيّة الأخوات للدفاع عن الأخلاق، وهي جمعيّة تُشرف عليها زينات، بمقرّ بلديّة النّظام السّابق. وعندما وصل أغاجان وفجري إلى مقر الجمعية، كان جمع من الآباء الذين أوقفت بناتهم، ينتظرون بالسّاحة. عقدت فجري سادات تشادورها حول وجهها وصعدت السّلم. فأوقفتها امرأتان حجاباهما أسودان.

- ماذا تريدين ؟ قالت إحداهما.

- أريد التحدث إلى زينات خانم

- الأخت ، الأخت زينات ! صحّحت المرأة.

- أرجوك سامحيني، ردت فجري سادات ، قصدت الأخت زينات طبعا !

- الأخت زينات لا وقت لديها، هي لا تستطيع أن تقابل أحدا.

- إنّها مسالة عائلية. عليّ أن أكلّمها.

- لا وقت لديها، عائلة أو غير عائلة، لن يغيّر هذا شيئا.

- أنا سلفتها، وذلك الرّجل أغاجان، هو سلفها. عليّ أن أكلّمها الآن. إذا أعلمتها بأنّنا هنا فستستقبلنا بلا شكّ.

- سأرى ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك. ارجعي هناك وانتظري.

- حسنا ، قالت فجري.

وكانت زينات قد رأت أغاجان وفجري سادات ضمن بقية النّاس عبر فتحة في

Twitter: @ketab_n

السّتارة، وكانت على علم بتوقيف جواد ولكنّها كانت تعلم أن لا قدرة لها على فعل شيء.

كان جلجل يهاتفها من وقت لآخر، ولكنّها لا تستطيع أن تهاتفه هي شخصيًا. لم تكن تعرف ما هي وظيفته بالضّبط، ومن المؤكّد أنّها لم تكن تعرف أنّه حاكم الله المخيف.

هل ستساعد جواد إذا كان حقا في خطر؟ ارتعشت لعجزها؛ كلّا، إنها لا تستطيع أن تساعده، لا قدرة لها على إيقاف مثل هذه الأشياء، تستطيع تنفيذ الأوامر فقط. لقد شرح لها الخميني ذلك جيّدا في خطابه الّذي خصّصه للأخوات: «الإسلام الآن على عواتقكنّ، ضحّين بأولادكنّ إذا لزم الأمر!».

نظرت زينات مرة أخرى إلى الأسفل. وقالت للحارسة «لا أريد أن أراهما. قولي لهما بأنّني لست هنا». نزلت الحارسة وقالت لفجري سادات «الأخت زينات ليست هنا، لقد خرجت». نظرت فجري سادات حولها بحزن. وفجأة وقع نظرها على المرأة الواقفة وراء السّتار. فتعرّفت على زينات، وسقط السّتار « إنّها هناك، قالت فجري، إنّني أراها وراء السّتار».

- قلت إنها ليست هنا، ابتعدي». قالت الحارسة بصوت قاطع.

وجذب أغاجان فجري من يدها وقال

«تعالي، سنغادر»!

- لا، لن أغادر. سأبقى. يجب أن أتحدّث إلى زينات.

«اخرجا من هنا وإلاّ سأستدعي الإخوان» قالت الحارسة.

جاء ملتح مسلّح ودفع فجري سادات نحو الباب بواسطة بندقيته: ارحلي! اذهبي، هيا أسرعي!

زينـــــات! صاحت فجري بكل قوّتها.

دفعها الملتحي ببندقيّته جانبا فتعثّرت فجري وارتطمت على الباب بشدّة، انزلق تشادورها من على رأسها. أمسك أغاجان الرّجل من رقبته ودفعه إلى الحائط، فطلبت الحارسة النّجدة. ارتمى رجلان مسلّحان على أغاجان، فتحت زينات النافذة وصاحت « لا تضربوه! أتركوه! دعوه يرحل!».

Twitter: @ketab_n

التقط أغاجان تشادور فجري ولفّه على رأسها وكتفيها وقال: «لنعد!».

وصل جلجل إلى سنجان بعد الظّهر. في الوقت الذي كان سقط فيه كثير من الجنود المنتمين إلى هذه المدينة في جبهة القتال، كانت الفرصة مناسبة له ليحاكم معارضي النّظام.

استلم الموقوفين في الإسطبل القديم للسجن، ومازالت تنبعث منه رائحة روث الخيل. وعُلّقت نعال خيول وسروج وسيور جلديّة على الحيطان. وكان جلجل يختار دائما أكثر أمكنة المدينة ظلمة. أدخل ثلاثة شبّان إلى الإسطبل ونطق جلجل بحكمه عليهم في أقل من ربع ساعة؛ حكم على أحدهم بالإعدام وحكم على الثّاني بعشر سنوات سجنا وعلى الثّالث باثنتي عشرة سنة.

ثم جاء دور فتاة شابة.

- ما اسمك؟

- مهبول.

- تمّ إيقافك عندما كنت تحاولين الهرب، لماذا تهربين؟

- هربت خوفا من الإيقاف.

- ماذا فعلت لتكوني خائفة جدّا؟

- لم أفعل شيئا.

- وُجدت مناشير بحقيبتك.

- ليس صحيحا لم يكن يوجد شيء بحقيبتي.

- أُوقفت بالقرية الحمراء، هل أنت من سكّانها؟

- لا.

- ماذا كنت تفعلين هناك إذا؟

- ذهبت لأرى صديقاتي.

- ما هي أسماؤهن؟

Twitter: @ketab_n

- لا أستطيع إخبارك.

- لا تريدين إخباري؟ حسنا. هل أنت نادمة على ما فعلته؟

- لم ارتكب جرما، لم أفعل شيئا حتّى أندم عليه.

- إذا وقّعت هنا وأبديت أسفك، سأخفف عقابك.

- بما أنني لم أرتكب جرما، لماذا عليّ أن أوقّع؟

«ست سنوات! التالي» صاح جلجل.

اقتاد الحرّاس الفتاة الشابة وأدخل رجل مسلّح جواد.

- ما اسمك؟ قال جلجل دون أن ينظر إليه

- جواد

- اسم والدك؟

- أغاجان !

رفع جلجل رأسه فجأة وكأن زنبورا قد وخزه في رقبته، ونظر إلى جواد من وراء نظّارته السوداء.

أنار ضوء قويّ عيني المتّهم بطريقة لا تسمح له برؤية القاضي. سقط قلم جلجل، فانحنى ليلتقطه وخلال ثانية، رأى جواد جزءا من وجه جلجل.

وأحسّ وكأنّه يعرف ذلك الوجه.

تصفّح جلجل أوراقه، وبدا واضحا أنه كان يريد كسب الوقت ثمّ صاح « كأس ماء».

دخل الحارسان وأمسكا بجواد من يديه لأخذه خارجا. ظنّنا أنّ القاضي قد ناداهما لإخراج المتهم.

« اتركاه. إلي بكأس من الماء ! صاح جلجل.»

لقد رأيته في مكان ما ، قال جواد. وصوته ليس غريبا عني.

وضع أحد الحراس كأس الماء أمام جلجل وتراجع.

Twitter: @ketab_n

تناول جلجل جرعة من الماء وقال: «ملفك مُثقل جدّا. أنت عضو نشط في حزب شيوعي. أنت الرّأس المدبّر في الخفاء. أوقفت ومعك مسدس في جيبك، وقد أطلقت منه ثلاث طلقات. وشوهدت وأنت تطلق النار على مروحية. أنت تستحقّ عقوبة الإعدام على هذه الجرائم. هل لديك شيء ما لتقوله؟

– هذه ليست سوى أكاذيب، ثم إنّني لم أتعرّف إلى هيئة هذه المحكمة. ما تفعلونه غير عادل! لي الحق في أن يكون لي محام ! يحقّ لي الدفاع عن نفسي.

– أصمت واستمع، أجاب جلجل بعنف. لقد أمضيت الكثير من الوقت في دراسة ملفك مقارنة بملفات الآخرين. وهو جملة من الجرائم الخطرة.

– ليس صحيحا. هذه المعلومات خاطئة. وأنا واثق من أنّي لم أطلق النار على المروحيّة.

– لا وقت لديّ للنقاش معك. أنصحك بأن تنصت إليّ جيّدا. هل فهمت؟ أنا أعرف والدك، وأريد أن أساعدك إن أنت رغبت في ذلك».

إنّه جلجل، لقد عرفه جواد بوضوح. جلجل هو حاكم الله !

ملأته الفكرة بالذعر ، جفّ حلقه وأخذت يداه ترتعشان. وفهم جلجل بأنّه قد عرفه.

«اسمعني جيّدا، أيّها الشّاب. غدا سيجلبون من الجبهة أكثر من ثلاثمائة جثة وهم جميعا شبان في مثل عمرك. كانوا يقاومون العدو هناك وأنت تطلق النّار على مروحية. ليس مهما من تكون بالنسبة إليّ، فحتّى إذا كنت شقيقي فسأحكم عليك بالإعدام. ولكنّني سأقوم باستثناء لأنّني أعرف والدك. سألقي عليك ثلاثة أسئلة. فكّر جيّدا قبل أن تجيب. إذا كنت ذكيّا، ستعطيني الإجابة الصحيحة. واعْلمْ جيّدا بأنّي لم أعط هذه الفرصة لأيّ شخص ولن أعطيها أبدا».

أولا: هل أنت شيوعي أم إنّك تؤمن بالإسلام؟

كان جواد واعيا بصرامة حديث جلجل. كان يغلي من الغضب

« لن أجيب على هذا السؤال. القاضي ليس لديه الحق في طرح مثل هذا السؤال. ثمّ إنّنا لسنا في محكمة بل في إسطبل».

« فكّر جيّدا فيما تقوله»، قال جلجل، وقد شعر بخيبة أمل واضحة.

Twitter: @ketab_n

ثانيا: هل أنت مستعدّ للصّلاة سبع مرّات في اليوم مع بقيّة المساجين إذا ما خفّضت عقوبتك؟

- الصّلاة أمر شخصيّ. سوف لن أجيب على هذا السّؤال أبدا، قال جواد.

- ثالثا :هل توافق على التوقيع على هذه الوثيقة وقد كُتب فيها أنّك نادم؟

- لماذا عليّ أن أوقع على أنني نادم في حين أنني لم ارتكب جرما؟ لا، لن أوقع أبدا.

تردد جلجل، كان يريد أن يجنب جواد الأمر لو بذل الشاب مجهودا على الأقلّ.

« سأعطيك فرصة أخرى وأنصحك بأن تنتهزها» قال جلجل.

أخرج مصحفا صغيرا من جيبه الدّاخلي ومدّه إلى جواد وقال: «إذا أقسمت على القرآن بأنّه لم يكن لديك مسدّس في جيبك وبأنّك لم تطلق النّار، سأخفّف عقوبتك ! لكن إذا لم تفعل سأضعك مقابل الحائط ! ».

- لقد أعدمت مئات من الأبرياء. وهذه جريمة ! جريمة ضد القرآن. لن أقسم أبدا. وسوف لن أفعل لأنّك تعرف والدي تحديدا. أنا خجل مما فعلتموه. ونحن نعرف ضعف شخصيّتكم. تريد أن تمنحني معروفا ولكنّني لن أقبله. أنتم تحسّون بأنّكم أذنبتم في حقّ عائلتي لكنّني خجل منكم. لا، لن يخفّف عنّي العقوبة جلاّد هجر زوجته وابنه المعاق؛ جلاّد يسيء معاملة زوجته ويعذّبها أيضا. لن أنحني أبدا أمام شخص أعدم مائة كردي في يوم واحد. لن يتشرّف بي أبي إذا فعلت ذلك. أعد مصحفك إلى جيبك، أنا لا أحتاجه.

- إلى الموت ! زمجر جلجل.

دخل الحرّاس كالإعصار وأخذوا جوادا إلى المكان الّذي يُعدم فيه المساجين.

عصّب أحد الحرّاس عينيه ووضعه مقابل الحائط. لقد ظنّ جواد أنّ جلجل لن يقتله، وأنّه يريد أن يخيفه فيعبّرَ عن ندمه.

تركه الحرّاس في مكانه برهة وهو معصّب العينين. فاقتنع جواد بأنّه كان يريد إرعابه أكثر. فهو لم يحمل مسدّسا قطعا ولم يطلق قطّ النّار على المروحية. ولا سبب لوضعه مقابل الحائط. سمع وقع خطوات فخمن أنه جلجل، وأنّه آت ليتحدث معه مرة أخرى. كان متأكدا بأنه سيأتي إليه ، وأنه لن يعدمه بسبب أغاجان.

Twitter: @ketab_n

لكن جلجل لم يذهب نحوه. انتظر جواد أن يسمعه يقول: « حسنا، يكفي هذا، أنزعوا عنه العصابة، خذوه إلى السّجن.»

«استعداد» صاح جلجل.

وضع الحارسان ركبتيهما على الأرض ووجّها بندقيّتيهما نحو جواد.

ثبت جواد ليبرهن لجلجل أنّه ليس خائفا. إنّه يعرف أنّ جلجل لن يذهب أبعد من ذلك.

«نار !» صاح جلجل.

لم يحسّ جواد بشيء في جسمه بادئ الأمر.

كان لديه متّسع من الوقت ليقول «أرأيت؟ إنّه يريد أن يجعلك تخاف.»

ترنّح جواد. وسقط. وضع رأسه على الأرض وأغمض عينيه.

Twitter: @ketab_n

الجبال

ذهب أغاجان ليُحضر جثة ابنه: كانت في شاحنة صغيرة، أمام الباب.

وقفت فجري سادات عند النافذة ونظرت إلى المؤذّن في الأسفل وهو يخطو الخطوة المائة بعصبيّة. كانت واقفة وراء الزجاج، وبدت وكأنها صورة للأم الحزينة بالأبيض والأسود.

كانت العادة الفارسية تقتضي أن تبكي الآن وتلطم رأسها وهي تولول وتقطع شعرها الأشيب، وأن تجري النسوة نحوها ويأخذن يدها وينخرطن في البكاء معها.

ولكن كل هذا صار ممنوعا، ولم يعد يحقّ لهنّ إظهار حزنهن.

لم يعرف أغاجان بعد أين يدفن جواد. ظلّ طوال اليوم يهاتف ليطلب السماح له بدفنه في المدينة على الأقلّ، ولكن لا أحد يتجرأ على مساعدته خوفا من تشويه سمعته.

وَقْعُ خطوات في الزقاق، أرهف المؤذّن السمع، ولكنّه لم يستطع التّعرّف عليها.

دار مفتاح في القفل، وفُتح الباب. لقد كان شهبل. اندفع ليزار نحوه.

واندفع المؤذّن أيضا نحو شهبل واحتضنه وبكى بصمت على كتفه.

لقد تلقى شهبل رسالة الإعدام، ورغم أن حضوره إلى سنجان كان مخاطرة كبرى فقد سارع بالمجيء إلى الدّار.

خرج أغاجان من مكتبه فرأى شهبل وحيّاه كالعادة. فبدا لشهبل وكأنّه قد قطع أربعمائة وخمسين كيلومترا بالسيّارة من أجل لا شيء؛ فأغاجان لم يبن مشاعره.

«شكرا يا إلهي، لقد وصلت في الوقت المناسب، أنا أحتاج إليك. من أخبرك؟»، قال أغاجان، ولكن دون أن ينتظر إجابته تابع قائلا: «يجب أن نتصرف بسرعة! إنه داخل الشاحنة أمام الباب.»

Twitter: @ketab_n

وقرأ شهبل في عيني أغاجان ما كان يخشاه على ضوء الفانوس. كان الأمر واضحا: جثة، وأب ولا قبرَ.

أخذ يده وعانقه.

«تعازي، أغاجان، تعازي، يا أغاجان المسكين» قال وهو يبكي.

أحس شهبل بأنه مذنب. لقد خشي أن يتجاهله أغاجان.

«إنها إرادة الله، يا بني، قال أغاجان. تعال، سيحلّ الليل قريبا، ليس لدينا الكثير من الوقت».

أخذ شهبل مفاتيح الشاحنة بين يديه، لقد كان الأمر صحيحا إذن، لكنه رغب في أن يراه بأم عينيه ليصدق ذلك.

ذهب نحو الشاحنة الصغيرة وفتح الباب الخلفي. كان هناك، ملتو وملفوف في لحاف أبيض. بدا باردا، ويداه بين فخذيه، وهو مستلق على جنبه الأيمن. أزاح شهبل اللحاف بخفة، ورأى الوجه، كان هو بالتأكيد، جواد، ورصاصة في صدغه الأيسر.

«يجب أن نتصرف بسرعة» قال أغاجان.

أغلق شهبل الباب الخلفي للشاحنة وجلس وراء المقود.

«أين سنذهب؟» قال وهو يخرج من الزقاق.

«من هذه الجهة!» قال أغاجان وهو يشير إلى جبال الشمال.

لم يكن شهبل يعرف قصده، لكن أغاجان لم يكن رجلا يرضى أن يدفن ابنه في مكان منعزل بجهة ما من الجبال.

رغب في الحديث مع أغاجان عن حزنهم المشترك، لكن أغاجان كان غارقا في أفكاره فلم يجرؤ على إزعاجه. فقاد الشاحنة بصمت نحو جبال الشمال.

«هل لديك أيّة خطّة مسبقة في الريف؟» قال شهبل.

– سنذهب إلى مرزجران، قال أغاجان

– إلى مرزجران؟ قال شهبل، مذهولا. هذا مستحيل. فكل سكان تلك القرية من مؤيدي الخميني، سيكون صعبا جدا أن نطلب منهم قبرا.

Twitter: @ketab_n

لم يقل أغاجان شيئا لكن شهبل صار يعلم الكثير الآن: لقد فتح أغاجان مصحفه في الدّار. وكانت مناقشته غير مجدية، فتابع طريقه.

لم تكن الطريق مهيّأة للسيارات الصغيرة: وفي الحقيقة، لم تكن تلك طريقا أصلا، بل كانت آثار عجلات حافلة القرية.

كانت مرزجران أقرب قرية إلى المدينة، وراء التلة الأولى، على منحدر الجبال العالية.

صعد شهبل التلّة ونزل منها بحذر. فبدت المنازل حولهما.

كان الطقس باردا، بسبب الثلوج التي تغطي سفوح الجبال. لم يحلّ الليل بعد ولكنّ الجبال الشاهقة تلقي بظلالها على القرية. كانت المنازل مبينة من الحجارة الطبيعية. ومن لا يعرف أن القرية موجودة في هذا المكان يمكن أن تختلط عليه بحجارة الجبال. وعندما اقتربا أبصرا الدخان يتصاعد من مدخنة الحمام الشعبي. وكانت تلك العلامة الوحيدة على وجود حياة.

يُنتظر في قرية كهذه شيء ما دائما: سفر شخص ما أو عودة آخر، ولادة طفل أو موت. والقرية النّائمة تنتظر دائما حدثا لتدب فيها الحركة.

دخل شهبل إلى القرية، لم يكن من الضروري أن يقدّما نفسيهما: شاحنة صغيرة غير معروفة تنزل من الجبال لا يمكن أن تدلّ إلّا على حدث غير عادي. إذ مَن الأحمقُ الذي قد يفكر في أن يتجوّل في الجبالِ شتاءً؟ لا يمكن أن يكون إلا معارضا للنظام أو لاجئا أو شخصا ما يحمل جثّة في سيارته.

سُمعت أصوات نباح، وقفزت بعض الكلاب من صخرة وجرت نحو الشاحنة. فخرج من العتمة رجال ملتفّون في ملابس خشنة ومسلحين ببنادق.

صاح أغاجان «الله !»

سدّت الكلاب الطريق وهي تنبح. واقترب الرجال من الشاحنة.

قال أغاجان قبل أن يخرج من الشاحنة «ابق جالسا، يا شهبل».

اتجه نحو الرجال، أراد أن يكلمهم، أراد أن يقول لهم بأنه كان صديقا لإمام القرية. مدّ لهم يده، لكن الرجال تجاهلوه واتجهوا نحو الشاحنة.

Twitter: @ketab_n

نظروا إلى شهبل بعدوانية وقاموا بدورة حول الشاحنة. حاولوا فتح الباب الخلفي. فلحق بهم أغاجان والنّباح الحادّ للكلاب يعلو.

خرج شهبل بسرعة من الشاحنة، ودفع أغاجان الرجال بعنف، واستند بظهره إلى الباب الخلفي للشاحنة. فجذبه أحد الرجال من كمه وأبعده، وفتح الآخرون الباب الخلفي. فقفز كلب إلى الشاحنة وغرز أنيابه في الكفن. فأخذ شهبل رافعة السيّارة الموجودة قرب الجثة وضرب الكلب ظهره ضربة شديدة. فقفز الحيوان من الشاحنة وهو يعوي.

ودفع شهبل الرجال دون وعي منه. ووقف أمام الباب ليحمي الجثة ورافعة السيّارة في يده.

أسقطه ثلاثة رجال أرضا وهم ساخطون على هذه الوقاحة في قريتهم. وعبثا حاول أغاجان أن يمنعهم. سعى شهبل جاهدا لتفادي الضربات حتّى أتى جمع من القرويين، وقد نبّههم الضّجيج، وفرّقوهم. فمد أغاجان يديه نحوهم قائلا: «أطلب منكم قبرا. ومعي جثمان ابني هنا».

لا حركة ولا جواب. بدوا وكأنهم حجارة، رجال متحجّرون ينظرون إليه بذهول. ثمّ صاح أحدهم «ارحلا! لا قبر للآثمين هنا!

– أطلب منكم.....

– قلت عليك بالرحيل، قال رجل آخر وهو يمشي نحو أغاجان. فتناول شهبل رافعة السيّارة. لكن أغاجان نزعها منه وقال «لنرحل.»

ركبا في الشاحنة فاستدار شهبل بها.

عندما صارا بعيدين عن القرية، نظر شهبل إلى أغاجان فذُهل: كان الرّجل الجالس قربه منكسرا، والطريقة التي غاص بها في مقعده توحي بالكثير. لقد احتكم إلى القرآن، لكن الأمور ساءت. وبدا الآن وكأنه طائر هرم لا يستطيع الطيران.

وحلّ اللّيل. كان شهبل يقود بلا هدى حتّى رأى أغاجان ينتصب في كرسيه ويخرج المصحف من جيبه. لقد استرجع قواه، وفتح المصحف وتتبع الأسطر بأصابعه كالأعمى. وبعد دقائق قال بهدوء: لنذهب إلى سروج. وأرجع القرآن إلى جيبه.

لم يكن شهبل موافقا. فهو لا يرى فرقا بين سروج والقرية التي هربا منها. يمكن أن يطوفا بمائة قرية ولكن أهلها سيتلقّونهم بالطّريقة ذاتها حيثما ذهبوا.

Twitter: @ketab_n

لم يرد أغاجان أن يدفن ابنه بلا شرف، فبحث له عن مدفن رسميّ، وكان ذلك مستحيلا. ثمّ قطع شهبل الصمت قائلا: «لن يساعدوننا هناك أيضا. علينا أن نقبل الحقيقة.»

لم يجب أغاجان، وبدا وكأنه لم يسمعه.

تقع مقبرة سروج خارج القرية. كانت مكانا مقفرا وباردا.

وقال أغاجان: «انتظر هنا، سأذهب إلى القرية بمفردي».

بقي شهبل قرب الشاحنة، وقال «هو على حق. أنا أفهم الآن لماذا يبحث عن قبر رسمي دون حسبان للخطر المحدق به. أنا أشعر بالخزي حقًا لعدم إدراكي لهذا من قبل. نحن لم نجرم، وجواد ينبغي أن لا يدفن سرا».

أمسك برافعة السيّارة وانتظر. وسمع بعد ذلك أصواتا وظهرت جماعة من خمسة رجال. كانوا شيوخا يحيطون بأغاجان. ولم تصحبهم كلاب.

أدرك من هيئة أغاجان بأنه لم ينجح في إقناعهم. لقد كانوا أصدقاء لأغاجان واصطحبوه إلى تخوم القرية عزاء له. فهم يعرفون المتحمسين للنظام ويعرفون ماذا سينتظرهم إذا ما دفنوا الجثة في القرية.

اتجهوا نحو شهبل ليسلموا عليه ويبدوا تعاطفهم، ولكنّ ذلك فاق طاقته على الاحتمال. فاستولى عليه غضب شديد ممزوج بشعور من الضعف والعياء. فتح باب الشاحنة وارتمى وراء المقود. استأذن أغاجان من الرجال ودخل إلى الشاحنة.

كادا أن يغادرا ثمّ سمعا نداء.

«انتظرا توقف،» قال أغاجان.

توقف شهبل. وأنزل أغاجان زجاج النافذة. جرى أحد الرجال نحوهم لاهثا: «يجب أن تذهبوا إلى رحمان علي، قال الرجل، إنه الوحيد الذي يستطيع أن يساعدكم».

هز أغاجان برأسه مرات عديدة ليبيّن له بأنه على حق.

«اذهب إلى جيرجه، قال أغاجان، سنذهب إلى رحمان علي»

Twitter: @ketab_n

كان إيجاد قبر في جيرجه أكثر احتمالا لأنها امتداد لملكيّة العائلة. ما يزال الكثير من أفراد عائلة أغاجان وفجري سادات يسكنون فيها حتى الآن، ثمّ إنّ فيها دُفن كاظم خان.

في الواقع، عليهم العودة مباشرة إلى جيرجه. ولكنّ القرآن لم يشر إلى ذلك. وعندما سمع الاسم على شفتي الرجل، أدرك أغاجان بأنه المكان الصحيح.

رحمان علي رجل قصير مسن ذو لحية بيضاء طويلة. وكانت القرية فخورة به. بلغ من العمر مائة وأربعا وهو يحظى بهالة من القداسة. يقال بأنه كان ساحرا وأنه قد أعاد إلى الحياة أطفالا كانوا على حافّة الموت. قوله فصل في القرية، والجميع يعلم هذا. وعندما يطلب منه أحد ما ملجأ فإنّه يكون مطمئنّا على أنّه في مأمن. وقد جعل القرويون من منزله مكانا مقدسا. وكان أغاجان يتّصل دائما برحمان علي في وضعيات صعبة وفي أوقات لا يُعوّل فيها على أحد. إنهما يعرفان بعضهما جيدا. كان أغاجان يزوره دائما عندما يأتي إلى جيرجه ويعطيه نقودا إذا احتاج إلى ذلك.

كانت قرية جيرجه قائمة فوق الجبل، تحت الثلج مباشرة. ولا طريق سالكة تؤدّي إليها، فقط مجرد مسلك كثير الرمل لا تستطيع حافلة الركاب وسيارة الجيب أن تتقابلا فيه إلّا بعسر. كانا يقودان بصعوبة في المسلك وهما يخشيان في كلّ لحظة أن لا تنزل الشاحنة المنحدر أو أن تنغرز عجلاتها في أخدود من الرمل. البرد قارس ومسخّن السيارة لم يكن كافيا. ونظر أغاجان مهموما إلى الجثة الممدّدة وراءه.

عندما وصلوا إلى أطراف القرية، قال أغاجان « أطفئ الأضواء، وتوقف هنا، وراء هذا الحجر الكبير. لن ندخل إلى القرية بالشاحنة. ابق أنت، هنا وأنا سأذهب للبحث عن رحمان علي».

- «دعني أذهب أنا»، أجاب شهبل.
- من المستحسن أن أكلمه أنا.
- لا أريد أن تذهب بمفردك.
- من المستحيل أن نفعل غير هذا، فلا نستطيع ترك الجثة بمفردها.
- أنا لا أثق بأحد، ولو في هذه القرية. كل شيء قد تغيّر. فإذا عرفك شخص ما، سيدرك على الفور أنّ هناك أمرا ما غير عادي .

انزلقت يد أغاجان تحت ثيابه ليتحقّق من أنّ قرآنه لا يزال بجيبه.

Twitter: @ketab_n

«لا خيار لدينا. سأتدبّر أمري» قال ذلك، وغادر.

تخبّط في الثلج وعَبَرَ الجسر الخشبيّ الذي يقطع النهر. لن تسمعه الكلاب هنا. كانت الرياح الباردة التي تعصف على الثلوج المتجمّدة تَجْلِد الوجه. ولم يفكّر في غير شيء واحد: يجب أن أكلم رحمان علي قبل أن يراني الإسلاميون. إذا ما حاولوا أن يمسكوا بي سأنادي رحمان علي بصوت يسمعني به حتى ولو كان يغطّ في أعمق نوم في حياته.

دخل إلى القرية بحذر كبير. لم يبق غير أربع طرق وسيكون بالساحة التي وراءها يعيش رحمان علي.

أحست به الكلاب. رائحة غريبة في جوف الليل في قلب الشتاء، هذا يعني «خطر». بدأ أحدها بالنباح خلفه. سيوقظ كلّ القرية. ماذا سيفعل؟ أيجري أم يمشي بشكل طبيعي؟ في الطريق الموالي قفز كلب أسود كبير فجأة من فوق حاجز. يا الله ! وأطلق ساقيه للريح.

نبحت كلاب القرية بشدة وتبعته. فجرى أغاجان بسرعة أكبر ورأى السكان أمامه في الشوارع مذهولين. حاول بعض الرجال أن يقطعوا عليه الطّريق ويمسكوه. فدفعهم بعنف وهو ينادي «رحمان علي». وجرى بكل قواه وقلبه يكاد يقفز من صدره والدموع قد شوّشت نظره. جرى نحو السّاحة على غير هدى، فعرف كلّ الناس إلى أين يتجه.

اللللللللله، رحمان علي، ملجأ، أبحث عن ملجأ لابني !

برز ثلاثة رجال مسلحين في الزّقاق، وجه له أحدهم ضربة على ربلة ساقه ، فتعثر أغاجان وسقط على الثلج. سلّط الرجل ضوء مشعله على وجهه وقال: من أنت؟

عرف الرجال أغاجان فورا فساعدوه على النهوض، واصطحبوه إلى شاحنته، خارج القرية حيث كان عشرات القرويين قد تجمعوا فوق الحجارة.

كان أمرا لا يصدّق. لم يصدّق أغاجان عينيه. كانت هذه القرية قريته، وكل موتاه قد دفنوا هنا، فلماذا يعاملونه بهذه الطريقة؟ لقد أبرزت الثّورة بوضوح الجانب الأكثر وضاعة في النّاس. فلا تستطيع أن تحتمي بأحد، ولو بأخيك أو أختك. لقد طالع في كتب سير الملوك أن هذا النوع من الرجال وجد دائما. كانت الخيانة والجريمة ديدن الرجال.

دخل أغاجان إلى الشاحنة واستدار بها شهبل.

«لنعد إلى الدّار»، قال أغاجان.

Twitter: @ketab_n

- إلى المنزل؟

- سأدفنه في باحتنا الدّاخلية تحت الشجرة القديمة في حديقتنا.

أراد شهبل أن يعترض ولكنه لم يجد الكلمات لذلك.

نزل المنحدر الذي يؤدي إلى المدينة بحذر. كانت النسور تطير عاليا في السماء وقد أيقظتها الشمس التي تطلع ببطء من الجهة الأخرى للجبال. وهو أوّل طيران لها هذا اليوم. لن يصل ضوء النهار إلى المدينة إلا خلال ساعة. عليهما أن يسرعا، ولكن شهبل لم يجرؤ على القيادة بسرعة أكبر. ففي كل مرّة يفرمل فيها تنحرف الشاحنة وترتطم الجثة بمقعده.

وقع نظره فجأة على سيارة تسير بعيدا وراءهما، كان السائق يشير إليهما بأضواء السيّارة. ورآها أغاجان أيضا.

«انتظر قليلا، هناك شيء ما»

أوقف شهبل الشاحنة وخرج.

«إنه يرسل إشارات، قال شهبل، ويتجه نحونا».

أخرج المشعل من الشاحنة وأشار إلى السائق بأنه قد رآه.

اختفت السيارة وراء الحجارة الكبيرة ثمّ ظهرت من جديد.

«إنها سيارة جيب!» صاح شهبل.

توقفت سيارة الجيب وأطفأ السائق الأنوار. كان رجلا يضع قبعة وينتعل حذاء طويل السّاق. جرى نحو أغاجان، وقال بصوت منخفض «السّلام»، وعانقه وقبّله على رأسه، ثم قال «سآخذ الجثة. لدي قليل من الوقت ، يجب أن أسرع قبل أن يطلع النهار».

لم يفهم شهبل ما الذي يدور. كان الرّجل صديقا لأغاجان لكن شهبل لا يعرفه.

«هيا نضع الجثة في سيّارتي!» قال الرجل لشهبل.

وحمل ثلاثتهم الجثة.

وعانق الرّجل أغاجان مرّة أخرى، وربّت على كتف شهبل، وركب الجيب من جديد، واستدار ببراعة، وعاد إلى الجبال.

بقي أغاجان وشهبل قرب الشاحنة الخاوية، ينظران إلى سيارة الجيب وهي تختفي وسط السواد. وحلقت النسور مرّة أخرى فوق الشاحنة بطريقة دائرية ثم ارتفعت عاليا في السماء.

Twitter: @ketab_n

الحكيم

لفّ الحزن المنزل مثل تشادور أسود. لا أحد يتكلّم، لا أحد يبكي، لا أحد يكسر الصمت، ولكن كان هناك رجل يرتّل دون انقطاع: حكيم، عليم.

إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ [6]

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ

وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ [21]

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ... [22]

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ...[23]

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ [24]

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [25] [سورة الحجر]

أذبل الحزن النباتات، وطفت بعض السّمكات في الحوض ميّتة، ومات القط الهرم.

في أثناء ذلك أبادت موجة متدفقة من الإعدامات مخالفي النظام، ودُفن الجميع خارج المدينة بسفوح الجبال ومُنعت زيارة هذه القبور. وانصبّ الاهتمام كلّه على شهداء الجبهة، الذين يتمّ إحضار المئات منهم إلى المدن كلّ جمعة أثناء الصّلاة.

كان طائر الزاغ أول من قطع الصّمت ، طار عاليا جدّا في السّماء وهو ينعب مصدرا ضجة كبيرة تعلن عن زيارة.

كانت فجري سادات في المطبخ تحضّر الطّعام، ففتح ليزار الباب الرئيسي.

ذهب رجل غريب يرتدي بدلة باهتة اللون ويضع قبعة على رأسه نحو الحوض.

نظرت فجري سادات بذهول إلى الغريب وهو يمشي بهدوء تحت نافذتها.

Twitter: @ketab_n

توقّف الرّجل برهة قرب الحوض ونظر إلى السمكات الحمر وهي تسبح في الماء. ثم عبر الباحة ويداه وراء ظهره. مشى حتى الدّرج التي تؤدي إلى السطح، ثم توجه نحو غرفة الخلّان ونظر إلى داخلها عبر النافذة. ثم اتّجه إلى غرفة التدخين وحاول فتح الباب.

فتحت فجري سادات نافذة المطبخ، وقالت:«سيدي، هل تبحث عن أحد ما؟»

لم يجب الرجل واتجه نحو المكتبة.

أرادت فجري سادات أن تتبعه لترى ماذا ينوي أن يفعل ، لكنّها لم تجرؤ على ذلك. فصاحت:

«أيّها المؤذن ، هنالك غريب بالباحة ! هلّا سألته لماذا هو هنا؟».

مكث ليزار تحت الشجرة الكبيرة ليراقب تحرّكات الرجل، ثمّ حبا نحو القبو لينبّه المؤذّن.

واختفى الرّجل وراء الشجرة.

فجأة، سمعت فجري ضربات مبهمة.

وخرج المؤذّن من القبو صحبة ليزار متسلّحا بعصاه.

«رجل يرتدي بدلة ويضع قبعة توجّه نحو المكتبة قبل برهة. أظن أنه يحاول خلع الباب. هل تسمع؟»، قالت فجري.

اتجه المؤذن نحو المكتبة وصاح: «ماذا تفعل؟ من أنت؟ من تظنّ نفسك؟».

وضعت فجري سادات تشادورها ورأت الرجل يضرب الباب بصخرة كبيرة.

«كيف يبدو؟» قال المؤذن لفجري سادات .

– أنا لا أراه جيّدا. إنه يقف في الظلّ.

– هل هو ملتح؟

– لا، أظن، إنه يضع قبعة على رأسه فقط.

أراد المؤذن أن يذهب نحوه، لكن فجري سادات منعته.

«أظن أنه مجنون! إنه متسكّع».

Twitter: @ketab_n

تسلق ليزار الشجرة وراقب الرّجل. فصاحت به فجري سادات «اذهب وابحث عن أغاجان». فقفز من الشجرة إلى السّطح واختفى.

لوح المؤذن بعصاه نحو الرجل وصاح «من أنت؟ وماذا تفعل؟».

لم يجب الرجل.

«توقف أيها المجنون»! صاح المؤذن وهو يهدد الرجل بعصاه. قلت لك توقّف أيها الأبله القذر ! وإلا ضربتك بعصاي».

لكن الرجل لم يتوقف. فذهب المؤذن نحوه وتهيأ ليضربه بعصاه، لكن فجري سادات صاحت: «لا ، لا تضربه. يبدو مختلا عقليا». وجذبت المؤذن إلى الوراء من طرف سترته.

وتوقّف الرّجل عن ضرب الباب عندما رأى أغاجان.

«ماذا يحدث؟». قال أغاجان.

ووقف الرّجل في ظلّ حائط المكتبة.

«من أنت، أيّها الرّجل؟».

لم يردّ.

«اخرج من الظلّ ومدّ يدك إليّ، لن أوذيك، سأصطحبك خارجا» قال أغاجان. وذهب نحوه بهدوء، فأخذ بيده ورافقه إلى النّور.

«هل تريد أن تشرب؟ هل أنت جائع؟».

وانسكبت الدّموع على وجنتي الرّجل.

«الله، الله، فجري، إنّه أحمد».

مدّ المؤذّن يده نحو أحمد، وجسّ قبّعته ووجهه، وجذبه نحوه وعانقه.

ووضعت فجري سادات رأسها على كتف أحمد وبكت.

«تعال يا أحمد، يا بنيّ، لندخل. ماذا فعلوا بك؟ كيف يتجرّؤون؟ تعال، ستحلّ كلّ الأمور».

فتح أغاجان باب المكتبة أمامه ولكنّ أحمد لم يدخل. ذهب نحو غرفة الخلّان، فتح بابها وخلع نعليه وتمدّد على السّرير.

«دعوه ينام» قالت فجري سادات لأغاجان والمؤذّن.

Twitter: @ketab_n

خرج أحمد من السّجن قبل انتهاء محكوميّته بفعل تدخّل جلجل، ولكنّهم قد سرقوا منه حياته. وعندما أوقف عادت زوجته إلى أهلها بطفلهما. وكان والدها رجلا متنفّذا ومتعاونا مع الإسلاميّين فرتّب إجراءات الطّلاق لابنته ونسب الطّفل إليه. وهكذا حُرم أحمد من أبوّته.

وفي اليوم الموالي نادته فجري لتناول الإفطار. لكنّه لم يكن يملك القوّة للرّد عليها فدخلت إلى الغرفة، وساعدته على الخروج وعلى غسل يديه ووجهه في الحوض وأخذته إلى المكتبة لتريه بأنها كانت مفتوحة.

دخل، مشى بين الأروقة ومرّر إصبعه على الكتب. وأشعل مصباح القراءة، وقد كان على طاولته، ولمس مقعده دون أن يجلس، ثم خرج وذهب إلى غرفته.

نظر إلى سريره وكرسيّه وكرّاسه القديم حيث كان يدوّن الملاحظات لخطب الجمعة، ثم جلس على السرير.

ظلّ مُحدّقا في الفراغ طيلة النهار. وحمل له أغاجان الطّعام وحاول أن يكلمه، إلّا أنّ ذلك لا يزال سابقا لأوانه. يجب أن يرتاح لبعض الوقت.

في تلك الليلة ذاتها، أخذ أحمد حقيبته وغادر.

رآه ليزار فأسرع ليخبر أغاجان. لكن فات الأوان. لم يبق أي أثر لأحمد.

Twitter: @ketab_n

المجاهدون

اندلعت معارك عنيفة على الجبهة. واستعادت إيران عددا من الأماكن الإستراتجية من العدوّ وفتحت جبهة جديدة على الحدود العراقيّة. لكن يبدو أنّ طرد العراقيين من المناطق البترولية الهامّة في خرامشهر وعبدان لا يزال مستحيلا.

استخدم صدام أسلحة وقنابل كيميائية ودمّر مداخل المدن الكبيرة.

أبيدت المعارضة اليسارية كليّا تقريبا. ولم يبق من أعداء النّظام المنظّمين إلّا عدو واحد فقط: المجاهدون. كان المجاهدون مسلمين ولكنّهم كان يؤوّلون القران تأويلا مختلفا عن تأويل آيات الله المسكين بالسّلطة. كانوا يتظاهرون بدعم النّظام في خطابهم الرّسميّ، ولكنهم كانوا يجمعون الأسلحة سرّا ليستطيعوا التّحرّك في الوقت المناسب.

أعلن الخميني أنهم الأعداء الأخطر وأنهم كانوا يريدون تفجير النظام من الدّاخل. وفي الوقت الذي كانت فيه البلاد مشغولة بحرب لا نهاية لها، وكانت تُضعفها أكثر فأكثر يوما بعد يوم، توجّبت إبادة هذا العدو الداخلي إبادة نهائيّة. لكن بما أن المجاهدين كانوا، هم أيضا، مسلمين، فلم يستطع تصفيتهم بدون سبب مشروع.

ناقش مجلس الثورة القضيّة في اجتماع عاجل. فقرر الأعضاء بالإجماع إبادة المجاهدين دون تأخير بالطريقة نفسها التي أبادوا بها الحركات اليساريّة.

فذهبت سيارات جيب ليلا إلى مساكن زعماء المجاهدين. ودخل رجال مسلحون إلى المنازل عبر السطوح، ولكنهم لم يجدوا الزّعماء: لقد هربوا جميعا. فاستنتجوا على الفور أنه يوجد جاسوس ضمن أعضاء المجلس.

أمر رئيس المجلس آية الله بهشتي، باجتماع لكافة الأعضاء على جناح السرعة معتقدا أنّ الجاسوس سينكشف بتغيبه. لكن الجميع حضر. ودارت مناقشة طويلة تساءلوا خلالها كيف يمكن أن يحدث هذا.

Twitter: @ketab_n

وكان أحد أعضاء المجلس معروفا بفكره الثّاقب وسرعة بديهته، فقال «أعتقد أنني أعرف كيف حصلت هذه الهفوة ومن هو السّبب». فنظر إليه الجميع بذهول وانتظروا بقيّة كلامه منشغلي البال.

دفع محفظته السوداء، وقد كانت تحت الطاولة، أمام بهشتي برجله، ثم وقف وقال: «لديّ أدلة، إنها في خزانتي، سأذهب لإحضارها وأعود حالا».

خرج من قاعة الاجتماع، ونزل السلم، وجرى إلى سيّارته، واندفع داخلها وانطلق.

لم يكن قد تجاوز الطريق بعد حين انهارت العمارة وراءه إثر انفجار قوي. وغطّت الفضاء سحابة من نار ودخان. ومات كل أعضاء المجلس.

أُعلن الخبر في المذياع فتجمع النّاس أمام منزل الخميني متعاطفين. وظهر في شرفته وخطب بهدوء قائلا «إنّا لله وإنّا إليه راجعون. (هذه المرة، خرجت يد أمريكا من كُمِّ المجاهدين.) ليس مهمّا. فالله معنا ! لقد عيّنت مجلسا جديدا. وقد بدأوا العمل منذ حوالى نصف ساعة. لا أحد يمكنه إيقافنا».

واستؤنفت ملاحقة المجاهدين فورا وبشكل أعنف. أطلقت عليهم النّار في كلّ مكان عشوائيّا. وقطع المتعاطفون مع المجاهدين الطرقات الرئيسية بوسط طهران وأخرجوا أسلحتهم. فنشبت حرب شوارع بينهم وبين الفرق الإسلاميّة للأمن العام. وقُتل كلّ الذين أوقفوا في ذلك اليوم فورا ودون محاكمة.

وفي الأسبوع الموالي قام رئيس المخابرات الإسلامية بزيارة شخصية إلى الخميني ليطلعه مباشرة على قضيّة مهمّة تخصّ الأمن العام.

جثا أمام الخميني، وقبل يده وقال: «المجاهدون يشغلون مناصب هامّة في الوزارات السّياديّة للحكومة. وفي المدّة الأخيرة بينما توجهت كل اهتماماتنا نحو المعارك على الجبهة دبّروا أمرهم ليشغلوا كل المراكز الإستراتيجية. وتسلّلوا حتّى إلى داخل بلاطك. لقد وضعت قائمة للمشتبه فيهم الذين يشغلون مناصب هامة في وزاراتك. فإذا سمحتم، سأقوم بإيقاف المشبوهين بعد أن أتفق مع الوزير الأول.

وضع الخميني نظّاراته، وقرأ القائمة بتأنّ ثم أعطى موافقته. فتوجه القائد مباشرة إلى مكان سري كانت الحكومة تعقد فيه اجتماعا وانفرد بالوزير الأوّل وأخبره بحديثه مع الخميني. ثم توجها معا إلى اجتماع الحكومة لإبلاغ الوزراء.

Twitter: @ketab_n

تكلّم رئيس المخابرات مباشرة فقال:«لقد جئت من بيت الإمام الخميني بعد أن تكلّمت معه شخصيّا. وهو يعرف أنني هنا الآن، وأنا انتظر، أن يتّصل بنا هاتفيّا بين الفينة والأخرى. وقد تكلمت أيضا مع الوزير الأوّل. لقد تسرّب المجاهدون إلى نظامنا دون أن نلاحظ ذلك...»

قاطعه رنين جرس الهاتف، فوضع محفظته الثقيلة على الطاولة واستأذن قبل أن يذهب إلى المكتب حيث الهاتف.

رفع السمّاعة وقال بصوت عال جدّا حتى يسمعه الجميع :« نعم ، إنه أنا. نعم، بالتأكيد، تكلمت مع الوزير الأوّل. إنها معي، إنها في سيّارتي، ها.... لا، لست متأكّدا، سأذهب لأبحث عنها، هل تسمح بلحظة؟» قال كلماته الأخيرة بصوت أعلى، ثمّ وضع السماعة على المكتب، غادر الغرفة بهدوء، نزل السّلم، وخرج إلى الشارع، وركب في سيارته وانطلق بسرعة. لم يشك أحد في الخطر، لم يخطر ببال أحد أن الحادثة ستتكررّ. وهزّ الانفجار أرضيّة الشوارع المجاورة.

تواصل نضال المجاهدين ضد النظام. وظلّت القنابل تفجر هنا وهناك في كامل أرجاء المدينة لأسابيع كثيرة. وسقطت الحكومة الجديدة التي كونها الخميني كسابقتيها أيضا. لكن رعب المجاهدين لم يقلب النظام. عندما أدرك المجاهدون أن هذه الطريقة لم تعد تجدي نفعا بدأوا ببثّ الفوضى في المدينة. كانوا يضرمون النار في الحافلات والبنوك والبنايات الحكومية ويطلقون النار على كل من يصادفونه من موظفي الدولة.

لكن هذه التصرفات كانت أشبه بالانتحار السّياسيّ لأن الحِرس الإسلامي أوقف أغلب المتعاطفين معهم وسحق دون رحمة كل الذين حاولوا الهرب، وأُعدِم مئات المجاهدين في ظرف أيّام قليلة دون أية محاكمة.

فهجر حزب المجاهدين الشّوارع وتفرّغوا للاغتيالات.

بدأوا بآيات الله في المدن الكبرى وسعوا إلى تصفيتهم واحدا تلو الأخر.

وفي حيرة شاملة قتلوا بعد آية الله بأصفهان ونظيره بيزد، آية الله مرتوزي، وقد كان فيلسوفا إسلاميا وأحد أهم منظري النظام، لكن لم تكن له أية وظيفة سياسية؛ بل كان يعطي دروسا للأئمة الصغار، وهذا ما جعله يذهب كل يوم إلى مدرسة الأئمة. وذات يوم بينما كان متجها نحو المسجد لأداء صلاة الصبح صاح به رجل شاب:

Twitter: @ketab_n

«السلام عليكم، يا آية الله !

- فأجاب هذا الأخير: وعليكم السلام أيها الشاب.

- لدي خبر لك.

-تكلم.

- لقد انتهى تفسيرك للقرآن!

- كيف ذلك؟ انتهى...

- الآن !» قال الرجل وأطلق عليه ثلاث طلقات من مسدسه.

زرعت سلسلة الاغتيالات البلبلة في صفوف النظام. كانوا يجهلون موعد الاغتيال القادم ومَن مِن آيات الله سيكون الضحية القادمة

ولم ينج آية الله بقزوين من الموت وكان المسؤولُ عن ذلك ابن أخيه. فلدواعي أمنية، طلب منه آية الله قبل أيام من الحادثة أن يكون سائقه الشخصي.

وألقى آية الله خطبة حماسية ضد الاغتيالات: «أمريكا تقتلنا ! صدام يقتلنا ! المجاهدون يقتلوننا ! ولكنّنا لا نزال واقفين. لقد لقنّا أمريكا درسا. وسنفعل الشيء نفسه مع صدام ! ومع المجاهدين !».

وعندما كان ابن أخيه يوصله بالسّيّارة إلى داره قال «ما أصعب هذه الأيام!».

- وما أصعب هذه اللّيالي، قال ابن أخيه وهو يدخل إلى زقاق جانبي.

- إلى أين تأخذني؟ قال آية الله.

- إلى الجحيم ! قال ابن الأخ وقتله على عين المكان بطلقة من المسدس.

لم يكن أيّ شخص في مأمن. وأيّ شخص يشكّ فيه جاره تمّ إيقافه على الفور. فاختبأ الجميع. وحاول الهربَ كّل أولائك الذين لا تزال لديهم فرصة.

لكن المجاهدين لم يكونوا هم وحدهم المسؤولون عن تلك الاغتيالات غير المتوقعة، فقد قام بعض الأشخاص المنتمين إلى جماعات يسارية هم أيضا بعمليات انتقام بصفة فردية.

Twitter: @ketab_n

ورغم الكرب الشّامل لم يَنْحَنِ آيات الله أمام الرعب بل واصلوا نشاطهم ببساطة. وكان ذلك حال آية الله الأراكي في سنجان. فقد كان يعلم أنّه مستهدف، فأحاط نفسه بحراس شخصيين يرافقونه دائما.

كان آية الله الأراكي متزمتا أراد أن يجعل من سنجان مدينة إسلامية مثالية. كان يتكلم بحنق عن عائلات الأشخاص الّذين تمّ إعدامهم وأعطى لزينات خانم الضّوء الأخضر لتضغط على السجينات إلى درجة أنّ إشارة بسيطة من يدها تكفي لجعلهن تستدرن نحو مكّة مثل الآلات. وكتم سكان المدينة أنفاسهم وانتظروا أن يهزم رجل شجاع آية الله المكروه.

ولم تتأخر هذه اللّحظة.

قاربت الشمس على المغيب، وتركت الحرارة في الخارج مكانها لبرودة الليل. فُتِح باب مكتب أغاجان ببطء ودخل شخص ما. كان أغاجان جالسا على كرسيّه يطالع كتابا وظنّ أنه ليزار.

ورفع رأسه، لم يكن قد رأى شهبل منذ تلك الليلة التي حملا فيها معا جثمان جواد. وقد غادر شهبل حال عودتهما إلى الدّار. وها هو يقف أمامه الآن.

نزع أغاجان نظارته وقال: «لقد فاجأتني. منذ متى أنت هنا ؟.

- الآن وصلت.

- هل قابلت والدك؟

- لا، ليس بعد. أنا... كنت مارا بالمدينة، فأردت أن أراك.»

ارتعش صوته.

أحس أغاجان أن القدر سيعصف من جديد.

فُتِح الباب ببطء ودخل ليزار. ولكنه فهم من نظرات أغاجان أنّه غير مرحب به فأغلق الباب وراءه بهدوء، وجلس على العتبة.

«كيف ذلك؟ كنت مارّا بالمدينة؟ قال أغاجان.

- لدي ما أفعله في المدينة وظننت أنها فرصة جيّدة لأسلم عليك.

- لماذا لا تجلس؟ خذ كرسيا.

- لن أتأخر، سأغادر عن قريب. أتيت لأستأذنك.

Twitter: @ketab_n

– تستأذنني؟ لماذا؟ إلى أين تذهب؟

– مازلت لا أعرف، يجب أن أرتب بعض الأمور أوّلا، بعدها سيكون عليّ أن أغادر البلاد خلال وقت قصير. لكن قبل ذلك، أردت أن أراك للمرة الأخيرة، آسف، يجب علي أن أغادر»، قال ذالك وهو ينظر إلى ساعته.

– لكن، ماذا يعني كل هذا يا بني؟ (ظهر خيال المؤذن وراء النافذة، لكنه لم يدخل.) أتريد أن أنادي والدك؟

– كلا، عليّ أن أغادر فعلا، سأكلمه بالهاتف لاحقا، لقد أتيت خصيصا لأجلك، كنت قلقا عليك، والآن علي أن أذهب، إنّهم ينتظرونني بالمدينة».

أحس أغاجان بأن الأمور تسوء. كان الليل في أوله فلماذا لم يجد شهبل الوقت ليستأذن من والده؟ لماذا ينظر باستمرار إلى ساعته؟ لم يفهم أغاجان هذا الإذن الرسمي. ثم أدرك ما سيحدث: ستبدأ الصلاة بالمسجد خلال عشر دقائق وستصل المرسيدس البنز لآية الله بين الفينة والأخرى.

يجب أن يمنع الأمر، لكن كيف؟

«سأذهب» قال شهبل وهو يحضن أغاجان بين ذراعيه.

عندئذ أحس أغاجان بالمسدس تحت حزام شهبل. وبحركة فجائية، دفعه قبالة الحائط وأخذ منه السلاح.

« ما الذي يدور برأسك، بابني؟» قال بعزم.

انتصب ليزار على يديه ورجليه.

«أنت لا تحتاج إلى شرح، يا أغاجان، قال شهبل بوجه بارد. لا وقت لديّ. أرجوك، ارجع إلي السلاح قبل فوات الأوان !.»

أحس أغاجان بالعجز. أراد أن يصرخ عاليا: «لا يحقّ لك ذلك، اخرج، اخرج من هنا !» ولكنّه لم يكن قادرا. وذهل حينما أدرك أنّه لم يكن يريد أن يمنعه في أعماق نفسه، بل إنّه وافقه.

استرجع شهبل سلاحه من يدي أغاجان.

أراد أغاجان أن يمسك ذراعه، لكن شهبل أبعده بحركة من يده وقال: « لا، لا تفعل شيئا ! لا تقل شيئا ! احتفظ بكلماتك لوقت لاحق ! تمنّ لي فقط حظا موفقا !».

Twitter: @ketab_n

وبقي أغاجان في مكتبه وحيدا، حائرا. بدا في لحظة ما كأنّه قد فارق الحياة، كأنه لم يستطع أن يفعل شيئا أو يقول شيئا خلال دقيقة.

جثا شهبل قرب ليزار وعانقه ثمّ همّ بالخروج فاصطدم بوالده وسقط المؤذن أرضا.

انحنى شهبل وأخذ رأس أبيه بين يديه وقبّله على جبينه وقال: «أنا مستعجل يا أبي، سأهاتفك لاحقا».

وجرى ليزار وراء شهبل.

وفي اللحظة المحدّدة توقفت سيارة المرسيدس بنز لآية الله أمام المسجد. كان شهبل متخفيا في عتمة الزقاق يراقب ما يدور حوله. وخرج الحرّاس الثّلاثة لآية الله من السيارة وتفقدوا النواحي، لا يوجد أي كائن حي. فتح أحد الحراس الباب. وسبقه الاثنان الآخران إلى المسجد. تناول شهبل مسدسه. وكان ليزار وراءه جاثما في صمت وحبا نحو المرسيدس.

أراد شهبل أن يمنعه، لكن الأوان كان قد فات. سار نحو آية الله على أربع. فقفر الحارس الذي كان يساعد آية الله على الخروج من السيارة. وضع آية الله قدمه على الأرض وانتهر ليزار مثلما ينتهر الكلب. لكن ليزار واصل الزحف، وأدخل رأسه تحت الثياب الطويلة لآية الله وجعله يفقد توازنه.

«آية الله !» صاح شهبل بصوت مدوّ.

رفع آية الله عينيه فزعا ولكنه لم يعرف من أين جاء الصوت.

انطلقت ثلاث رصاصات. مدّ آية الله يديه، تراجع خطوتين إلى الوراء ثم سقط أرضا.

تناول الحراس بنادقهم وأطلقوا النار عشوائيا على كل شيء يتحرّك.

اللّلللللله ! كان صوت أغاجان فوق السّطح.

أقبلت درّاجة نارية بأقصى سرعة إلى زاوية الزقاق. قفز شهبل وراء السّائق وغادر بسرعة البرق.

كانت جثة آية الله ممدّدة أمام المسجد، وقد تدحرجت عمامته على بعد عدّة أمتار منه إلى حيث المكان الذي كان ليزار ممدّدا فيه على طوله؛ لا إنّه لا يشبه ليزار، بل يشبه طفلا صغيرا نائما على الرصيف في الظلمة، وسط بركة من الدّم النازف من جسمه.

جثا أغاجان قربه وقبّل خدّه البارد، ورفعه وحمله بين يده.

Twitter: @ketab_n

الطيّارة

كان دويّ الطّائرات الّتي تحلّق فوق المدينة يُسمع في الباحة الدّاخليّة دون انقطاع. كانت الطّائرات تأتي من طهران، تعبر الصحراء وتتابع طريقها نحو الخليج العربي ذاهبة إلى أوروبا أو أمريكا. وكانت تسلك مسارا مختلفا أثناء العودة فتدخل البلاد عبر بندر عبّاس بعد أن تحلّق فوق بحر عمان.

عندما كان الأطفال صغارا كانوا ما إن يروا طائرة تقترب حتى يغنون أغنية: ينظرون إلى الطائر الصغير الغامض المحلّق عاليا في السماء وينشدون:

طيّاري، طيّاري

إلى أين تذهبين يا طيّاري؟

من يطير على متنك؟

متى يحين دوري؟

كانت فجري سادات تزرد قميصا قرب الحوض. لقد بدأت منذ مدّة بزرد كنزة صوفية لليزار ولكنها لم تكملها أبدا.

وكان أغاجان يعتني بالحديقة ويدفن حزنه مع الأوراق اليابسة في حفرة. وفي تلك اللحظة حلّقت طائرة مدنيّة على ارتفاع منخفض محدثة ضجيجا هائلا فوق الدّار. كانت الشمس تلمع فوق جناحيها العريضين اللذين عكسا الضوء على وجه فجري سادات وعلى الأشجار وعلى الحوض وعلى نوافذ الدّار.

ظن أغاجان أنها طائرة عسكرية فأخذ زوجته من يدها وقادها إلى القبو حيث يمكث المؤذن. ونظرا إلى السماء من خلال كوّة الباب، وكانت الطائرة قد غادرت.

عندما ذهب الخوف عنهما، اكتشفا أنّ المؤذن كان واقفا وراء طاولته. لم تكن يداه

Twitter: @ketab_n

ملطّختين بالطين، وكان يرتدي بدلة زرقاء داكنة ويضع نظارات السفر ويلبس قبّعته. وكانت أمامه حقيبة.

«هل ستسافر يا مؤذّن؟» قالت فجري سادات بحزن.

- أرى أنك قد جهّزت حقيبتك، قال أغاجان، إلى أين تذهب؟

- أنت من يدوّن كل شيء، فدوّن هذا أيضا: أنا سأترك المنزل.

- ستترك المنزل؟ قالت فجري مذهولة، لماذا؟

- لا يزال الطفل يبكي طيلة اليوم في هذه الدّار. لقد مات، لكنّه ما يزال يزحف في القبو ويلهو عند قدميّ وأنا أعمل. إنّه مدفون داخل الحديقة، لكنّه يجلس فوق الشجرة. في الليل يبكي أمام بابي. ويحبو في أحلامي.

(أجهشت فجري سادات بالبكاء)

- الأمر ذاته بالنسبة إلينا، نحن أيضا نسمعه في الحديقة، لكنّ هذا ليس سببا لترك الدّار.

- لست أنا من يريد الرّحيل، الدّار هي الّتي تريد طردي، رميي على الباب. انظر إلى يديّ، لم أعد أستطيع أن أفعل أيّ شيء. خزفي يملأ القبو، والمزهريّات تملأ الحديقة والسطح، لم يعد هنالك مكان لأي شيء. لا أحد يشتري صحوني. أنا مطارد، تمنّ لي حظا طيبا. دعني أغادر يا أخي».

توجه نحو أغاجان فاحتضنه وقبّل فجري وأخذ حقيبته وصعد سلم القبو. عندما وصل إلى الباحة، توقف برهة، وأنصت إلى ضجيج الدّار وصاح: «يا طائر الزّاغ العجوز، احرس الدّار فأنا راحل».

ولمّا أغلق الباب وراءه، حامت ثلاث طائرات حربية فوق الدّار، وصمّ دويّها الأذان. واختفت وسط السحاب.

العراقيون! صاح أغاجان.

لم تكن طائرات عراقية، بل كانت ثلاث طائرات مُطارِدة من سلاح الجوي الإيراني ذهبت لتوقف الطائرة المدنية.

Twitter: @ketab_n

كانت الطائرة المدنيّة تُقلّ بني صدر الرئيس الإيراني وهو يحاول الهرب. وكانت الطائرات النفاثة تطير بأقصى سرعة لتوقفه. لقد عزله الخميني الأسبوع الماضي. واتهمه بالتعاون مع المجاهدين.

اختبأ الرئيس ودبّر المجاهدون خطّة رائعة لتمكينه من اجتياز الحدود. ودرسوا كلّ شيء حتى الجزئيات الصغيرة. علم صدّام حسين أيضا بالهروب فتأهّبت الطّائرات العراقية لحماية الرئيس الهارب.

وصل المطاردون الإيرانيون متأخرين لأن الطائرة كانت قد دخلت في الوقت المناسب إلى المجال الجوي العراقي واتجهت نحو أوروبا. وبعد أربع ساعات ونصف حلقت فوق باريس.

واتّصل قائد الطائرة بموظّفي برج المراقبة الفرنسيّين قائلا: «نداء عاجل. لدّي على متن طائرتي، الرئيس الإيراني. وهو يطلب اللجوء !».

أُعلم مدير المطار فاتّصل فورا بالرئيس الفرنسي. وطُرحت بعض الأسئلة على الرئيس الإيراني فأجاب بلغة فرنسية رائعة: أنا الرئيس المنتخب للجمهورية الإسلامية الإيرانية ومعي زعيم المجاهدين وأنا أطلب اللجوء لي ولزعيم المجاهدين وللطيّار.

قامت الطائرة بعدّة دوارات حول باريس، لتترك الوقت للمدير لمشاورة الرئيس الفرنسي.

عاش بني صدر لسنوات طويلة بفرنسا ودرس الاقتصاد. ولا يزال يحتفظ بمفتاح شقته الباريسية في جيبه. وكان قد باشر أطروحة الدكتوراه عندما غادر الخميني العراق قادما إلى باريس.

وعندما كان يدرس في باريس تصوّر بني صدر منوالا اقتصاديّا يوائم فيه بين الأفكار الرأسمالية والأفكار الإسلامية. وكانت هذه المشاريع مثالية بالنسبة إلى الخميني، وقد كان يجهل الشؤون الاقتصادية.

وعندما غادر الخميني باريس ليعود إلى طهران، كان بني صدر أحد مساعدي الخميني السبعة ذوي التّكوين الغربي. ثم أصبح أوّل رئيس إيراني منتخب.

كانت الطائرة قد شرعت في الدورة الرابعة فوق باريس عندما رنّ الراديو الدّاخلي،

Twitter: @ketab_n

ونقل مدير المطار الخبر إلى بني صدر: «منحتك الحكومة الفرنسية حق اللجوء السياسي أنت ومرافقيك، يمكن لطائرتك أن تحطّ هنا. مرحبا بكم».

أعلنت الأخبار الفرنسيّة المسائيّة في افتتاح نشرتها أن بني صدر كان قد وصل لتوّه.

ولمّا أنهى الخميني صلاة العشاء جثا قربه رافسنجاني القائد العام للقوات المسلحة في تلك الفترة وأعلمه بالخبر.

ورغم أن الخميني قد أنهى صلاته فقد قام وافتتح صلاة جديدة. فبعد أن سمع الخبر المحزن رغب في أن يتقرّب من الله بصلاة نافلة وأن يستخيره. وعندما ركع الركعة الأخيرة في صلاته، لمعت عيناه. واستدار نحو رافسنجاني وقال: «حلّت اللحظة المباركة».

منذ بداية الحرب انتظر الجيش الإيراني اللحظة المناسبة ليحرّر المدينة البترولية خرامشهر، وهي مرفأ إستراتيجي فيه أكبر مصافي النّفط في الشرق الأوسط. كانت هذه العملية مستحيلة إلى ذلك الحين لأن الأقمار الصناعيّة الأمريكية كانت تخبر العراق بكل ما يجري وسط المدينة وحولها.

«الله معنا، قال الخميني لرافسنجاني، سنحرر خرامشهر. لقد حان الوقت. اجمع كل القادة».

شرب صدّام مصل لبن ثمّ توجه إلى اجتماع حكومته حيث سيتم الحديث عن نجاح هروب بني صدر، وهو يريد أن يزف الخبر السّعيد إلى وزرائه شخصيًا.

ولم يكن قد وصل بعد حين اجتاحت الجيوش الإيرانية مدينة خرامشهر وهاجمتها من خمس جبهات في آن واحد. وهلك مئات الجنود العراقيين والإيرانيين في المدينة، وغصّت الأرض بالجثث. وبعد نصف يوم من المعارك الثقيلة تمكّن جنديان إيرانيان من إنزال العلم العراقي، وقد كان يرفرف فوق قمة مصفاة البترول، وعوّضاه بالعلم الإسلامي الأخضر. واستجمع العراقيون قواهم، ولكن آيات الله كانوا قد فتحوا بغتة جبهة جديدة في مدينة البصرة. وقد أفقد هذا الاجتياح المباغت الجنود العراقيين رشدهم فهدموا كل المنازل بخرامشهر وأحرقوا الأشجار. ثم تراجعوا علّهم يستطيعون إنقاذ البصرة.

وبعد هذا الانتصار التاريخي. ظهر الخميني لأول مرّة على شاشة التلفاز وابتسامة تعلو شفتيه. سبّح بحمد الله وهنّأ أهل الذين كانوا قد سقطوا في ساحة القتال على شجاعة

Twitter: @ketab_n

أولادهم. وخرج ملايين الأشخاص إلى الشوارع للاحتفال بتحرير خرامشهر. فأشعلوا أسهما ناريّة وسارت السيارات في كل مكان، وهي تزمّر وتومض بأضوائها. ورقص أناس فوق أسطح الحافلات وتبادلوا البسكويت والحلويات والفواكه.

دام الاحتفال إلى ساعة متأخرة من الليل، وكان أوّل احتفال وطنيّ منذ وصول آيات الله إلى السّلطة.

كانت ليلة مقمرة وقد وجد النّاس فيها عزاء بعد كل الألم والحزن الذي تسبّبت فيه الحرب.

لكن الاحتفال لم يشمل الجميع، فقد انتهز بعض النّاس الفرحة العامة لينتقموا. وانعكس نور تلك الليلة على بحيرة مالحة على تخوم الصّحراء قرب سنجان حيث كانت جثّة زينات خانم ترقد ونصفها في الماء ونصفها الآخر على التراب، وقد عُلّقت حول رقبتها ورقة محميّة بغلاف بلاستيكي كُتب عليها هذا النصّ: «لقد أَجْبَرَتْ شابّات عازبات حُكم عليهن بالإعدام على مضاجعة إسلامي قبل إعدامهن. لقد حُوكمت وعوقبت على حافّة هذه البحيرة المالحة بطلب من أمهات الفتيات اللاتي كانت ليلة زفافهن آخر ليلة في حياتهن أيضا».

سيختفي القمر عمّا قريب ليترك مكانه للشمس. ورأى سرب من طيور الغابة جثّة زينات خانم قرب البحيرة فحام حولها مُصدرا ضجّة كبيرة. فذهب مسافر على جمل نحو البحيرة ليرى ماذا يحدث.

ونزل من على جمله واتّجه نحو الجثّة وانحنى وقرأ الورقة المعلّقة على رقبتها.

Twitter: @ketab_n

المصوّر

كان أغاجان يتجوّل على طول النهر؛ فهو لم يعد إلى سريره بعد صلاّة الصبح. جلس على حافة النهر فوق كثيب من الرّمل. ورغم أن الماء لا يزال باردا فقد كانت امرأة تغسل به رجليها.

نشفتهما بتشادورها، وانتعلت حذاءها واتجهت نحو أغاجان وقالت: «هل تعطني بعض الدّراهم، فأنا لم أضع أيّ شيء في فمي إلى الآن».

- أهذا أنت يا قدسي؟

كانت قدسي فيما مضى شابة وتنبض حيويّة، وهي تبدو الآن عجوزا: شاب شعرها وتجعّدت بشرتها.

«أنا لم أرك منذ وقت طويل يا قدسي، أين كنت؟ كيف حال أمّك؟

- لقد ماتت، قالت بكآبة.

- متى ماتت؟ لماذا لم تخبروني؟

- لقد ماتت، هكذا. قالت ذلك، ولم تضف أية كلمة أخرى.

- كيف حال أختك؟

- ماتت أيضا.

- ماتت، هي أيضا؟ لماذا؟ متى؟

لم تجبه.

«أين أخوك؟

- مات أيضا.

- لكن ماذا تقولين أنت؟

Twitter: @ketab_n

– لكن أنت، أنت سوف لن تموت، أعلنت قدسي. ستبقى حيّا حتى يذهب الجميع ويأتي آخرون».

واستدارت وغادرت بهدوء.

«إلى أين تذهبين يا قدسي؟ أنت لم تخبريني بجديد!

– لا يزال هناك أربعة رجال: ثلاثة سيأتون، واحد سيرحل، واحد سيُصرع، واحد سيموت وواحد سيزرع. ولكن أنت، أنت ستبقى إلى أن يأتي الجميع ويذهب الجميع». قالت ذلك دون أن تلتفت.

وواصل جولته على طول الماء.

وفكّر: من عليه أن يرحل أيضا؟ من عليه أن يأتي أيضا؟

وجالت ذكرى نصرت بخاطره بغتة.

خلال الليالي المتقلبة ذعرا لم يكن أحد ينفذ إلى الخميني ليلا. لا أحد ، إلا نصرت.

كان الخميني يهرب مع نصرت من الواقع اليومي القاسي الّذي يغمر البلاد خارج بلاطه. وحمله نصرت إلى عالم أخر، بعيدا عن المطارِدات العراقيّات وعن القنابل وعن الاغتيالات.

فتنت الأفلام الّتي يصوّرها نصرت الخميني. وقد أطلعه على أجزاء من أفلام وبرامج وثائقيّة عن الطبيعة والطيور والنحل والثعابين وعن بحر من النجوم. وكان ذلك سرّا بينهما فلم يكن أحد يعرف ماذا كان يجري وراء الأبواب المغلقة لمكتب الخميني.

كان الخميني زعيم العالم الشيعي؛ رجلا قادرا على إثارة الملايين من المتعاطفين بخطاباته، لكنّه كان وحيدا. فكان يمضي كامل اليوم، وأحيانا كامل الأسبوع، وحيدا في مكتبه.

هو زعيم يسحر الجمهور، وقد حاول كلّ المحيطين به التّأثير فيه. لكن نصرت حافظ على خصاله ليتقرّب أكثر من الرجل، من الإنسان بداخله. لا يفقه الخميني شيئا في الرياضيات، وليس لديه أية فكرة عن الفيزياء، لكنه أبدى اهتماما بالغا بالضوء والقمر والشمس والملاحة الجوية والنّيازك خاصّة.

Twitter: @ketab_n

ربط نصرت الخميني بعالم معجز كان يجهله الجهل كلّه. وغير وحدته إلى ليال مسلية ومليئة بالألوان ينسى خلالها كل شيء.

وحين دخل نصرت إلى مكتب الخميني نزع تنّورته وعلّقها على المشجّب وبدأ الحديث عن أفلامه.

«لقد جلبت بعض الأفلام القصيرة. وهي أفلام وثائقيّة فريدة من نوعها تتحدّث عن حياة نوعين من الحيوانات في الطبيعة. وأنا متأكّد أنّك ستحبّهم. الأولّ فيلم عن النمل وعن هرميّة تنظيم السّلطة عنده، والآخر فيلم عن القردة. من المدهش رؤية إلى أي حدّ يتشابه تصرّفهم مع تصرّف الإنسان! جلبت أيضا فيلما قصيرا مدهشا عن الأحجار الكثيرة السّابحة في الفضاء، ومن وقت لآخر تسقط صخرة كبيرة أو نيزك على الأرض، إنه شيء رائع!».

نظر إليه الخميني باستغراب؛ ولم يحسّ ابنه أيضا بالارتياح بحضوره. كان قد سمع بأن الفنانين ليسوا مثل بقيّة النّاس، ولكنه لم يلتق بأحد منهم قبل نصرت.

لعب نصرت دورا معروفا منذ عهد قدماء ملوك الفرس. كلّ الملوك لهم بهلوانات يسلّونهم. وكان البهلوان الشّخص الوحيد الذي يمكنه الدّخول إلى الأجنحة الخاصة للملوك وله مطلق الحريّة في الحركة والكلام، شرط أن يدخل البهجة على الملك.

«ما اسم تلك القناة؟ قال الخميني.

- أيّة قناة؟

- الأمريكيّة. لقد أجروا معي حديثا صحفيّا مرّة أو مرّتين.

- أتقصد السي آن أن؟

- نعم، تلك هي ، قال.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- لا شيء، أعرف فقط أنّ كل رؤساء الدّول المهمّة لهم تلفاز في مكاتبهم مفتوح على السّي آن آن باستمرار.

- هذا صحيح، أنا مندهش لرؤيتك بدون تلفاز في مكتبك.

- لكنهم يتكلمون الانكليزية ، على ما أظن».

Twitter: @ketab_n

لم يكن الخميني يملك تلفازا أو مذياعا، وكانت كلّ الأخبار تأتيه مكتوبة.

«توجد أيضا قناة عربية مثل السّي آن آن، غير أن الأخبار تقدم باللغة العربية، قال نصرت، سأتدبر الأمر كي تستطيع أن تتابعها هنا».

وفي اليوم الموالي حمل له نصرت جهاز تلفاز صغير وخبّأه في خزانة ثيابه بطريقة لا يراه فيها أحد، وأراه كيف يشغّلها وكيف ينتقل من قناة إلى أخرى.

«يكفي أن تكون مبرمجة على القناة العربية» قال الخميني بصوت منخفض كأنّه يفعل شيئا محظورا.

بعد عدّة أسابيع تلقى نصرت اتصالا هاتفيا غير منتظر من مراسل السي آن آن. وكان الرّجل يعلم بالصّلات الوثيقة بين نصرت والخميني فاتّفقا على اللّقاء في إحدى دور الشاي في المحطة وحدّثه نصرت عن عمله. وبعد المحادثة سأل المراسل نصرت بكل احتراس ما إذا كان راغبا في إعداد برنامج وثائقي عن الخميني.

«في ماذا تفكّر بالتحديد؟ قال نصرت غاضبا.

– فيلما قصيرا عن الحياة اليوميّة للخميني.

فاجأ هذا الاقتراح نصرت، كان يفكر منذ بعض الوقت بشيء من هذا القبيل لكن هذه الفكرة بدت له غير قابلة للتّحقيق.

«تريد السي آن آن تسجيلا وثائقيّا وحيدا بنصف ساعة تقريبا عن الحياة الخاصة للخميني، قال المراسل. ونحن، طبعا رصدنا للدفع مبلغا ضخما بالدّولار».

لم تكن المكافأة الكبيرة هي ما يهمّ نصرت. ولكنّ ما استهواه هو إمكانية القيام بفيلم وثائقي بلا نظير. ربما تكون فرصة حياته، لكنها مستحيلة.

«هذا مستحيل، قال نصرت، لماذا سيسمح لي بتصويره؟».

– عليك أن تحاول، ردّ المراسل، فكّر في الأمر، وأعلمني إذا احتجت إلى شيء أخر.

– حسنا»، أجابه نصرت.

جالت برأسه الآن المشاهد التي يريد أن يصوّرها. كان منتشيا إلى درجة أنّه لم يغمض له جفن طيلة اللّيل.

Twitter: @ketab_n

ذات ليلة بينما كان نصرت وآية الله يتنزّهان على طول البحيرة وراء منزل الخميني قص عليه قصة مثيرة عن الأقمار الصناعية ووظيفتها.

شرح له أنّه بفضل الثورة التكنولوجية نستطيع الآن أن نشاهد في التلفاز مباشر الرئيس الأمريكي بصدد شرب القهوة في مكتبه بالبيت الأبيض.

«الإنسان فضولي، واصل قوله، وليرضي فضوله ابتكر هذا النوع من الآلات وبعث بها إلى الفضاء. البشر يريدون معرفة كل شيء. وهم متشوّقون ليعرفوا كيف هو منزلك وأين تسكن وماذا تأكل. وهذا الفضول ليس مذموما».

كان نصرت يحاول أن يهيّئه لما سيطلبه منه ولكنه يعرف مسبقا أنّه إذا نطق باسم السي آن آن، التابعة لأمريكا، فإنّه سيرحل قريبا. خشي أنّه إذا طرح الأمر فسوف لن يكون مرحّبا به وسيكون مجبرا على حزم عدّته والمغادرة.

لكنه كان مهووسا بفكرته إلى درجة لم يعد فيها قادرا على التّحكّم بنفسه. كان نصرت يتنقّل دائما مع كاميراته، وفي المساء، عندما شغل التلفاز في مكتب الخميني، ضغط سرّا على الزر الأحمر لآلته. وصوّر الخميني جالسا على الأرض، حافي القدمين وهو ينظر خلسة إلى التلفاز المخفيّ وراء باب خزانته.

وخلال عدّة أشهر التقط نصرت عشرات الصور للخميني وهو يتنزّه على طول البحيرة ويشاهد البط وطيور الدّوري تطير فوق رأسه وهي تزقزق، ثمّ وهو يتعثر بجدع شجرة فتسقط عمامته وتتدحرج نحو البحيرة، وتتجمّع البطّات وتبدأ بنقرها.

وصوّر في أحد المشاهد الخميني مريضا على سريره. كان راقدا على جنبه الأيمن متّجها نحو مكّة مثلما يدفن المسلمون موتاهم في قبورهم. ودخلت زوجته برهة وجسّت جبينه برفق وغادرت دون أن تقول شيئا.

وفي مشهد آخر، شوهد وهو يجيء ويذهب في قاعة جلوسه. ثمّ ذهب نحو المغسل فغسل يديه وتناول قرآنه وقرأ صفحة بتأنّ. وعندما أكمل التلاوة تناول قلمه وكتب شيئا ما ثمّ وضع الورقة في ظرف وألصقه ونادى زوجته: «بتول»

أقبلت فمدّ لها الظرف قائلا: «أعطِ هذا لقائد الجيش!»

فأخذت الظرف وأخفته تحت تشادورها وغادرت الغرفة مسرعة.

Twitter: @ketab_n

لم يتأخر الخميني في إدراك أنّ نصرت كان يصوره خفية. واقتنع نصرت بأنّ الخميني قد وافقه ضمنيا على ذلك.

ذات يوم اتصل مراسل السي آن آن بنصرت .

– لم تتّصل بي، هل يعني هذا بأنّك رفضت طلبنا.

– أنا أقوم بشيء رائع، لم يتمالك نصرت نفسه عن الكلام.

وبعد ربع ساعة كان الرّجل أمام بابه.

كان نصرت متحمّسا ولم يخطر بباله أنّ مكتب المخابرات الجديد يراقبه. ولم يلاحظ أنهم كانوا على علم باتصالاته مع السي آن آن.

دخل المراسل. وأعدّ نصرت شايا ووضع أحد أشرطة الفيديو في المسجّلة التلفزيونيّة وجلس. لم يصدّق المراسل عينيه فقال «مذهل».

لم يكن قد رأى نصف الأشرطة عندما قفز خمسة مسلحين من فوق السّطح إلى الشرفة. وفتحوا الباب بضربة رِجل واندفعوا إلى الدّاخل وقبضوا على نصرت والمراسل. وبقي جنديان داخل الشقّة وقلبوها رأسا على عقب. ووضعوا كل ما شكّوا فيه داخل صندوق وحملوه معهم.

سُلّم مراسل السّي آن آن بعد يومين إلى بلاده أمّا نصرت فقد انتهى به الأمر إلى زنزانة في انتظار استجوابه. ولم يدرك أن العمليّة كانت أخطر ممّا تصوّره إلّا وهو في السّجن. عرف أنّه ارتكب خطأ فادحا، وأنه سيعاقب بقسوة من أجل التقاطه الصور، لكنه تمنّى أن يأتي الخميني لنجدته.

وطوال فترة استجوابه كان يحاول إقناع القاضي باحترامه الكبير للخميني وتقديره الصّادق له. وبيّن أنّ هذه الصّور ذات ميزة تاريخية وذات أهمية كبرى للموروث الثقافي للبلاد. وركّز على أنّه لم تكن لديه قطّ نيّة بيع هذه الأفلام لأمريكا وأنّه لم يقم بها إلاّ حبّا للكاميرا. وأقسم بأنه كان وفيّا للخميني بقدر وفائه لكاميراته، وأنّه قد فهم بأنّ الخميني كان على علم بما يقوم به، وأنّه يمكن، إذا لزم الأمر، أن يقدّم البرهان على ذلك.

بدا كلام نصرت جديرا بالتصديق، وسوف يصدّقه القضاة إذا ما لم يجد لديه الرّجال شريطا مشبوها. كانت صور ذلك الشريط مدهشة إلى درجة أنّ نصرت لم يدر ماذا

Twitter: @ketab_n

يفعل. ولهذا فقد أخفاه بين روافد السقف بورشته على أمل أن لا يكتشفه أحد. ومن فرط جزعه فقد محا كلّ شيء من ذاكراته. ولكن مخبري الاستخبارات السريّة كانوا قد عثروا عليه.

«احذر أن يوقعك حبّك النساء في فخ ذات يوم»، هذا ما قاله أغاجان لنصرت.

كان نصرت دائم البحث عن امرأة خارقة الجمال يستطيع أن يجعل منها صورة فخمة. ولكنّه لم يفكّر قطّ في أنّ تلك المرأة يمكن أن تكون زوجة الخميني.

وضع محقق المخابرات بغتة الشريط المسجّل فوق الطاولة فاصفرّ وجه نصرت عندما عرفه، وأيقن حينئذ أنه قد هلك. وأذهله الغمّ.

ما الذي رآه في هذه المرأة العجوز ليضغط آليا ودون إرادة منه على زر كاميراته؟

كانت بتول زوجة الرّجل الأقوى في العالم الشّيعي، ولكنها كانت هي نفسها ضعيفة.

ولم يستطيع نصرت أن يفسّر ذلك؛ والضّعف الصّامت للمرأة هو ما دفعه إلى تصويرها، وتسجيلها والاحتفاظ بالشّريط فلربّما يستطيع ذات يوم أن يعرضه. كانت بتول تلبس نقابا كامل حياتها، فلم ير أيّ رجل قطّ، باستثناء الخميني، شعرها أو وجهها أو يديها أو رجليها. ولهذا السّبب ربما تحسّ أحيانا أنها بحاجة إلى أن تُظهر نفسها.

لم يدرك نصرت ذلك مباشرة. فعندما يقرع باب غرفة الاستقبال تفتح له بتول وتستقبله بابتسامة. ويبدو من تقاسيم وجهها أنها أصغر من الخميني بحوالى عشرين سنة.

كانت دائمة الترحيب بنصرت وهو ما لا يجوز أن تفعله المرأة المتديّنة. لكن نصرت كان يعرف أن هذه الحفاوة لم تكن لشخصه وإنما لكاميراته.

كانت البتول جميلة وكانت تريد أن تُظهر جمالها وكانت تحبّ أن تكون موضع اهتمام. وكانت أمنيتها هي أمنية كل اللواتي كنّ خاضعات للرّجال عبر التّاريخ ولم تكن لديهن قطّ إمكانية أن تظهرن جمالهن.

وقد أقامت اتفاقا ضمنيا مع نصرت فصوّرها في صمت.

نُشرت ملايين الصور للخميني ولكن لم ير أيّ شخص أيّة صورة لبتول في أيّة جريدة. وبدا وكأنّها غير موجودة أصلا.

Twitter: @ketab_n

وقفت بتول أمام النافذة ناظرة إلى البحيرة وقد استبدلت تشادورها الأسود بآخر أبيض صاف موشّى بأزهار زرقاء. وركّز نصرت الكاميرا تركيزا كبيرا على وجهها وشعرها الفضيّ الممكنة ملاحظته. ثمّ أرخت تشادورها ببطء على كتفيها. وكان ذلك إيحاء.

لكن كان هنالك مشهد قضى على نصرت وقد صُوّر في غرفة بتول عبر فتحة الباب. صوّر الغرفة، وقد كان بركنها سرير وطاولة وُضعت عليها مرآة صغيرة وعلبة قديمة لكريم نيفيا.

أخذ المحقّق المسجّلة التلفزيونيّة وضرب بها رأس نصرت بكل قوته.

فانكسرت المسجلة وسقط نصرت على الأرض مغشيّا عليه.

ثم صمت الجميع.

وعمّ الصّمت كلّ شبر في البلاد

لم يعد صدّام حسين يقصف المدن ولم ينظر الخميني في القرآن ليعرف ما إذا كان عليه أن يغزو المدن العراقية.

كان الصمّت رهيبا. انتهت الإعدامات واغتيالات آيات الله. أرهق الجميع، واحتاج جميعهم إلى الراحة.

Twitter: @ketab_n

السّابقون السّابقون

وَالطُّورِ [1]

أَفَسِحْرٌ هَذَا

أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ [15]

وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ [2]

فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ [3]

وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ [4]

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ [5]

وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ [6]

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [11]

وَالطُّورِ [1]، وَالطُّورِ [1]

كم سنةً مرّت؟ كم شهرا مضى؟

من غادر؟ ومن أتى؟

لم نعد نحصي السنين؛ ثمّ إنّ إحصاء ما خلا من سنين لا معنى له. فقد توقّف الوقت عند أولئك الذين غمرهم الحزن وأولئك الذين يبكون موتاهم؛ وأيضا عند أولئك الذين يعزقون حدائقهم علّهم ينسون حزنهم، وعند أولئك اللّواتي يحضّرن أطباقا مقدّسة حتّى يتمكّنّ من توزيع ألمهنّ على أقداح عدّة.

وبدا كأنّ البلاد قد استعادت هدوءها، ولكن مازال هنالك رجل يعبر الصحراء على

Twitter: @ketab_n

ظهر بعير متسلّحا بمسدّس تحت حزامه، عاقدا عزمه على مقاضاة القاضي.

وعندها فقط يمكن للحزن أن يمّحي.

وعندها فقط يمكن للوقت أن يسري.

وعندها فقط يمكننا عدّ ما ولّى من سنين، بين من حلّوا بنا ومن رحلوا عنّا.

وفَقَدَ الخميني ذاكرته تدريجيا في هذا الصّمت المطبق. وجاء الوقت الذي لم يعد يعرف فيه حتى أقرب المقربين إليه.

استولى رافسنجاني وخامنئي، هذان الإطاران الأساسيان، على السلطة ودفعا الخميني شيئا فشيئا إلى الخلفية.

وكان جلجل أول من اكتشف خَرَفَ الخميني. فقد جثا قربه وأحس بالرعب عندما أدرك أنّ الخميني لم يعرفه.

كان جلجل الإطار الوحيد الذي يعمل بشكل مستقل. فقد كان امتدادا للخميني، ومستقويا به، وهو لا شيء من دونه، وقد حان الوقت إذا ليختفي من دائرة الضّوء.

أضف إلى ذلك أنّ عهد الإعدامات قد ولّى؛ وأظهر النظام من أيّة غابة كان يحتطب. طرد المحتل العراقي وأبيد كلّ الأعداء. وعليه أن يستقر الآن. فلم يعد هنالك من مكان لقاض متمرّس مثل جلجل.

على جلجل أن يجد وظيفة أخرى، لكن ذلك لم يكن سهلا. وقد علم أعضاء من حزب المجاهدين ومن الجماعات اليساريّة بوظيفته وجرائمه البشعة الّتي تورّط فيها. وكان جميعهم يترصّدونه جاهزين لمحقه.

رغب جلجل في العودة إلى قم ليدرّس الشّريعة في مدارس الأئمة، لكن ذلك كان مستحيلا. وفهم أنّ نهاية مهمّته في الإسلام، كما هو الأمر بالنّسبة إلى الخميني، قد صارت محلّ نظر.

لم يمت الخميني بعد، لكنه صار ينتمي الآن إلى الماضي. أمّا جلجل فلا مستقبل له ولا مكان له في الحاضر. عليه أن يعود إلى الماضي، ولكن كيف ذلك؟

من حسن الحظّ أنّ خلفاء الخميني عرفوا كيف يعيدون جلجل إلى الماضي. كان

Twitter: @ketab_n

الطّالبانيّون في تلك الفترة يسعون إلى إنشاء نظام إسلامي في أفغانستان. وقد لجأوا إلى القوّة لكي يدخلوا الشّريعة الإسلامية القديمة إلى أفغانستان.

وكان لآيات الله الإيرانيّن صلات قوّية بالطّالبانيّين فكانوا يجتمعون بهم بانتظام من أجل التّعاون المشترك على تدعيم مواقعهم أمام أعدائهم الغربيّين.

وفكّرت الحكومة في إهداء جلجل إلى طالبان؛ سيكون هديّة مربحة لهؤلاء المتعصّبين.

وبدا ذلك حلاّ مذهلا قبله جلجل بصدر رحب؛ فتعصّب الطالبان يعجبه. حضّر حقيبته في الحال وتنكّر في زيّ تاجر ملتح يضع قبّعة، وسافر خفية بالقطار إلى مدينة مشهد الحدوديّة.

أمضى الليلة في فندق هناك حتّى جاء مقاتل طالباني للبحث عنه بعد يوم. وعبر الحدود في سيّارة صحبة الجندي وهو يرتدي بدلة أفغانية، وذهب إلى كابل حيث استقبله الزعيم الطّالباني بحرارة وأهدى له بيتا.

تغيّرت حياة جلجل كلّيا؛ وصار يسبح الآن في مياه هادئة. كان يعمل رسميّا بأرشيف المدينة، لكنّه في الحقيقة كان يشغل مركزا مهمّا في هيئة قيادة طالبان.

استمتع بالتستر الذي توفره له المدينة والهدوء الذي خوّل له أخيرا تعميق معارفه في الشّريعة الإسلامية. فكان يمضي كامل اليوم بالمكتبة القديمة للأرشيف البلدي يدرس المراجع الإسلامية الفريدة التي يجلبونها من أجله خصّيصا من المكتبة المكّية بالعربية السعودية.

وبعد أشهر، تزوج بأفغانيّة وكانت تلك بداية حياته العائلية.

كان سعيدا وقد أعجبته حياته الجديدة، فهو يستطيع أن يمشي بحريّة في المدينة ويدخل إلى المحلات التجارية، وهو ما لم يفعله من قبل قطّ. وكان يزور عائلة زوجته الأفغانية بانتظام. لا أحد يعرف ماضيه، وقد ادّعى أنّه باحث إسلامي يعدّ كتابا عن تاريخ الإسلام. ولم يكن يعرف أنّه لا يزال ملاحقا، وأن جرائمه لم تُنس بعد.

كان شهبل أحد أولائك الذين يلاحقون جلجل. لكنّه أضاع أثره. لم يتبقّ من حزب شهبل إلاّ ثلاثة أعضاء من الهيئة الإداريّة. كان الآخرون قد أوقفوا أو أعدموا أو هربوا.

Twitter: @ketab_n

وخلال آخر اجتماع مستعجل لآخر الأعضاء عُيّن شهبل لاغتيال جلجل. واكتشف لاحقا أنّه آخر قرار اتّخذته هيئة حزبه. كان شهبل يريد أن يثأر لجواد تحديدا. ولم تغادر فكره تلك الليلة الباردة الطويلة والبحث عن قبر في الجبال. وهو لا يحتمل الذل. عليه أن يفعل شيئا وإلاّ فلن يجد النّوم طريقا إلى جفنيه. ولن يستطيع أن يعود إلى حياته إلاّ بعد أن ينفّذ هذه المهمّة.

ولم يعرف أحد من العائلة مكانه منذ اغتياله لآية اللّه وقد ظن أغاجان أنّه غادر البلاد وأنّه موجود بمكان ما في أوروبا أو أمريكا.

لكنّ شهبل لم يرحل. كان لا يزال في طهران. أطال لحيته واشتغل سائقا لواحدة من ملايين سيارات الأجرة البرتقالية بالمدينة. لم يكن للأحزاب السريّة سيّارات خاصّة لدواع أمنيّة، بل كان لهم عدد من سيّارات الأجرة يتنقّلون بها في كل مكان.

يملك شهبل سيّارة أجرة منذ أن كان كاتب هيئة الحزب. وكانت وسيلة تنقّله ومصدر رزقه. وللدّواعي الأمنيّة ذاتها فإنّ الأعضاء المتبقّين من الحزب لا يجتمعون أبدا. لكنّهم يلتقون في فترات محدّدة في دار الشّاي في بازار طهران.

وفي إحدى هذه الاجتماعات أُعلِم شهبل بأن جلجل في كابل.

«كان عليّ أن أعلم ذلك، قال بذهول، من أين حصلتم على هذه المعلومة؟».

- من حزب «طوده»، قال أحدهم باقتضاب وهو يمدّ له ورقة صغيرة كتب عليها العنوان.

حُلّ حزب طوده أيضا فقد أضعفه النّظام. لكن الأعضاء القدامى لذلك الحزب الشيوعي المناصر للرّوس مازال يحافظ على اتّصالاته مع الحزب الشيوعي في البلاد المجاورة: الاتحاد السوفياتي.

عرف شهبل الآن ماذا بقي له ليفعله.

خلال فترة الحكم الشيوعي لأفغانستان كانت الحركات اليسارية السّرية على علاقة طيّبة مع الأفغان المتعاطفين معها. وعندما استولت طالبان على السّلطة لجأ الشيوعيون إلى الاتحاد السوفيتي. لكن كثيرا منهم لم يغادر. وسيحتاج شهبل إلى عدّة أشهر ليستطيع الدّخول سرّا إلى البلاد بمساعدة جماعة أفغانية. عَبَرَ الصحراء في ظلمة الليل على ظهر

Twitter: @ketab_n

بعير حتّى وصل الحدود الأفغانية حيث كان أفغاني ينتظره على درّاجة ناريّة.

وعندما وصل إلى الحدود ترك جمله في إسطبل الفندق وترجّل إلى المكان الذي ينتظره فيه الأفغاني وراء الأسلاك الشائكة. وعندما تبادلا كلمة السرّ دلّه الرّجل على المكان الذي يستطيع أن ينزلق منه تحت الأسلاك ليدخل إلى البلد.

ركب شهبل على المقعد الخلفي للدرّاجة وانطلق الرجل. وفي ظرف نصف ساعة، توقف الأفغاني قرب كوخ أحد الرّعاة. دخل وخرج بثياب أفغانية تقليدية. وبعد أن غيّر شهبل ملابسه سلكا طريقا إلى أقرب قرية، حيث من المفترض أن تغادر حافلة الرّكاب بعد يوم إلى كابل.

كان الفصل لا يزال خريفا، لكنّها تثلج في قمم الجبال وتلسع الرياح الوجه. اشترى الرّجل خبزا وتمرا لشهبل واصطحبه إلى الحافلة.

بعد سفر دام خمس ساعات عبر الجبال، وبعد وقوف متعدّد، وصلت الحافلة أخيرا إلى وسط كابل.

نزل شهبل من الحافلة وتوجّه أوّلا إلى المقهى ليأكل شيئا. فطلب كثيرا من الحساء الأفغاني السّاخن، وشرب عدّة كؤوس من الشاي السّاخن، واحدة تلو الأخرى.

وبما أنّه لم ينم خلال اللّيالي الثّلاث الماضية فقد دخل إلى النّزل الصّغير المجاور للمقهى واندسّ تحت الأغطية فورا.

ولم يستيقظ في صباح الغد إلاّ عندما طرق النّادل باب غرفته ليسأله كيف كانت ليلته.

كان بحاجة ماسّة إلى الاغتسال لكن الفندق ليس به حمّام. فذهب للبحث عن حمّام عموميّ، فوجد مسجدا استحمّ فيه بعناية قبل أن يذهب لتناول الإفطار في دار الشاي. ويقع الأرشيف البلدي الذي يعمل فيه جلجل بعد بعض شوارع من هناك. كان الأرشيف مغلقا، لكن لا يزال هنالك ضوء منبعث من وراء النّوافذ.

يقع مكتب جلجل في الطّابق الأخير قبالة النّافذة، حتّى إنّه عندما يرفع عينيه يستطيع أن يرى المارّة في الطّريق. وككلّ الموظّفين يبدأ يومه باكرا، لكن عندما يغلق باب الأرشيف، نحو السّاعة الرّابعة يكمل هو عمله لوقت قصير ويكون آخر من يغادر المبنى.

Twitter: @ketab_n

على الرّغم من أنّه كان يرتدي لباسا أفغانيّا فقد عرفه شهبل في الحال حين خرج. لقد سمن وصارت خطاه تخونه. قارب اللّيل على النّزول. وتبعه شهبل حتى الخبّاز. مشى جلجل والخبز السّاخن تحت ذراعه، نحو رجل يبيع آخر عنب الخريف على الرّصيف. اشترى بعضا منه واتّجه نحو منزله.

تبعه شهبل حتى وصل أمام منزله، ثمّ قام بجولة استطلاعية في الجوار ورجع إلى النّزل. كان يفضّل أن يجد جلجل وحيدا بمنزله. لكنّه في مساء اليوم الموالي عندما ألقى نظرة من النّافذة، رأى جلجل جالسا على الأرض يتعشى مع زوجته الجديدة الأفغانية. لا يستطيع شهبل أن ينتظر وقتا أطول، يجب عليه أن يقوم بالمهمّة بأسرع وقت قبل أن تتفطّن الاستخبارات الأفغانية لوجوده.

قام بجولة حول المنزل وترك الوقت لجلجل كي يتناول عشاءه. عندما عاد أمام النافذة رأى زوجته في المطبخ. كان الطّابق العلويّ مضاء. فاغتنم شهبل الفرصة. تسلّل إلى المنزل عبر النّافذة واتجه بلا ضجّة نحو المطبخ. كانت المرأة تنظّف الأواني فلم تسمع شيئا. وحانت منها التفاتة فرأت رجلا مسلّحا في فتحة الباب، لكنّ قبل أن تستطيع الصيّاح، أمسكها شهبل ووضع يده على فمها وهمس في أذنها: «أسكتي؟ لن أمسّك بسوء. اسمعيني: إن زوجك مجرم إيراني، لقد قام بإعدام مئات الشبان الصّغار. فإذا بقيت هادئة، سوف لن يمسّك سوء. هل تفهمين الفارسيّة ؟ »

هزت المرأة برأسها موافقة وهي فزعة.

«لا وقت لديّ، سأغلق فمك بشريط لاصق وأنت شدّي يديك ورجليك. لا تتحرّكي، إذا تحرّكت فسأقتلك أنت أيضا. هل فهمتني؟ »

هزّت المرأة رأسها موافقة مرّة أخرى.

«هذا جيّد»، قال. وقيّدها وتركها على أرض المطبخ وصعد السلّم دون ضجيج متجّها نحو الحجرة المضاءة.

عندما وصل إلى أعلى الدّرج نظر عبر فتحة الباب والمسدّس بيده. كان جلجل جالسا إلى طاولة وقد وضع نظاراته يقرأ كتابا ويدوّن ملاحظات. فتح شهبل الباب ببطء ودخل. لم يلتفت جلجل، وقد ظنّ أنها زوجته تحمل له الشاي. ولكن لمّا لم تقل شيئا، نزع نظّارته، والتفت نحو الباب فرأى أفغانيّا مسلّحا بالغرفة.

Twitter: @ketab_n

«لا تتحرّك!» قال شهبل.

اللّغة الفارسيّة جعلته يفهم أنّه ليس أفغانيًا. ونظر إلى شهبل مذهولا.

نزع شهبل عمرة رأسه الأفغانية وقال بنبرة باردة:

«محمدا آل جلجل ! المكنى حاكم الله، لقد أمرتني المحكمة السريّة بإعدامك!».

عرف جلجل شهبل، شعر بالخوف، أراد أن يقول شيئا لكنّ لسانه جفّ في حلقه كقطعة خشب. إنّها نهايته، لا شيء يمكن أن ينقذه. تمتم بشيء.

«أنا لا أفهمك»

أشار إلى كأس الماء التي كانت فوق الطاولة.

«هل تريد أن تشرب !» قال شهبل.

شرب جلجل جرعة ماء ويده ترتجف.

« هل أستطيع أن التفت نحو مكّة؟» قال بعد ذلك، بصوت أخرس.

«تستطيع ! »

نهض جلجل. وخطا نحو النافذة، والتفت في ظلمة الليل نحو الكعبة ورتّل

وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ [27]

وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ [41] [الواقعة]

أطلق شهبل طلقة أصابت جلجل في صدره.

ترنّح جلجل، لكنه تشبث بحافّة الشّباك وتابع:

أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحًا

فَمُلَاقِيهِ [6] [الانشقاق]

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ [1]

وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ [2] [الانفطار]

Twitter: @ketab_n

أطلق شهبل عيارين آخرين أيضا.

ترك جلجل حافة النافذة وانهار في الخازوق.

وواصل الترتيل بصوت مبهم وهو ينتفض:

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ [10]

أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ [11]

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [12] [الواقعة]

عجّل شهبل بالنّزول، وفكّ قيد المرأة وقال لها: «سارعي بالذّهاب إلى أسرتك!»

هربت المرأة إلى الخارج.

غادر شهبل المنزل، جرى إلى جهة اليسار، حتى آخر الشّارع ثم أكمل طريقه بهدوء إلى وسط المدينة مارّا بالأزقّة المظلمة. وهناك اشترى خبزا ساخنا وعنبا، وركب الحافلة الليلية التي تذهب إلى باكستان.

سارت الحافلة وسط شوارع كابل الضعيفة الإنارة. كانت المدينة رائعة. وعزم على الرجوع إلى هذا المكان السّحريّ في يوم ما.

Twitter: @ketab_n

جنّات النّعيم

ألف لام ميم راء. مرت سنوات وحزن الدّار يكبر مثل شجرة في حديقة

ينام الرّهائن الأمريكيّون في بيوتهم منذ فترة طويلة. مات الخميني.

انتهت الحرب ولم تستطع أمريكا أن تحقّق أهدافها رغم مساعدة صدام لها، فأبقت طائراتها التّجسّسية أرضا.

واصلت الطيور المهاجرة مرورها فوق دار المسجدي لكنّها لم تر أيّ طعام فتابعت طريقها.

سكنت بنتا أغاجان بطهران وقد تزوّجتا سرّا خلال الأيام المضطربة أثناء الحرب والاغتيالات. أنجبت أنسي ولدا سمته جواد. وكانت تأتي بانتظام إلى الدّار صحبة زوجها وتضع جواد بين يدي فجري سادات. ظنّت فجري أنّها لن تتغلب أبدا على حزنها، ولكنّها قبّلت الولد ونادت: «أغاجان، أين أنت؟ تعال وانظر، إنّه يشبه جواد شبها تامّا».

سمع الزّاغ العجوز فجري فطار مستديرا فوق الدّار. وقفزت السّمكات الهرمات في الحوض إلى خارج الماء لتعبّر عن فرحها، وانتصبت الشجرة العجوز وابتسمت، وعادت العصافير وحطّت فوق أغصانها. وحملت الرّيح الجبليّة معها رائحة الزهور البرية الرّبيعيّة. ولبس أغاجان معطفه وقبّعته، أخذ عصاه وذهب فرحا إلى البازار لشراء علبة مرطّبات.

متى كانت آخر مرّة اشترى فيها علبة مرطبات ليحتفل بحدث سعيد؟

إنّه لا يزال يتذكّر، لقد كان اليوم الذي سافرت فيه الجدّتان إلى مكة.

وفي يوم من أيّام الرّبيع البهيجة، أخرج أغاجان سيّارته الفورد القديمة من المرآب وغسلها بنفسه أمام الباب لأوّل مرّة. ووضع حقيبة فجري سادات في صندوق السيارة وساعدها على الصّعود، ثمّ استقر وراء المقود وسلك الطريق إلى جيرجه.

Twitter: @ketab_n

في الماضي كانت كلّ نساء القرية تقريبا، شابات وعجائز يَحِكْنَ الزّرابي لأغاجان وتستقبله القرية كلّها استقبال الملوك. ثمّ جاء زمن رفضوا فيه أن يعطوه قبرا لأبنه.

انتهت تلك الأيام لحسن الحظّ، لأنّه عندما أوقف سيّارته وعبر ساحة القرية صحبة فجري فسح له القرويّون المجال وانحنوا باحترام لمروره.

الآن، وقد اندثرت موجة العنف، وانتهت الحرب، وانقشع غبار الثورة، صار الناس يرون نتائج سنوات كثيرة من الكفاح بشكل أوضح.

تمزّقت عائلات كثيرة بسبب الموت واختلاف الآراء السّياسيّة. وامتلأت السّجون بمخالفي النّظام وارتفعت نسبة البطالة وشحّت المواد الغذائية.

لم يخبر أغاجان فجري بما حدث في تلك الليلة المشهودة في القرية قطّ، ولكن فجري سمعت القصّة من عائلتها.

«أنا لا أفهم أبدا كيف يستطيع النّاس أن يتغيّروا إلى هذه الدّرجة بين عشيّة وضحاها»، قالت فجري حينما كانا يتّجهان نحو دار والدها القديمة.

- إنّهم أناس بسطاء، وهم جميعهم تقريبا أميّون. لم يفعل الشّاه شيئا من أجلهم وآيات الله لن يفعلوا شيئا أيضا. أنا لا أحقد عليهم أبدا. ثمّ إنّ جذورنا راسخة بعمق في هذه الأرض، فموتانا كلهم مدفونون هنا. عندما تسير الأمور جيّدا فبسببنا نحن، وعندما تسوء فبسببنا أيضا».

صار القصر القديم الذي كانا يقصدانه عموما عندما يأتيان إلى هنا تحت يد الجيش الإسلامي الآن، فباتا الليلة الأولى في منزل والد فجري حيث تسكن أختها الصّغرى.

وفي اليوم الموالي ذهبا إلى منزل كاظم خان. مشيا جنبا إلى جنب تحت أشجار اللوز المغطاة بأزهار وردية يانعة. وكانت الطيور تزقزق بفرح وكأنّها تريد أن تحتفل بنهاية الحزن. لم تتغيّر القرية غير أنّ الأزواج الشبان صاروا يبنون منازل جديدة على منحدرات التّلال.

تشتهر جيرجه بزرابيّها وزعفرانها. وكان الزّعفران الذي ينمو فوق التّلال فواحا جدّا. في الماضي عند زيارة منزل كاظم خان على ظهر الحصان لم تكن ترى غير نباتات الزّعفران الصّفراء. أمّا اليوم فقد صرت ترى مئات المنازل الصّغيرة البسيطة فوق التلال المنخفضة أيضا. وقد شرعوا في تشييد قصر الماء على أعلى التّلال في عهد الشّاه ولكنّه لم يكتمل.

Twitter: @ketab_n

« لقد هرمت الأشجار»، قالت فجري.

- أنا أيضا شخت، قال أغاجان.

قبل عودة الصقيع، تصعد كل الفتيات فوق التّلال لجمع زهرات الزعفران التي تباع بأسعار الذهب. كنّ يغنّين بفرح وفي طريق العودة، تكون أيديهن صفراء برّاقة وتنبعث رائحة الزعفران من أجسامهن.

يطلب كثير من شباب القرى المجاورة شابّات جيرجه للزّواج. ولكنّهنّ كنّ يتألّمن لفصلهنّ عن قريتهن.

وتظلّ الشابات في المنازل في أيّام الشتاء الطويلة ليلا ونهارا لنسج الزرابي. وعند حلول فصل الربيع، كانت النوافذ تُفتح على مصاريعها فيُسمع غناؤهن وقهقهاتهن. لا تزال النوافذ مفتوحة الآن ولكنّهنّ لم يعدن يغنّين، فقد مُنعن من ذلك.

مرّ أغاجان وفجري سادات ببطء بجوار شجرة اللوز الهرمة وواصلا طريقهما إلى منزل كاظم خان الموجود على مرتفع مقابل تلال الزعفران.

وظهر من بعيد فارسان يركضان باتجاههما. توقفا على بعد بضعة أمتار وترجّلا نحو أغاجان وهما يمسكان الحصانين من لجاميهما.

وكان الرّجلان يشبه أحدهما الآخر بشكل لافت، وانحنيا لتحية أغاجان، لكنّهما لم يقولا شيئا.

لم يعرفهما أغاجان فنظر إلى فجري سادات نظرة تساؤل.«آه ! لقد عرفت، إنّهما ابنا خادم كاظم خان، الأصمّان !» قالت فجري سادات وهي تبتسم.

ردّ أغاجان تحيّة الرّجلين بحركة من يده وسأل عن حال زوجتيهما وأولادهما. وقال أحد الرّجلين بحركات من يده «لقد جلبنا هذين الحصانين من أجلكما، ستحتاجان إليهما خلال إقامتكما هنا».

نظر أغاجان إلى فجري باسما وقال :«لقد جلبا لك حصانا، ماذا تظنين؟».

- هذا ليس سؤالا، قالت فجري وهي تضحك. أنت تستطيع ركوبه، أمّا أنا فلا. لم أعد فجري الشّابّة. أنا لا أجرؤ على ركوب حصان.

Twitter: @ketab_n

- زوجتاهما تسدعيانك لزيارتهما، قال أغاجان.

- آه، حسنا، بكل سرور، سأذهب حتما، أجابت فجري بإشارة من يدها.

ومدّ لهما الرّجلان اللّجامين ورجعا ماشيين.

ينتصب منزل كاظم خان مثل الجوهرة وسط الأشجار الهرمة، ولا شيء أكثر جمالا منه لأنّه منزل شاعر القرية. ويوجد قبر كاظم خان في طرف الحديقة تحت أشجار اللوز وكان مغطى كليّا ببتول الأزهار.

عندما كان حيّا كانت العصافير تزقزق إلى أن يفتح نافذة غرفة التّدخين ويصعد دخان أفيونه نحوها. وعندما ينتهي من التّدخين، يقول لها: «والآن عودي إلى أعشاشك، يا صغيراتي، ليلة سعيدة !» فتطير العصافير.

أعدّ القروي وزوجته اللذان كانا يخدمان كاظم خان كل شيء لمجيء أغاجان وفجري سادات. فجلسا يأكلان سويا في الحديقة، ويتحدثان عن كاضم خان ويضحكان وهما يتذكّران كيف كان كاظم خان يفتن نساء الجبل بقصائده.

وفي المساء ذهبت مزارعة إلى فجري سادات وقالت: «هنالك بعض النسوة اللاتي يردن تحيتك، إذا كنت لا ترين مانعا.

- أيّة نسوة؟ قالت فجري

- النّسوة اللّواتي كنّ يحكن لكما الزّرابي قديما».

وكانت النّسوة معجبات بفجري لجمالها ولتصرّفاتها الرّاقية. ومازلن يُحْبِبْنَها.

« متى تردن المجيء؟

- في الحال، إذا كان هذا لا يزعجك».

فاختفى أغاجان داخل مكتبة كاظم خان.

كانت أولى القادمات بعض العجائز، فقبّلن فجري وجلسن على الأرض صامتات، ثم أتت، مجموعات من النسوة، الواحدة تلو الأخرى، قبّلن هنّ أيضا فجري وجلسن. تفاجأت فجري. فأغلب النسوة اشتغلن لديها ذات يوم، وقد تذكّرت وجوههن. وأخيرا أتت مجموعة من سبع نساء واحتضنّها. لقد كنّ فتيات شابّات أتين إليها فيما مضى لتعلّمهنّ كيفية نسج الزرابي.

Twitter: @ketab_n

«يا لها من مفاجأة، لقد أرجعت زيارتكنّ النّور إلى قلبي، أنا لم أكن أتوقع هذا، ظننت أنكنّ قد نسيتمنّني» قالت فجري.

بادرت أحدى النّساء المسنّات إلى الكلام وقالت بهدوء «لقد تألّمت كثيرا يا فجري، نحن نعلم هذا. لقد فقدت ابنك ونحن لم نعطه قبرا. نحن لن نستطيع أبدا أن نمحو ذلك من ذاكرتنا. لقد أتينا الليلة لنطلب منك أن تنزعي عنك ثوب الحداد. نحن نتوسل إليك أن تدسّي ملابسك السود في الخزانة وأن تلبسي هذا الثوب. كان من المفروض أن يحصل هذا قبل اليوم، لقد كانت تلك السنوات قاسية عليك».

وتناولت المرأة قميصا زاهيا موشّى بالأزهار وأعطته إليها. فنظرت فجري دامعة العينين إلى ثيابها السود. فقدت صوتها فنشجت في صمت وهي تغطّي فمها بيدها. وكانت على وشك أن تصعد بسرعة إلى أغاجان لتريه الثوب ذا الأزهار حين رأت جماعة من الرجال يصعدون السّلالم.

كانوا خمسة من رجال القرية الذين عملوا قديما لدى أغاجان.

طرق أحدهم باب المكتبة وطلب الإذن بالدخول.

«نعم، تفضّل! صاح أغاجان. على الرّحب والسّعة !»

دخلوا وجلسوا على المقاعد الخشبية، قرب النافذة. لم يقل أحد شيئا لبرهنة، ثم انفرد أحد الرجال بالحديث فقال: «أغاجان، لقد فقدت كل أسر القرية أبناء لها في الحرب. وهم مدفونون مع بعضهم في المقبرة. نحن لم نمنحك قبرا لابنك. ونحن نحتفظ به في ذاكرتنا. سامحنا».

«الله عليم بكل شيء. وهو الذي يغفر، قال أغاجان بهدوء، أنا لم أحقد على أحد أبدا. إنّ مجيئكم خفّف ألمي. أنا أؤمن دائما بطيبة الإنسان. شكرا لمجيئكم.»

وأخرج الرجل المسن قميصا أبيض وقال: «لقد ولّى زمن الحداد. تقبل هذا القميص منّا وأخفِ الأسود في الخزانة.»

وضعت فجري رأسها على صدر أغاجان وهما في سريرهما وقالت: «ما أروع هذه الليلة ! أنا سعيدة جدّا، أستطيع أن أعود إلى قريتنا.» ونظرا إلى السماء الممتلئة نجوما عبر النافذة المفتوحة.

Twitter: @ketab_n

«لقد أصلحوا خطأهم. هؤلاء القرويون الشّيوخ على قدر كبير من التجربة! هم حكماء وحكمتهم هذه متّصلة بالتّراث الغنيّ لهذه الجهة. إنهم يعرفون كيف يضمدوا الجراح القديمة.

- غدا ستأتي بعض الصديقات لوضع الحناء على شعري دلالة على السعادة، قالت فجري متحمسة.

- أنا سعيد من أجلك، قال أغاجان!»

وناما وهما يحتضنان بعضهما بعضا.

وفي اليوم الموالي أيقظت العصافير أغاجان باكرا. وبعد أن صلّى قام بجولة في الحديقة. كان يلبس القميص الأبيض الذي أعطاه إيّاه القرويون وأحسّ بتحسّن حاله. نظر إلى الأغصان الصغيرة المحملة بالأزهار وشعر بالقوة تدب في رجليه من جديد. فتوجه إلى قبر كاظم خان وجثا قرب حجرة القبر، أخذ حجرة صغيرة، وضرب بها بلاطة القبر ضربات خفيفة وقرأ إحدى قصائده:

هكذا تمضي الحياة.

فهي تلاعبك

أحيانا تحبّك

وأحيانا تذلّك!

هبّت ريح ربيعية عذبة من الجبال. وفجأة تذكّر أغاجان أنّه حلم بهوشنـف خان.

كان هوشنـف خان صديقا قديما وأرستقراطيّا يعيش في قمة الجبال، وهو الذي أنقذه في تلك اللّيلة الحزينة. لقد أتى في سيّارة الجيب وأخذ جثمان جواد.

إنّه يعيش في قصره، بقريته البعيدة عن كل قرى الجبال الأخرى.

منذ اللّيلة التي حمل فيها هوشنـف خان جثمان جواد، لم يعد أغاجان إلى الجبال أبدا. كان يعلم أنّ عليه أن يتحلّى بالصبّر وأنّ اللّحظة المناسبة ستأتي ذات يوم. وقد تذكّر حلمه الآن، قرب قبر عمّه. وكانت رائحة جواد وذكراه تخترقان فكره مثل رائحة عطر الزّهور.

ذهب إلى الإسطبل وأخذ أحد الحصانين وقفز فوقه وغادر مسرعا باتجاه ساووجبولاق

Twitter: @ketab_n

كان هوشنف خان في الستين من عمره تقريبا، وهو ابن لأحد النّبلاء المتنفّذين. وكان شخصية فريدة رفض أن يعمل مع والده ومع نظام الشّاه في ذلك العصر. وكان لهوشنف أربع نساء ولكلّ واحدة منهنّ خمسة أطفال. وهو يعيش في شبه مستعمرة لها اكتفاؤها الذّاتي ويستطيع عمليّا أن يستغني عن أية مساعدة خارجية.

ويملك هوشنف خان سيّارة جيب وبعض الجرارات وعشرات الأبقار وخيولا ونعاجا. وقد هيّأ كهفه بطريقة تمكّنه من إنتاج الخمر لاستعماله الشخصي.

ولم يكن له أيّ اختلاط بالعالم الخارجي، فلا يأتي إلى زيارته بانتظام غير أصدقائه وقد كانوا شعراء وكتّابا وموسيقيّين مذهلين من أصفهان ويزد وشيراز وكاشان. فكان يرحّب بهم دائما، فيتجوّلون في الجبال مع هوشنف ويدخنون الأفيون ويشربون خمرة كهفه ويستمتعون بفواكه حدائقه. لم تكن توجد أيّة طريق مهيّأة تؤدي إلى قرية هوشنف، وهو الوحيد الذي يستطيع قيادة سيارته الجيب فوق الحجارة ومنحدرات الأودية. بينما يأتي ضيوفه في الحافلة إلى جيرجه ويكملون باقي الطّريق على ظهور البغال.

درس هوشنف خان في باريس حيث عاش لسنوات طويلة، لكنه ذات يوم حزم حقيبته ورجع إلى جباله. كان دائما ينتعل حذاء طويلا ويضع قبّعة أصليّة ويستقدم عطوراته من باريس. ويصعد كلّ يوم إلى قمّة الجبل ليحيّ طلوع الشّمس. ويظلّ مذياعه الكبير مثبّتا دائما بمحطة فرنسية تبث الموسيقى وتقدّم الأخبار.

وعلى الرّغم من أن له أربع نساء فإنّه يعيش وحيدا في قصره محاطا بأغراضه الشّخصيّة.

كانت الجبال التي تتوسّطها ساووجبولاق مليئة بالأسرار، إذ توجد في أعلى قمّة الجبل بقايا بركان قديم ما يزال ينبعث منه الدّخان. وينتصب القصر فوق منحدر أحد الجبال ويشرف على واد جاف.

وتوجد بالممرّ المؤدّى إلى القصر ثلاثة كهوف غامضة تحتوي على فصول من تاريخ فارس القديمة. يشغل قاع أحدها تمثال من الحجارة البسيطة يمثل شاه بور أحد أوائل ملوك الساسانيّين. وعلى جدار الكهف الأخر نُحت أسد يصارع ملك اللّخميّين وهو جالس فوق ثور. وعلى جدار الكهف الثّالث نُحتت لوحة للملك داريوش؛ ملك الملوك على مرّ التّاريخ.

وعند مداخل الكهوف ترفرف أعلام خضر كتبت عليها نصوص مقدّسة. ويأتي الزّوّار

Twitter: @ketab_n

إلى الكهوف على ظهور البغال ليستمتعوا بهذه التحف الفنية.

وكانت النّسور تحوم فوق الكهوف وتراقب كل ما يحدث؛ فاعتبرها الزّوّار حارسة لها.

وفوق قمّة الجبل ينتصب ناقوس كنيسة. يستطيع الزوّار أن يحرّكوا هذا النّاقوس لينبهوا هوشنف خان إلى مجيئهم. فهزّ أغاجان النّاقوس ولوّح بقبّعته باتجاه القرية وصاح «خـــــان» وارتجع صدى صوته في الوادي المشرف على القصر.

سمعه الأطفال الذين كانوا يلعبون خارج القصر فصاحوا جميعا

" من أنتتتتتت؟

- أغـــاجــــــان

فاندفعوا إلى داخل القصر ليخبروا خان بقدوم الضيّف. وواصل أغاجان تسلّق الجبل وهو يمسك الحصان من لجامه.

وصل هوشنف خان بسرعة وهو يلوّح بقبّعته. ولما وصل إلى أغاجان قفز عن دابته واحتضنه.

«مرحبا بك يا صديقي العزيز، يا لها من مفاجأة ! منزلي هو منزلك !».

وواصلا طريقهما سيرا على الأقدام.

- أيّة ريح طيبة رمت بك إلينا؟

- لن تصدّقني، قال أغاجان، إنّه حلم!

- أي نوع من الأحلام؟

- أنا أسكن الآن مع فجري في جيرجه وقد حلمت بك البارحة.

- لماذا لم تأت بفجري معك؟

- لم أكن أنوي أن أزورك، لكن هذا الصّباح، عندما مرّ الحلم بمخيّلتي، غادرت في الحال.

- ما هو هذا الحلم؟

Twitter: @ketab_n

- لا أعرف بالضّبط ، لكنّي كنت قرب النّاقوس ورأيتك تنزل في الوادي. حرّكت النّاقوس ولكنّك لم تسمعني، جذبت الحبل بقوّة أكبر، لكنك لم تلتفت. جفّ حلقي، وضربت الناقوس إلى ما لا نهاية حتّى سمعني كلّ سكّان الجبال، إلاّ أنت. ونسيت الباقي.

- أنا أعرف بقيّة حلمك. اتبعني ! قال ذلك وقفز على حصانه وتوجّه نحو الوادي.

كان الوادي جافا، لا توجد فيه سوى صخور داكنة ولا أثر للحياة. نزل خان المنحدر بخفّة ممتطيا حصانه، وعندما وصلا إلى الأسفل، ترجّلا عن الحصان. وسبق خان أغاجان إلى مجرى النّهر.

«الأرض هنا، في هذا المكان ظمأى حتى إن كل مياه الخليج العربي لن تكفي أبدا لإروائها. وأنت لا تدرك إلى أي حدّ يمكن أن تكون هذه التربة خصبة. أحلم بأن أحول ذات يوم هذا الوادي إلى حديقة من حدائق الجنّة. أريد أن أريك شيئا. هل أنت مستعدّ؟

- أيّ شيء؟

- شيء مؤلم لكنّه جليل.»

صعد بعض الصّخور، وأغاجان يتبعه.

« صنعت الطّبيعة هنا أعجوبة، هنا، أنت لا ترى إلاّ أرضا جرداء، ولكن وراء القصر الأرض سهلة ورطبة. سأقول لك سرّا؟ تصوّر ماذا لديّ هنا تحت القصر: خزّان ضخم للمياه.

- خزان مياه؟

- إنّه حقّا خزّان مياه أرضي. أنا لا أعرف كيف تكوّن، ولا من أين تأتي المياه، ربّما تأتي من جبال الشمال المغطاة بثلوج دائمة. هذا سرّ قصري، لا أحد يعرفه. ولم أعرف ذلك إلاّ منذ عامين أو ثلاثة عندما أتى صديق فرنسي لزيارتي. هو عالم جغرافيا أراد أن يعرف من أين تأتي المياه الجوفيّة. فربط نفسه بحبل ونزل إلى البئر. وعندما خرج قال: «يوجد ذهب تحت قصرك. «ذهب؟» قلت مذهولا. يوجد ماء، هنا، تحت الأرض ، يوجد خزّان ضخم من الماء من خلاله تستطيع أن تكسب ذهبا». لم أخبر به أحدا بعد لأني أخشى أنه إذا علم آيات الله بالأمر سيصادرون القصر ويطردونني من هنا. سأحفظ السّر ما حييت، ولكنّني قمت بتجربة. بمساعدة أحد أفراد عائلتك.

Twitter: @ketab_n

- من هو؟

- سأخبرك به لاحقا. اشتريت مضخّة ماء قويّة وخرطوما طويلا، والباقي، ستراه بأم عينيك. أغمض عينيك. تشجع واتبعني».

أغمض أغاجان عينيه وأمسك يد خان متردّدا وتبعه إلى الجهة المقابلة للجبال العالية.

وقال له: الآن، تستطيع أن تفتحهما.

فتح أغاجان عينيه. لم يصدّق ما رآه. امتدّت أمامه حديقة هائلة ملأى بالأزهار الرّبيعيّة الفواحة وبكلّ ألوان قوس قزح، طلعت هنا وهناك أشجار صغيرة ملأى بالأزهار.

«هذا لا يصدّق!» قال أغاجان.

- التربة هنا لا تزال ساخنة بسب البركان القديم وهي أيضا غنيّة بالمواد الأوليّة. الحديقة محميّة بالصّخور الكبيرة. وقد تحقّق بهذا الرّكن جزء من حلمي عن الوادي. والبارحة حلمتَ أنت بشيء لم تعد تتذكره. سأقول لك بماذا حلمت. انظر هناك تحت تلك الشّجرة، أمام الصّخرة الصفراء الدّاكنة، هناك دفن ابنك. لم أضع سقف القبر بعد، ولكنه مغطّى بالأزهار التي زرعتها وتلك التي سقطت من الشجرة. (أمسك أغاجان بيدي خان) إنّ الطيور العاديّة لا تتجرّأ على المجيء إلى هنا، تابع خان كلامه، فهذا المكان هو مجال النّسور، إنها تحوم فوق الوادي وتحرسه».

نظرا أغاجان إلى الأزهار الورديّة البرتقالية التي تغطي القبر، بعينين دامعتين. كانت الزّهور متشابكة جدّا وكأنّها كانت تخاف من أن يُكشف عن القبر. وجرت دموع أغاجان على خدّيه. وجثا قرب القبر وقبل ترابه.

المر

يُدَبِّرُ الأَمْرَ

وَهُوَ الَّذي مَدَّ الأَرْضَ

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ

وَأَنْهَارًا

Twitter: @ketab_n

الَّذي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

كُلٌّ يَجْرِي

لأَجَلٍ مُسَمًّى

يُدَبِّرُ الأَمْرَ

يُغْشي اللَّيْلَ النَّهَارَ

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ

وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ

صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ

يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ

يُدَبِّرُ الأَمْرَ

يُفَصِّلُ الآيَاتِ

المر [الرّعد: 1- 4، على غير ترتيب]

«شكرا لك يا خان، قال أغاجان، شكرا لك يا صديقي، أحسّ أنّ قلبي قد امتلأ سعادة.

– لدي شيء أخر سيفرحك، قال هوشنف خان.

– لا شيء سيفرحني أكثر ممّا رأيته.

– ربّما، قلت لك قبل حين بأنّ هناك من ساعدني؛ رجل له قوة فيل. بدون مساعدته،

Twitter: @ketab_n

لن استطيع أبدا أن أنشئ هذه الحديقة. هل ستأتي؟ أتريد أن تراه؟ إنّه يعمل على جراره، وراء القصر. نحن بصدد تجهيز قطعة أخرى من الأرض، هناك. لقد زرعت حبوب عبّاد الشمس. لقد جلب لي صديقي الفرنسي البذور لأنّ عبّاد الشمس الإيراني لا يتعدى المتر ارتفاعا هنا في الجبال، لكن هذه الفصيلة الفرنسية أكثر ارتفاعا. سترتفع في هذا الحقل قريبا ملايين الشموس الصّغيرة ستنتج حبات زيتونية. لقد قمنا بتجربة العام الماضي. هذه السنة نستطيع بكل تأكيد الحصول على اكتفائنا الذاتي من الزيت من هذه الحبوب. للرّجل الذي سأريك إيّاه في الحال براعة لا توصف! إنّه يعمل ليلا نهارا، يحرث ويزرع ويصلح الآلات الزراعية ويسدي إليّ النّصائح. أنا لم أر أبدا عاملا متفانيا مثله.»

ومشيا ببطء إلى السفح الأخر ولجاما الحصانين في يديهما.

وعندما بلغا الجهة المشجرة من السفح ربط خان الجوادين إلى شجرة قائلا: «سنفاجئه، لا تحدث صوتا». ومَشَيَا تحت الأشجار حتى وصلا المكان الذي يعمل فيه الرجل.

«توقف هنا.» قال خان.

نظر أغاجان إلى سائق الجرار. كان الرجل يلبس قبعة بشكل جعل وجهه لا يبدو إلّا من جهة واحدة فقط. سار حتى وصل إلى شجرة قديمة فأوقف الجرار ونزل وتوجّه نحو شجرة وضع متاعه تحتها. أوحت هيئة الرجل ومشيته بشيء ما لأغاجان.

وابتسم خان.

تناول الرجل خبزه وجلس تحت الشجرة واتكأ على الجذع، عندما هز عينيه انعكست أشعة الشمس على وجهه.

« أحمد! إنّه أحمد!» صاح أغاجان.

خطا خطوة إلى الأمام ونظر مدقّقا أكثر. إنه لا يخطئ أبدا. إنّه أحمد، ابنهم، ابن الدّار، إمام المسجد.

«اذهب إليه! عانقه!» قال خان.

ظهرت بعض النّسور فوق الحقل وطارت حوله.

عبر أغاجان الحقل. فرآه أحمد قادما نحوه. قام ونظر إليه وقد أذهلته المشاعر. فتح أغاجان ذراعيه وضمه إليه.

Twitter: @ketab_n

« لقد أصبحت مزارعا حقيقيا، وعصريّا أيضا، تقود جرّارا، رائحتك تفوح بنزينا، لك يدا ميكانيكيّ، قال أغاجان، مشرقا من الفرحة. أنت الآن رجل مليء بالتجارب، لقد خبرت نواحيَ كثيرة في الحياة. الحمد الله على هذه اللّحظة المباركة ! »

شوّش حضور أغاجان غير المتوقّع أحمد فما قدر على النّبس ببنت شفة، ومسح دموعه بيديه المرتعشتين.

«سيكون كلّ شيء على ما يرام يا بني، ستنتهي الأحزان. أؤكّد لك. سيعود المسجد إلينا من جديد. وستعود إلى المكتبة» ، قال أغاجان.

- لم يعد يريد أن يكون إماما، قال خان مبتسما. لقد ألقى بعباءته وعمامته على رؤوس آيات الله. هيّا بنا ، تعال ، عليه أن يعمل، سنتناول الفطور. عليكما أن تستريحا، كلاكما»

تبع أغاجان خان إلى القصر مذهولا ولكنه سعيد.

« أنت صديق حقيقي يا خان. أنا لا أعرف ماذا أقول بعد كلّ ما فعلته من أجلي.

- لا تقل شيئا، لكنّك تستطيع أن تفعل شيئا ما من أجلي ، ردّ خان.

- بكل سرور، قل لي ماذا يجب أن أفعل.

- سنتحدّث عن ذلك لاحقا، لدينا متّسع من الوقت».

عندما وصلا أمام القصر سمع أغاجان صياحا كثيرا من الأطفال.

«أظنّ أنّهم أكثر من اثني عشر طفلا، قال أغاجان.

- أنا لا أعلم ، قال خان ضاحكا. يجب أن تسأل أمهاتهم.»

قاد خان أغاجان إلى قاعة الجلوس الفاخرة حيث تضيء شموع استُهلك نصفُها في رؤوس شمعدان قديم خزامي الشّكل ومشكاته من الكريستال. وانعكس نور المصباح على المرآة القديمة. وعمّ الغرفة دفء رائق، ومنحتها الزّرابي الفارسيّة قدرا إضافيّا من الدفء والألوان.

يعود الأثاث إلى عصر النهضة. ولكنّه احتفظ بكل بهائه. وامتلأت المكتبة الكبيرة بالكتب الفارسية والفرنسية.

«أتمنى أن تبقى أسبوعا»، قال خان.

Twitter: @ketab_n

- من كلّ قلبي ولكنّ ذلك مستحيل: فجري وحيدة في جيرجه. ستزورها اليوم نساء القرية وهي لا تعرف أنني هنا، لقد أعلمت الخادم فقط بأنني سأتأخّر.

- أنا أتفهّم ، لكنّني لن أدعك ترحل. سأرسل أحدا لإحضارها.

- أعتقد أن الأمر لا يزال مبكّرا بالنسبة إليها. لقد بدأت تشعر بالتحسّن للتوّ. أنا لم أقل لها أبدا إنك أنت الذي أخذ الجثة تلك اللّيلة. أحسّ أنها مازالت لا تحبّ الحديث عن ذلك.

- حسنا، لا مشكلة. إذن سأبعث بأحد يعلمها بأنّك ستنام هنا هذه الليلة. وهي تستطيع أن تنام عند أختها، أليس كذلك؟ يجب أن لا تتعوّد المرأة على النوم بين ذراعيك، دعها تنام بمفردها لليلة، فهذا سينفعها» قال خان.

وجاء خادمان بالفطور على طبق فضّيّ مستدير.

وعاد أغاجان ظهرا إلى الأرض المسيّجة وتجوّل في الجبال مع أحمد واستعرضا أحداث السنوات الأخيرة.

وفي المساء أخذ خان أغاجان إلى نسائه اللاتي قدّمن له الشاي ومرطّبات صنعنها بأنفسهنّ.

وتناول خان العشاء عند زوجته الأولى. وعندما عادا إلى القصر رافقه إلى غرفة الضيوف حيث أشعلت شموع كثيرة.

«خذ مكانك، يا ضيفي العزيز سأعود في الحال»، قال خان.

وغمرت غمامة من الحزن أغاجان: لقد كان يوما حافلا. نظر أمامه بثبات منتظرا خان. جاء بعد قليل حاملا قارورة مغطاة بطبقة خفيفة من الغبار. وضعها على الطّاولة وأخرج كوبين محليّين بشريط فضيّ وقال «هذه الليلة، لدينا نحن الاثنان أسباب كثيرة لنشرب، إنّها ليلة حزينة جميلة، أنا أرى ذلك في وجهك».

لم يشرب أغاجان الخمرة طيلة حياته قطّ، فهزّ رأسه مبتسما وقال:

«أنا لا أشرب.

- هذا إجحاف. كنت تريد أن تشكرني قبل قليل لكنّك لم تعرف كيف. الأمر بسيط،

Twitter: @ketab_n

اشرب معي، وسأعتبر ذلك علامة امتنان. اسمع أحضرت أقدم زجاجة في قبوي من أجلك ! إنها تعود إلى أيّام والدي، وتنتظر في القبو منذ حوالى ثلاثين سنة. وانتظرت اللّحظة المناسبة خلال كل هذه السّنوات: ليلة أو صديقا أو رجلا حقيقيا. انتظر، لا تجبني الآن. أنا أعلم أنه مناف لمبادئك، ولكنّني أريد شرب الخمرة معك، على شرف ابنك المدفون هنالك، وشرف أحمد وقد صار بصحّة جيّدة ويقود جرّارا. إنها ليلة مميّزة ولا يحقّ لك أن تفسدها بإيمانك. سأسكب لك كأسا، لا تقل شيئا، عندما أرفع كأسي ارفع كأسك وسنشرب سويّا».

نزع غطاء القارورة وشمّ عنق الزّجاجة وقال :«الله، الله، يشرب الجميع عندما يريدون، لكنني أريدك أن تشرب هذه الخمرة معي».

ظلّ أغاجان صامتا. سكب خان بعضا من الخمر وتناول كأسه وحرّكه ببطء بشكل دائري.«هذه الخمرة تحتوي على روح الخمرة الحمراء التي ذكرها القرآن في الجنّة».

نظر أغاجان دون أن يقول شيئا.

« لا تنظر إليّ بهذه الطريقة ، قال خان ، أنا لم أقل شيئا سيئا ، لستَ الوحيد الذي قرأ القرآن، أنا أيضا قرأته ، كل واحد بطريقته. يحتوي القرآن على العديد من الوعود عن الجنّة، عن النساء اللّواتي سيخدمنك هنالك ، نساء جميلات طعم شفافهنّ الحليب والشّهد. سيسكبن لك شرابا إلهيّا. خذ، ارفع كأسك ، إنّه الشّراب نفسه الذي ستسقى منه آجلا في الجنّة !».

ترك أغاجان كأسه في مكانها.

قال خان «لقد ارتكبت ذنوبا كثيرة ، أمّا أنت فلا ، ولن أطلب منك أبدا أن ترتكب فعلا ملعونا. هذا النبيذ استخرجته من العنب الأحمر من كرومي الخّاصة. خلال موسم القطاف، جلبت أجمل فتيات الجبال لجني العناقيد ووضعها في دِنَنِ الطّين بقبوي».

تناول خان جرعة وتذوّق الخمرة بتركيز ثم قال: «غير معقول! كلّ العناصر القديمة للبركان، كل عناصر الكون تجمّعت في هذا النّبيذ. تفوح منه رائحة أيدي فتيات عنتان. تناول كأسك يا أغاجان !»

لم يقل شيئا أخر، ترك أغاجان وحيدا في الغرفة وخرج إلى الهواء الطّلق.

تحوم الخفافيش الآن فوق الأرض المسيّجة على المنحدر وقد أوقف فيها الجرّار. أبصر

Twitter: @ketab_n

أحمد وهو يعبر الأرض ويتجه نحو الإسطبل حاملا شيئا ثقيلا على كتفيه. تناول جرعة من الخمر وأنصت إلى صخب الليّل. لا يزال أولاده يلعبون خارج القصر تحت ظلمة الليل. كان قد عاش في باريس؛ باريس السنوات المتقلبّة، السّنوات التي كانت الحركات اليسارية تداهم فيها الأحياء في دوريّات؛ السّنوات التي شهدت أوج الوجوديّة وغزت خلالها سيمون دي بوفوار الجماهير بكتبها. لقد كان سعيدا هنالك وعاشقا في أغلب الأحيان. يستقبله أصدقاؤه الفرنسيون بحفاوة أمير فارسي. كان يرغب في الإقامة النّهائية بباريس، ولكنّ الوضع تغيّر في وقت ما فلم يعد سعيدا، أحسّ بالحنين إلى وطنه، إلى تلال الطفولة ونساء جباله. كانت باريس جميلة، لكن ذلك الجمال لم يكن من أجله. خزّن ذكريات سنوات باريس في ذاكرته وعاد إلى قصره إلى الأبد.

واصل خان جولته عبر الطريق الوحيد في قريته والكأس ما تزال في يده. وفي لحظة التفت فرأى أغاجان ينظر عبر النّافذة. هل تناول جرعة من الخمر؟ أحسّ برغبة في الرّجوع ثانية. لكنّه لم يفعل ذلك. وفجأة غمرت قلبه غمامة من حزن سنيّه الباريسية الأخيرة فلم يرغب في البقاء وحده مع ذلك الحزن فتوجّه إلى منزل أصغر زوجاته: إنّه يجد الراحة دائما بين يديها. طرق على بابها ففتحت له.

« لماذا أنت حزين جدّا؟

- إنّه جزء من حزن صديق».

لم تطلب شيئا آخر، قادته إلى سريرها ووضعت رأسه على صدرها.

وفي اليوم الموالي أخذ الخادم المسنّ أغاجان إلى قاعة الاستحمام الملكيّ. ودخل أغاجان إلى الحوض فأحسّ بدفء القاع. كانت تلك لحظة من السعادة بعد ليلة فريدة في طولها. وصل الماء إلى لحيته فاختفى تحته لحظة وهو يردّد:

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ [10]

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ [12]

عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ [15] مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ [16]

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ [17]

بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ [18]

Twitter: @ketab_n

لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا

وَلَا يُنْزِفُونَ [19]

وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ [20]

وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ [21] [الواقعة]

غطس في الحوض وطفا. فتح فمه كلّه وبقي للحظات طويلة وكأنه قد ارتكب خطيئة. عندما طفا من جديد تنفّس بعمق وصاح بكل قواه «في جنّات النّعيم!».

لبس ثيابه، ووضع قبّعته وأشار إلى الخادم بأن يجلب له حصانه. امتطى الحصان وغادر مستعجلا.

Twitter: @ketab_n

نُورٌ عَلَى نُورٍ

لم تنته حكاية دار المسجد؛ إنّها كالحياة: على كلّ واحد أن يخرج منها بشكل ما.

هنالك جملة تتكرّر في نهاية كل الحكايات الفارسيّة: «قصّتنا انتهت ولمّا يبلغ اللّقلق عشّه.»

ذات يوم، استلم أغاجان رسالة غريبة في عمله في البازار، وكانت تلك الرّسالة من الخارج. ذُهل لأنّه لم يتلقّ رسائل من الخارج منذ زمن طويل. لكنّ هذه الرّسالة كانت مختلفة، فهو لم يعرف الطّابع البريديّ. كانت الطوابع الألمانيّة مُعتبرة وتحمل صورة موسيقيّ أو فيلسوف أو رسما لمعلم تاريخي. أمّا هذا الطّابع كثير الألوان فيمثل باقة من الخزامى الحمراء.

أخرج أغاجان عدسة مكبّرة من دُرّجه وفحص الطابع. ربّما يأتي من سويسرا حيث كان قد بعث شُحنة من الزّرابي.

أحسّ بالأمل داخل الظّرف، لكنّه لم يعرف أبدا أنّ الأخبار السيئة تنتظره دائما في منعطف الطريق.

وضع الرّسالة على مكتبه وطلب من خادمه أن يأتيه بكأس من الشاي. وبعد أن شرب كأسه ، أخذ فاتحة الرّسائل وفتح الظّرف بحذر. كُتب بقلم بالفارسية:

عزيزي أغاجان ، سلام.

سلام يأتي من أعمق أعماق قلبي

سلام يعطّره حنيني إلى الدّار.

عزيزي أغاجان المحترم ، أكتب إليك من بلد لم أتوقّع أبدا أن أكون فيه. إذا ما نظرت إلى الأمر بعينيك سأقول إنني هنا بمشية الله. ولكن بمصطلحاتي الخاصّة قول إنّ تراكما للظروف قد قادني إلى هنا. هكذا سارت الأمور، وأنت من علّمني أن أقبلها كما هي.

Twitter: @ketab_n

يجب أن أعترف لك بأنني أحمل دائما حِكْمَتَكَ كالعقد الفريد.

منحني كلامك الأمل وساعدني على البقاء واقفا، لأبني حياة جديدة ولأكمل طريقي ولأكون حقّا ابن دار المسجد.

عزيزي الغالي أغاجان، إني أتطلّع إلى اليوم الذي أستطيع فيه مرّة أخرى أن أفتح باب دارنا وأدخل إليها. أنا مازلت احتفظ بالمفتاح في جيبي.

لقد علّمتني أن لا أنحني أبدا أمام الصّعاب، أن أعمل بجدّ وأصبر. وقد أخذت بنصائحك.

لقد تركت الدّار ولكنّني لم أدر لها ظهري قطّ. أسكن الآن هنا، وأحلم باليوم الذي أتجوّل فيه معك على طول القناة التي يوجد فوقها منزلي. سيأتي ذلك اليوم، لا شكّ في ذلك. لقد قلت لي بأنه يجب دائما أن نحلم ونحقّق أحلامنا. هذا ما سأفعله. أحمل بداخلي أسرارا لا أستطيع أن أكشفها لك إلاّ بحريّة هذه المدينة.

ذات مساء جميل ، ستكون هنا ، سأدعو حينها أصدقائي ليتعرّفوا إليك.

لقد حدّثتهم عنك كثيرا وهم يعرفونك الآن أكثر منّي تقريبا.

عمّي الحبيب، سأواصل الكتابة. في السنوات الماضية لم أفعل شيئا غير إعطاء شكل لقصصي. لقد فعلت ذلك لأجلك ولأجل البلد.

لقد غيّرت لغة الكتابة، لا أعرف إذا ما كان يجب أن أفرح أو أن اعتذر منك. هكذا سارت الأمور. ولا طاقة لي على تغيير مجراها. كانت هذه تحيتي لك. كانت الطريقة الوحيدة للتعبير عن ألمك وألم بلدنا. غيّرت لغة الكتابة ولكنّني كنت دائما أحاول أن أمرر في قصصي الرّوح الشّعريّة للغتنا الفارسية القديمة الرّائعة.

اعذرني.

عمي العزيز، أحلم باستمرار بدارنا وبكم جميعا، حتى ليبدو لي أنني أعيش في الحقيقة هناك ، و ليس هنا.

أنت لن تموت أبدا. ستعيش إلى أن يغادر الجميع ويأتي الجميع.

شهبل

Twitter: @ketab_n

عندما حلّ الليل ارتدى أغاجان معطفه ووضع قبّعته وأخذ عصاه ، خرج من مكتبه ورجع إلى باحة الدّار.

كان الطقس باردا فتجمّد الحوض وتدثّرت أغصان الأشجار بطبقة رقيقة من الجليد.

وكانت السّماء داكنة الزّرقة والنّجوم تمتد حتّى مكّة. ذهب أغاجان بحذر إلى الدّرج وصعد بحذر إلى السّطح.

عرف الزّاغ العجوز خطواته فنعب ولكنّه بقي في عشّه تحت القبّة دون أن يحوّل عينيه عنه.

«شكرا، أيها الزّاغ! سأنتبه» قال أغاجان وهو يمرّ أمام القبّة ويتجه نحو سلالم المسجد.

نعب الزاغ.

«شكرا، أيها الزّاغ. جيّد أنّك ذكرتني. لا ، لن أشعل النور. أيها الزّاغ، إنّ غرفة الكنوز هي سرّنا، أنت وأنا».

توكّأ على المسند الخشبي ونزل ودخل إلى المسجد. مشى بحذر إلى القبو وفتح الباب بحذر.

لم يبصر شيئا وتساءل إذا كان سيشعل النّور، ولكنّه لم يفعل ، نزل الدّرج إلى القبو وتوجّه نحو باب غرفة الكنوز متحسّسا بيده.

ساد المكان صمت رهيب، فلا يُسمع غير وقع خطواته وطقطقة عصاه.

في لحظة ما ، توقفت الخطوات. قعقع أغاجان القفل، وبعد برهة صرصر مفصل الباب العتيق الثقيل وارتسم خياله بغموض في ظلمة اللّيل. إنّه في غرفة الكنوز ولا أحد معه في ظلمة الليل.

اتّبع البساط الأحمر حتى نهاية صفّ المشاجب الطويل. وعندما وصل إلى آخره أخرج رسالة شهبل من الجيب الدّاخلي لمعطفه وانحنى ليضعها في صندوق الوثائق. وقطع الصّمت ليرتّل:

Twitter: @ketab_n

إنّه نور

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ

فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ

الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ

نُورٌ عَلَى نُورٍ [النّور]

Twitter: @ketab_n

توضيحات المؤلّف

بعض فصول دار المسجد تفتتح، مثلها مثل بعض السّور القرآنيّة، بحرف من الألفبائية العربيّة. وقد يبدو لأوّل نظرة أنّ هذه الحروف غير ذات معنى، ولكنّ العالم الإسلاميّ قد خصّص كتباً كثيرة لهذه الحروف. فقد اعتبرت مثل الأرقام السّريّة، شيفرة للكون.

القصّة المذكورة في فصل الأسماك ترتكز على بداية فقرة مأخوذة من قصّة من قصص الكاتب الإيراني جلال آل أحمد.

القصائد المذكورة في فصل «العائلة» مستقاة من ديوان «قافلة من بلاد فارس Een karavaan uit Perzïe، وقد ترجمه بروين J.T.P. de Bruijn ونشرته بولاق.

كلّ الاقتباسات القرآنيّة قد حُوّرت وأخرجت من سياقها بكيفيّة ما. وقد اطّلعت على ترجمات كثيرة للقرآن وتفاسير كثيرة. وأنا أشكر ليمهوس Fred Leemhuis لترجمته الرّائعة للقرآن، وقد نشرتها فِبُولا Fibula.

ومهما ارتكزت القصص المرويّة في «دار المسجد» على أحداث تاريخيّة، فمن الضّروريّ قراءة كل الأسماء وكلّ الحكايات المتعلّقة بها وفق روح قوانين الأدب.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المترجم:

د. المبروك المنصوري، وُلد سنة 1973 بجنوب شرق تونس. نال شهادة الدّكتوراه في اللّغة والآداب العربيّة في الدّراسات الحضاريّة من تونس، وشهادات عليا في الأديان المقارنة من المجر ومن الولايات المتّحدة. حاز على جوائز أبحاث من ألمانيا والولايات المتّحدة واليابان، وتمّ تعيينه عضواً بالأكاديمية الأمريكية للأديان بأطلنطا، وباحثاً دوليّاً مشاركاً بجامعة تسوكوبا بطوكيو، اليابان.

شارك في مؤتمرات أكاديميّة دوليّة كثيرة تهتمّ بالدّراسات الثّقافيّة والحضاريّة والدّينيّة عن الشّرق الأوسط وشمال أفريقيا، وترجم عدداً من النّصوص من الإنجليزيّة والفرنسيّة إلى العربيّة، ومن العربيّة إلى الإنجليزيّة. يدرّس بقسم اللغة العربيّة بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بسوسة، تونس.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلف:

قادر عبد الله هو اسم مستعار للكاتب الهولندي حسين سجّادي غائمّغامي فرحاني. وُلد سنة 1954 بآراك في إيران، ودرس الفيزياء بجامعة طهران، ثمّ اشتغل مديراً لمصنع. في هذه الفترة بدأ الكتابة الأدبيّة بالفارسيّة، وقد كان يساريّاً معارضاً للثّورة الإيرانيّة. فاضطرّ إلى مغادرة إيران بعد أن نشر مجموعتين قصصيّتين باسمي معارضَين تمّ إعدامهما وهما قادر وعبد الله.

لجأ سنة 1985 إلى هولندا واستقرّ هناك وتعلّم اللّغة الهولنديّة وصار يكتب بها نصوصه الإبداعيّة، حتّى حصل سنة 1993 على جائزة الأدب الهولندي للمبتدئين Gouden Ezelsoor عن روايته «النّسور De adelaars». ثمّ على جوائز وألقاب كثيرة عن أعماله الإبداعيّة منها لقب فارس في وسام الأسد الهولندي Ridder in de Orde van de Nederlandse Leeuw. ومنحته فرنسا لقب فارس في وسام الفنون والآداب Chevalier de l'Ordre des arts et des lettres.

Twitter: @ketab_n

ketab.me
Best Books

دار المسجد

اختيرت هذه الرّواية سنة 2007 كثاني أفضل رواية هولنديّة من بين كامل الإنتاج الأدبي الهولندي. وهي رواية واقعيّة صيغت بأسلوب فريد يمتزج فيه سحر الشّرق وروحه التّقليديّة بعادات الفرس وثقافتهم، وبأحداث عاصفة هزّت إيران خلال النّصف الثّاني من القرن الماضي، برؤية فنيّة مازج الأدبُ فيها بين الواقعيّ والتّاريخيّ والخيالي والذّاتيّ... وقد رصد فيها المؤلّف مختلف المواقف المتناقضة من الثّورة الإيرانيّة ورموزها وأحداثها، وعلاقة إيران بأمريكا منذ عهد الشّاه، والحرب الإيرانيّة العراقيّة وما شهدته من أخبار وأسرار، وأثر كلّ ذلك في حياة الإيرانيّين....

ISBN 978-9948-01-503-1
9 789948 015031

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA

عارف العامة
لسفة وعلم النفس
يانات
لوم الاجتماعية
ات
لوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
نون والألعاب الرياضية
ب
اريخ والجغرافيا وكتب السيرة